أعمال خالدة
24

د. هـ. لورانس

عصا هارون



ترجمة: ماجد الحيدر

أعمال خالدة

اسم المؤلف: د. هـ. لورانس
Author: **D. H. Lawrence**

عنوان الكتاب: **عصا هارون**
Title: **Aaron's Rod**

ترجمة: **ماجد الحيدر**
Translated by: **Majid Al-Haidar**

الناشر **دار المدى**
P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2025**
First Edition: **2025**

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد. حي أبو نواس محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - Building 141
+ 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت. بشامون شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - .
+ 961 175 2617
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2289
ص.ب: 8272

د. هـ. لورانس

عصا هارون

ترجمة: ماجد الحيدر

د. هـ. لورانس
حياته وأعماله

دَيفِد هِربرت لورانس. ولد في 11 أيلول 1885 في إيستوُد، نوتنغهامشاير، إنكلترا. وتوفي في 2 آذار 1930 في «فانس» بفرنسا. مؤلف روايات وقصص قصيرة وأشعار ومسرحيات وكتب رحلات ورسائل. جعلت منه رواياته: أبناء وعشاق 1913، قوس قزح 1915، ونساء عاشقات 1920، واحدًا من أكثر الكتاب الإنكليز تأثيرًا في القرن العشرين.

شبابه وأعماله المبكرة:

كان لورانس الطفل الرابع لأبٍ يتحدث العامية ويعاقر الخمر وأميٍّ عملياً، يعمل في صناعة استخراج الفحم في شمالي الإقليم الأوسط لإنكلترا. أما أمه، المنحدرة من جنوبي إنكلترا فقد كانت مثقفة ومهذبة وورعة. حصل لورانس على زمالة دراسية في مدرسة «نوتنغهام» العليا (1898–1901) وتركها في سن السادسة عشرة ليعمل موظفاً في أحد المصانع. ولكنه اضطر إلى ترك العمل إثر إصابته بأول نوبةٍ من ذات الرئة. وفي فترة النقاهة اللاحقة بدأ بالتردد على «هاغ فارم» المجاورة وشرع بإقامة علاقة حميمة مع «جيسي تشامبرز» (دامت بين عامي 1902 و1910).

في عام 1902 أصبح لورانس معلمًا وبدأ في الكتابة سنة 1905 بتشجيع من «جيسي»، وقد نُشرت أولى قصصه في صحيفة محلية عام 1907. وخلال الفترة 1906–1908 درس في الكلية الجامعة في «نوتنغهام» وحصل على شهادة المعلمين وواظب على كتابة الشعر والقصة والتمهيد لروايته الأولى «الطاووس الأبيض».

لقد تحولت حياته في «إيستوُد» والتناقض بين المدينة التعدينية والريف النقـي، على وجه الخصوص، وحياة وثقافـة العاملين في التعدين، والصراع بيـن والديه وآثـاره على علاقتـه المعذَّبة مع «جيسـي»... تحولـت كلها إلى مواضيع لقصصه ورواياته المبكرة. والحقيقة أنه واصل العودة إلى «إيستوُد» في خياله زمنًا طويلًا بعد مغادرته إياها. وما هذه الرواية التي بين يدي القارئ الكريم إلا أحد نماذج هذه العودة المتكررة.

رحـل لورانـس عام 1908 إلـى «كرويـدن»، وهي إحـدى ضواحي لندن ليمارس التعليم. وأرسـلت «جيسـي تشـامبرز» بعضًا من أشـعاره إلى «فورد مادوكـس هويفر»، رئيس تحرير المجلة المتنفذة English Review. اعترف هويفـر بنبـوغ لورانـس وبـدأت المجلـة بنشـر أعمالـه وأصبح فـي مقدوره الالتقـاء بكتـابٍ شـبان صاعديـن مثـل «عزرا باونـد». قـام «هويفـر» بتزكية الطـاووس الأبيض لدى الناشـر «وليـام هاينمان»، الذي نشـرها عام 1911، بعـد وقتٍ قصيـر من وفاة والدة لورانس وانفصاله عن «جيسـي». ثم حظيت روايته الثانية (الخاطئ) باهتمام الناشـر المهم «إدوارد گارنت» الذي حصل على حقوق نشـر روايته الثالثة (أبناء وعشـاق) لمصلحة مؤسسـته الخاصة «Duckworth». وفـي العـام العصيـب 1912-1913 أصيـب لورانس بنوبة أخرى من ذات الرئة وقرر ترك التعليم والعيش على ما يرده من الكتابة.

والأهـم مـن ذلك كلـه هو أنـه وقع في غـرام «فريـدا ويكلـي» أو «فريدا رجنوفن» وهي امرأة أرسـتقراطية متزوجة من أسـتاذ جامعي في «نوتنغهام»، ثـم فرَّ معهـا إلى ألمانيا أولًا ثم إلى إيطاليا، حيث أكمل لورانس روايته الثالثة «أبنـاء وعشـاق». وقد تزوج الاثنان في إنكلترا عـام 1914 بعد حصول فريدا على الطلاق.

إن الروايتين الأوليين للورنس ومسرحيته الأولى وأغلب قصصه القصيرة المبكرة، ومن ضمنها بعض القطع الفنية الرائعة مثل «رائحة الأقاحي» و«ابنتا القسـيس»، (التي جمعت في كتاب «الضابط البروسـي وقصص أخرى» عام 1914[1]) اسـتخدمت تجاربه الحياتية الأولـى كنقطةٍ للانطلاق. وقد حملت

1- صدرت عن دار المأمون في بغداد عام 1992 (ترجمة الأستاذ نمير عباس مظفر)

«أبناء وعشـاق» هذه العملية إلى مدى جعلها أشـبه بالسـيرة الذاتية. والرواية ترسـم، في واقعيةٍ تنبض بالحياة، صورة «إيسـتود» و«هاغ فـارم»، العمودين التوأميـن في حياة لورانس المبكرة. والشـخصية الرئيسـية في أبناء وعشـاق تتطابق مع شـخصية لورانـس. أما الوالد السـكير المشـتغل بالتعدين، والأم القوية التي تقاومه فهما مرسـومان بكل وضوح اسـتنادًا إلى والدي لورانس. والحـب الشـديد المعذب لـ «مريام لايفرز» يشـابه ذاك الذي أبدته «جيسـي تشـامبرز». والابن الأكبر الذي يموت في سـن مبكرة يوازي شـقيق لورانس «إيرنسـت» الـذي توفي في سـن مبكـرة. وتتحـول الأم في الروايـة إلى ابنها الأكبر «وليام» لتحقيق الإشباع العاطفي بدلًا من أبيه، وعندما يموت «وليام» يصبح الأخ الأصغر «بول» رسالة الأم في الحياة، وضحيتها في النهاية.

خلال الحرب العالمية الأولى حوصر لورانس وزوجته في إنكلترا وعاشا فـي حالـة من الفقـر. أصبح لورانس في ذلـك الوقت منهمكًا في مشـروعين متصليـن الأول منهما نمط من الكتابات الفلسـفية التـي بدأها بمقدمته لأبناء وعشـاق وواظب عليها في «دراسـة عـن توماس هـاردي – 1914» وأعماله اللاحقـة. أمـا المشـروع الثانـي الأكثـر أهمية فهـو رواية طَموح حـول حياة الأقاليم ظل لورانس يعيد كتابتها وينقحها حتى شـطرها إلى اثنتين من كبرى رواياتـه «قوس قزح» (Rainbow) التي حظرت في بريطانيا على الفور، على أساس أنها فاحشة، و«نساء عاشقات» التي لـم تنشر حتى عام 1920. وخلال ذلك كان على لورانس وزوجته اللذين عاشا في كوخ متواضع في «كورنول» النائية أن يتحملا العداء والشـك المتزايدين من الجيران القرويين بسـبب من نزعات لورانس السـلمية وأصل فريـدا الألماني. وجرى عام 1917 إبعادهما من البلدة نتيجة الشكوك حول إرسالهما إشارات إلى الغواصات الألمانية ثم أمضيا ما تبقى من أيام الحرب في «لندن» و«دربي شـاير». وقد كتب لورانس فـي زمن الحرب عـددًا من أفضـل أعماله، رغم أنـه كان مهددًا بالاسـتدعاء للخدمة العسكرية.

إن (قوس قزح): توسـع من نطاق «أبناء وعشـاق» عن طريق متابعة عائلة «برانغويـن» (التي تعيش قرب إيسـتود) عبر أجيالٍ ثلاثـة. وهكذا يتم إدخال التحولات الروحية والاجتماعية في نسيج السرد التاريخي.

أما (نسـاء عاشـقات)[1] فتواصل القصة، ولكن عبـر فجوة الوعي المتغير التـي أحدثتهـا الحـرب العالمية الأولـى. إن بطلتي القصة هما أورسـلا التي يتتبع حياتها وهي ما تزال في البيت، تسـاورها الشكوك حول دورها كمعلمة مدرسـة ووضعها الاجتماعي والفكري، إضافة إلى شـقيقتها «كدرون» التي تعمل معلمة هي الأخرى ولكنها أيضًا فنانة ذات روح متحررة.

إنهمـا امرأتان معاصرتان، مثقفتـان ومتحررتان من الافتراضات المقولَبة حـول دورهمـا، ومتمتعتـان بالاسـتقلال الجنسـي. وعلـى الرغم مـن أنهما لا تعرفـان مـاذا تفعلان فـي حياتهمـا بالضبط، فإنهمـا ترفضـان الركون إلى زواج تقليـدي كحل للمشـكلة. إن طموحات الأختين تتبلـور في علاقاتهما الرومانسـية. يتميز السـرد بالوعـي المتفاقـم للأبطال: حيث يُخلـي الصراع المبهم للأجيال الأولى مكانه -على المسـتوى اللفظي- للجدال الجدي أو المرير والقدرة الفكرية لـ «بيركن» يقابلها الخليط الذي تبديه «أورسـلا» من الدفء والتشكيك والثبات العاطفي. إن علاقة «جيرالد» و«كدرون» تظهر أن هيمنته الذكورية ليسـت سوى درع يغطي خواءً داخليًا يشل قواه وافتقارًا إلى إدراك ذاته، الأمر الذي يولد شعورًا بالاشمئزاز لدى «كدرون».

إن البحـث عـن تحقيـق الحب الجنسـي وذلك النـوع من الـزواج الذي يرضي الوعي المعاصر كان الهدف الذي سعت إليه روايات لورانس الأولى غيـر أنه ظل إشـكاليةً تـزداد صعوبـة. إن رواياته كلها لا تنتهي نهاية سـعيدة، وهي في أحسن الأحوال تنتهي بسؤالٍ مفتوح.

حياته وأعماله المتأخرة:

رحـل لورانس وزوجته بُعَيد الحرب العالمية الأولى إلى إيطاليا (1919) ولـم يعد للعيش إلى إنكلترا بعدها قط. وسـرعان ما انكب على مجموعة من الأعمـال شـملت «الفتـاة الضائعـة» (The Lost Girl) عـام 1920، و«عصا هارون» (Aaron's Rod) عام 1922، والرواية غير المكتملة «المسـتر نـون»

1- Women in Love صدرت بجزأين عن دار المأمون عام 1990. ترجمة الأستاذ أمجد حسين.

(Mr. Noon) (التي لم تظهر كاملة إلا عام 1984). وفي عام 1921 قرر لورانس مغادرة أوروبا إلى الولايات المتحدة. ولكن باتجاه الغرب، عن طريق سيلان (سريلانكا حالياً) وأستراليا.

عمل لورانس منذ سنة 1917 في «دراسات في الأدب الكلاسيكي الأمريكي» (1923)، الذي نما من خلال إحساسه بأن الغرب الأمريكي كان موئلاً طبيعياً لم تصله يد الفساد. وتشمل أعماله غير القصصية الأخرى في ذلك الوقت «اتجاهات في التاريخ الأوروبي» (1921) ورسالتين عن نظرياته النفسية: «التحليل النفسي واللاوعي. 1921» و«فنتازيا اللاوعي. 1922»

كما أكمل لورانس كتابة «الكنغر» في ستة أسابيع أثناء زيارته لأستراليا عام 1922. وتمثل هذه الرواية موجزاً جدياً لوضعه الشخصي في ذلك الوقت. ينتقل بطل الرواية وزوجته إلى أستراليا بعد الحرب العالمية الأولى ويواجهان في البلد الجديد سلسلة من الفعاليات السياسية؛ إذ تتعرض مواهبه الثقافية إلى الإغراء من قبل الاشتراكيين والحزب القومي شبه الفاشي على حد سواء. لكنه لا يستطيع اعتناق أيٍ من الحركتين السياسيتين، ويُظهِر فصلٌ يعتمد السيرة الذاتية لتجربته في إنكلترا أثناء الحرب العالمية الأولى أن الاضطهاد الذي عاناه بسبب آرائه المناهضة للحرب قتل في داخله كلَّ رغبةٍ في المشاركة الاجتماعية الفعالة. وهو يغادر أستراليا في النهاية ليذهب إلى أمريكا.

بعد أن وصل أخيرًا إلى «تاوس» في «نيومكسيكو»، (التي زار المكسيك انطلاقًا منها عامي 1923 و1924) عكف لورانس على روايته الطَموح «الثعبان المريَّش. 1926». ويدافع لورانس في هذه الرواية عن الرأي القائل إن إعادة إحياء مجتمع ما بعد الحرب المتآكل في أوروبا يجب أن يُستمَد من جذور دينية. وإذا كانت المسيحية قد ماتت فإن على كل إقليم أن يعود إلى تقاليده الدينية الفطرية. يقوم البطل - النبي في «الثعبان المريَّش» -وهو جنرال مكسيكي- بإحياء الشعائر الأزتيكية[1] كأساس لدولته الدينية الجديدة في

1- Aztec من سكان أمريكا الأصليين. أقاموا حضارة غنية وإمبراطورية قوية في الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر.

المكسيك حيث يُعبَد قادتها الطغاة كآلهة. يتمثل لورانس في هذه الرواية في شخصية امرأة أوروبية تتزوج في النهاية واحدًا من القادة – الآلهة لكنها تظل شبه نافرة بسبب عنفه ولاعقلانيته.

كان لورانس يحلم، في خضم خيبة الأمل والمرارة اللتين كابدهما عقب الحرب العالمية الأولى، باستبدال المسيحية والقيم السياسية الديمقراطية الغربية بالتصوف البدائي والذكتاتورية السياسية. لكنه هجر هذه الموضوعة بعد أن تابعها حتى نهايتها المنطقية في «الثعبان المريَّش»، وخضع لمبدئه القديم في مجتمع يستطيع فيه الإنسان بدء حياة جديدة مع عدد قليل من الموافقين له فكرياً. كانت «تاوس» أكثر الأماكن مواءمة له طيلة حياته غير أن الموت بدأ يدب إلى أوصاله؛ فقد نتج عن نوبة من المرض اعترته عام 1925 نزفٌ دموي ثم تأكدت إصابته بالسل.

عاد لورانس إلى إيطاليا عام 1925 وشرع في العام التالي بكتابة النسخ الأولى من «عشيق الليدي تشاترلي» التي طبعت سراً عام 1928. وظلت الرواية تعيش في الخفاء حتى سمح قراران قضائيان (نيويورك 1959 ولندن 1960) بتداولها بحرية لتصبح نموذجًا لعدد لا يحصر من المؤلفات التي تتضمن وصفًا أدبيًا للأفعال الجنسية. لقد توج الحكم الصادر في لندن محاكمةً دافع فيها عن الكتاب عددٌ من أبرز الكتاب الإنكليز.

يعود لورانس في هذه الرواية للمرة الأخيرة إلى «إيستود» ويرسم صورة للحب الجنسي الرقيق الذي يتخطى حواجز الطبقات والزواج الذي يجمع اثنين من أنصار المعاصَرة المحطَمين. لقد كان لورانس يرى على الدوام الحاجة إلى ارتباط الجنس بالعاطفة، وكانت قصصه توسع على الدوام حدود المسموح به وتخضع لرقابة تفصيلية. إنه يصف في «عشيق الليدي تشاترلي» بشكل مفصل الأفعال الجنسية باعتبارها تعبيرًا عن جوانب أو أمزجة الحب، كما أنه لم يتردد في استعمال تلك الكلمات العامية الرباعية الأحرف التي ترد في الأحاديث الصريحة.

انتقل لورانس المحتضَر إلى جنوب فرنسا حيث كتب عام 1929 سفر

الرؤيا (Apocalypse)[1]،(نشر عام 1931)، وهو تعليقات على سفر الرؤيا الإنجيلي تُعد آخر تصريحاته الدينية. توفي لورانس في الثاني من آذار 1930 ودُفن في «فانس» بفرنسا ثم نقل رماده إلى «تاوس» عام 1935.

شعره وأعماله غير القصصية:

لقد شهد كل من عرف لورانس على السحر الذي يميز شخصيته، تلك الشخصية التي تعيش بعنفوان في قصصه وشعره وكتاباته النثرية العديدة ورسائله. يستحق شعر لورانس وقفة خاصة: إن لمساته في القصائد الأولى غير واثقة في أغلب الأحيان؛ وعباراته «أدبية» أكثر مما ينبغي، وكثيرًا ما تقيِّده القافية. لكنه ومن خلال قدرةٍ فذةٍ على التقدم، يطور أسلوبًا شديد التلقائية من الشعر الحر الذي يسمح له بالتعبير عن خليط لا يضاهى من قوة الملاحظة والترميز.

ربما يكون لشعر لورانس أهمية كبيرة في تتبع سيرته، كما في «انظروا! لقد أفقنا!» (1917)، كما أن بعض القصائد في «أزهار البنفسج» (1929)، و«الأشواك» (1930) لاذعة السخرية وذكية، غير أن أكثر مساهماته أصالة هي «طيور ووحوش وأزهار» (1923) التي يبدع فيها شعرًا لا سابق له حول الطبيعة يقوم على أساس تجاربه في مسرح البحر المتوسط وجنوب غربي أمريكا. أما في «آخر الأشعار» (1932) فنراه يتأمل الموت.

لا يمكن للباحث في أعمال لورانس أن يهمل رسائله التي لا تبارى، فهي تنقل -سواء في تنوع أساليبها أو حيويتها أو نطاق اهتماماتها- صورة رائعة وغنية لكاتبها وعلاقاته بمن يراسله، والبهجة، والكآبة، والتأملات النبوية لحياته المترحلة. جُمعت قصص لورانس القصيرة في «الضابط البروسي وإنكلترا... إنكلترتي وقصص أخرى» (1922)، «المرأة التي رحلت بعيدًا وقصص أخرى» (1928)، و«حب وسط أكداس القش وقصص أخرى» (1930)، وغيرها. كما أن مسرحياته الأولى: «ترمُّل السيدة هولرويد»

1- Apocalypse or Book of Revelation سفر الرؤيا، وهو الكتاب الأخير من العهد الجديد.

(1914) و«الكنّة» (قدمت على المسرح عام 1936) قد نجحت في المسرح والتلفزيون.

وفي ما يخص كتب الرحلات فإن «سردينيا والبحر» (1921) أكثرها تلقائية، أما كتب الرحلات الأخرى فهي تتضمن رحلات موازية إلى أعماق لورانس.

لقد عرف لورانس في بداياته روائياً من الطبقة العاملة يرسم صورة لحقيقة الحياة العائلية في المقاطعات الإنكليزية. أما في الأيام الأولى للتحليل النفسي فقد اشتهر مؤلفًا - بطلًا للتاريخ المرضي لحالات عقدة أوديب. لكن أعمال لورانس اللاحقة التي تناول فيها موضوعة الجنس بشكل صريح رسمته رائدًا لـ«التحرر»، الأمر الذي لم يلق استحسان لورانس. لقد شعر القراء منذ البداية بميل شديد إلى الحيوية الشعرية لكتاباته وإلى سعيه لوصف الحالات الذاتية للعاطفة والإحساس وقوة البديهة. إن هذه العفوية والوضوح في المشاعر يترافقان مع التكرار المستمر، مع قليل من التعديل، للموضوعات والشخصيات، والرموز التي تعبر عن الأفكار والرؤى الفنية المتطورة للورانس نفسه. وتبقى رواياته العظيمة صعبة لأن واقعيتها مبطنة باستعارات شخصية كثيرة، وعناصر ميثولوجية، وفوق ذلك بمحاولته التعبير بالكلمات عن أمورٍ يعجز عنها الكلام في الحالات العادية لأنها توجد في ما وراء الوعي. حاول لورانس أن يتجاوز «الأنا القديمة المترسخة» للشخصيات المألوفة لدى قراء الروايات التقليدية. إن شخصياته تعاني باستمرار من تحولات ناتجة عن عمليات غير واعية وليس عن مقاصد أو أفكار أو مُثُل واعية.

لقد كان لورانس في النهاية كاتبًا دينيًا لم يبلغ رفضه للمسيحية حدًا يدفعه إلى أن يحاول خلق أسس دينية وأخلاقية جديدة للحياة العصرية عن طريق البعث والتحول المستمرين للنفس. إن هذه التحولات لا تتحد بالذات الاجتماعية فقط، كما أنها لم تكن يومًا ظاهرة بوضوح تحت سمع الوعي وبصره. لقد دعا لورانس إلى انفتاح جديد على ما أسماه «الآلهة الخفية» للطبيعة، والإحساس، والغريزة، والنشاط الجنسي؛ لقد كانت إعادة الاتصال بهذه القوى، في نظره، بداية لطريق الحكمة.

في هـذه الأوديسـة المصغرة يحـاول لورانس تتبـع المصائر المتشـابكة لأبطالـه الخارجيـن مـن الحـرب، المواجهين لأزمتهـم الوجوديـة العميقة، المتخبطيـن بين الأمـل واليأس، الباحثيـن عن إجابات لتسـاؤلاتهم الحائرة عـن الحب والصداقـة والفن والحـرب والتحولات الاجتماعية والسياسـية والعلاقـة المشـتبكة بين الرجل والمرأة. كل ذلك بأسـلوبه المميز، أسـلوب لورانـس: لغته التـي تتنقل بين العامية المغرقة فـي المحلية والراقية المحملة بمئـات الإحـالات والرمـوز الميثولوجيـة والتاريخية والنفسـية (التي بذلت جهـدي فـي إيضاحها مـن خـلال الهوامـش والتعليقـات) وكذلـك الغياب المتعمد للحبكة التقليدية، وسـباحته الحرة بين النثر والشـعر (وهو الشاعر/ القاص/ الروائـي الـذي لا يشـق لـه غبار). كل ذلـك يجعل مـن ترجمة، بل وقراءة هذه الرواية رحلة شاقة لذيذة تستحق خوضها!

ديفِد هربرت لورانس

عصا هارون

الفصل الأول

الكرة الزرقاء

في الغسق الباكر ثمة نجمة كبيرة متلألئة، وكانت الأرض نصف متجمدة تحت الأقدام. إنها عشية عيد الميلاد. ها قد وضعت الحرب أوزارها، فسادَ إحساس من الارتياح يكاد يكون وعيدًا جديدًا. إن المرء ليشعر بأن الكابوس الفظيع قد زال الآن لكنه تخلل الجو العام. وبين الرجال الواقفين فوق منصة فرز الفحم كانت مشاحنة أخرى قد انتهت للتو في ذلك المساء.

كان آرون سِسِـن[1] آخـر رجـل يعود إلى بيته سـالكًا خط القطار الأسـود الصغيـر الذي يتسـلق التـل. لقد تأخر لأنه حضـر اجتماعًا للرجـال في تلك المنصـة. إنـه سـكرتير نقابة عمـال التعدين في هـذا المنجم، وقد سـمع من المجادلات السخيفة ما تركه في حالة من الغيظ.

صعد المرتقى بخطوات واسعة، ثم اجتاز الحقول، ثم مرتقى آخر، فوجد نفسـه فـي الطريق الطويـل المؤدي إلى مسـاكن عمال المنجـم. على جانب الطريـق كان بيته الذي بناه بنفسـه. اجتاز البوابـة الصغيرة ثم صعد من جانب المنـزل إلـى فنائه الخلفـي، وهناك تلـكأ للحظة وألقـى نظرة علـى الحديقة الشتائية المظلمة.

1- Aaron Sisson: هارون، ويلفظ في الانكليزية آرون أو إيرون: هو شقيق النبي موسى، والعصا التي حملها هارون كانت لها حسب التوراة معجزات مثل عصا موسى، وهناك مناسبتان يتحدث فيهما الكتاب المقدس عن قوة العصا. وقد آثرنا في ترجمتنا استخدام كلمة آرون عند الحديث عن بطل الرواية وكلمة هارون عند الحديث عن شقيق موسى. أما اسم Sisson فيلفظ سِزِن أو سِسِن، وهو ما اخترناه هنا.

- «جاء أبي - جاء أبي!»

صدح صوت طفلة فرحة، وركضت طفلتان صغيرتان في مريلتين بيضاوين لتقفا أمام ساقَيه.

- «أبي، هل ننصب شجرة الميلاد؟ لقد حصلنا على واحدة» صاحتا.

- «قبل أن أتعشى؟» أجاب في لطف.

- «انصبها الآن. انصبها الآن. لقد جئنا بها من فريد ألتون»

- «وأين هي؟»

كانت الفتاتان الصغيرتان قد شرعتا بسحب شيء خشن داكن من زاوية الممر نحو ضوء باب المطبخ.

- «إنها جميلة!» هتفت مِلِسِنت.

- «نعم، إنها جميلة». قالت مارجوري.

- «أعتقد ذلك» أجاب وهو يتخطى الغصن الداكن ويتوجه إلى المطبخ الخلفي لخلع معطفه.

- «انصبها الآن يا أبي. انصبها الآن» صاحت البنتان.

- «من الأفضل أن تقوم بذلك. لقد تأخرت كثيرًا عن عشائك، وربما كان من الأفضل أن تنصبها الآن قبل أن تتناوله» رن صوت امرأة حزين قادم من الضوء الساطع للغرفة الوسطى.

كان آرون سِسِن قد خلع معطفه وسترته وقبعته ووقف حاسر الرأس بقميصه وحمالات سرواله يتأمل الشجرة.

- «أين أضعها؟» تساءل وهو يوقف الشجرة ويمسكها من أعلى غصنين. شعر بالبرد وهو يقف في الفناء بلا معطف، وسرت رعشه في كتفيه.

- «أليست جميلة!» كررت مِلِسِنت.

- «نعم. رغم أنها عوجاء»

- «ضعا شيئًا على جسميكما، أنتما الاثنتين!» جاء صوت المرأة الآمر العالي من المطبخ.

- «لا نشعر بالبرد» احتجت الفتاتان من الفناء، لكن الصوت أصر.

- «ادخلا والبسا شيئًا»

ركضت الصغيرتان متذمرتين إلى الداخل. كانت السماء صافية، وما زالت بقايا من نور بلوري ضئيل في الهواء. مشى الرجل نحو سقيفته في قعر الحديقة وبحث هناك فوجد مجرفة وصندوقًا مناسبًا. ثم خرج إلى حديقته الشتوية النظيفة العارية. هرعت الفتاتان نحوه وهما تدسان الشريطين المطاطيين لقبعتيهما تحت ذقنيهما. لبثت الشجرة والصندوق على الأرض المتجمدة. وتخلل الهواء نفس مظلم، صقيعي، مكهرَب.

- «ارفعيها بشكل مستقيم» قال لملسنت وهو يرتب وضع الشجرة في الصندوق، فوقفت صامتة ممسكة بالغصن العلوي بينما أهال التراب حول الجذور. وعندما انتهى من ذلك وداس التراب جيدًا ذهب ليجلب عربة اليد. تحلقت الفتاتان متحمستين حول الشجرة. أوقف العربة وانحنى نحو الصندوق. راقبته الفتاتان وهو يبعد وجهه الذي وخزته الأغصان.

- «أهي ثقيلة جدًا؟» سألت.

- «نعم!» أجاب بنخرة بسيطة. ثم انطلق الموكب: عربة اليد الدوارة، الشجرة المهسهسة المتأرجحة، الفتاتان الصغيرتان المتحمستان، حتى وصلوا إلى الباب. حطت أرجل العربة في الفناء، ونظر الرجل إلى الصندوق.

- «أين سنضعها؟» نادى زوجته فأجابت:

- «ضعها في المطبخ الخلفي»

- «من الأفضل أن أضعها حيث تريدينها أن تبقى. لا أريد أن أنقّلها هنا وهناك»

- «ضعها على الأرض مقابل خزانة الأطباق يا أبي» رجته مِلِسَنت. ونادت الأم في عجالة:

- «أنتما، تعالا افرشا بعض الأوراق على الأرض»

ركضت الطفلتان إلى الداخل، ووقف الرجل متأملًا في البرد وهز كتفيه المكشوفتين قليلًا. وبان من خلال الباب الداخلي المفتوح مشمع سميك مفروش على الأرض، وطرف مائدة بنية وضع عليها أصيص

مـن ورق الصالـون[1]. ومرة أخـرى رفع آرون سسـون الصندوق بنتـرةٍ قوية فوخزته الشـجرة ولسعته. وشاهدته زوجته داخلًا وهو يترنح ويتفادى إصابة وجهه وقالت له:

- «انتبه لئلا تنثر الكثير من الأوساخ»

أنـزل الصنـدوق وهو يهتـز قليلًا فـوق الجريدة المفروشـة على الأرض فتناثر التراب.

- «اكنسيها» قال لملسنت.

كانـت أذنـه تحاول التقاط الهسـيس المفاجـئ الحاد لأغصان الشـجرة. وملأ ضوء أبيض شـديد السـطوع أرجاء الغرفة فغمر كل شـيء بمسـحة من الحـدة والصلابة. وتراقصت النـار الحامية الحمراء في المدفأة المكشـوفة. كل شـيء كان مثاليًا ونظيفًا إلى درجة الوسـواس. وثمة طفلة تناغي في مهد ثابت مضفور من الأغصان بجوار الموقد. كانت الأم، وهي امرأة نحيفة أنيقة سـوداء الشـعر، تخيط عباءة لطفلتهـا، فوضعتها جانبًا وقامت لتُخرج عشـاء زوجها من الفرن وقالت:

- «لـم تقضوا وقتًا طويلًا في التسامر هذه الليلة»

أجاب «نعم» وتوجه إلى المطبخ الخلفي ليغسل يديه.

بعـد بضـع دقائق عاد وجلس لتناول العشـاء. كانت الأبـواب مغلقة لكن تيـارًا بـاردًا ما انفك يتسـلل إلـى الداخل لأن نـزول رواسـب المناجم تحت المنزل قد خلخلتها. حرك آرون كرسـيه ليتفادى التيار. لكنه ظل جالسًـا في قميصه وسرواله.

كان رجـلًا لطيفًا، أشـقر اللون، حسـن المظهر، في الثانيـة والثلاثين من عمره تقريبًا. لم يتكلم كثيرًا، لكن بدا أنه يفكر في شـيء ما. اسـتأنفت زوجته الخياطـة. كانـت شـديدة الانتبـاه إلى زوجهـا، أما هو فـكان يبدو غيـر منتبه إليها كثيرًا.

- «إذن ما الذي تحدثوا عنه اليوم؟» سألته فأجاب:

1- أو الأسبدسترا. نبات زينة من الزنبقيات.

- «عن العلاوة»

- «وهل توصلوا إلى شيء؟»

- «سيحاولون ذلك، وسوف يضربون عن العمل إن لم يكن الاتفاق مرضيًا»

- «لكن الجماعة لن ينالوها. أنا أعلم ذلك»

ضحك قليلًا واستمر في تناول وجبته. بينما اقتعدت الطفلتان الأرض بجوار الشجرة وبين أيديهما صندوق خشبي أخرجتا منه العديد من لفافات الصحف الصغيرة التي وزعاها مثل الأواني.

- «لا تفتحي أيًا منها. لن نفتح واحدة منها حتى نخرجها جميعًا» قالت ملسنت «ثم تفتح كل منا واحدة منها بالدور، فنتساوى في عدد ما فتحناه»

- «نعم، سنخرجها جميعًا أولًا» كررت مارجوري.

- «وماذا سيفعلون بشأن جوب آرثر فرير؟ هل يريدونه؟» سألت الزوجة. ظهرت ابتسامة خافتة على وجه زوجها وقال:

- «لا أعرف ماذا يريدون. بعضهم يريده، ولا أعرف إن كانوا أغلبية أم لا»

كانت تراقبه عن كثب.

- «أغلبية! أود أن أمنحهم الأغلبية. إنهم يريدون أن يتخلصوا منك وأن يجعلوك أضحوكة لهم، لكنك تريد أن تحطم قلبك في سبيل ذلك. يخيل لي أنك بحاجة إلى شيء تحطم قلبك»

ضحك بصمت وقال:

- «كلا. لن أحطم قلبي أبدًا»

- «ستنتهي إلى تحطيمه بسبب هذا أكثر من أي سبب آخر: فقط لأن الكثير من القرود الجهلة يريدون قرداً من نوعهم لينهض بأعمال الاتحاد ويثرثر معهم. إنهم يريدون التخلص منك، وأنت تموت غيظاً من أجلهم. إنها لحماقة منك، هذا كل ما أقوله - إنها لحماقة منك. ستكون أكثر سعادة لو أوليت زوجتك وأطفالك نصف الاهتمام الذي توليه لنقابتك. لكنك لا تهتم بشيء سوى مجموعة من عمال المناجم الجهلة الذين لا يعرفون

مـا يريدون سـوى المزيد من المال لأنفسـهم فقط. مصلحتهـم، مصلحتهم، مصلحتهم، هذا كل ما في جعبتهم، هو والجهل».

– «وهل تفضلين حب المصلحة دون جهل؟» قال وهو يبتسم أخيرًا.

– «نعم أفعل، إذا كان لا بد لي منه. لكن ما أود أن أراه هو إنسان يقدم أفكاراً للآخرين وليس كل همه المصلحة والسياسة».

امتقـع لونهـا، وارتجفت يدهـا من الغضـب وهي تخيـط، وعلت وجهه نظرة تخلو من التعبير، كأنه لم يعد يسـمع أو يحفل بشـيء. وشـرب شايه في رشـفات طويلة ثم مسح شـاربه بإصبعيه وجلس ينظر بشـرود إلى الطفلتين. كانتا قد وضعتا كل اللفائف الصغيرة على الأرض، وكانت ملسنت تقول:

– «سـأفتح الأولى، ثم يمكنك أن تأخذي الثانية. سـآخذ هذه» وأزالت ورق الجرائد الذي كان يلفها وكشـفت عن حلية فضية لشـجرة عيد الميلاد: شـيء صغيـر مثل خوخة من الفضـة تزينه حزوز وردية عميقـة على الجانبين «أوه!» هتفت «أليس هذا جميلًا!» وأمسكت بين أصابعها بحذر شديد فقاعة طويلـة بلـون فضـي وزهـري متوهج، وتعلقـت بها فـي رغبة غريبـة مهتاجة بالامتـلاك. وأدار الرجل عينه عنها؛ كانت الطفلة الصغيرة تحاول جهدها مع إحدى اللفافات الصغيرة.

– «أوه!» صاحت ملسـنت شاكية «لقد أخذَت واحدة! لم تنتظر دورها» ثم تغير صوتها إلى عتاب أمومي، وحاولت أن تتدخل لمسـاعدتها «هذه هي طريقة فتحها. انظري! دعيني أساعدك»

لكن مارجوري تراجعت باستياء.

– «لا، ملسنت! لا تفعلي!»

جـاءت صرختها الطفولية. لكن أصابع ملسـنت كانت تأكلها من اللهفة. وأخيـرًا أخرجت مارجوري كنزها: جرس فضي صغير برأس زجاجي يتدلى إلى الداخل. كان الجرس مصنوعاً من مادة زجاجية رقيقة خفيفة مثل الهواء.

– «أوه، الجرس!» رن صوت ملسـنت «الجرس! إنه جرسـي. جرسي! إنه ملكي! لا تكسريه يا مارجوري. لن تكسريه. أليس كذلك؟»

كانت مارجوري تهز الجرس قرب أذنها. لكنه لم يصدر أي صوت.

- «سوف تكسرينه، أعلم أنك ستفعلين ذلك. أعطيني إياه» صرخت ملسنت وحاولت انتزاعه، فاعترضتها مارجوري.

- «اتركيه» قال الأب، فتركته ملسنت كما لو أنها لسعت، لكن صوتها الغاضب الشاكي لم يتوقف.

- «سوف تكسره. سوف تكسره. إنه ملكي»

- «افتحي واحدة أخرى» اقترحت الأم بطريقة دبلوماسية، فشرعت ملسنت بفتح لفافة أخرى بأصابع متسرعة متلهفة.

- «أوه، أوه يا أمي. إنه طاووسي، طاووسي، طاووسي الأخضر!» أمسكت بطائر متلوٍ مخضر بأجنحة وذيل من الزجاج اللؤلؤي المغزول وجسم أخضر عميق.

- «إنه لي - طاووسي الأخضر! إنه ملكي، لأن طاووس مارجوري كان بجناح واحد وطاووسي سليماً. طاووسي الأخضر الذي أحبه! أنا أحبه!» كانت تؤرجحه بهدوء وهي تمسكه من الحلقة الصغيرة على ظهره. ثم توجهت إلى والدتها.

- «انظري يا أمي، أليس هذا جميلًا؟»

- «انتبهي كيلا تنفصل الحلقة» قالت والدتها «نعم، إنه جميل» ثم انتقلت الفتاة إلى والدها.

- «انظر أبي، ألا تحبه؟»

- «أحبه؟» ردد الرجل، ساخرًا من كلمة حب.

وقفت في مكانها لبرهة في محاولة لجذب انتباهه. ثم عادت إلى مكانها. كانت مارجوري قد أخرجت تفاحة ذهبية، حمراء من أحد وجهيها ومتوهجة قليلًا.

- «أوه!» صرخت ملسنت بحماسة وقد استحوذت عليها رغبة عارمة في التملك، غير مبالية بما في يديها. وأجرت عينيها بسرعة فوق اللفافات، ثم التقطت واحدة منها.

- «والآن!» صرخت بصوت عالٍ لجذب الانتباه. «والآن! ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا الشيء الجميل؟»

وأزالت ورق الجريدة بأصابعها الناعمة بينما تراقبها مارجوري بعينين مفتوحتين على وسعهما. وملأ ملسنت إحساس بأهميتها.

- «الكرة الزرقاء!» صاحت في ذروة النشوة «لقد حصلت على الكرة الزرقاء»

وحملتها في شماتة في راحتي يديها. كانت عبارة عن كرة صغيرة من الزجاج المقوى، ذات لون أزرق غامق رائع. ثم قامت وذهبت إلى والدها.

- «لقد كانت كرتك الزرقاء، أليس كذلك يا أبي؟»

- «نعم»

- «وقد حصلت عليها عندما كنت طفلًا صغيرًا، والآن ها أنا أحصل عليها وأنا فتاة صغيرة»

- «نعم» أجاب في برود.

- «ولم تنكسر طوال تلك السنوات»

- «لا، ليس بعد»

- «وربما لن تنكسر أبدًا» ولم تتلق أي إجابة هذه المرة.

- «ألن تنكسر؟» استمرت بالسؤال «ألا يمكن كسرها؟»

- «نعم، إذا ضُربت بمطرقة»

- «أوه! لا أقصد ذلك. أعني إذا أسقطتها فحسب. لن تنكسر إذا أسقطتها، أليس كذلك؟»

- «أعتقد أنها لن تفعل»

- «ولكن هل ستفعل؟»

- «لا أعتقد ذلك»

- «هل أجرب؟»

وأسقطت الكرة الزرقاء في حذر شديد، فارتدت بصوت مكتوم من على الأرضية.

- «أوه ه ه!» صاحت وهي تلاحقها. «أنا أحبها»

- «دعيني أسقطها» صاحت مارجوري، فقابلتها الأخت الكبرى بفاصل من الوعظ والتوضيح.

لكن .ملسنت أرادت أن تذهب أبعد من ذلك، فقد ازدادت تحمسًا فصاحت:

- «لن تنكسر، حتى لو رميتها في الهواء»

وقذفتها إلى الأعلى فنزلت بسلام. لكن والدها قطّب جبينه. ثم قذفتها بعنف أكبر فهوت يصحبها صوت انفجار ضعيف: لقد تحطمت، فقد سقطت على الحافة الحادة الناتئة للبلاط الذي تحت حاجز المدفأة.

- «والآن ماذا فعلتِ؟» صاحت الأم.

وقفت الطفلة وهي تعض شفتها. وارتسمت على وجهها الجميل الحاد القسمات نظرة مختلطة من الحزن والخوف الشديد من جهة، والرضا من جهة أخرى. وقال الأب:

- «لقد تعمدت كسرها» فأجابته الأم:

- «لا، لم تفعل! لماذا تقول هذا؟»

وانفجرت ملسنت في وابل من الدموع. ونهض لينظر إلى الشظايا المتناثرة على الأرض وقال:

- «يجب أن ننتبه إلى الكِسَر ونلتقطها جميعًا»

والتقط إحدى القطع كي يتفحصها. كانت رقيقة وناعمة وصلبة، لامعة ومبطنة بالفضة الصافية. وتأملها عن كثب. إذن هذا ما كانته، وهذا ما انتهت إليه. واستعادت أذناه صوت الانفجار الناعم الغريب. وألقى القطعة في النار.

- «التقطي كل القطع» قال للطفلة «توقفي عن هذا! توقفي! كفاكِ بكاءً»

وأفلحت نبرة صوته الطيبة في إسكات الصغيرة. ومضى نحو المطبخ الخلفي ليغتسل. وبينما كان يحني رأسه فوق المغسلة أمام المرآة الصغيرة، ويكسي وجهه برغوة الحلاقة، بلغت سمعه من الخارج أصوات الأولاد المتنافرة وهي تتدفق ببقايا ترنيمة الميلاد:

- «بينما راقبَ الرعاااااة...

ظلت يده معلقة في الهواء وهي تمسك بالفرشاة المحملة بالرغوة. هل يسمون هذا غناءً؟ رجع بذاكرته إلى موسيقى الترانيم السالفة. ثم وصلت إليه من جديد تلك الأصوات العنيفة الشوهاء القادمة من الخارج فصاح:

- «ابتعدوا من هنا!»

صاح بصوت رجولي متوعد، فتوقف الضجيج، وسمع صوت أقدام مولية. لكن الأقدام سرعان ما عادت ورجعت الأصوات من جديد، فانفتح الباب على الفور، وسُمع الأولاد وهم يغمغمون. لقد نفحتهم ملسنت بنسًا واحدًا. وسُمع دبيب أقدام تحك أرضية الفناء، وسرعان ما اتجهت على طول جانب المنزل، ثم إلى الشارع.

بالنسبة لآرون سسن، كان هذا هو البيت وهذا هو عيد الميلاد المألوفان إلى حد بعيد. لقد انتهت الحرب ولم يتغير شيء. ورغم ذلك تغير كل شيء. كانت زاوية غسل الأطباق التي وقف فيها مطلية باللون الأخضر، نظيفة تمامًا، ولطيفة جدًا، أما الأرضية فهي من البلاط الأحمر، والطابوق المحيط بغلاية الماء شديد الاحمرار، وكانت ماكنة عصر الثياب مع لوح تثبيتها قد فركت حتى بان بياضها. وبدا القماش المشمع الأمريكي المفروش على المائدة بهيجًا. وثمة نار تشيع الدفء وماء يصدر أزيزًا خافتًا داخل الغلاية. وتحته، إذ يميل إلى الأمام وهو يحلق، تساقطت قطرات الماء بإيقاع غريب من الصنبور النحاسي اللامع إلى الوعاء المطلي بالمينا الأبيض الذي امتلأ نصفه بمياه نقية تهتز صفحتها. لقد انتهت الحرب، وعاد كل شيء كما كان. وبدت هذه الألفة الشديدة للمنزل الذي بناه من أجل زواجه منذ اثني عشر عامًا، وهذا اللطف غير المتبدل لكل ما فيه، غير قابلين للتصور. لقد كانا يمنعانه من التفكير.

حين دخل الغرفة الوسطى ليمشط شعره وجد شجرة عيد الميلاد وهي تتلألأ، وكانت زوجته تصنع المعجنات على الطاولة بينما جلست الرضيعة منتصبة بين وسائدها.

- «أبي» قالت ملسنت وهي تدنو حاملة ملاكًا مسطحًا من الصوف

القطني باللونين الأزرق والأبيض وله طرفان من القطن «اربط الملاك في الأعلى»

- «أأربطه في الأعلى؟» سألها وهو ينظر إلى أسفل.
- «نعم. في القمة. لأنه نزل من السماء»
- «بالتأكيد!» ضحك، وربط الملاك.

عاد إلى الطابق السفلي بعد أن غير ثيابه، ودخل الصالة الباردة كالصقيع، وحمل أوراقه الموسيقية وحقيبة يد صغيرة ورجع بها إلى المطبخ الخلفي. كان لا يزال يرتدي سروالًا وقميصًا وخفين، لكنها غدت الآن قميصًا نظيفًا أبيض وبنطلونه الأسود المفضل وحمالات جديدة باللونين الوردي والأبيض. جلس تحت نفاثة الغاز في المطبخ الخلفي، ينظر في الأوراق. ثم فتح الحقيبة التي احتوت أجزاء الفلوت والبيكولو[1]. أخرج الفلوت وركّبه وضبطه. كان واعيًا بكل حواسه، وهو جالس هناك، بأصوات الليل وفقاعات الماء في الغلاية وصوت الغاز الخافت وبكاء الرضيعة المفاجئ في الغرفة المجاورة، ثم الضجيج القادم من الخارج وصراخ الأولاد البعيدين ونتف من التراتيل البعيدة وشذرات من أصوات الرجال. كانت الضاحية كلها مستيقظة ومستثارة. شعر بحرارة الغرفة الصغيرة فنهض وفتح كوة التهوية المربعة فوق سخان الماء، فتدفق تيار من الهواء البارد أشعره بالراحة. ثم استعرض بعينيه ملزمة الموسيقى المنشورة على الطاولة التي أمامه وجرب الفلوت. وأخيرًا، ومع حركة غريبة تشبه إيماءة غطاس يغوص في الماء، أرجح رأسه وبدأ بالعزف. وتدفقت الموسيقى من الفلوت، ناعمة وغنية وسلسة. كان عزفه جميلًا. وأخذ يحرك رأسه وذراعيه العاريتين المرتفعتين في حركات طفيفة مفاجئة مع تدفق الموسيقى الرقيقة. إنه لحن عيد ميلاد من القرن السادس عشر، شديد النقاء والرقة.

أسعده انسياب الموسيقى وحركتها النقية، الطائشة، الرائعة. وشعر بسخط غريب: كان هناك شيء متوتر ومثير للغضب إلى درجة لا تطاق في

1- البيكولو: من الإيطالية Piccolo بمعنى صغير، هي آلة نفخ موسيقية تشبه الفلوت لكنها أصغر حجمًا.

صدره المنشرح وهو يعزف موسيقى السلام المنسوجة بدقة. كان عزفه يزداد إتقانًا كلما زادت رهافة القطعة الموسيقية. وغرق في نعيم خالص؛ لكن السخط الذي في داخله كان يزداد حدة.

ظهرت ملسنت في الغرفة وأخذت تتململ قرب الحوض. كانت الموسيقى مصدر قلق لها لأنها منعتها من قول ما يدور في ذهنها. وتوقف عن العزف أخيرًا وشرع بتقليب الكتب والأوراق المختلفة فاغتنمت الفرصة ونظرت إليه سريعًا وقالت:

- «هل ستخرج يا أبي؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستذهب إلى الخارج؟» تلوّت في قلق.

- «ولماذا تريدين أن تعرفي؟»

لم يزد على ذلك، وعاد إلى كراسته فدنا لينظر إليها ثم ابتعد قليلًا ثم عاد لينظر فيها عن كثب.

- «هل ستفعل؟» ألحّت الصغيرة وهي تتوازن على قدم واحدة.

نظر إليها بعينين غاضبتين وقد عقد حاجبيه.

- «ولماذا تزعجين نفسك بهذا؟»

- «لست منزعجة. أردت فقط أن أعرف إن كنت ستخرج» زمّت شفتيها وهي ترتجف وتوشك على البكاء فقال لها:

- «أظن أنني سأفعل»

عادت إلى طبيعتها في الحال، لكنها ظلت تلح عليه:

- «ليس لدينا شموع لشجرة الميلاد. هل ستشتري بعض الشموع، لأن أمي لن تخرج».

- «شموع!» كرر ما قالت وهو يضع الكراسة ويلتقط البيكولو.

- «نعم، هل ستشتري لنا بعضًا منها يا أبي؟ هل ستفعل؟»

- «شموع!» كرر من جديد ثم وضع البيكولو على فمه ونفخ بضع نوتات تمهيدية حادة.

- «نعم، شموع صغيرة لشجرة عيد الميلاد -شموع زرقاء وحمراء، في علب- هل لك يا أبي؟»

- «سنرى - إذا رأيت بعضها»

- «ولكن هل ستفعل؟»

ألحّت في يأس، فهي، لحكمتها، لا تثق بردوده الغامضة. لكنه كان ينظر إلى أوراقه دون اكتراث. ثم فجأة انطلق صوت البيكولو، جامحًا، صاخبًا، رائعًا. كان يعزف مقطوعة لموزارت. شحب وجه الطفلة غضبًا من الصوت، فاستدارت وخرجت وأغلقت البابين خلفها لإبعاد الضوضاء. وبدت الحركة الحادة والسريعة لموسيقى البيكولو كأنها تتملك الهواء. وكان من غير المجدي محاولة كتمها. استمر الرجل في العزف لنفسه، في إتقان وإصرار. وتخلل الصوت هواء المساء البارد فتلكأ المارة في الشارع ليستمعوا إليه. علم الجيران أن آرون يتمرن على البيكولو. كان عازفًا بارعًا محترمًا، يطلبونه في الحفلات الموسيقية والراقصة، وكذلك في حفلات الرقص الراقية. وأخذ صوت الآلتين النابض بالحياة يدغدغ الظلام.

عزف حتى الساعة السابعة. لم يكن يريد الخروج في وقت مبكر جدًا، على الرغم من الإغلاق المبكر للحانات. لم يذهب قط مع التيار، لكنه صنع تيارًا جانبيًا خاصًا به. قالت زوجته إنه معاند. عندما ذهب إلى الغرفة الوسطى ليرتدي ياقة وربطة عنق، كانت الفتاتان الصغيرتان تمشطان شعرهما، وكانت الرضيعة في السرير، وثمة رائحة لفطائر اللحم المفروم الساخنة التي تُخبز في الفرن.

- «لن تنسى شموعنا، أليس كذلك يا أبي؟» سألت ملسنت في ثقة هذه المرة، فأجاب:

- «سأرى».

ورأته زوجته وهو يرتدي معطفه وقبعته؛ كان حسن الملبس، وسيم المظهر. وشعرت أن هناك سحرًا غريبًا يحيطه، سحرًا أشعرها بالمرارة. إن لديه ميزة غير عادلة: هو حر في الخروج، بينما يجب عليها أن تبقى في المنزل مع الأطفال. وسألته:

- «هل من فكرة عن موعد عودتك؟»
- «لن أتأخر»
ردت بشيء من الاستخفاف:
- «من السهل قول ذلك»
وحمل عصاه واستدار نحو الباب فقالت له:
- «أحضر للأطفال بعض الشموع لشجرتهم، ولا تكن أنانيًا جدًا»
- «حسنًا». قال وهو يخرج فصرخت بغضب مفاجئ وهي تتبعه حتى الباب:
- «لا تقل حسنًا إذا لم تكن تقصد القيام بذلك»
وقف بهيكله الكبير المعتم في الظلام وسألها:
- «كم تريدين؟» فأجابت:
- «دزينة» وأضافت بمرارة واضحة «وحاملات شموع أيضًا، إذا أمكنك الحصول عليها»
- «نعم، حسنًا»
استدار وذاب في الظلام، وعادت إلى الداخل وهي تتكوى بلهب غريب ومرير.

عَبر الحقول باتجاه البلدة الصغيرة التي عادت من جديد إلى إيقاد أنوارها في ظلام الليل. ابتعد الريف منتصبًا عن يمينه: لم يعد كتلة هائلة من الظلام، فهنا وهناك كانت الأضواء تتلألأ بحرية، وإن كانت كئيبة، بعد أن أزيلت قيود زمن الحرب. لم يكن هناك بريق ليالي ما قبل الحرب، حين كانت قمم حفر التعدين تتلألأ من بعيد. لكنه لم يعد كذلك ذلك الخليج الحالك الغارق في ظلام الحرب. وبدلاً من هذا وذاك، كان الوميض المتقطع الشحيح.

بدا كأن الجميع قد خرجوا من بيوتهم. وتردد صدى صيحات ودعوات وأصوات متحمسة في أرجاء الريف المظلم، الأجوف مثل صدفة. وتخلل الهواء جو من القلق والإثارة والبهجة العصبية، مثل شحنات من الاحتكاك الكهربائي والوهن العصبي المتحفز للإثارة.

كان آرون سِسِن يتلقى التحايا في كل لحظة: ليلة سعيدة، تصبح على

خير يا آرون، تصبح على خير يا سيد سِسِن. ملأ الأطفال والنساء والرجال الذين يحملون طرودًا الشوارع المظلمة متوجهين إلى بيوتهم. كانوا جميعًا يتكلمون بصوت عالٍ، ويتعالى صخبهم حول ما أمكنهم وما لم يمكنهم الحصول عليه، وما خسره هذا أو ذاك.

عندما نزل إلى الشارع الرئيسي، الشارع الوحيد للمحلات التجارية، وجده مزدحمًا. وبدا أن نزاعًا ما، شديدًا لكن هادئًا، عراكًا خامدًا، قد وقع هنا واستمر طوال فترة ما بعد الظهر والمساء: كان الناس يكافحون من أجل شراء الأشياء، للحصول على الأشياء. لقد أُنفِقت النقود مثل الماء. إنها نوبة مسعورة من الإنفاق. ظل الناس، وعلى الرغم من وفرة ضروريات الحياة، يتصارعون في جنون من أجل الجبن والحلويات والزبيب وحشوات لحم الخنزير، وحتى من أجل الزهور وشجيرات الزينة (وكلها كانت نادرة) ولعب الأطفال والحلي الرخيصة التي نفدت كلها. طغى تذمر جامح يصحبه رضًا عميق بالقتال، بالصراع. نفس القتال ونفس الارتياح إلى القتال كانا يظهران كلما توقفت عربة ترام أو شقت طريقها نحوهم ليبدأ صراع يائس ضارٍ لكن مثير من أجل الصعود على متن العربة، فقد وجدت النفوس المشحونة بالعداء الآن منفذًا ما لمشاعرها.

عندما اقترب من السوق الصغير، تذكر شموع شجرة عيد الميلاد. لم يكن ينوي أن يزعج نفسه. لكن عندما نظر إلى واجهة متجر الحلويات ورآها عارية كلوح خشبي، فإن حقيقة أنه ربما لا يستطيع شراء الأشياء جعلته يتردد ويحاول.

– «هل لديك شموع لأشجار عيد الميلاد؟» سأل وهو يدخل المتجر.

– «كم تريد؟»

– «دزينة»

– «لا يمكنني بيعك دزينة كاملة. يمكن أن أعطيك علبتين في كل منهما أربع شموع – ثمان. ستة بنسات للعلبة»

– «هل لديك أية حاملات؟»

– «حاملات؟ لا تسأل عنها. لم أر واحدة هذا العام»

- «عندك سكاكر؟»

- «أقراص السعال[1] -بنسان للأونصة- لم يبق شيء آخر»

- «أعطني أربع أونصات»

ونظر إليه وهو يزنها في الميزان النحاسي الصغير وقال:

- «ليس لديك الكثير من عروض عيد الميلاد»

- «لا تتحـدث عن عيـد الميلاد فيما يتعلق بالحلويـات. كان يجب أن يسمحوا لنا بستة أضعاف الكمية - هناك الكثير من السكر، لماذا لم يفعلوا؟ علينا أن نستمتع بما لدينا. نحن نريد ذلك على أي حال»

- «نعم»

- «حان الوقت كي نمتع أنفسنا قليلًا. كان يجب أن يجعلوا الأشياء أكثر وفرة في هذا العيد»

- «نعم» قال وهو يضع الكيس في جيبه.

1- أو أقراص مص الحلق وكانت تتخذ كنوع من الحلوى.

الفصل الثاني

السنديانة الملكية

أجهزت الحرب على السـوق الصغير في البلدة. لاحظ آرون أثناء مروره بالسوق الواقع على حافة المنحدر خلوه إلّا من كشكين بائسين. لكن الناس تزاحموا عليهما كالمعتاد وقد تعالى ضجيج أصوات رجالية عالية.

تكدس الرجال حول مداخل الحانات، لكنه كان متوجهًا إلى حانة خارج المدينـة. نـزل مـن التل المظلـم. ثمة مصباح شـارع هنا وهناك يسـلط ضياءً شـحيحًا. وفي الأسـفل، تحت الأشـجار، كان الظلام دامسًـا. لكن مصباحًا وحيـدًا توهـج أمـام «السـنديانة الملكية». إنـه مبنى أبيض خفيـض ينزل عن الطريق العام بثلاث درجات. كان معتمًا لكن بادي الازدحام.

مـا إن فتـح سسـن الباب حتـى وجد نفسـه فـي الممر الحجـري. توقف بـوب العجـوز، وهـو يحمل ثلاث علـب، ليرى مـن الداخل، ثـم ذهب إلى البـار العمومي على اليسـار. كان بار الخدمة نفسـه مجرد عتبـة نافذة صغيرة علـى اليمين: إنها حانة صغيرة. وعند فتحة هذه النافذة وقفت صاحبة الحانة تصـب وتنـاول زوجها، وخلـف البار صالـون صغير أو حجـرة اختصت بها صاحبة المكان.

- «أوه، هذا أنت» قالت وقد مالت لتلقي نظرة على الوافد الجديد. لم يكن مسموحًا لأحدٍ أن يدخل صالونها إلا إذا دعته.

- «تعال» كانت هناك نغمة غريبة في صوتها المتلطف، الذي أظهر أنها كانت تتوقع قدومه بشيء من التوتر.

دخل الصالون الذي لم يكن يستوعب أكثر من ثمانية أفراد أو عشرة. لم تكن الغرفة تحتوي غير بعض المصاطب على طول الجدران، بينها موقد، مع طاولتين صغيرتين مستديرتين.

قالت صاحبة الحانة وهي تحضر له الويسكي:

- «بدأت أعتقد أنك لن تأتي»

كانت امرأة متوردة كبيرة، ممتلئة، حسنة الهيئة، ربما يهودية. كستنائية العينين، نشيطة وذكية. حركاتها واسعة ومتمهلة وحديثها مقتضب.

- «أنا لست متأخرًا جدًا، أليس كذلك؟» سأل آرون.

- «نعم، لقد تأخرت على ما أعتقد» نظرت إلى الساعة الجدارية الصغيرة «إنها التاسعة تقريبًا»

قال آرون بابتسامة سريعة:

- «لقد تسوقت بعض الأشياء»

- «هل فعلت ذلك بالفعل؟ هذه أخبار جديدة بالتأكيد. هل يمكننا أن نسأل ماذا اشتريت؟»

لم يعجبه السؤال، لكن كان عليه أن يجيب.

- «شموعًا لشجرة عيد الميلاد، وحلوى»

- «للأطفال الصغار؟ حسنًا، لقد قمت بعمل جيد لمرة واحدة! أشهد لك. لم أكن أظن أن لديك هذه القدرة»

جلست على مقعدها في نهاية المصطبة، وتناولت عدة الحياكة. جلس آرون بجانبها وصب بعض الماء في كأسه وشرب.

- «الجو دافئ هنا» قال بعد أن عبّ شرابه.

- «نعم إنه كذلك» ردت صاحبة المنزل «لن تبقى مرتديًا هذا المعطف السميك الجذاب، أليس كذلك؟»

- «كلا، أعتقد أنني سأخلعه».

ونظرت إليه وهو يعلق معطفه. كان يرتدي ملابس سوداء كالعادة. وعندما وصل إلى المشجب استطاعت أن ترى عضلات كتفيه وشكل ساقيه. بدا أن عينيها البنيتين المحمرتين تتحرقان إليه، وأنفها، ذا الانحناءة العبرية الرقيقة،

يزداد تقوسًا. وعندما عاد أفسحت له مكانًا صغيرًا إلى جانبها ودفعت رأسها إلى الوراء، في لفتة من الشجاعة والثقة بالنفس.

ضمت الحجرة عددًا من عمال المناجم الذين يتحدثون بهدوء. كانوا جميعًا رجالًا راقين تفضّلهم صاحبة الحانة، ممن يحبون النقاش الفكري. وجلس مقابلهم، بجانب النار، رجل صغير تميل بشرته إلى الخضرة؛ من الواضح أنه شرقي. خاطبته صاحبة الحانة بصوتها البطيء المقتضب:

- «لقد سكتَ تمامًا على حين غرةٍ يا دكتور»

- «نعم. هل يمكنني الحصول على ويسكي آخر من فضلك؟»

نهضت في الحال، نشيطة وقوية وقالت:

- «أوه، أنا آسفة».وتوجهت نحو البار.

قال الطبيب الهندي الصغير:

- «حسنًا، وكيف تسير أحوال الرجال؟»

- «مثل المعتاد» أجاب آرون.

- «نعم»، قالت صاحبة الحانة بصوتها الفخم «وأخشى أنهم سيظلون دائمًا كما كانوا. متى يكتسبون الحكمة؟»

- «ولكن ما هي الحكمة؟ في رأيك» سأل شيراردي الهندي متحدثاً بلثغة طفولية طفيفة.

- «ما هي الحكمة؟» كررت صاحبة الحانة «حسنًا، أن نعمل معًا من أجل المصلحة العامة. هذه حكمة في رأيي»

- «نعم، حسنًا، هذا صحيح. ولكن ماذا تعنين بالمصلحة العامة؟» رد الطبيب الصغير بضرب من الإلحاح الطفولي.

- «آه، تلك هي المسألة». قال آرون ضاحكًا بينما تحرك جميع عمال المناجم متحفزين للمشاركة في النقاش.

- «ماذا أعني بالمصلحة العامة؟» أعادت صاحبة الحانة «أن يحرص جميع الناس على رفاهية الآخرين، وليس رفاهيتهم فقط»

- «وهل يجب عليهم ألا يحرصوا على رفاهيتهم؟» سأل الطبيب، فأجابت صاحبة الحانة:

- «آه، لم أقل هذا» فليحرصوا على رفاهيتهم الخاصة، ورفاهية الآخرين أيضًا»

- «حسنًا، وأين تكمن رفاهية عامل الفحم؟» قال الطبيب فأجابت:

- «إنها في حصوله على أجور كافية للحفاظ على راحته وراحة أسرته، وتعليم أطفاله، وتعليم نفسه؛ لأن هذا ما يريده: التعليم»

- «نعم، هذا جائز» قال بريفت، وهو عامل فحم ضخم ورائع يتمتع بروح الدعابة «هذا جائز يا سيدة هاوسلي. لكن ماذا لو لم ينل المرء الكثير من التعليم؟»

- «يمكنك دائمًا أن تناله» قالت بنبرة مشجعة.

- «كلا، سيسعدني إن استطعت، ولكن لا فائدة من محاولة تعليم رجل فوق الأربعين بواسطة الكتب. لكن هذا لا يعني أنه أحمق»

- «وكيف سيكونون أفضل إن نالوا تعليمًا؟» قال رجل آخر «بماذا يفضلنا المدير أو وكيله؟ إن وجه بِندر ليس بقليل الصفرة»

- «هو كذلك» وافق الرجال بصوت واحد.

- «لكن اصفرار وجهه، كما قلت يا سيد كيرك، لا يعني أنه ليس لديه مزايا أعلى مما لديك» قالت صاحبة الحانة في تعالٍ.

- «نعم» قال كيرك. «يمكنه الحصول على أموال أكثر مما أستطيع. هذا كل ما يحدث في النهاية»

- «يمكنه كسب المزيد من المال. وعندما ينجح في ذلك فهو يعرف كيفية استخدامه بطريقة أفضل»

- «هذا جائز. لكن ماذا سيفعل أكثر من الأكل والشرب والعمل وأن يبدو بمظهر أفضل مني؟ وماذا يهم إن أكل أو شرب أكثر قليلًا مني؟»

- «لا» كررت صاحبة الحانة «إنه لا يأكل ويشرب فقط. يمكنه القراءة والتحدث»

- «أنا أيضًا أستطيع» قال توم كيرك فانفجر الرجال ضاحكين «أنا أيضًا يمكنني أن أقرأ، وقد أجريت معك الكثير من الأحاديث في هذا المكان يا سيدة هاوسلي. بل إنني أجري واحدًا في هذه اللحظة، على ما يبدو»

قالت صاحبة الحانة في سخرية:

- «أنت تفعل ذلك على ما يبدو. لكن هل تعتقد أنه لن يكون هناك فرق بيـن محادثتك ومحادثة السـيد بِندر، إذا كان هنا حتى أتمكن من الاسـتمتاع بمحادثته؟»

- «ما الفرق الذي سـيحدث؟» سـأل توم كيرك. «كان سـيذهب بعدها إلى بيته لينام مثلي تمامًا»

- «هنـا أنت مخطئ. سـيكون أفضل، وكذلك أنا، أفضل بكثير بسـبب محادثة حقيقية صغيرة»

- «إذا كانت محادثة من تلك التي تجعل عجيزته تسقط من ورائه» قال توم كيرك فأضاف بريفت «وتجعل وجهه مصفرًا»

وتعالت الضحكات، فقالت صاحبة الحانة وهي ترفع رأسها متوعدة:

- «أرى أنه لا جدوى من الاستمرار في الحديث عن الموضوع»

- «لكن انظري، يا سيدة هاوسلي، هل تعتقدين حقًّا أن هناك فرقًا كبيرًا بالنسبة للإنسان إن استطاع إجراء محادثة جادة أم لا؟» سأل الطبيب.

- «أنا أعتقد هذا بالفعل. في هذا كل الفرق بالنسـبة لي. لا يوجد فرق أعظم من ذاك الذي بين رجل متعلم ورجل غير متعلم»

- «وماذا في ذلك؟» سأل كيرك.

- «لكـن انتظري قليلًا» قال آرون سِسِـن: «فلنأخـذ رجلًا مثقفًا - لنأخذ بنـدر. ما الغرض من تعليمـه؟ ماذا يخطط؟ ما الذي يسـعى إليه؟ ما الغرض من حديثه؟»

- «لجميع أهداف حياته». أجابت صاحبة الحانة.

- «نعم، وما هو الهدف من حياته؟» أصرّ آرون سسن.

- «الهدف من حياته» كررت صاحبة الحانة في حيرة. «أعتقد أنه يعرف ذلك أفضل من غيره»

- «لكن ليس أفضل مما أعرفه أنا وتعرفينه أنت»

- «حسنًا، أخبرنا إذا كنت تعلم. ما هو؟»

– «إنـه كسـب المزيد من المـال للشـركة – وبالتالي زيـادة فرصته في نيل دخل أكبر»

ارتبكت السيدة هاوسلي لهنيهة ثم قالت:

– «نعم. افترض أنه يفعل. وهل في هذا ضرر؟ أليس من واجبه أن يفعل ما يستطيع من أجل نفسه؟ ألا تحاول أنت أن تكسب كل ما تستطيع؟»

– «أي نعـم» أجـاب آرون «ولكـن سـرعان ما سيكون هنـاك حد لما يمكننـي كسـبه. هكذا هـو الأمر عندمـا تديرينه فـي ذهنك: كل شـيء ينتهي بالنقود. احسـبيها كما يحلو لك. إنها نقـود في كلتا الحالتين. إنه المال الذي نعيش من أجله، وهو المال الذي تسـاويه حياتنا – لا شـيء غير ذلك. المال هـو مـا نعيش من أجلـه، والمال هو مـا نكونه عندما نموت: هو أو لا شـيء. وهـو لا غيـره الذي يربط بيننا وبين السـادة. هنـاك عدد قليل مـن المتعلمين الذيـن حظوا بإمسـاك أحد طرفي الحبل، أما نحن فإننـا معلقون على الطرف الآخر، وسنواصل جرجرة أحشائنا؛ داخلًا مرة وخارجًا مرة»

– «لكنهم، أولئك السادة، يمسكون بالنهاية الطويلة للحبل» قال بريفت.

وخلص آرون سسن (متفلسفاً) إلى القول:

– «طالما تمسّك الأول، سيسحب الثاني» فقال كيرك:

– «أنا على يقين تام من ذلك»

توقف الحديث قليلًا، ثم قالت صاحبة الحانة:

– «نعـم، هـذا كل ما في أذهانكم يـا رجال. لكن ما الـذي يمكن فعله بالمال؟ هذا ما لا تفكرون فيه أبدًا – تعليم الأطفال وتحسين الظروف»

– «علمـوا الأطفال حتى يتمكنوا من التشـبث بالطـرف الطويل للحبل بدلًا من الطرف القصير» قال الطبيب مقهقهًا، فعقب بريفت:

– – «آهـا، هـذا كل شـيء. لقد أمسـكت بالنهاية القصيـرة. وقد يفعل صِبيتي الشيء نفسه»

– «سياسة أنانية» قالت صاحبة الحانة.

– «أنانية كانت أم لا، سيفعلون ذلك على الأرجح»

- «حتى نهاية العالم» علق آرون بابتسامة متلألئة. فأردف بريفت:

- «أو نهاية الحبل»

- «نعم، وماذا بعد ذلك؟» هتفت صاحبة الحانة فأجاب كيرك:

- «ثم نسقط جميعنا على مؤخراتنا»

وضحك الجميع، ثم حل صمت مضطرب.

- «كل ما يمكنني قوله عنكم أيها الرجال» قالت صاحبة الحانة «هو أن لديكم سياسة ضيقة وأنانية. بدلًا من التفكير في الأطفال، بدلًا من التفكير في تحسين العالم الذي تعيشون فيه...»

- «نلبد منتظرين. نحن سلالة كلاب بولدوج بريطانية[1]». قاطعها بريفت فتعالى الضحك من جديد.

- «نعم، ولستم أكثر حكمة بكثير من الكلاب. تتعاركون على عظم» قالت صاحبة الحانة.

- «هل نترك الطرف الآخر يهرب بالعظم إذن ونقعي ونعوي من أجله؟» سأل بريفت.

- «كلا في الحقيقة. الحكمة يمكن أن تكون في كل شيء - المسألة هي ما تفعله بالمال حين تحصل عليه» قالت صاحبة الحانة «هنا تكمن الأهمية»

- «إنه مُلك الزوجات» علق كيرك «إنه لا يبقى معنا. نعم، تسعون في المائة منه ملك للزوجات» ووافق الجميع على كلامه.

- «ومن يجب أن يحوز النقود، إن لم يكنّ زوجاتكم؟ هن يعرفن ما يفعلنه به. هل لديكم فكرة ثانية غير إهداره؟»

- «النساء لا يهدرن شيئًا - لا يستطعن ذلك حتى إذا حاولن» قال آرون سسن.

حلت دقائق من الهدوء. أيقظ الشراب حواس الرجال، ودفعتهم صاحبة الحانة للاستمرار. كانت هي نفسها ترتشف في بطءٍ كأسًا من البراندي.

1- British bulldog سلالة من الكلاب قصيرة القوائم قوية البنية وذات وجه مترهل مميّز، يعتبر في الثقافة الشعبية البريطانية رمزًا للشجاعة والعناد.

جلست بالقرب من سسن. وكان الدفء الضاري لحضورها يلفه بشكل خاص. لقد أحب أن يسترسل في الترف، مثل قطة، في حضور امرأة عنيفة. كان يعلم أنها تشعر الليلة بميل شديد نحوه. بوهج أنثوي ينبعث منها صوبه. وكانت في بعض الأحيان، عندما تضع حياكتها على المقعد المجاور أو ترفعها منه، تلامس أصابعها فخذه، فيتسلل تيار ناعم من الكهرباء إلى جسده، كما لو كان قطة ترتعش عند مداعبتها.

ورغم ذلك لم يكن سعيدًا، لم يكن مرتاحًا. ظلت بداخله نواة صلبة معاندة لا يمكن للويسكي ولا للمرأة أن يذيباها أو يخففاها هذه الليلة. نواة ظلت متصلبة، بل كانت تزداد في كل لحظة، تصلبًا وعمقًا في معاداتها لما يحيطه. لقد عزا ذلك إلى مرض خفي يعاني منه: هذه المعارضة المتوترة غير المعلنة لمحيطه، هذه النواة الصلبة من الكبح المرهِق اللاعقلاني. إنه لأمر مثير للسخط، فهو لم يزل يريد أن يُسلِم القياد. كانت المرأة والويسكي العلاج المعتاد، إلى جانب الموسيقى. لكن هذه الأمور بدأت تخذله في الآونة الأخيرة. لا، كان في داخله شيء لا يستسلم، لا للويسكي ولا للمرأة ولا حتى للموسيقى. هذا الكلب الأسود اللامرئي كان يقعي في أعماقه حتى وهو يعزف أفضل موسيقاه، ويهرّ وينتظر دون أن يتلقى مداعبة. إنه يدرك وجوده، وهذا ما يُقلِقه. لقد أراد بالطبع أن يطلق سراح نفسه، ليشعر بالتفاؤل والحب وكل تلك الأمور. لكن الكلب الأسود كان يبرز أسنانه حال تفكيره بذلك.

ورغم هذا ظل يصد الوحش. وأبقى نفسه، بملء إرادته، في المكان الذي يأنس إليه. أراد أن يلين وأن يكون متفائلًا، سعيدًا.

ارتشف كأسه برضا، وأحس بالترف في حضور صاحبة الحانة. وبالثقة الشديدة من قوة إعجابها به. ألقى نظرة سريعة على صورتها الجانبية؛ تلك الطريقة الجميلة التي تدفع فيها إلى الخلف رأسها العدائي الحرون رغم طبعها المجبول على الخير؛ وهذا التقوس الدقيق اللطيف في أنفها الذي يثيره تمامًا مثل صوت نقي. لكنها لم تتغلب عليه الليلة لأن عينًا صغيرة باردة وشيطانية في دماغه منعته من الافتتان بما يراه.

عناد فظيع تمكن منه. لقد رأى الوجه الكتوم الرقيق المتورد للمرأة العبرية،

الصارخة في اعتدادها بنفسها، الخطيرة للغاية، والمدمرة للغاية، والشهوانية للغاية. وانتظر حتى يذوب دمه شغفًا بها. ولكن ليس في هذه الليلة. الليلة كانت أعماق قلبه قاسيةً وباردةً مثل الجليد. إن خطورتها وشهوتها اللتين طالما أيقظتا حواسه، هما بالذات اللتان جعلتاه أكثر برودة الآن. لقد كره فيها ألاعيبها. لقد اعتاد رؤيتها أكثر من اللازم، هي وكل النساء. لعبة الحب! يا لقرفها وقرف الويسكي الذي كان يساعد في اللعبة! لقد أغرق نفسه فيما مضى في الويسكي وفي الحب. وها هو الآن يطفو في كليهما مثل الجثة، بعين عدائية باردة.

إنّ نصف هياجه الداخلي على الأقل كان غضبًا يرجع إلى أنه لم يعد يستطيع الغرق. لا شيء كان سيسعده أكثر من أن يشعر بأن حواسه تذوب وتسبح في التوحد مع الظلام. لكن مستحيل! إنه يطفو باردًا بينما أعماقه تستعر من الغضب، يطفو بعينين متسعتين ومتباعدتين مثل جثة. فكر في الحب الرقيق لسنوات زواجه الأولى، وصار أكثر اتقادًا وبرودًا ومضيًا في عناد يزداد حدة، ترفعه موجة من الاشمئزاز.

أدرك أنه غدا عدوًا لدودًا لصاحبة الحانة، وأنه يكره ظروفه كلها. كان وعيٌ بارد وشيطاني قد فصل نفسه عن حالته شبه المنتشية.

– «هل الأمر كثير الشبه بالذي في الهند؟» سأل الطبيبَ فجأة، فأجفل الأخير ثم أصغى إليه وأجابه دون مواربة:

– «ربما هو أسوأ»

– «أسوأ!» هتف آرون سسن «وكيف؟»

– «حسنًا. لأن أهل الهند يمرون بأوقات أفضل، بطريقة ما، مما يمر به أهل إنجلترا، إذ لا تقع على عاتقهم أية مسؤوليات. الحكومة الإنجليزية تتحمل المسؤولية. الناس في الهند ليس لديهم ما يفعلونه، إلا المقدار الصغير من العمل وربما الحديث عن الحكم الوطني، فقط لتزجية الوقت»

– «عليهم أن يكسبوا قوتهم. أليس كذلك؟»

– «هذا صحيح» قال الطبيب الذي عاش بضعة أعوام مع عمال المناجم وألفهم «نعم، عليهم أن يكسبوا قوتهم، ثم لا شيء. وهذا ما يجعل الحكومة

البريطانية أسوأ شيء في نظرهم. إنه أسوأ شيء ممكن. ليس لأنها حكومة سيئة. إنها إن أردت الحق ليست بالحكومة السيئة. إنها جيدة، وهم يعرفون ذلك، بل قد تكون خيرًا مما يقدرون على تشكيلها لأنفسهم. لكنها، لهذا السبب بالذات، سيئة إلى أبعد حد»

أطلق الرجل الشرقي الضئيل ضحكة مكتومة غريبة. كانت عيناه المفتوحتان الشديدتا السواد ساطعتين للغاية. وطفق ينظر إلى عيني آرون سسن الحادتين ذواتي اللون الأزرق الجليدي. كلاهما كان مخموراً، لكن في وجوم. ونظر أحدهما إلى الآخر في عداء عنصري.

كانت الغرفة بأكملها الآن تواكب هذه المحادثة الجديدة التي عدها الجميع محادثة جادة، إذ إن آرون كان يُعتبر رجلًا متميزًا، رجلًا ذا فهم فريد، رغم أنه، كقاعدة، كان قليل الكلام.

- «إذا كانت حكومة جيدة يا دكتور، فكيف يمكن أن تكون بهذا السوء في نظر الناس؟» تساءلت صاحبة الحانة.

رفت عينا الطبيب لجزء من الثانية وهو ينظر إلى الرجل الآخر. لم ينظر إلى صاحبة الحانة.

- «لا يهم شعب الهند نوع الفوضى التي سيحدثونها - وسوف يحدثونها بالتأكيد، إذا حكموا أنفسهم. من المحتمل أن يتسببوا في أكبر قدر ممكن من التخبط والاختلاط ويشرعوا في قتل بعضهم بعضًا. لكن لا يهمهم إن أبادوا نصف السكان، طالما فعلوا ذلك بأنفسهم، وكانوا مسؤولين عنه»

أخذ غضبها يتصاعد لسبب ما. أفرغ الطبيب الأخضر الضئيل كأسه ثم ابتسم ثانيةً. وتساءل آرون سسن:

- «ولكن ماذا سيكون الفرق إذا حكموا أنفسهم أم لا؟ سيعيشون حتى يموتوا في كلتا الحالتين» وابتسم قليلًا. لم ينصت حقًّا إلى الطبيب. وكانت عبارات مثل «الحكومة البريطانية» و«سيئ بالنسبة للشعب - جيد بالنسبة للشعب» قد أججت غضبه الحاقد.

ارتبك الطبيب قليلًا، ثم استجمع نفسه وأجاب:

«هناك فرق. هناك فرق. على الشعب أن يكون مسؤولًا عن نفسه على

الدوام. كيف يمكن لأي شعب أن يكون مسؤولًا عن شعب من عرق آخر، عن أناسٍ من عرق أقدم منهم بكثير، وليسوا أطفالًا على الإطلاق»

تأمل آرون سنن الوجه الداكن للرجل، بعينيه المكشوفتين تمامًا. كان في حالة من الاستبصار والغضب شبه الثمل. لم يرَ في العينين السوداوين الخاويتين اللامعتين للرجل الشرقي غير الخطر نفسه والوعيد نفسه اللذين رآهما في عيني صاحبة الحانة.

إنها لكلمات عادلة، حكيمة، بل ومحسِنة. إن خير الإنسان هو من يتحدث على الدوام، لكن من تحته على الدوام شيء كريه، شيء بغيض وقاتل. الكلام الحكيم والنوايا الطيبة - لقد كانت دون استثناء مجرد نزوات يكتنفها ذلك النزوع السري لتدمير الإنسان في الإنسان. كلما سمع أحدًا يتحدث بإسهاب: صاحبة الحانة، هذا الطبيب، أو ذاك الناطق باسم عمال المنجم، أو حين يقرأ الجريدة كلية الاستقامة، كانت روحه تتلوى من الاشمئزاز كمن يشم شيئًا عفنًا. حتى الحب الأرضي والنية الطيبة لزوجته. فلتذهب النية الطيبة إلى الجحيم! إنها أكثر بغضًا من النية السيئة. صلاح النفس الذي يستأسد مثل غاز سام.

نظرت صاحبة الحانة إلى الساعة الجدارية.

- «عشر دقائق أيها السادة» قالت ببرود، فقد كانت هي الأخرى تعرف أن آرون تغيّر عليها هذه الليلة.

وبدأ الرجال بالاستئذان مترنحين. وتبخر الطبيب الهندي. ساعدت صاحبة الحانة آرون على ارتداء معطفه، وأبصرت البياض الغريب المحيط بمنخريه وعينيه، والنظرة الجهنمية الثابتة على وجهه.

- «سوف تتناول فطائر اللحم المفروم معنا، على سبيل جلب الحظ. أليس كذلك؟» قالت له كي تستبقيه.

لكنه استدار نحوها ضاحكًا وأجاب:

- «كلا. عليَّ أن أذهب إلى البيت»

ثم استدار وتوجه من فوره نحو منزله. أما وجه صاحبة الحانة فقد اصفرّ وهي تراقبه، من أثر الغضب والرغبة.

- «ذلـك الأفعـى الهندي الصغير السـام» قالت بصوت مسـموع وهي ترجع مزاج آرون المتعكر إلى الطبيب. وكان زوجها يقفل الباب في جلبة.

فـي الخارج كانت الأجـواء صقيعية ومظلمة. وتلكأت عصبة من الرجال علـى الطريـق قـرب البـاب المغلـق. وجـد آرون نفسـه بينهـم وقلبه أقسـى من الحديد.

ثم أخذ الرجال بالتفرق. كان عليه أن يتخذ طريقه إلى بيته. لكن الشيطان كان يكمـن هنـا؛ في قدرته على السـير باتجـاه بيته. بدا أن جـدارًا ما ينتصب أمامه. غيّر اتجاهه لكنه لم يسـتطع السـير حتى في الاتجاه المعاكس. وهكذا كان عليه أن يدور حول نفسه مثل ضرب من ديك الرياح[1]، هناك في منتصف الطريق المظلم خارج «السنديانة الملكية».

لكنـه أبصـر، حين اسـتدار، مخرجًا ثالثًـا. قبالته تقريبًـا كان مدخل زقاق «شـوتل لين» الذي يؤدي من تحت الأشـجار إلى تقاطع عمودي مع الطريق العـام إلى منجم نيو برونسـويك. اسـتدار نحو هذه الفتحـة المؤملة وهو في حمـى غضبـه الجليدي العـارم واندفع فـي الزقاق المظلم سـائرًا فـي تؤدة، بقدمين ثابتتين.

ديك الرياح: أداة على شكل ديك يستدل بها على اتجاه الريح.

الفصل الثالث

الشجرة المضاءة

من اللافت للنظر عدد الأشخاص غير الطبيعيين في إنكلترا. نحن نسمع شكاوى دائمة عن تبلد الإنكليز وتحفظهم. لكن من العدل أن نشكو أيضًا من كثرة الشخصيات الغريبة الكثيرة النزوات. إن المعدن لا يمكن أن يدعى بريطانيا إلا بشكل شديد التعميم.

إننا نستطيع أن نعثر في بلدة تعدين صغيرة قبيحة، كما هو الحال في أي مكان، على أشخاص متميزين في غرابة أطوارهم. كل ما يحدث هو أن البلداء يلتقون على نحو دائم بالبلداء، وأن غريبي الأطوار يصادفون غريبي الأطوار، بغض النظر عن مكان تواجدهم. وهكذا يبدو المجتمع متجانسًا في نظر كل نوع منهم.

في طرف من زقاق شوتل لَين المشجر انتصبت حانة السنديانة الملكية، وفيها السيدة هاوسلي الغريبة الأطوار بالتأكيد. وفي الطرف الثاني منه هناك «شوتل هاوس» حيث يعيش آل «برِكنِل» وهم أيضًا أناسٌ غريبو الأطوار. كان العجوز ألفريد بركنل واحدًا من الشركاء في ملكية المنجم. لم يكن يتحدث بإنكليزية سليمة بل بلكنة ديربيشايرية[2] واضحة، إنه ليس «جنتلمان» فيما يخص الاهتمام بالمظاهر، لكنه رجل ثري ومتشامخ للغاية. وكانت زوجته ميتة.

1- هناك سبيكة متجانسة من القصدير والرصاص تسمى Britannia والمقصود من هذا الجناس اللفظي أن الإنكليز ليسوا متجانسين مثل تلك السبيكة.

2- نسبة إلى مقاطعة داربيشير وهي إحدى مقاطعات شرق ميدلاندز في إنجلترا.

انتصب شوتل هاوس على بعد مئتي ياردة من منجم فحم برونسوِك الواقع ضمن منشأة زراعية كبيرة حيث تتوهج فتحات تلال الحفر المشتعلة بدخانها الذي يزكم أنوف آل برِكنِل برائحة الكبريت الكريهة. لم تنجح كل الجهود التي بُذلت، حتى خلال الحرب، في إطفاء نار النفايات هذه. عدا هذا كان شوتل هاوس منزلًا مربعًا لطيفًا، قديمًا بعض الشيء، تحيطه مروج وأشجار، يسد الزقاق من إحدى نهايتيه، تاركًا ممرًّا زراعيًا صغيرًا يشق طريقه إلى اليسار.

في عشية عيد الميلاد هذا تواجد اثنان فقط من أبناء ألفريد بركنل في البيت. أما عن الباقين فقد كانت إحدى البنات هناك في الهند حيث تزداد نحولًا وتبكي حظها من زيجتها التعيسة، بينما الثانية تعنى بصغارها في «ستريثام»[1]. أما «جِم» أمل العائلة و«جوليا» المتزوجة من «روبرت كَننغهام» فقد جاءا لقضاء عيد الميلاد في منزل الأسرة.

جلس الفريق في غرفة الاستقبال التي أعدتها البنتان الكبيرتان على أحسن وجه خلال فترة خطوبتيهما. على جدرانها انسدلت ستائر من فاخر الكانفاس، وعلى أرضيتها فرشت سجادة كبيرة رمادية – فضية من الحرير. أما الأثاث فقد كان مغطى بنسيج حريري داكن الخضرة. وفي وسط هذه القطع المتكتمة من المستقبلية[2] كانت وسائد ذات أزرار ولوحات على طراز فان كوخي تعرض ألوانها[3]. إن أناقة مسايرة للموضة مثل هذه لن يسعى إليها آخرون في شوتل لين.

جلس العجوز على كرسي مرتفع ذي ذراعين قريبًا من نار الفحم الهائلة. لم يعرف هذا المنزل شيئًا اسمه تقنين الفحم. كان الفحم الممتاز مصفوفًا لينتج توهجًا عظيمًا جديرًا بإمتاع مالك منجم للفحم؛ كتلة هائلة كثيفة من النار النقية الحمراء؟ إلى هذه النار جلس ألفريد بركنيل يسخن خفيه المصنوعين من الجلد المبطن بصوف الحملان.

1- ستريثا: مقاطعة في جنوب لندن

2- المستقبلية futurism حركة فنية ظهرت في إيطاليا أوائل القرن العشرين ودعت إلى نبذ التقاليد الفنية.

3- نسبة إلى الفنان الهولندي الشهير فنسنت فان كوخ (1853–1890)

كان رجلًا كبير الجثة، يرتدي بذلة رمادية فضفاضة، باسطًا جسده فوق الكرسي الرمادي الكبير ذي المساند. سقط ضوء المصباح الواهن على رأسه النظيف الأصلع المايكل أنجلوي[1] الذي التمعت عبره بضع شعرات واضحة. كانت ذقنه غائصة فوق صدره بحيث كانت لحيته البيضاء المتفرقة لكن القوية، التي استقلت كل خصلة منها على حدة مثل زجاج مغزول لدن، تتماوج إلى الداخل والخارج صاعدة نحو وجهه في انحناءات غريبة. بدا مستغرقًا في تأمل صارم كتأمل الأنبياء. لكنه كان في الحقيقة غارقًا في النوم بعد وجبة ثقيلة.

على الجانب الآخر من الموقد فتاة جالسة على كرسي وثير. كان وجهها يشبه نقشًا بارزًا وشعرها الأسود اللامع مصففًا بعناية على الطريقة الفرنسية وحاجباها مرسومين بشكل غريب. كانت ساخنة، محمرة الوجه، محتمية من حرارة النار خلف عمود من رخام الموقد القديم. كانت ترتدي فستانًا بسيطًا من الساتان الأخضر التفاحي، بكمّين طويلين وتنورة واسعة وصدار صغير من القماش الأخضر. إنها جوزفين فورد، خطيبة جِم...

أما جِم بريكنيل نفسه فقد كان رجلًا طويلًا يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا. جالسًا على كرسي أمام المدفأة، على مسافة إلى الخلف، وقد مد ساقيه الطويلتين أمامه. كانت ذقنه هو الآخر غارقة في صدره، وجبهته الفتية الصلعاء ترتفع في تجاعيد غريبة. ارتسمت على وجهه نصف ابتسامة صامتة، وقليل من القلق، وتعبير شبه ساخر. وكان شاربه الصغير ضاربًا إلى الحمرة.

خلفه مائدة مستديرة مغطاة بالسجائر والحلويات والزجاجات. من الواضح أن جِم بريكنيل يشرب البيرة عن قناعة واختيار فقد أراد أن يصبح سمينًا – كانت تلك فكرته، لكنه لم يستطع إنجازها: لقد كان نحيفًا، وإن لم يكن نحيفًا للغاية إلا في اعتقاده.

ضمت أخته جوليا جسدها على كرسي منخفض بينه وبين والده. كانت هي أيضًا مخلوقة طويلة القامة، لكنها جلست وقد ضمت جسدها مثل ساحرة. كانت ترتدي فستانًا بنفسجيًا – خمريًا، وذراعاها تبدوان ناتئتين من

1- نسبة إلى الرسام والنحات والشاعر الإيطالي مايكل أنجلو (1475-1564)

الكمّين، وقد سحبت شعرها البني إلى ذؤابات مستقيمة غير مرتبة. لكنها تمتعت، رغم ذلك، بجمال حقيقي. كانت تتحدث إلى الشاب الذي لم يكن بزوجها: شاب جميل، شاحب، ممتلئ، يضع نظارة أنفية ويرتدي ملابس داكنة. كان هذا سيريل سكوت، أحد الأصدقاء.

وقف الشخص الوحيد الآخر عند المائدة المستديرة ليسكب النبيذ الأحمر. كان شابًا إنكليزيًا قوي البنية يرتدي الكاكي، إنه زوج جوليا، روبرت كننغهام، ملازم على وشك أن يتسرح ليعود إلى عمله نحاتًا. طفق يحتسي النبيذ الأحمر في جرعات كبيرة وقد ترطبت عيناه قليلًا. كانت الغرفة حارة وهادئة والجميع صامتين. تحدث روبرت فجأة من مكانه في الخلف:

- «هل فيكم من يرغب بالشرب؟ ألا تجدون الغرفة ساخنة بعض الشيء؟»

- «هل توجد زجاجة بيرة أخرى؟» قال جِم الساكن، دون أن يحرك حتى جفنيه.

- «نعم - أظن هذا» قال روبرت.

- «شكرًا. لا تفتحها الآن» دمدم جِم.

- «هل ترغبين بشراب يا جوزفين؟» سأل روبرت.

- «لا شكرًا» أجابت جوزفين وهي تنحني قليلًا.

وجدهم روبرت غير راغبين بالشرب، فعاد ودار عليهم بالسجائر. نظرت جوزفين فورد إلى اللفافات البيضاء وأخذت واحدة ثم قالت:

- «شكرًا»

ولعقت فجأة شفتيها اليابستين المكتنزتين الحمراوين بحركة سريعة من طرف لسانها. كانت تلك حركة غريبة، تذكّر بالحركة الخاطفة للسان الأفعى. وضعت سيجارتها بين شفتيها وانتظرت. كانت حركاتها مهذبة وهادئة، ربما مبالغة في الهدوء، كان بروداً خطيرًا أشبه ببرود البوهيميين أو الباريسيين أو الأمريكيين وليس ببرود الإنكليز.

- «سيجارة يا جوليا؟» سأل روبرت زوجته.

بدت أنها أجفلت أو انتفضت مثل شخص يشعر بالدوار. ثم رفعت

رأسـها تنظر إلى زوجها بابتسـامة غريبة وقد غضّنت زوايا عينها. أما هو فنظر إلى السـجائر، لا إليها، وعلى وجهه تلك الهيبة الشـهوانية الفضية التي لأسد فتـيّ، لهرٍ عظيـم. تركته واقفًا دون حـراك لبضع ثوانٍ. وفجـأة دلّت أصابعها الطويلة الرقيقة فوق العلبة في تردد ولمسـت السـجائر في تشنج ونقبت فيها بطريقة خرقاء حتى أخرجت واحدة في النهاية.

- «شـكرًا لك يا عزيزي - شـكرًا لك» قالت بصوت مرتفع نوعًا ما وهي تنظر إلى الأعلى وتبتسـم مرة أخرى. واستدار بهدوء جانبًا وعرض السجائر على سكوت الذي رفض.

- «أوه!» قالت جوليا وهي تمتص سـيجارتها «إن روبرت لسـعيد جدًا بكل الأشـياء الجيدة -أليس كذلك يا عزيزي؟» صدحت ثم أطلقت ضحكة عجلى. «نحن لسنا معتادين على العيش الفاخر، لسنا معتادين- أليس كذلك يا عزيزي - لا، نحن لسـنا بهذا القدر من التنعم، لا نحن لسـنا كذلك. أوه روبي، أليس كذلك، أليس كذلك فعلًا؟» وعادت إلى ضحكتها المسـتعجلة الجامحة المتكررة. «نحن سعداء للغاية في أرض الوفرة هذه، أليس كذلك؟»

- «هل تقصدين أنني جشع يا جوليا؟» قال روبرت.

- «جشع! - أوه، جشع! -يسأل إذا كان جشعًا؟- لا أنت لست جشعًا، روبي، أنت لست جشعًا. أريدك أن تكون سعيدًا»

- «أنا سعيد للغاية» أجابها.

- «أوه، إنه سعيد! -حقًا!- إنه سعيد! أوه، يا لها من كياسة! يا إلهي!» جعّـدت جوليـا عينيهـا وأفلتت منها ضحكـة عالية ركنت بعدهـا إلى صمت عصبي مرتعش.

ودار روبـرت عليهـم بأعـواد الثقـاب. وسـحبت جوليـا نفسًـا مـن سيجارتها وهتفت:

- «أعطنا عود ثقاب يا روبي، إن كنت سعيدًا حقًا» فأجابها:

- «في الحال»

دخنت جوزفين بأنفاسٍ قصيرة حادة بينما سحبت جوليا نفسًا عميقًا وهي

توقد سيجارتها وعاد روبرت إلى نبيذه الأحمر. وفجأة نهض جِم بركنيل وأدار النظر على الجمع مبتسمًا بشيء من البلاهة ومظهرًا أسنانه المدببة الغريبة وسأل بنغمة عميقة «أين البيرة؟» وكان يبتسم ابتسامة عريضة بوجه جوزفين كما لو أنها ستنتجها بحيلة من يديها، واستدار نحو المنضدة وسرعان ما شرع بصب البيرة في بلعومه كما لو كان يسكبها في أنبوب ما، ثم ارتمى مستلقيًا من جديد. بينما كان سيريل سكوت يرتشف الجن مع الماء في صمت.

- «أقول لكم» قال جِم الغائص في كرسيه «أليس لدينا ما يمكننا فعله لتزجية الوقت؟»

ضحك الجميع فجأة - لقد بدت كلماته بعيدة وسخيفة للغاية.

- «ماذا، هل تريدنا أن نلعب البريدج أو البوكر أو شيئًا مألوفًا من هذا الطراز؟» قالت جوزفين بصوتها المميز كما لو كانت تخاطب طفلًا.

- «أوه، اللعنة على البريدج» قال جِم بصوته النعسان ثم شرع باستجماع رجليه القويتين وجلس على حافة مقعده منحنيًا إلى الأمام وهو يحدق مكشرًا في أوجه الجميع.

- «لا تطيلوا إليّ النظر بهذه الطريقة» قالت جوزفين بصوتها الواثق «إنكم تجعلونني أشعر بالضيق» وأطلقت ضحكة قصيرة غريبة من منخريها ثم مررت طرف لسانها على شفتيها وهي ترمق الغرفة بنظرة حادة نصف ماكرة.

- «أحب أن أنظر إليك» قال جِم وابتسامته تزداد خبثًا فأجابته:

- «لكن عليك أن تكف عن ذلك عندما أطلب منك»

انعطف جِم ليتفقد القناني. واستيقظ الأب أيضًا واعتدل في جلسته.

- «ألم يحن الوقت لكم جميعًا كي تتوقفوا عن الشرب والتدخين وتفكروا في الإخلاد إلى أسرّتكم؟»

استدار جِم نحوه على مهل وهو مستلق على الكرسي الطويل وقال:

- «أوه يا أبي، الليلة ليلتنا! الليلة لا ليس كمثلها ليلة! يمكنك أن تنام متى أردت يا أبي» واتسعت تكشيرته «لكن ليلة مثل هذه -حيث نجلس هنا كما نفعل الآن- لا تتكرر كثيرًا»

كان يرفـع وجهـه نحـو وجه أبيـه طـوال الوقت، لينظـر إليه فـي وضوح وامتـلاء دون أن تغادره الابتسـامة. أحس الأب، الـذي كان صاحيًا تمامًا إلا من بعض عدوى من ثمالة الشـباب، بارتعاشة ضارية تتخلل قلبه وهو يحدق بوجه ولده. ثم نهض متخشبًا.

– «تريدون البقاء؟» قال الأب «تريدون البقاء! حسـنًا إذن – حسنًا إذن. سأغادركم. لكن لا تتأخروا كثيرًا»

ونهض الشـيخ فاردًا طوله المهيب نوعًا ما فنهض الأربعة احترامًا له عدا جِم الذي ظل متمددًا في سريره مديرًا وجهه نحو أبيه.

– «لـن تبقوا طويلًا» قـال الرجل العجوز وهو ينظر حولـه متحيرًا بعض الشـيء، باحثًا عن عين تشعر بالمسؤولية. وكانت جوزفين هي الوحيدة التي تحتفظ ببعض المشاعر تجاهه، فقالت بجدية:

– «لا، لن نبقى طويلًا يا سيد بريكنيل»

– «ليلة سعيدة يا أبي»

قال جِم بينما والده يغادر الغرفة.

ذهبـت جوزفيـن إلـى النافـذة. كانت مشـيتها تشـبه مشـية دميـة متصلبة إلى حدٍ ما.

– «كيـف هـو الليل؟» قالـت كما لو أنهـا تريد تغيير جـو الغرفة برمته. ثـم دفعت السـتائر الحريرية السـميكة ذات اللون الرمادي إلـى الخلف. «ما هذا؟» تساءلت «ما هذا الضوء المشتعل؟ ضوء أحمر؟»

قال روبرت، الذي تبعها:

– «أوه، هذه مجرد حفرة منجم مشتعلة»

– «غريب! لماذا تحترق الآن؟»

– «إنهـا تحتـرق دائمًا للأسـف، فهي الأكثـر ثباتًا على هـذا الحال. إنها نفايات المناجم، وهي مشتعلة منذ سنوات، رغم كل الجهود لإطفائها»

– «مـا أعجب هـذا! هل يمكننا أن نتفرج عليها؟» أدارت جوزفين الآن مقبض النوافذ الفرنسية وخرجت.

- «جميل!» سمعوا صيحتها من الخارج.

وفـي الغرفـة، وضعت جوليا يدها بلطف على يد سـيريل سـكوت كأنها تتقي شيئًا.

- «جوزفيـن وروبـرت معجبـان بالليلـة معًـا!» قالـت وهـي تبتسـم له بلطف خفي.

- «طبعاً!» أجاب سيريل سكوت «الشباب يفعلون هذه الأشياء الرومانسية دائمًا، إنه في الثانية والعشرين من عمره، ويستطيع أن يبدي سخريته»

- «هـل هما كذلك؟ ألا تظن أن هذا شـيء لطيف منهما؟» قالت وهي تزيح يدها بلطف من يده. وكانت عيناه مشرقتين من السرور.

- «نعـم. أنـا أغبطهما كثيـرًا. لا يحتاج المرء إلا إلـى أن يكون على قدر كافٍ من السذاجة»

- «المـرء يحتـاج لذلـك، أليـس كذلـك؟» قالـت جوليـا. فـي رقـةٍ كسجع الحمام.

- «أقـول لكِ: هل تسـمعين الأجـراس؟» قال روبرت وهو يدس رأسـه في الغرفة.

- «لا يا عزيزي! هل تسمعها أنت؟» أجابته جوليا.

- «أجراس! اسـمعوا الأجراس! أجراس!» صاح جِم نصف المخمور. وتقلّب في كرسيه في نوبة ضحك صامتة مفاجئة كشفت فمه المليء بأسنان مدببة كأسنان الكلب. ثم استجمع قواه تدريجيًا، وثبت قدميه، وابتسم بثبات.

- «ليلة منعشة حقًّا!» قال بصوت عالٍ عندما شعر بالهواء على رأسه شبه الأصلع. وكانت رائحة الكبريت تفوح في الظلام.

ابتعـدت جوزفيـن وروبرت عـن الأنظار. كانـت جوليا ذاهلـة، تتابعهما بعينيها، وبدا أنها تلتقط، بقوة سمع خارقة، أصواتهما القادمة من بعيد.

- «نعم يا جوزفين، أليس هذا رومانسيًا للغاية!» هتفت فجأة بصوت عالٍ.

أجفلت جوزفين وروبرت الواقفان بعيدًا.

- «ماذا؟» سمعوا صيحة جوزفين الحادة.

- «مـاذا؟ مـا هـو الرومانسـي؟» قـال جِـم وهـو يترنح ويمسـك بذراع سيريل سكوت.

- «تريد جوزفين أن تشـعل نارًا كبيرة تضيء أرض الضيعة» قالت جوليا بطريقة فخمة.

- «لا لا لم أقل ذلك» احتجت جوزفين. ثم أوضح روبرت:

- «ما قالته جوزفين هو أنه سـيكون من الجميل ببسـاطة وضع شـموع على إحدى الأشجار النامية، بدلًا من وجود شجرة عيد الميلاد في الداخل»

- «أوه، جوزفين، كم أنت لطيفة!» هتفت جوليا.

ضحك سيريل سكوت وصاح جِم:

- «فكـرة ممتـازة! فكـرة رائعة، يا جـوزي يا فتاتـي. إيه؟ مـاذا؟ لماذا لا ننفذهـا، إيـه؟ ولـم لا؟ فكـرة جذابـة» انحنـى علـى جوزفيـن وابتسـم ابتسامة عريضة.

- «أوه، لا!» اعترضت جوزفين «يبدو كل شـيء سـخيفًا جدًا الآن. لا، فلنذهب إلى الداخل وننم»

- «لا يـا جوزفين، لا! إنها فكرة جميلة!» هتفت جوليا. «دعونا نجلب الشموع والفوانيس وبقية الأشياء»

- «هيا!» ابتسـم جِم. «دعونا نفعل ذلك جميعًا، هيا»

- «هل سنفعلها حقًا؟» سأل روبرت. «هل نضيء إحدى أشجار التنوب بجانب المرج؟»

- «نعم! ما ألطف هذا!» صاحت جوليا «سأحضر الشموع»

قال روبرت:

- «فلترتدِ النساء دثارات دافئة»

وتوافدوا إلى الداخل ليجلبوا المعاطف والدثارات والشموع والفوانيس. ثم مضوا إلى السقيفة بعد أن أضاؤوا طريقهم بمصباح دراجة، ليلفوا أسلاكاً حـول الشـموع لجعلهـا حامـلات لهـا. وتجمعـوا أخيـرًا حـول المصطبة. قالت جوليا:

- «انظـروا. ألا يبدو سـيريل مثل طيار في ليلة عاصفـة! أوه، انظروا!» وأطلقت إحدى ضحكاتها السريعة.

نظـروا جميعًـا إلى سـيريل سـكوت الـذي كان يقف بشـكل أخـرق في الخلفيـة، مرتديًا معطفًا واسـعًا للغاية ويدخن غليونًا كبيرًا. كان الشـاب غير مرتاح، لكنه اتخذ مظهرًا رواقيًا من اللامبالاة الفلسفية.

وسـرعان ما انشـغلوا حول شجرة تنوب شـائكة في نهاية العشب. وقف جِـم فـي الخلفية يحدق بشـكل غامض. أرسـل مصباح الدراجة شـعاعًا من الضوء الأبيض القوي إلى أعماق أوراق الشـجر الغريبة، وتجمعت الرؤوس وانشـغلت الأيـدي. وكان الليـل المنسـدل سـاكنًا صامتًا لا ريـح فيه. وعلى مسـافة قريبة، كان بإمكانهم سـماع لهاث أحد المحركات في منجم الفحم. وسأل روبرت:

- «هل نوقدها بينما نحن نثبتها، أم نحتفظ بها حتى نشعلها دفعة واحدة في النهاية؟»

قال سيريل سكوت، الذي تمزقت أصابعه وأراد أن يرى بعض المردود:

- «أوه، ونحن نثبتها»

واحتـك عود ثقاب. واندلـع لهب صغير عارٍ بين أوراق الشـجر الداكنة. وتراقصت ذبالة الشمعة العارية. كانوا جميعًا صامتين.

- «يجـب أن نقـوم برقصة طقسـية! علينـا أن نعبد الشـجرة» صدحت جوليا بصوتها العالي.

- «انتظري دقيقة» قال روبرت «سيكون لدينا المزيد من الإضاءة»

- «أوه نعم» قالت جوزفين «نريد أكثر من شمعة واحدة»

لكن جوليا كانت قد أسـقطت الدثار الملتفة به، وفردت ذراعيها وراحت تدور وتلوّح وتقوم وتقعد في رقصة انفرادية أمام الشـجرة، فبدت هي نفسها مثل غصن متحرك.

انفجـر جِم، الواقـف إلى الخلف وهـو يحتضن غليونه فـي الخلفية، في ضحكة قصيرة متقطعة يابسة وصاح:

- «ألسنا حمقى؟ ما هذا؟ حبًا بالله، ألسنا حمقى؟»

- «لا لماذا؟» صاحت جوزفين المستمتعة ببعض الاستياء.

لكن جِم لم يزد على ذلك، ووقف فقط مثل هندي أحمر يمسك غليونه.

تحرك شعاع مصباح الدراجة وسقط على أيدي الشباب ووجوههم، واخترق تجاويف الأشجار السرية. تشابكت عدة ألسنة صغيرة من اللهب الأحمر المرتعش في الهواء العاري فأرسلت وهجًا خافتًا فوق أوراق الشجر الإبرية وبعثت في هذا الليل أنفاسًا متعامدة غريبة. تمايلت جوليا ببطء في رقصتها الشجرية بينما وقف جِم على حدة، وساقاه متباعدتان، دون حراك.

ازداد الفريق المحيط بالشجرة اندماجًا وحماسًا متحمسًا مع ظهور ألسنة اللهب الحمراء من الشجرة المظلمة. بانت الشموع الشاحبة بجلاء وأضاءت الهواء. أصبحت الإضاءة كاملة ومتناغمة.

نظرت جوزفين حولها فجأة.

- «ما هذا!!؟» جاءت صيحتها المنبهة الطويلة.

وقف رجل يرتدي قبعة سوداء مستديرة ومعطفًا أسود على تخوم الضياء.

- «ما هذا؟» صاحت جوليا.

- «كائن بشري![1]» قال الملازم روبرت. «سلمني الضوء، سيريل» وسلط شعاع الضوء كاملًا على القادم الدخيل؛ كان رجلًا يرتدي قبعة مستديرة، ومعطفًا أسود مزررًا حتى حلقه، بوجه شاحب وامض مذهول. كانت القبعة مائلة بزاوية طفيفة فوق العين اليسرى. وكان رجلًا جميل المحيا. لم ينبس بشيء فسأله روبرت من وراء المصباح:

- «هل تريد شيئًا؟»

ضيق آرون سِسن عينيه وهو يحاول رؤية من يخاطبه. كانوا جميعًا، بالنسبة إليه، مجرد ظلال خادعة. ولم يجب، فكرر روبرت بنبرة عسكرية آمرة:

- «ماذا تريد؟»

1- في الأصل Homo sapiens أي الإنسان العاقل.

وفجأة انثنى جِم وانفجر في ضحكة عالية وخشنة. هوب، هوب، هوب! واصل ضحكه ثم سقط أرضًا وهو يتلوى من الضحك. لقد كان في تلك الحالة من السكر عندما لا يستطيع المرء أن يتحرر من الوعي الذاتي المخبول. كان يعرف ما يفعله، لقد فعله عمدًا. لكنه كان، مع ذلك، خارجًا عن طوره، في حالة من الهستيريا. لم يستطع أن يفصل نفسه عن وعيه الساخط بنفسه.

بدأ الآخرون جميعًا في ضحك لم يتمالكوا أنفسهم من عدواه. فضحكوا بحماقة وبلا حول. كان روبرت الوحيد الذي شعر بالقلق فقال وهو ينظر إلى جسد جِم المتثني وهو يتلوى على العشب ويقهقه بصوت عالٍ:

- «أخشى أن يوقظ المنزل»

- «أوَليس كافيًا؟»، قال سيريل سكوت وقد أدرك حالة جِم.

- «لا لا!» صاحت جوزفين التي أنهكها الضحك اللاإرادي «لا، لقد طال كثيرًا، سوف أموت من الضحك»

احتضن جِم الأرض متلويًا. حتى روبرت نفسه اهتز قليلًا من الضحك. كان وجهه محمرًا والماء يتراقص في عينيه، لكنه تمكن من الكلام.

- «هل تعلم؟ سوف تقتل الرجل العجوز» ثم عاد إلى التلوي من جديد.

- «هو! هو!» قهقه جِم وهو يهمد رويدًا رويدًا «هو!»

ثم انقلب على ظهره وظل صامتًا. كما هدأ الآخرون.

- «ما الخطأ؟» قال آرون سِسن وهو يكسر هذه النوبة.

بدأوا جميعًا في الضحك مرة أخرى، باستثناء جِم، الذي كان مستلقيًا على ظهره وينظر إلى السماء الغريبة.

- «ماذا يضحككم؟» كرر آرون.

أجابت جوزفين:

- «نحن نضحك على الرجل الملقى على الأرض. أعتقد أنه سكر أكثر من اللازم»

- «نعم» قال آرون وقد انتصب في صمت وعناد.

- «هل تريد أي شيء؟» سأله روبرت مرة أخرى.

- «ماذا؟» قال آرون وهو يرفع بصره «أنا؟ لا شيء» كان نوع من القصور الذاتي يبقيه متجذراً في مكانه. نظر الشباب بعضهم إلى بعض وبدأوا في الضحك، محرجين إلى حد ما.

- «شخص آخر!» قال سيريل سكوت بسخرية.

كانوا يتمنون رحيله. ثم حلت برهة من الصمت.

- «ما هي النجوم في نظركم؟» سأل صوت جِم الكئيب وهو لم يزل مستلقيًا على ظهره فوق العشب.

ذهبت جوزفين إليه وسحبته من معطفه وقالت:

- «انهض. سوف تصاب بالبرد. انهض الآن، سنذهب إلى الداخل»

- «ما هي النجوم في نظركم؟» أصر جِم.

وقف آرون سِسن على تخوم الضوء وهو يحدق في المشهد مبتسمًا مثل صبي خرج من موقعه، لكنه ظل ثابتاً في مكانه بعناد.

قالت جوزفين:

- «انهض الآن. لقد نلنا ما يكفي». لكن جِم لم يتحرك.

ذهب روبرت ومعه مصباح الدراجة ووقف بجانب آرون وقال له:

- «هل أضيء لك الطريق، لقد خرجت عن المسار الصحيح. أنت في أراضي شتل هاوس»

قال آرون:

- «أستطيع أن أجد طريقي. شكرًا لك»

نهض جِم فجأة وذهب لينظر إلى الغريب، وقرّب وجهه من وجه آرون ثم قال:

- «الحقيقة. أنت لست رجلًا سيئًا - أهلًا بك! ما هو مشروبك؟»

قال آرون:

- «إنه الويسكي»

- «تعال واشرب كأسًا. نحن الوحيدان الرصينان في المجموعة، أليس كذلك؟» هتف جِم.

وقف آرون ساكنًا، جامدًا تمامًا. أخذه جِم من ذراعه بمودة. نظر الغريب إلى الشجرة الخافقة بطبقات من الأنوار وقال وهو يهز رأسه باسمًا:

- «شجرة عيد ميلاد»

- «هذا صحيح يا صاحبي» قال جِم وقد استعاد رصانته تمامًا «تعال إلى الداخل وتناول مشروبًا»

أسلم له آرون سِسن القياد ثم تبعهما الآخرون في صمت، تاركين الشجرة تومض طوال الليل. تعثر الغريب بباب النافذة المفتوح فقال جِم بمودة:

- «انتبه لخطواتك»

تزاحموا على النار التي لم تزل ساخنة. نظر الوافد الجديد حوله بانشداه. أخذ جِم قبعته المستديرة وقرب إليه كرسيًا فجلس دون أن ينظر حوله وعلى وجهه نظرة مجردة بعيدة. كان شديد الشحوب، بادي الاستغراق في نفسه.

نزعت المجموعة دثاراتها وجلست. التفتت جوزفين نحو آرون سِسن الذي كان يجلس في معطفه السميك على كرسيه دون حراك وفي يده كأس من الويسكي وهو غير راغب بالشرب: كان ذا شعر أشقر مسرّح على أحسن وجه وعينين غامضتين وفم وذقن وسيمين لكن عنيدين بعض الشيء. لم يكن شحوبه طبيعيًا لمن هو مثله. كان قاسيًا وعنيدًا تحت تلك الابتسامة التي حرص على إظهارها. لم يكن يرغب في أن يكون مع هؤلاء الأشخاص، ومع ذلك فقد بقي معهم بشكل ميكانيكي.

- «هل تشعر بأنك على ما يرام؟» سألته جوزفين.

نظر إليها بسرعة وابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- «أنا؟ نعم، أنا بخير» ثم أسقط رأسه مرة أخرى وبدا غافلًا عما حوله.

قال جِم بمودة:

- «أخبرنا باسمك»

رفع بصره الغريب وقال:

- «اسمي آرون سِسن، إذا كان هذا يهمك»

ابتسم جِم وقال:

- «هـذا اسـم لـم أعرفه من قبـل» ثـم عرّفه بجميـع الحاضريـن، لكن الغريـب لم يكترث كثيرًا، رغم أن عينيه تنقلتا بفضول من واحد إلى آخر، في بطء، ومكر وذكاء.

- «هل كنت في طريقك إلى المنزل؟» سأل روبرت في تعجرف.

رفع الغريب رأسه ونظر إليه.

- «البيت!» كرر «لا الطريق الآخر» وأشار إلى الاتجاه برأسه، وابتسم ابتسامة باهتة.

- «بيلدوفر؟» استفسر روبرت.

- «نعم».

وأسقط رأسه مرة أخرى، كما لو أنه لا يريد أن ينظر إليهم.

بالنسـبة لجوزفيـن، كان الوجـه الشـاحب البـارد الخالـي مـن أي تعبير، والعينان الزرقاوان والابتسامة التي تشبه الابتسامة والسقوط المستمر للرأس الجميل أمرًا مؤثرًا بشكل غريب. أرادت البكاء.

- «هل أنت عامل منجم؟» سأل روبرت، وهو يستعرضه من أعلى إلى أسفل في تعالٍ، فصاحت جوزفين:

- «لا» وكانت تنظر إلى يديه.

أجاب آرون:

- «مدقق أوزان» وأفرغ كأسه ووضعها على الطاولة.

- «هل تريد كأسًا أخرى؟» قال جِم، الذي كان يتابع الحديث باستمرار، باهتمام فضولي بالغريب.

صاحت جوزفين: «لا، لا مزيد»

نظر آرون إلى جِم ثم إليها، وابتسم ببطء، في عزلة مريرة. ثم خفض رأسه مرة أخرى. وكانت يداه مشبوكتين في وهن بين ركبتيه.

- «وماذا عن الزوجة؟» قال روبرت - الملازم الشاب.

- «ماذا عن الزوجة والأطفال؟ أنت رجل متزوج، أليس كذلك؟»

استقرت النظرة المتهكمة للغريب على الملازم وأجاب:

- «نعم»

- «ألا ينتظرون وصولك؟» قال روبرت وهو يحاول الحفاظ على أعصابه ونبرته المتسلطة.

- «أظن هذا»

- «إذن من الأفضل أن تكون معهم، أليس كذلك؟»

كانت عينا الغريب مثبتتين طوال الوقت على الملازم المتوهج الوجه. ورويدًا رويدًا تحولت النظرة على وجه آرون إلى نظرة ساخرة.

قال جِم لروبرت متهكمًا:

- «أوه، خفف من لمستك العسكرية» ثم أضاف بصوت عالٍ «نحن هنا جميعًا مواطنون مدنيون. نحن بخير، أليس كذلك؟» ثم التفت إلى الغريب بابتسامة أظهرت أسنانه المدببة.

وضحك آرون ضحكة امتنان قصيرة.

- «كم طفلًا لديك؟» نادت جوليا من مسافة بعيدة.

- «ثلاثة»

- «بنات أم أولاد؟»

- «بنات»

- «كلهن بنات؟ يا للمخلوقات الصغيرة العزيزة! ما أعمارهن؟»

- «كبراهن في الثامنة وصغراهن تسعة أشهر»

- «صغيرات جدًا!» قالت جوليا بحنان حقيقي، وأسقط آرون رأسه. «لكنك ستعود إليهن في البيت، أليس كذلك؟» قالت جوزفين، التي ترقرقت الدموع من عينيها، فنظر إليها، إلى دموعها، وعلى وجهه نفس الابتسامة الشاحبة الشكسة وقال:

- «ليس الليلة»

- «لكـن لمـاذا؟ أنـت مخطـئ!» هتفـت جوزفيـن، لكنـه أنـزل رأسـه وغفل عنهم.

- «حسـنًا!» قال سـيريل سـكوت في ملل وهو ينهض أخيـرًا «أظن أنني سأخلد للنوم»

- «هل سـتفعل؟» قالت جوليا وهي تنهض أيضًا «سـتجد شـمعتك في الخارج» ثم خرجت.

تمنـى سـكوت ليلة سـعيدة، وتبعهـا، بينما بقـي الأشـخاص الأربعة في الغرفة صامتين تمامًا. ثم نهض روبرت وأخذ يمشي مضطربًا.

- «لا ترجـع إليهـم. اقض ليلة في الخارج. توقف هنـا الليلة» قال جِم فجأة بنبرة هادئة وحميمية.

أدار الغريب رأسه ونظر إليه وهو يفكر.

- «نعم؟» قال وهو يبتسم ببرود. فهتفت جوزفين:

- «أوه، ولكـن! زوجتك وأطفالك! ألن ينزعجوا كثيرًا؟ ألن يكون هذا قاسيًا عليهم؟» قالت في لهفة متصاعدة.

جلس وهو يرفع وجهه لها. لم تستطع فهم تعبيره.

- «ألا تعود إلى المنزل لهم؟» قالت في حالة هستيرية.

- «ليس الليلة» أجاب بهدوء، مبتسمًا مرة أخرى.

- «أنت مخطئ!» صاحت «أنت مخطئ!» وأسرعت خارجة وهي تبكي.

- «إيه. في أي سـرير تقترحون وضعه؟» سـأل روبرت بلهجة عسكرية إلى حد ما.

أجاب جِم بسخرية:

- «لا تقتـرح شـيئًا يا بني» قال جِم متهكمًا، فهـو لم يكن يحب روبرت. ثم قال للغريب:

- «هل سـتكون بخير على الأريكة في غرفتي؟ إنها أريكة جيدة، كبيرة بما يكفي، بها الكثير من البُسط» كان صوته عفويًا وحميميًا.

فنظر إليه آرون وأومأ برأسه.

تنـاول كل منهما كأسًـا أخرى، وصعدا أخيـرًا إلى الطابـق العلوي وهما يتعثران قليلًا. حمل آرون قبعته معه.

ظل روبرت يتمشـى في صالة الاسـتقبال لبعض الوقـت. ثم خرج ليعود بعـد قليل. أطفأ المصابيح واطمأن علـى النار ثم ذهب ليحكم إغلاق أبواب النوافذ. ونظر إلى الخارج فرأى وميض الشـموع الغريب على العشـب. كان نصف راغب في الخروج لإطفائها، لكنه لم يفعل، فصعد إلى الطابق العلوي. كان المنزل هادئًا ونتف صغيرة من الثلج الخفيفة تتساقط في الخارج.

عندما استيقظ جِم في الصباح كان آرون قد ذهب وثمة حزمتان من شموع شـجرة عيد الميلاد قد سـقطتا إلى الأرض من جيوب الشخص الغريب. لقد مر عبر باب صالة الاسـتقبال كما جاء. قالـت الخادمة إنها بينما كانت تنظف حاجز المدفأة في غرفة الطعام، سـمعت شـخصًا يدخـل إلى الصالة، كما أن خادمـة الصالون رأت شـخصًا يخرج من غرفة نـوم جِم.لكنّهما كلتيهما ظنّتا أنه جِم نفسه، لأنه كان قليل الاستقرار في المنزل.

ثمة طبقة رقيقة من الثلج، إنه صباح عيد الميلاد الجميل.

الفصل الرابع

عمود الملح[1]

ما زال الوقت مبكرًا على حكايتنا كي ترى ضوء النهار. بعد أيام قلائل من عيد الميلاد جلس آرون في السقيفة المفتوحة أسفل حديقته، متأملًا الظلام الماطر. لم يعرف أحد بوجوده هناك. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً.

من حيث جلس، نظر مباشرة عبر الحديقة إلى المنزل. لم تكن الستارة مسدلة في المطبخ الأوسط، فكان بإمكانه رؤية صور زوجته وواحدة من صغيراته. ثمة ضوء يخرج من نافذة الطابق العلوي. صعدت زوجته إلى هناك مرة أخرى. وتساءل عما إذا كانت الطفلة مريضة. كان يرى شكلها بشكل غامض خلف ستائر الدانتيل في غرفة النوم. كان الأمر أشبه بالنظر إلى منزله من خلال النهاية المعكوسة للتلسكوب. الآن غادرت البنتان الصغيرتان الغرفة الوسطى لتعودا إليها بعد لحظة.

ثم شرد انتباهه، وأبصر الضوء المنبثق من نافذة المنزل المجاور. وتأمل بشيء من الصعوبة كل الصف الممتد من المنازل. كان الشارع ينحدر نحو أسفل التل، بينما انفتحت ظهور البيوت على الحقول، فرأى سلسلة غريبة متعاقبة من النوافذ المضيئة التي نتأت من بينها المباني الخلفية الوسيطة وحجرات الغسيل والمراحيض الخارجية، في كتل صغيرة مظلمة. كانت

1- يروي سفر التكوين قصة زوجة لوط التي أمرها الرب هي وأسرتها بمغادرة سدوم وعمورية قبل أن ينزل عليهما غضبه، لكن الزوجة خالفت أمره بتجنب النظر إلى الوراء فاستحالت إلى عمود من الملح.

أشـبه بلوحة مفاتيح البيانو، بل بالأحرى مثل سلسلة من النوتات الموسيقية. إذ تراوحـت المسـاحات المسـتطيلة مـن الضـوء فـي شـدتها؛ بعضها قوي وساطع، وبعضها ناعم ودافئ مثل ضوء الشموع. ثمة سطح واحد من الضوء الأحمر الخالص، وسـطح واحـد أو اثنان غير مرئيين تقريبًا بسـبب الخضرة الداكنـة. وهكـذا بدا النطـاق الطويل من الأضـواء كأنه يرتعـش عبر الظلام، ساطعًا مرة، خافتًا مرة، منتفخًا أو كابيًا. وخلق ذلك تأثيرًا غريبًا.

كانـت الحيـاة الخاصة لكل من في الشـارع مضفورة فـي الأضواء، وثمة شـعور بتعرٍ غير محتشـم من جهة هذه الظهور المكشـوفة الكثيرة. شـعر أنه على اتصال يكاد يكون جسـديًا بهذا التمطي المعدي للمباني الخلفية. سمع صوت الماء المألوف يتدفق من الحوض إلى الموقد ثم سقوط سطل خارج الباب وطقطقة مجرفة فحم، وسمع قرعاً على باب، وأصواتاً تتردد. كثير من المنازل متلاصقة خدًا بخد. كثير من حيوات تتلوى، كثير من ساحات خلفية وأبواب خلفية تفسح الطريق لليل. إنه لأمر يثير الغثيان.

بعيـدًا فـي الشـارع نفسـه، كان صبـي ينـادي علـى صحيفتـه «أخبـاااار المسـااااء!» كان نـداؤه مثـل عـواء طويل حزين بـدا كأنه يجمع فـي ثناياه كل هذا الليل المظلم، الرطب، السرّي، المكتظ بالسكان. اجتاز شخص ما نافذة منـزل آرون، ودخـل ووقف داخل الغرفة يتحدث إلى السـيدة سسـن. كانت شـابة ترتـدي معطفًا مطريًا بنيًّا وقبعة سـوداء. وقفت تحـت الضوء المتوهج، وكادت قبعتهـا تلامس المصبـاح المعلق. ومن المنـزل المجاور خرج رجل في قميص دون معطف. كان عامل فحم شـابًا ذا شـعر أسـود، وقد هرع نحو البوابـة مـن أجل اقتناء إحـدى الجرائد، خرج مهرولًا حاسـر الـرأس، منتعلًا خفين تحت هذا المطر. ها هو يدخل المنزل بعد أن اقتنى صحيفته. وفي تلك اللحظة خرجت زوجة الشـاب وهي تحمي شـمعتها بقطعة من صفيح. كانت ذاهبـة إلى مخزن الفحم كـي تجلب بعضًا منه. تجاوزهـا زوجها على العتبة. يمكن الآن سـماعها وهي تكسر قطع الفحم وتضعها على مغرفة. سقط ضوء شـمعتها الخافت وراءها. ثم عادت والريـح تدفعها. لكنها ظهرت عند الباب مرة أخرى وأسندت على عجل مجرفها الحديدي إلى الحائط وأغلقت الباب الخلفي بقوة. بدت تلك الضوضاء كأنها تحك جسدها بجسد الليل وتطعنه.

في منزل آرون، كانت الشابة لا تزال تتحدث إلى السيدة سسن. خرجت ملسنت وهي تحمي شمعة بيدها. لكن الشمعة انطفأت فركضت إلى الداخل وخرجت مرة أخرى ومريلتها البيضاء ترفرف. في هذه المرة أكملت رحلتها الصغيرة بأمان. واستطاع أن يرى بصيصًا خافتًا لشمعتها وهو يتسلل من الخزانة.

كانت الشابة تستأذن بالمغادرة، وسمع كلماتها المتعاطفة:

- «حسنًا، تصبحون على خير! آمل ألا تسوء حالتها. ليلة سعيدة يا سيدة سسن»

وخرجت. سمعَ الخبط الممتزج بدويّ الروح للبوابة المطلة على الشارع. وها هي ملسنت تظهر مرة أخرى وهي ترفرف في الداخل.

وقف على قدميه متوازنًا وتأرجح قليلًا قبل أن يبدأ في الحركة، كما يفعل الكثير من عمال الفحم. ثم تحرك قاطعًا الممر نحو المنزل، في المطر والظلام، متقدمًا ببطء شديد.

فجأة انفتح الباب. خرجت زوجته ومعها سطل. انسحب بهدوء إلى حديقته الجانبية، بين الأعشاب العطرية. أمكنه شم رائحة إكليل الجبل والمريمية والنعناع. ثمة جدار منخفض يفصل حديقته عن حديقة جيرانه. وضع يده عليه، رغم بلله، مستعدًا للقفز فوقه إذا تقدمت زوجته. لكنها ألقت فقط محتويات سطلها على الحديقة وعادت مرة أخرى. ربما كانت قد رأته لو نظرت ناحيته. بقي واقفًا حيث هو منصتًا لقطرات المطر وهي تسقط في خزان الماء. امتد الريف المقفر من ورائه. وفي هذا الظلام العاصف كان بإمكانه أحيانًا أن يرى التوهج الأحمر لمنصة منجم نيو برونزويك، أو لآلئ الضوء الرائعة المتجمعة مثل العناقيد في منجم بيستود. وبعيدًا في جوف الظلام، كان الضوء الساطع المنبعث من المحطة الكهربائية يعكر عتمة الليل. ومرة أخرى عصفت الرياح الماطرة عبر كل هذه الحروف الهيروغليفية المكتوبة على صفحة الريف، تلك التي ألِفها كما ألف صدره.

ثمة سيارة تجاهد لارتقاء التل. انتبهت أذنه المدربة إلى ذلك دون وعي. توقفت السيارة مُصدِرة صريراً عالياً. ثم سمع اصطفاق بوابة الفناء وشاهد

مـن خـلال النافذة مرور شـخص قصيـر داكن البشـرة يعتمر قبعة مسـتديرة. كانت ملسـنت تهم بإسدال الستارة. إنه الطبيب. وأسدلت الستارة تمامًا ولم يعد يرى ما وراءها.

بدأ خلسـة بالاقتراب من المنزل. وقف بجانب شـجيرة الورد المتسـلقة عند الشـرفة واسـترق السـمع، ثمة أصوات فـي الطابق العلـوي. ربما كانت الطفلتان في الطابق السفلي. أصغى باهتمام. كانت الأصوات تأتي من الطابق العلـوي فقط. فتح الباب بهدوء: الغرفة فارغة، باسـتثناء الرضيعة التي تهدل في مهدها. عبر إلى الصالة. سمع وهو أسفل الدرج صوت الطبيب الهندي:

- «الآن أيتهـا الفتـاة الصغيرة، عليك فقط أن تبقي في سـريرك سـاكنةً ودافئةً، ولا تكوني كثيرة الشكوى»

دخـل آرون بهدوء إلى الردهة. كانت غرفة باردة رطبة مظلمة. واسـتطاع أن يسـمع خطى تمر بالخارج على الرصيف الأسـفلتي أسـفل النافذة والرياح التي تعـوي بإيقـاع مألـوف. بدأ يتلمـس باحثًا عن شـيء في رف الموسـيقى المظلم بجانـب البيانو. تحسـس بيده - لم يعثـر على ما يريد. شـعر بالارتباك. التفت ونظر من النافذة: من خلال السياج الحديدي للجدار الأمامي، كان بإمكانه رؤية السيارة الصغيرة التي ترسل حزمة الضوء المستقيمة أمامها نحو أعلى الشارع.

جلـس علـى الأريكـة بجانب النافذة. فجأة شـعر بـأن أطرافـه كلها تفقد طاقتهـا، فجلـس وقد غرق رأسـه في صدره ليسـتمع. إنهـا الغرفـة المألوفة والأصوات المألوفة لزوجته وبناته. شعر بالضعف كما لو كان يحتضر. شعر بالضعـف كرجل يغرق، مذعنًـا لمصيره في أعماق الماء. تبـددت قواه، كان يغطس مستسلمًا لكل شيء كي يطفو بعدها مثل رجل غارق.

ثم سمع وقع أقدام وأصواتاً تدنو قادمة من الطابق العلوي. إنهما ينزلان.

- «كلا يـا سـيدة سسـن، لا داعـي للقلق» سـمع صـوت الطبيب على الـدرج. «إذا اسـتمرت كمـا هي، سـتكون بخيـر. عليهـا فقط أن تبقـى دافئة وهادئة -دافئة وهادئة- هذا هو الشيء الرئيسي»

وسمع آرون صوت زوجته:

- «أوه، لا أستطيع الاحتمال وأنا أراها مصابة بتلك النوبات»

كانا في الطابق السفلي. تردد وقع أقدامهما على الممر المكسو بالبلاط. لقد ذهبا إلى الغرفة الوسطى. جلس آرون واستمع:

- «لن تعتريها أية نوبات أخرى. إذا حدث ذلك فأجلسيها وناوليها بضع قطرات من الزجاجة الصغيرة» قال الطبيب «لكنها لن تعاني نوبات أخرى»

- «إذا حدث ذلك فسوف أفقد عقلي، أنا أعلم أنني سأفعل ذلك»

- «كلا، لن يحدث شيء من هذا القبيل. لن تفقدي عقلك. سوف يبقى عقلك في رأسك، حيث يجب أن يكون» اعترض الطبيب.

- «لكن الأمر يكاد يدفعني إلى الجنون»

- «إذن لا تدعيه يدفعك لذلك. أقول لك إن الطفلة لن تموت. ستكون بخير، مع العناية اللازمة. بمن استعنت في السهر عليها الليلة الماضية؟ عليك ألا تسهري معها هذه الليلة. هل تسمعينني؟»

- «الآنسة سميثام قادمة. لكن هذا لن يجدي. يجب أن أسهر عليها. يجب عليّ»

- «أقول لك لا تفعلي. عليك أن تطيعيني. أنا أعرف ما هو جيد لك ولها. أنا أفكر فيك بقدر ما أفكر بها»

- «لكن لا يمكنني تحمل ذلك - بمفردي» وانفرط عقد الدموع. وساد صمت كامل، ثم سمع صوت ملسنت وهي تبكي مع أمها. وكان الطبيب، إن أردنا الحقيقة، يشاطرهما البكاء. لقد كان روحاً متعاطفة حانية تجاوزت الأربعين.

- «لا تهتمي، لا تهتمي. أنتِ لست وحدك» جاء صوت الطبيب العملي، بعد أن نفخ أنفه بقوة «أنا هنا لمساعدتك. سأفعل كل ما بوسعي - كل ما بوسعي»

- «لا أستطيع تحمل هذا» عاودت المرأة البكاء.

حلت برهة أخرى من الصمت، ونفخة أخرى من الأنف، وعاد الطبيب ليقول:

- «عليك أن تتحملي -أقول لك. ليس لديك خيار آخر. سيتعين عليك تحمل هذا- لكننا سنبذل قصارى جهدنا من أجلك. سأبذل كل ما بوسعي

مـن أجلك -دائمًا- دائمًـا -في المرض أو في العافية- هيـا!» لقد نطق هيا بغرابة، دون لكنة هندية.

- «ألـم تردك أخبار عن زوجك؟» سألها، فتنهدت وأجابت:

- «تلقيت رسالة من البنك هذا الصباح»

- «من البنك؟»

- «أخبروني بأنهم سيرسـلون لي مبلغًا شـهريًا منـه، مخصصات، وبأنه بصحة جيدة، لكنه مسافر»

- «حسنًا، لماذا لا تسمحين له بالسفر؟ يمكنك الاستمرار بالعيش»

- «ولكـن أن يتركنـي وحيدة»، ثمة سـخط متقد في صوتهـا «أن يبتعد ويتركني ملقيًا علي كل المسؤولية، أن يتركني مع كل هذا العبء»

- «حسنًا، لن أنزعج بشأنه لو كنت مكانك. ألست أفضل حالًا بدونه؟»

- «أنـا كذلـك، أنا كذلك» هتفت في حدة «عندما تلقيت تلك الرسـالة هـذا الصباح قلت فلتنـزل عليك اللعنة! أنت شـيطان أناني. وآمل أن يحدث له ذلك»

- «حسنًا، حسنًا حسنًا، تمالكي نفسك. لا تغضبي، هذا لن يسهل الأمر، أقول لك»

- «أغضب! أنا غاضبة بالفعل. أنا أسوأ من غاضبة. قبل أسبوع لم تكن فـي رأسـي شـعرة رمادية. أمـا الآن فهـاك انظر» كانـت هناك وقفـة، تحدّث بعدها الطبيب.

- «حسـناً، حسنًا، لا تهتمي. سـتكونين بخير. ولا تقلقي، فشعرك جميل على أي حال»

- «مـا يؤجج غضبي هو ذهابه بهـذه الطريقة -دون كلمة واحدة- يلوذ بالفرار بكل برود. يمكنني قتله بسبب ذلك»

- «هل كنتما سعيدين معًا قبل هذا؟»

- «كنـا بخيـر في البداية. ما أعرفه هو أنني كنت مغرمةً به. لكنه قتل كل شـيء. لقد كان ينأى بنفسـه، ينأى بنفسه على الدوام. لم يكن قادرًا على أن يسلم نفسه لـ...»

حلت برهة من الصمت ثم تنهد الطبيب وقال:

- «آه حسنًا. الزواج لغز. أنا سعيد لأنني لم أتورط فيه»

- «نعم، يحيل حياة بعض النساء إلى شقاء. أنا متأكدة من أن الحياة معه هي الموت بعينه. إنه يبدو كأنه يقتل كل شيء بداخلك. لقد كان رجلًا لا يمكنك أن تتشاجر معه وتنتهي من الأمر. إنه هادئ بارد الأعصاب وأناني بكل معنى الكلمة. لقد عشت معه اثني عشر عامًا، وأعرف معنى ذلك: إنه الموت قتلًا! أنت لا تعرف كيف كان»

- «أعتقد أنني عرفته. رجل لطيف؟ أليس كذلك؟»

- «لطيف الشكل -هناك صورة له في الصالون- التقطت يوم زواجه -وواحدة لي- نعم، إنه أشقر الشعر»

خمّن آرون أنها كانت تجلب شمعة لتدخل إلى الصالون. شيء ما كان يغريه بالانتظار واللقاء بهم وتقبل كل شيء من جديد. لقد تعرض لإغراءات شيطانية. ثم فكر في صوتها، وغمر البرد قلبه. وسرعان ما أذعن لنزوته الأولى، فتحسس ما وراء الأريكة، حيث تنزل الستائر على الأرض. نعم - كانت الحقيبة هناك. حملها بحركة واحدة. وفي طرف عين كان يغادر الغرفة ويمضي على أطراف أصابعه نحو الممر. تراجع إلى الطرف البعيد، قريبًا من الباب المطل على الشارع، ووقف وراء المعاطف المعلقة على الشماعة. في تلك اللحظة دخلت زوجته إلى الممر وهي تحمل شمعة. كانت عيناها محمرتين من البكاء، وبدت ضعيفة واهنة.

- «هل تركتِ باب الصالون مفتوحًا؟» سألت ملسنت بريبة، فأجابتها الأخيرة من المطبخ: «لا»

تبع الطبيب، بدبيبه الشرقي الناعم، السيدة سسن إلى الردهة. ورأى آرون زوجته وهي ترفع الشمعة أمام صورته وتبدأ بالبكاء. لكنه كان يعرفها. وضع الطبيب يده برفق على ذراعها وتركها هناك في ود. حتى إنه لم يرفعها عندما تسللت ملسنت إلى الغرفة وقد بدا عليها الجد والاستغراق في الحزن. بكت الزوجة بصمت وانضمت إليها الطفلة. وقال الطبيب:

- «نعم، أعرفه. إذا كان يعتقد أنه سيكون أكثر سعادة عندما يرحل،

فيجب أن تكوني أنت أيضًا أكثر منه سعادة يا سيدة سسن. هذا كل شيء. لا تدعيه ينتصر عليك بأن يجعلك تعيسةً. استمتعي أنتِ أيضًا. ما زلتِ فتاةً شابة»

لكن دمعة نزلت من عينه، ونفخ أنفه بقوة في منديل حرير أبيض كبير، وأخذ يلمع نظارته الأنفية، ثم استدار. وخرجوا جميعًا من الغرفة.

استأذن الطبيب بالرحيل. وصعدت السيدة سسن مباشرة إلى الطابق العلوي، ثم تبعتها ملسنت، ثم اجتاز آرون، الذي كان واقفًا بلا حراك مثل عمود من الملح، الممرَ إلى غرفة المعيشة. كان وجهه شديد الشحوب كما الموتى. ألقى أثناء مروره نظرة خاطفة على نفسه في المرآة التي فوق رف الموقد، وأحس بالوهن كما لو كان مجرمًا حقًّا. لكن قلبه ظل مثقلًا، فأسرع في ظلام الليل، ونزل إلى الحديقة، وتسلق السياج إلى الحقل، ومضى بعيدًا، عبر الحقل، تحت المطر، باتجاه الطريق السريع.

شعر بالمرض يتسلل إلى كل ألياف جسده. أحس بنوع من المقت حيال حقيبة اليد الصغيرة التي كان يحملها، والتي احتوت الفلوت والبيكولو. بدا ذلك مجرد عبء – مثل حجر رحى معلق بعنقه. لقد كره المشهد الذي تركه، وكره القلب القاسي العصي على النفاذ الذي لا يبرح صدره.

عندما وصل إلى الطريق السريع، رأى عربة ترام طويلة مضاءة تسير تحت المطر. كان الترام يمضي عبر البلاد من مدينة إلى أخرى. لم يجرؤ على الركوب، لأن الناس كانوا يعرفونه. لذلك سلك طريقًا جانبيًا، وسار في منعطف لمسافة ميلين. ثم خرج إلى الطريق السريع مرة أخرى وانتظر عربة ترام. كان المطر يصفق وجهه. وانتظر طويلًا وصول السيارة الأخيرة.

الفصل الخامس

في الأوبرا

وتستـمر قصتنا مع الليل. كانت إحـدى الصديقات قد حجزت لجوزفين فـورد مقصـورة فـي الأوبـرا لأمسـية واحدة. إنهـا مقصـورة كبيـرة وممتازة بالقرب من خشـبة المسرح، جلسـت فيها جوزفين وجوليا مع روبرت وجِم ورجليـن آخرين. جلسـت الامرأتـان في مكان بـارز من مقدمـة المقصورة. كلتاهما فقيرتان، كلتاهما متحمسـتان. كانتا تنتميـان إلى نوع من الناس ينظر إلى الانتصارات الاجتماعية على أنها سـقطات يسـمح بها المرء لنفسه. كان الرجلان، ليلي وسـتروثرز، فنانيـن. الأول أديب والثاني رسـام. جلس ليلي بجانـب جوزفين فـي مقدمة المقصورة: لقد كان شـبلها المدلـل الصغير في هذا المساء.

قلـة من النسـاء يمكنهن الجلـوس في صدر مقصورة كبيـرة في ليلة أوبرا مزدحمة ومفعمة بالحيوية دون شعور بالإثارة وعلو الشأن. إن رأسك ليدور من الثمالة حين تطل من مكانك هذا، بكل بهاء ووضوح، أمام أبصار الحشد الكبيـر الذي يمـلأ صفوف قوقعة المتفرجين الجوفاء. وهكذا إذن، أسـندت جوزفيـن وجوليـا مرفقيهما إلى الحاجز وشـمختا برأسـيهما فـي لفتة تنازل على العالم السـاهر. كانتا امرأتين فقيرتيـن، لا علاقة لهما بالمجتمع، نصف بوهيميتين.

كانت جوزفين فنانة. تعيش في باريس، صديقة لمصمم ديكورات وخياط أزياء أنيقة للغاية، سـيدٍ للأناقة الحديثة. كانت تصمم له الفسـاتين أحيانًا، أو تقبـل منه في أحيان أخرى عمولة لتزييـن غرفة ما. ليس في جعبتها في العادة

إلا آخر قطعة نقدية، فقد كان من دواعي سرورها أن تتنازل للآخرين عن أشيائها الرائعة الباهظة الثمن وترتاح من عناء الاحتفاظ بها.

كان لباسها هذا المساء بسيطًا ولكنه قطعة تُوازن بشكل رائع بين الأسود والفضي، على حد تعبير إحدى المجلات. لقد بدت بشعرها المشدود الأسود اللامع وحاجبيها المقوسين ووجهها المتورد الداكن وكتفيها العاريتين واتزانها الغريب ونظراتها البطيئات المائلات الطوال، غريبة ومخيفة وواضحة مثل نقش على حجر كريم، لكنها غامضة شاردة. أما جوليا فقد كانت مثال الجمال الإنجليزي، بفستانها الأزرق الجميل. كان شعرها منسدلًا بحرية وعلى نحو جذاب فوق جبينها المنخفض. تنقلت عيناها الزرقاوان الغامقتان حول المكان في حماس، وكان فمها العصبي يرتعش وصوتها الغنائي ذو النبرة العالية وضحكتها السريعة مسموعين في القاعة وهي تهز مروحة صغيرة جميلة أهداها إياها فنان راحل.

لم تكونا على دراية بتقاليد علية القوم، فكانتا في المقصورة عندما بدأت افتتاحية الأوبرا: أوبرا عايدة لفيردي[1]. وإذا كان من المستحيل أن تكون في مقصورة مهمة في الأوبرا دون أن يدور رأسك من الثمالة الغريبة للسمو الاجتماعي، فمن المستحيل أيضًا أن تكون فيها دون الشعور بالرعب من المشهد الذي تراه على خشبة المسرح.

انحنت جوزفين على مرفقيها ونظرت إلى الأسفل: لقد عرفت مقدار الفتنة في ذلك الانحناء المتكبر المتكلف لرأسها. كان في عروقها شيء من الدم الأمريكي البدائي. لكنها زمّت شفتيها حين رأت المشهد. لقد نسيت الفنانة في داخلها كل شيء إذ ملأها بالاشمئزاز. إن مصر عايدة الزائفة لم تستر عنها شيئًا من عارها. كان كل المغنين منقوعين بالأصباغ، منقوعين عن عمد في أصباغ برتقالية زاهية. والرجال منهم يلصقون تحت شفاههم قطعًا

1- عايدة: عمل أوبرالي شهير ألفه الموسيقار الإيطالي جوزيبي فيردي (1813-1901) بناءً على طلب من الخديوي إسماعيل وكان مخططًا له أن يعرض خلال احتفالات افتتاح قناة السويس عام 1869. وهو يحكي قصة حب بين الأسيرة الحبشية عايدة وراداميس قائد الجيش المصري الذي حكم عليه فرعون مصر بالإعدام بعد أن ثبتت عليه محاولته للهرب معها إلى الحبشة.

مستطيلة من الصوف الأسـود على أنها لحية الفراعنة الجبابرة. وكانت تلك القطع لا تكف عن الاهتزاز مع الغناء.

أما الأجسـاد السـوقية للنسـاء البدينات فلـم تكن لتطاق. لقـد بدت كلها مثل كتل من اللحم السـمين. ولماذا كانت مؤخراتهن بارزة جدًا؟ هذا سؤال لـم تسـتطع جوزفين حله. فحصت ملابسـهن الباهظة الثمن حقًّا: كل شـيء صحيح ورائع «تقريباً» لكنه يعوز لمسـة الدقة الأخيرة التي يفتقر إليها العالم دائمًا، مسمار التثبيت الأخير الذي ينشر الهدوء والانسجام في هذا البحر من القماش، رغم أنه بعيد كل البعد عن التثبيت الآلي.

لكـن التينـور الرئيـس كان الطامـة الكبـرى[1]؟ كان ضخمًا، قـوي البنية، محيطًا خصره بوشـاح ملون جعله يبدو مثل الخصي. إن هذه النظرة المخنثة المترهلة الضعيفة شائعة في أبطال المسرح، حتى أكثرهم شهرة. غنى التينور بشـجاعة، وخلق فمه فجوة كبيرة متثائبة تشـبه التابوت فـي وجهه البرتقالي، فيمـا رفرفـت لحيتـه الصغيـرة بشـكل غريب أشـبه بالذيـل. رفع عينيـه إلى مقصـورة جوزفين وهـو يغني -هكذا اقتضت التعليمـات المتبعة- واهتزت بطنه وهو يلتقط أنفاسه، وتأرجح لحم ذراعيه العاريتين.

نظرت جوزفين إلى الأسـفل بالرصانة الراسـخة لهنـدي أحمر، في ثبات وغموض. ولم ينتهِ المشـهد حتى رفعت رأسـها كما لو كانت تكسـر تعويذة ما، وأرسـلت طرف لسـانها بسـرعة فـوق شـفتيها الجافتين ونظـرت حولها إلـى المقصـورة، أعربـت عيناها البنيتان عـن الخجل والخوف والاشـمئزاز وقد علت وجهها تكشـيرة غريبة - تكشـيرة لا تراها إلا عندما ترافقها كلمة خـراء[2]. لكنهـا كانـت خائفة لحد المـوت من المجتمـع ومؤسسـاته الثابتة فسـارعت إلى اسـتعراض عيون أصدقائهـا في المقصورة حتـى حطت على عيني ليلي، الرجل القبيح ذي الوجه الداكن.

- «أليس هذا مقززًا؟» تساءلت فأجابها ليلي:

1- التينور أو الصادح هو أعلى طبقات الأصوات الرجالية، وهو كذلك المطرب الذي يملك هذه الطبقة.

2- بالفرنسية في الأصل !Merde...

- «عليكِ ألا تنظري من هذا القرب» لكنه أخذ الأمر ببساطة وهدوء وهو يشعر بسيول من التقزز الحارق وتوق إلى تدميره برمته.

«أوه -هو- هو!» ضحكت جوليا. «إنه مضحك للغاية - مضحك جدًا!»

- «بالطبع، نحن قريبون جدًا». قال روبرت. فعلق ستروثوز مشيراً بحاجبيه إلى امرأة شقراء كبيرة ترتدي الساتان الأبيض بحواف وردية اللون تجلس في مقصورة مقابلة في الطابق العلوي:

- «بل قل إنك معجب بأقراص السكاكر الوردية هناك»

- «أوه، أقراص سكاكر -بالضبط- أقراص سكاكر! نعم، أنا معجبة بها كثيرًا! أليست مثلها بالضبط!» غردت جوليا.

كانت جوزفين تتفحص القاعة. ثمة عدد لا يحصى من الوجوه -مثل حبات الخرز المنظومة في طبقات مختلفة. انحنت لمعارف عديدين- معظمهم أمريكيون يرتدون الزي العسكري. كانت تعرفهم في باريس. ابتسمت للسيدة كوكران التي جلست على مسافة مقصورتين. كانت السيدة كوكرين قد أهدتها المقصورة، لكنها شعرت ببرود تجاهها.

ارتفعت الستارة، وجرجرت الأوبرا مشاهدها في بطء. لقد أحبها الجمهور وهلل لها بحماسة جنونية. وأطلت جوزفين من مكانها على البحر المتلاطم من الإطراء، والقفازات البيضاء المصفقة، والرؤوس المهتزة. كان ضجيجًا غريبًا ومزعجًا. يا للجمهور من كائن مركَّب غريب! لكأن له مليون رأس ومليون يد، ووعي وحشي غير طبيعي. ثم ظهر المغنون أمام الستارة، وارتفع التصفيق مثل سحب من الغبار.

- «أوه، أليس هذا رائعًا جدًا!» هتفت جوليا. «أشعر بإثارة ضارية. هل أنتم جميعًا مثلي؟»

قال ليلي باقتضاب:

- «ضارية للغاية»

- «أين سكوت الليلة؟» سأل ستروثرز.

التفتت إليه جوليا وألقت عليه نظرة طويلة غريبة من عينيها الزرقاوين الداكنتين وقالت بطريقة مبهمة بعض الشيء:

- «إنه في الريف»

- «ألا تعرفون، لقد حصل على منزل في دورست. إنه يريد أن تنزل إليه جوليا وتبقى معه» قال روبرت.

- «وهل تنوي الذهاب؟» سأل ليلي فأجابه روبرت:

- «لم تقرر بعد»

- «أوه! ما وجه اعتراضها؟» سأل ستروثرز.

- «حسنًا، لا شيء على الإطلاق، حسب ما يبدو، باستثناء أنها لا تستطيع اتخاذ قرار». أجاب روبرت. وقال جم بوقاحة:

- «ليس لدى جوليا عقل»

- «أوه! اسمعوا الحكم الأخوي!» أطلقت جوليا ضحكة سريعة.

- «أنت تقصد النزول إلى دورست بمفردها!» قال ستروثرز.

- «ولم لا؟» أجاب روبرت بالنيابة عنها.

- «وحتى متى؟»

- «أوه، طالما استمر الحال» قال روبرت مرة أخرى.

- «ابتداءً من الأبدية وانتهاءً بأسبوعين». قال ليلي.

- «وماذا في الأمر؟ هل ستبدو سيئة في أعين العالم؟»

- «نعم، شيء من هذا القبيل. إنها تخاف من الإساءة إلى سمعتها»

نظر إليهم ليلي وقال:

- «هذا يعتمد على ما تقصده بالعالم. هل تقصدنا نحن الموجودين في هذه المقصورة أم الحشد في الخارج؟» وأشار برأسه نحو القاعة.

- «هل تعتقد يا ليلي أننا العالم؟» قال روبرت بسخرية.

- «أوه، نعم، أعتقد أننا في هذه المقصورة مجرد ناجين من سفينة غارقة، مثلنا مثل روبنسون كروسو. وما نفعله في جزيرتنا الصغيرة لا يهم

سوانا. أما بالنسبة لحشود المتوحشين المولولة التي لا حصر لها في الخارج الكريه، فكل ما عليك فعله هو الحذر كي لا يسلخوك»

- «لكن ألن يفعلوا؟» قال ستروثرز.

- «ليس إلا إذا وضعت رأسك في أيديهم» قال ليلي.

قال جِم:

- «لا أعرف»

لكن الستارة كانت ترتفع، فأسكتوه. وطوال المشهد التالي، كانت جوليا حائـرة حـول ما إذا كان ينبغي عليها النزول إلى الريف والعيش مع سـكوت. لقـد حملت لـه نوعًـا من الحـب العصبـي المبني علـى الانسـجام الروحي والإثارة العاطفية. ولكن هل تذهب وتعيش معه؟ لم تكن تعرف ما إذا كانت تريد ذلك أم لا: ولم تسـتطع، بحياتها، أن تعرف ذلك! كانت في تلك الحالة العصبية التي يبدو فيها أن الرغبة تتبخر في لحظة تحقق الإنجاز.

عندما نزل الستار استدارت وقالت وهي تضيّق عينيها:

- «أنتم ترون، لا بد لي من التفكير في روبرت»

لقد قطعت اسـم روبـرت إلى قسـمين -رو... بـرت- وكان في صوتها ضرب من التعثر.

- «عزيزتـي جوليـا، ألا تصدقيـن أنني سـئمت من تفكيـرك بي» صاح روبـرت وقـد احمـر وجهـه. أطبقـت جوليا عينيهـا بابتسـامة بطيئـة، غريبة، متفكرة. وسألت:

- «حسنًا، وبمن عليَّ أن أفكر؟»

أجابها ليلي:

- «بنفسك»

- «آه، نعـم نعم!! لـم أفكّر بهذا قط!» قالت جوليا ذلك وأتبعته بضحكة صغيرة سـريعة «ولكن ليس من الممتع أن يفكر المرء بنفسـه» ثم هتفت «أنا أفكر بروبرت وسكوت» وضيقت عينيها وراحت تتأمل الصحبة بغرابة.

قال ليلي ساخرًا:

- «من منهما سيجد فيك المتعة الكبرى؟»

- «علـى أي حـال» قاطعهمـا روبـرت بعصبيـة «سـيكون شـيئًا جديدًا بالنسبة لسكوت»

- «بايخة يا صاحبي» قالها جِم بجفاء.

- «أنـا لا أقـول ذلك، لكـن...» صاح روبـرت المتـورد البالغ اللطف مع النساء.

- «منذ متى أنت متزوجة؟ إيه؟» سأل جِم.

- «ست سنوات!» قالت جوليا بلطف.

- «يا ألطاف الله!»

- «كما ترون» قال روبرت «لا تستطيع جوليا أن تقرر أي شيء بنفسها. إنها تنتظر أن يقرر شخص آخر، ثم تضع عصاها في العجلة»

- «أوضح ما تقول» همَّ ستروثرز بالحديث لكن جوليا صاحت:

- «لكن ألا تعرف، لا فائدة من الحديث عن الأمر بوضوح»

- «فهل تريدين أن تكوني مع سكوت إلى الأبد أم لا؟» سأل ليلي.

- «بالضبط!» رن صوت روبرت «هذا هو السؤال الذي يجب أن تجيب عليه جوليا»

- «لـن أجيب عليه. ماذا يرغمني علـى ذلك؟» صاحت جوليا ونظرت بعيدًا إلى خلية النحل التي لا تهدأ على المسـرح. لقد تحدثت بعنف لدرجة أنهـا جذبت الانتباه. لكن هذا أسـعدها نصف سـعادة. وحدقـت بذهول في الفسحة الغائرة المخصصة للفرقة الموسيقية.

نظر الرجال بعضهم إلى بعض في ذعر هزلي.

- «أوه، اللعنة على كل شيء!» قال جِم الطويل وهو يقوم ويمط جسده «إنها مجنونة بسـكوت. إنها مشغوفة به تمامًا. لو لم يكن الأمر بهذه السهولة لكانت قد هربت معه منذ أسـابيع. لا يمكنها تحمل أن يعرض عليها روبرت إيصالها بيده إلى سيارة الأجرة الذاهبة إليه»

ونظـر إلـى الجماعـة بابتسـامته الحاقـدة ثـم خرج. ولـم يظهـر ثانية في المشهد التالي.

- «بالطبـع، إذا كانت تحب سـكوت» شـرع سـتروثرز بالحديث، لكن جوليا استدارت فجأة وصرخت بيأس جامح:

- «أنا أحبه حبًا هائلًا - ها... ثلًا! إنه يدرك ذلك»

- «وهو ما لا ندركه» قال روبرت.

ابتسمت جوليا ابتسامتها الطويلة الغريبة في وجوههم كأنها تتفرس فيهم.

- «ما رأيك يا جوزفين؟» سأل ليلي.

كانـت جوزفيـن تميل إلـى الأمام. أجفلت ومررت لسـانها بسـرعة على شفتيها وتساءلت:

- «نعم»

- «أعتقد أن جوليا يجب أن تذهب مع سـكوت. ستبقى الفكرة تؤرقها حتى تنجزها. إنها تحبه حقًا»

- «بالطبع تحبه» صاح روبرت.

كانت جوليا، بذقنها المسـتندة إلى ذراعيها في وضع يثير حفيظة السـيدة كوكرين المجاورة، تحدق بعينين ساهمتين إلى المقاعد الأمامية.

- «حسـنًا إذن... . قال سـتروثرز. لكن الموسيقى انطلقت بهدوء. كانوا جميعًا يحسون بنوع من الملل.

اسـتمر سـتروثرز في الإدلاء بملاحظات صغيرة نصف مسـموعة، وكان ذلك تصرفًا سيئًا أثار حفيظة جوزفين، مُضيفة الأمسية. وعندما أُسدل الستار فـي نهاية الفصل، قام الرجال. وظهـرت تاني زوجة ليلي فجأة. لقد حضرت بعد ارتباط بعشاء.

- «هل تريدون شايًا أو أي شيء آخر؟» سأل ليلي.

رفضـت النسـاء، فيمـا انسـلّ الرجـال إلـى الممـر المنحنـي ذي اللونين القرمزي والأبيض. بقيت جوليا وجوزفين وتاني في المقصورة، وسـرعانما انخرطت تاني في الحديث الذي كان يجري.

- «بالطبـع» قالت تاني «هذه الأمور لا يمكن فيها للمرء اتخاذ قرارات بسهولةٍ مثل قرار شرب كوب من الشاي»

- «طبعًا، لا يمكن للمرء ذلك يا عزيزتي تاني» قالت جوليا.

- «علـى كل حـال، لا تترك المرأة زوجها كل يـوم لتذهب وتعيش مع رجل آخر. حتى لو اعتبرنا ذلك مجرد تجربة»

- «هذا صعب!» هتفت جوليا. «هذا صعب! أشعر أنهم جميعًا يريدون إجباري على اتخاذ القرار. هذه قسوة»

- «أوه، يا للرجال ومنطقهم البغيض! أعني لعبة إمّا هذا وإما ذاك. إنهم السـأم بعينه. لكن روبرت لا يسـتطيع بالطبع أن يحبك حقًّا، وإلا لأصرّ على الاحتفاظ بك. أسـتطيع أن أرى ليلي وهو يناقش مثل هذا الشيء بالنسبة لي. ولكن هذا يعني إذن أنك أيضًا لا تحبين روبرت»

- «بلـى أفعـل! أوه، أنـا أفعل يـا تاني! أنا أحبـه، أحبه كثيـرًا. أعتقد أنه جميـل. روبرت جميـل. ويحتاجنـي. وأنا أحتاجـه أيضًا أحتـاج إلى دعمه. نعم، أنا أحبه»

- «لكنك تحبين سكوت أكثر منه» قالت تاني.

أجابت جوليا في نغمة طويلة:

- «هذا فقط لأنه، لأنه مختلف. أنتِ تعرفين أن سـكوت لديه فنه. وهذا أمـر له أهميته. أما رو...برت فهو هـاوٍ. ألا تعتقدين ذلك. إنه هاوٍ» وضيقت عينيها وهي تنظر إلى تاني التي أجابت بعد تأمل:

- «بالطبع لكن لا أعتقد أن هذا مهم»

- «بل هو مهم للغاية، عزيزتي تاني، مهم بشكل كبير»

- «بالطبع» غيرت تاني مجرى الحديث «أسـتطيع أن أرى نقاط جذب رائعة في سكوت - دفئًا رائعًا في مكان ما»

- «بالضبط!» هتفت جوليا. «إنه *يفهم*!»

- «وأعتقد أنه فنان حقيقي. يمكنك حتى أن تعملي معه. يمكنك كتابة نصوص أوبراته»

- «نعم! نعم!» تحدثت جوليا بهمس طويل متفكر. وقالت تاني بحماسة:

- «قد يكون الأمر رائعًا»

- «نعم! ربما! ربما!» فكرت جوليا ثم ارتعشت فجأة وضحكت على عجل كأنها تبتعد عن خط تفكيرها.

- «ألن يكون روبرت حبيبًا رائعًا لجوزفين! أوه، أليس هذا رائعًا!» هتفت وهي تطلق ضحكتها المجلجلة، فاستدارت جوزفين، التي كانت تحدق في الأوركسترا، وقد احمر وجهها بشدة وقالت متألمة:

- «لكنني لا أريد عشيقًا يا جوليا»

- «رفيقتي جوزفين! يا جوزفين العزيزة!» صاحت جوليا بضحكتها المرتعشة «هل أنت حقًّا لا تريدين؟! أوه، نعم، أنت تريدين - أما أنا فأريد واحدًا بشدة. روبرت يناسبني للغاية، لكننا تزوجنا منذ ست سنوات، وهذا يحدث فرقًا، أليس كذلك يا عزيزتي تاني؟»

- «فرقًا عظيمًا» أجابت تاني.

- «نعم، هذا يحدث فرقًا، يحدث فرقًا» رددت جوليا وهي تتأمل «عزيزي رو-برت. لن أؤذيه نظير كل العوالم. لن أفعل. هل تعتقدان أن الأمر سيؤذي روبرت؟» وضيّقت عينيها من جديدٍ، ناظرة إلى تاني التي قالت:

- «ربما كان من الأفضل له أن يتأذى قليلًا. إنه يتمتع بتغذية جيدة»

- «نعم! نعم! أدرك ما تعنينه يا تاني! رو-برت العزيز المسكين! أوه، رو-برت العزيز المسكين! إنه يافع جدًّا!»

- «هو يبدو شابًا. على المرء أن لا يغفر ذلك» قالت تاني، فأجابت جوليا:

- «إنه شاب» قالت جوليا «أنا أكبر منه بخمس سنوات. ما زال في السابعة والعشرين من عمره. روبرت العزيز المسكين»

- «روبرت شاب وعديم الخبرة». قالت جوزفين فجأة وهي تلتفت غاضبة «لكنني لا أعرف لماذا تتحدثين عنه»

- «هل هو عديم الخبرة يا عزيزتي جوزفين؟ هل هو كذلك؟» سألت جوليا فتورد وجه جوزفين في الظلام واستدارت، فقالت تاني بخشونة:

- «آه، إنه ليس بريئًا كما تقولين. هؤلاء الشباب الذين يبدون حديثي

الـولادة عميقون بما يكفي حقًّا. إنهم في الحقيقة أقل براءة بكثير من الرجال ذوي الخبرة»

- «إنهـم كذلك، أليسـوا كذلك يا تاني» كـررت جوليا بهدوء «إنهم كبار في السن - أقدم أحيانًا من عجوز البحار[1] أليس كذلك؟ كبار في السن بشكل لا يصدق، مثل الأولاد الصغار الذين يعرفون الكثير - أليس كذلك؟ نعم!»

تحدثـت بهـدوء، بجديـة، كما لو كان الـكلام قد نفذ فيها. وفي الأسـفل كانـت الأوركسـترا تأخذ مكانها. وكانت جوزفيـن تراقب عن كثب. أدركت جوليا ذلك فسألت:

- «جوزفين، هل ترين أحدًا نعرفه؟»

- «لا» أجفلـت جوزفيـن ثم أجابـت وهي تنظر إلى صديقاتها بسـرعة ومكر.

- «صديقتي العزيزة جوزفين» قالت جوليا «إنها تعرف كل أنواع الناس»

في تلك اللحظة عاد الرجال فهتفت لهم تاني:

- «هل عدتم حقًّا!»

جلسـوا دون إجابـة. مـطَّ جِم جسـمه قدر اسـتطاعته في تلك المسـاحة الضيقـة ونظر إلى الأعلى، مجعداً وجهه القبيح الغريب. كان من الواضح أنه كان في أحد تقلباته المزاجية.

- «فقط لو أحبني شـخص ما!» اشـتكى جِم «سـأكون بخيـر إذا أحبني شخص ما. إنني أتمزق أشلاءً» ثم جلس ونظر في وجوه النساء.

- «لكننـا جميعًـا نحبـك. لمـاذا لسـت راضيًـا؟» قالـت جوزفيـن وهي تضحك بصعوبة.

- «لست راضيًا. لست راضيًا» غمغم جِم.

- «هل تريد أن تُلَف في قماط وتوضع على الصدر؟» سأل ليلي معترضاً.

فتح جِم فمه مبتسمًا، وأطال النظر بضغينة إلى السائل ثم أجاب:

1- شيخ البحر العجوز شخصية تظهر في العديد من الأساطير الإغريقية وكذلك في حكايات السندباد وهو رجل عجوز يمتطي ظهر ضحيته ويتحول من شكل إلى آخر.

- «نعـم» ثم مـدد أطرافه وجسـده الطويـل ذا الأقدام السـتة طولاً عبر المقصورة من جديد.

قالت تاني:

- «عليك أن تحاول حب شخص ما، من أجل التغيير. لقد كنت محبوبًا لمرات كثيرة. لماذا لا تحاول أن تحب أحدًا ما؟»

نظر إليها جِم بضيق وقال بنبرة قاسية:

- «لم أستطع أن أحبك»

- «يا للسـاعة المحظوظة!» قالت تاني. لكن جم غطّس ذقنه في صدره وكرر بعناد:

- «أريد أن أكون محبوبًا»

- «كـم مـرة أحببت؟» سـأله روبرت «سـتكون معرفـة ذلك أمـرًا مثيرًا للاهتمام»

نظر جِم إلى روبرت مطوّلًا لكنه لم يرد.

- «هل عددت المرات؟» أصرت تاني.

نظر إليها جِم في غِلّ وأجاب:

- «أعتقد أنني فعلت»

- «الأربعون هو العمر الذي يجب أن يبدأ فيه الرجلُ العدَّ» قال ليلي.

وفجأة نهض جم واقفًا ولوح مهددًا بقبضتيه وقال:

- «سأعرف كيف أرد لكم الصاع صاعين!»

نظـر إليهـم من تحت جبينـه المتجعد بينما رمقت جوزفيـن الذين حولها وقد شحب لونها. كانت تخاف منه وتكرهه بشدة هذه الأيام.

- «هل تعرفون أي شخص في الأوركسترا؟» تساءلت.

صمـت جميع مـن في المقصـورة تمامًا ونظـروا إلى الأسـفل. كان قائد الفرقة قد اتخذ مكانه، وبدأت الموسيقى. ظلـوا جميعًا صامتين وبلا حراك خلال المشهد التالي وكل منهم غارق في أفكاره الخاصة. كان جِم متضايقًا. أراد أن يحسـن صنعًا فجلس ومرفقاه على ركبتيه، مبتسـمًا، ناظرًا إلى أسفل. لكنه انتصب فجأة في الفاصلة التالية.

- «إنه الشاب - ماذا؟» صاح بحماس، مديرًا نظره إلى أصدقائه.

- «من؟» سألت تاني.

- «إنه هو؟» قالت جوزفين بهدوء، حين التقت عينها بعين جِم.

- «بالتأكيد!» صاح بصوت يشبه النباح. كان يميل إلى الأمام على الحافة، ويتلو بسرعة ورقة البرنامج التي في يده، كما لو كان يحاول جذب الانتباه. ثم أشار بيده وصاح منتصرًا.

- «ها هو ذا! هذا هو الشاب»

- «من؟ من؟» هتف الجميع.

لكن جِم وجوزفين لم يجيبا. كانت الفقرة التالية فاصلًا زمنيًا طويلًا. حدق جِم وجوزفين في الأوركسترا. كان الموسيقيون يضعون آلاتهم جانبًا وينهضون، وبدأ الستار الثقيل القبيح بالنزول ببطء. وفجأة انتصب جِم.

- «أهذا الرجل آرون سسن؟» سأل روبرت.

- «أين؟ أين؟» صرخت جوليا «غير ممكن»

لكن وجه جوزفين كان متكتمًا وصامتًا، ولم تجب.

انتقلت المجموعة بأكملها إلى الممشى المكسو بالسجاد القرمزي. كانت مجموعات من الناس قد تحلقت للدردشة، فيما يمر بهم رجال ونساء لزيارة بعضهم بعضًا أو طلبًا للمشروبات. نظرت حلقة جوزفين حولها، وتحدثت طويلًا ودون هدف، ثم شاهدوا جِم يتقدم متبختراً وهو يقود آرون سسن من ذراعه. كان جِم يبتسم، لكن عازف الفلوت بدا غير متحمس. كان مظهره جميلًا، مسترخيًا، بقميصه الأبيض وشعره الأشقر اللطيف، مثل أي سيد مهذبٍ نبيل.

- «حسنًا!» صاحت به جوزفين «كيف أتيت إلى هنا؟»

فأجاب وهو يصافحها:

- «أنا أعزف على الفلوت»

وقف الجمع الصغير في الممر وأخذ يتجاذب أطراف الحديث.

- «كم هو رائع أن تكون هنا!» هتفت جوليا فضحك وقال:

- «هل تعتقدين ذلك؟»

- «نعم، بالتأكيد - يبدو بعيدًا جدًا عن شتل هاوس وعشية عيد الميلاد. أوه، ألم يكن شيئًا مثيرًا!»

نظر آرون إليها ولم يجب.

- «لقد سمعنا كل شيء عنك» قالت تاني مازحةً فأجاب:

- «أوه، نعم»

- «تعالوا!» قالت جوزفين ببعض التوتر «نحن نسبب ازدحاماً في الممر» وتقدمتهم نحو المقصورة.

وقف آرون وأطل على المسرح الغارق في الفوضى وقال:

- «تستطيعون رؤية كل شيء من هنا»

- «نعم هذا صحيح، أليس كذلك!» صاحت جوليا.

- «بأكثر مما يفيدنا». قال ليلي.

- «أخبرنا بما تفعله. هل لديك وظيفة دائمة؟» سألت جوزفين.

- «نعم، في الوقت الحاضر»

- «آه! هذا أكثر تشويقًا من وجودك في بيلدوفر».

جلست في مقعدها. ونظر إلى وجهها الداكن الفتي. كان صوتها دائمًا واضحًا ومحسوبًا. قال مبتسمًا:

- «إنه تغيير»

- «أوه، لا بد أن يكون أكثر من ذلك. لا بد أنه يشعرك بفرق كامل. إنها لحياة جديدة بالكامل»

ابتسم كأنه يضحك عليها بصمت، فاحمر وجهها لكنها ألحت قائلة:

- «ولكن أليس الأمر كذلك؟»

- «نعم، قد يكون كذلك»

بدا كأنه مستمتع بهدوء، لكنه منفصل عنهم. لم يكن أي من الأشخاص الموجودين في المقصورة حقيقيًا تمامًا بالنسبة له. لم يكن مستمتعًا حقًا.

وجدته جوليا مملًا، غبيًا، كما شعرت تاني بالإهانة لأنه لم يستطع ملاحظتها. ظل الرجال صامتين عمليًا.

قال جِم:

- «أنت شاب كنت آمل دائمًا أن يظهر مرة أخرى»

- «نعم بالتأكيد!» أجاب آرون مبتسمًا كأنه سعيد بقوله.

- «لكنه قد لا يحبنا! ربما ليس سعيدًا لأننا ظهرنا له» قالت جوليا تاركة لدغتها لتفعل فعلها.

استدار عازف الفلوت ونظر إليها.

- «لا يمكنك تذكرنا، أليس كذلك؟» سألته جوليا فأجاب:

- «نعم. يمكنني تذكركم»

ضحكت وقالت:

- «أوه. أنت لا تعرف الإطراء»

كان منزعجًا. لم يكن يعرف ما الذي تسعى إليه.

- «كيف حال زوجتك وأولادك؟» سألت، تواقة إلى الإغاظة.

- «بخير، على ما أعتقد»

- «لكن هل عدت إليهم؟» هتفت جوزفين في ذعر.

نظر إليها، نظرة متمهلة نصف مبتسمة، لكنه لم ينبس بشيء.

- «تعال لنتناول مشـروباً. اللعنة على النسـاء» قالها جِم بفظاظة، ممسكًا بآرون من ذراعه، وجره بعيدًا.

الفصل السادس

حديث

بقي الفريق حتى نهاية الأوبرا التي لا تريد الانتهاء. لقد اتفقوا على انتظار آرون الذي كان عليه أن يأتي إلى الدهليز لملاقاتهم بعد العرض. مشـوا على مهل إلى أسفل الدرج نحو زحام بهو المدخل المدوّم اللاغط.

النـاس، السـجادة الحمـراء، أشـجار النخيل الخضـراء المرسـومة على الجـدران الكريميـة والمذهبـة، دوامـات حيـوات صغيـرة عنـد المداخـل المفتوحة المعتمة، رجال في قبعات الأوبرا يتخذون سـبيلهم في اندفاع. إنه المشـهد القديم. لكن لم تكن هناك سـيارات أجرة – لم تكن هناك سيارات أجرة على الإطلاق، وكانت السـماء تمطر. دسـت النساء في أقدامهن أحذيةً كن قد جلبنها لحسن الحظ. وتأرجح جِم وسط الحشد مرتديًا قبعته الطويلة، باحثًا عن عازف الفلوت.

وأخيـرًا عثـروا على آرون الـذي كان يرتدي قبعة مسـتديرة. كانت جوليا تتـأوه مضطربـة منزعجة بينما غضّنـت جوزفين جبينها. لم يعـنِ ذلك أن أي شـخص يهتم حقًّا، ولكن بما أن المرء يجد نفسه مرغمًا على استهجان شيء مـا، فلمـاذا لا يكون ذلك هو ارتداء قبعة مسـتديرة؟ أصر المعارف والشـبان الأنيقون الذين يرتدون الزي العسـكري على التقـدم والانحناء وتبادل بضع كلمـات مـع جوزفيـن أو جِم أو جوليا أو ليلـي، لكنهم تلقوا اسـتقبالًا باردًا. انحرفت المجموعة إلى الخارج نحو أحضان الليل.

لفت النسـاء معاطفهن حول أجسـادهن، وانطلقن مسرعات وهن يشعرن ببعـض الاشـمئزاز من الازدحام والأرصفـة الرطبة. لم يكـن عليهن الذهاب

بعيـدًا. لا أبعـد من غرف جِم فـي أدلفي. قاد جِم آرون ممسـكًا إياه من ذراعه وضاغطًا عضلاته قليلًا. لقد شعر بارتياح كبير لأنه يمسك بين أصابعه عضلات ذراع رجـل عامل، واحد من عامـة الناس، مهد الحياة الحديثـة ومنبعها. كان جِم يتحدث بشـكل غامـض إلى حد ما عن حزب العمل وروبرت سـميلي[1] والبلشفية. كان منحازًا بكليته إلى جانب الثورة وانتصار العمال.

وهكـذا وصلـوا، وارتقوا سـلمًا مظلمًا حتـى دخلوا غرفة فسـيحة أنيقة، واحـدة مـن غـرف آدم[2]. كان جِم قـد أثثها مـن متاجر هيلز بسـتائر مخططة خضـراء وبيضـاء وصفراء وأرجوانيـة غامقة وسـجادة ذات مربعات خضراء وسـوداء وكنبة وكراسٍ كبيرة مخططة. وسـرعان ما توهجت نار غازيّة كبيرة في الموقد القديم الأنيق فبدت الغرفة المبطنة بالألواح دافئة ومريحة.

بينما كان جِم يوزع المشـروبات والسندويشـات، وجوزفين تعد الشاي، كان روبـرت يعزف باخ على البيانو - بالأحرى البيانولا[3]. كانت الكراسـي والكنبـة مصفوفـة في نصف دائرة حـول النار. تخلص الفريـق من معاطفهم وغرقـوا عميقًا في هذه الراحة الباهظة الثمـن لبوهيميا الحديثة. لقد احتاجوا إلـى بـاخ للتخلـص من الطعم السـيئ الـذي تركته عايـدة فـي أفواههم. لقد احتاجوا إلى الويسـكي والكوراسـو ليوقظـوا أرواحهم[4]. لقـد احتاجوا إلى الراحـة العميقـة التي يغوصـون فيها بعيدًا عـن العالـم. كل الرجال، باسـتثناء آرون، مـروا بالحـرب بطريقـة أو بأخـرى. لكن كانـوا هنا في البيئـة القديمة بالضبط، في الروتين البوهيمي القديم.

رن الجـرس فنـزل جِم إلى الطابق السـفلي وعاد بعد قليل مـع امرأة نحيلة وأنيقـة - عصريـة أكثـر منهـا بوهيميـة. كانت بشـرتها بيـن السـمرة وبياض القشطة، إيرلندية، ذات شفة علوية مرفوعة قليلًا مما يعطيها مظهرًا حزينًا مثيرًا للشفقة. رمت معطفها وجلست بجوار جوليا وأمسكت يدها برقة وسألتها:

1- روبرت سيميلي: 1857-1940 قائد نقابي وعمالي وزعيم لعمال المناجم.

2- غرف آدم: نسبة إلى طراز فخم من الأثاث صممه الأخوان آدم في القرن الثامن عشر

3- بيانو ذاتي العزف يحتوي على آلية هوائية أو كهروميكانيكية تعمل على تشغيل عمل البيانو عبر موسيقى مبرمجة مسجلة على ورق مثقوب أو لفات معدنية.

4- شراب مسكر منكه بقشر البرتقال المجفف.

- «كيف حالك حبيبتي؟»
- «نعم. أنا سعيدة» أجابت جوليا وهي تبتسم ابتسامة غريبة.
توقف البيانولا، وتحدثوا جميعًا بشكل عشوائي. كان جِم يتأمل الوافدة الجديدة -السيدة براوننج- بتكشيرة ذئب مركَّزة. ثم قال أخيرًا:
- «أنها تعجبني. لقد رأيتُها من قبل، أليس كذلك؟ - إنها تعجبني كثيرًا»
- «نعم» قالت جوزفين مع ضحكة مقتضبة «إنه يريد أن يكون محبوبًا»
- «آه» صاحت كلاريس «وأنا أيضًا!»
- «إذاً ها أنتما ذانك!» هتفت تاني فصاحت كلاريس من جديد:
- «يا للحسرة، لا، ليس الأمر كذلك»
كانت جميلة أيضًا، بشفتها العليا المرفوعة.
- «كلانا يريد أن يكون محبوبًا، ولذا سيفوِّت واحدنا الآخر تمامًا. إننا نجري في خطين متوازيين لا يمكن أن يلتقيا أبدًا»
وضحكت ضحكة خفيضة نصف حزينة.
- «ألا تحبك؟» قال آرون لجِم باستمتاع وهو يشير إلى جوزفين «ظننتكما مخطوبين»
- «ها!» نظر جِم إلى جوزفين بحقد «إنها لا تحبني»
- «هل هذا صحيح؟» سأل روبرت جوزفين التي أجابت:
- «حسنًا، نعم. لماذا يجعلني أصرح هنا بأنني لا أحبه!»
- «فهمتك يا فتاتي» قال جِم.
- «ما من خطوبة إذن؟» قال روبرت. فعلق جِم بطريقة شريرة:
- «استمع إلى اللغو الذي يصنعه الحمقى في اندفاعهم»
- «كلا، لقد فسِخَت الخطوبة» قالت جوزفين.
- «إن العالم لينهار شيئًا فشيئًا». قال ليلي.
كان جم يتلوى في كرسيه، فبدا مثل تنين صيني شيطاني، شيطاني. وعم الغرفة جو من القلق والترقب.
- «ما الذي يسبب لك مثل هذا المغص من أجل الحب يا جِم؟» سأل ليلي «أمن أجل أن تكون محبوبًا؟ لماذا تتحرق إلى أن تكون محبوبًا؟»
- «لأنني أحب ذلك، اللعنة عليك» صاح جِم «لأنني في حاجة إليه»

لـم يعـرف أي منهم تمامًـا إن كان يجب عليهم اعتبارهـا مزحة. لقد كان الأمر حقيقيًا جدًا لدرجة أنه لا يمكن أن يكون ممتعًا.

- «لمـاذا تتصـرف كالأطفال؟» قال ليلي «ها أنت. طولك سـتة أقدام، كنت ضابطًا في سـلاح الفرسـان وقاتلت في حربين، لكنك تقضي وقتك في البكاء من أجل أن يحبك شخص ما. أنت مضحك»

- «هل أنا كذلك؟» قال جِم. «إنني أحتضر. إنني أضمر»

قال ليلي:

- «لا يبدو عليك أنك تحتضر»

- «ألا أفعل؟ بلى، إنني كذلك. إنني أموت»

- «ما السبب؟ الافتقار إلى الحياة؟»

- «هذا كل شيء يا ديكي الفتيّ. الحياة تفارقني»

- «من الأفضل إذا أن تغني لها أغنية توستي[1]»

وفجـأة قفز جِـم، مركز اهتمـام المجموعة، الـذي كان ممدداً سـاقيه في كرسيه، إلى الأمام، ودفع وجهه المكشر في وجه ليلي وقال:

- «إنـك لشـخص مضحـك، مضحك» ثـم اسـتدار في كرسـيه ورأى كلاريـس جالسـة عنـد قدمي جوليـا وذراعهـا البيضاء فـوق ركبـة صديقتها فدفـع خطمه علـى الفور وأخـذ يحدق فيهـا. كانت كلاريس قـد حلّت كتل شـعرها السـميك المحمر فتدلّـت نصف حرة. كان وجهها شـاحبًا وشـفتها العليا مرفوعة في عاطفة غريبة! وتدلى ياقوت وردي من أذنيها.

- «إنها تعجبني» قال جِم «ما اسمها؟»

- «السّيدة براوننغ. لا تكن فظًا هكذا» قالت جوزفين.

- «تبدو شهية مثل صلصة براوننغ[2] هل لها قرابة مع روبرت؟»

- «نعم بالتأكيد! تستطيع أن تسأل زوجي» جاء الصوت الحزين البطيء لكلاريس.

1- أغنية الوداع: واحدة من أشهر أغنيات المؤلف والموسيقار الإيطالي باولو توستي (1916-1846)

2- يشير هنا إلى التشابه بين اسم السيدة براوننغ ونوع من الصلصلة التي تحمل الاسم نفسه وتضاف إلى خلاصة اللحم.

- «لديك زوج. حقًّا؟»
- «نوعاً ما! أليس كذلك يا جولي؟»
- «نعم» قالت جوليا بغموض وأسى «نعم يا عزيزتي»
- «وطفلان لطيفان» أضاف روبرت.
- «لا! أنت لا تعنين ذلك!» قال جِم. «من هو زوجك؟ شخص معين؟»
- «نوعاً ما!» جاء الصوت العميق لكلاريس. «يبدو ذلك»

حـدق جم مبتسـمًا وقد بـرزت أسـنانه المدببـة، واقترب أكثـر فأكثر من كلاريـس التي جلسـت دون حراك في فسـتان سـهرة أرجوانـي وفضي على سـجادة الموقد السـوداء العميقة وذراعها فوق ركبة جوليا، دون أن تعير جِم الكثير من الانتباه، على الرغم من أنه كان يسليها.

- «أنا معجب بك إلى أبعد حد» كرر جِم فأجابته:
- «شكرًا. أنا متأكدة من ذلك»

كان الآخرون يضحكون ويتربعون في مقاعدهم ويحتسـون الكوراسـاو ويدخنون أو يتناولون شـطيرة. جلس آرون سسـن على حدة منتصبًا مبتسـمًا بتردد. راقبته جوزفين وكان لسـانها المدبب يمر من حين لآخر على شفتيها. ثم قاطعتهما:

- «لكننـي متأكـدة. هذا ليس ممتعًـا للآخرين. إنه ممـل للغاية! لا تكن سخيفًا طوال الوقت يا جِم وإلا وجب علينا أن نعود إلى البيت»

نظـر إليها جِـم بعينين ضيقتيـن. كان يكره صوتها. ثبتـت عينيها في عينيه للحظـة، ثـم وضعت سـيجارتها بين شـفتيها. كان روبرت يراقبهمـا كليهما. أخرجت جوزفين سيجارتها من شفتيها مرة أخرى وقالت:

- «أخبرنا عن نفسك، سيد سسن. هل تحب إقامتك في لندن؟»
- «أحب لندن» أجاب آرون.

أين كان يعيش؟ بلومزبري. هل يعرف الكثير من الناس؟ لا، لا أحد سوى رجل في الأوركسترا. كيف حصل على وظيفته؟ من خلال وكيل. إلخ إلخ.

- «ما رأيك بعمال المناجم؟» قال جِم فجأة، مغيراً مجرى الحديث.
- «أنا؟» قال سسن «أنا لا أفهم شيئًا منهم»
- «هل تعتقد أنهم سيتخذون موقفًا ضد الحكومة؟»

- «لأي غرض؟»
- «التأميم»
- «ربما، في يوم من الأيام»
- «هل تعتقد أنهم سيقاتلون؟»
- «يقاتلون؟»
- «نعم»

جلس آرون ضاحكًا.

- «ما الذي لديهم ليقاتلوا من أجله؟»
- «عجبًا، كل شـيء! وما الذي ليس لديهم ليقاتلوا من أجله؟» صرخت جوزفيـن بشـدة «الحريـة والانعتاق والهـروب من هـذا النظـام الحقير. ألن يقاتلوا من أجل ذلك؟»

جلس آرون مبتسمًا ويهز رأسه ببطء وقال:

- «لا، عليكم ألّا تسألوني عما سيفعلونه - لقد تركتهم للتو وإلى الأبد. سوف يماحكون كثيرًا».
- «لكن ألن يفعلوا شيئًا؟» صاحت جوزفين.
- «يفعلون شيئًا؟. وكيف هذا؟»
- «حسناً، كأن يتحَدوا الحكومة ويأخذوا الأمور بأيديهم».
- «ربما، في وقت ما».
- «أتمنـى أن يفعلـوا!» هتفت جوزفين. «يا إلهي، كم كنت أود لو أنهم قاموا بثورة دموية!»

كانوا جميعًا ينظرون إليها الآن. كان حاجباها الأسودان يرتعشان، وبدت في ثوبها الأسود والفضي كأنها رمز لكارثة فتية.

- «هل يجب أن تكون دامية يا جوزفين؟» قال روبرت.
- «أي نعـم» قالـت جوزفيـن «أنـا لا أؤمـن بالثورات غيـر الدموية. لا أحبها! سأكون في المقدمة بعلم أحمر»

قالت تاني:

- «سيكون الأمر ممتعًا»
- «أليس كذلك!» هتفت جوزفين.

- «أوه، يـا لعزيزتي جوزي!» هتفت جوليا بهسـتيرية «أليسـت بلشـفية حمراء متحمسة! سيكون هذا مخيفًا»
- «لا!» صاحت جوزفين «سأحب ذلك»
قال جِم بصوت مغوٍ:
- «وأنا كذلك. ما سعر الرشاشات في نهاية الستراند[1] هذا يوم علينا أن نعيش من أجله، مرحى؟»
- «هـا! هـا!» ضحكت كلاريس ضحكتهـا العميقة «لقـد صرنا جميعًا بلاشفة. سوف أهتف عاليًا».
- «لا أمانع أن أُقتَل» قالت جوزفين.
قال روبرت:
- «لكـن، جوزفين، ألا تعتقدين أننا نلنا ما يكفي من هذه الأمور خلال الحرب؟ ألا تعتقدين أن الأمر كله غبي وغير مقنع؟»
- «آه، لكـن الحـرب الأهليـة سـتكون مختلفـة. لا أهتم أبـدًا بمحاربة الألمان. لكن الحرب الأهلية ستكون مختلفة»
- «هذه حقيقة، ستكون كذلك». قال جِم، فعقب روبرت:
- «فقط أسوأ إلى حد ما»
صاحت جوزفين:
- «لا، لا أوافقك الرأي. في الحرب الأهلية ستشعر بأنك تفعل شيئًا ما»
قال ليلي:
- «تسوية البيت بالأرض»
- «نعـم. ألا تكرهـه، هذا المنزل الذي نعيش فيـه - ولندن، وإنجلترا، وأمريكا! ألا تكرهها؟»
- «أنا لا أحبها. لكنني لن أنال الكثير من النار من كرهي لها. وسيعميني دخانها على الأرجح» قال ليلي.
- «صحيـح!» قال آرون وهو يتحرك فجأة في كرسـيه. ونظر هو وليلي بعضهما إلى بعض نظرة إقرار بالفضل.
- «مع ذلك» قالت تاني «لا بد من الخلاص في يوم من الأيام»

1- الستراند شارع رئيسي وسط لندن

- «أوه» قالت كلاريس وهي تمطّ الأحرف «كلّي توقٌ لتسوية البيت بالأرض، ولا أريد، عندما ينهض ثانية، سوى تدفئة مركزية أريد تدفئة مركزية وطاهيًا ماهرًا»

- «هل لي أن آتي إلى العشاء؟» قال جِم.

- «نعم بالتأكيد. لكنك ستجده شعبيًا إلى حد ما»

- «أين تعيش؟»

- «بعيدًا جدًا الآن - أمرشام»

- «أمرشام؟ أين ذلك؟»

- «أوه، إنه على الخريطة»

ساد هدوء قصير. تناول جِم مشروبًا وهو واقف عند البوفيه. كان رجلًا مليحًا طويل القامة عسكري المظهر، وكان وجهه غريبًا بشاربه الرملي الصغير وجبهته الصلعاء. جلس آرون سسن يراقبه بغير وعي.

- «مرحبًا يا هذا!» قال جِم «أتريد كأسًا؟»

هز آرون رأسه، ولم يلحّ عليه جِم، كان هذا توفيرًا للمشروبات.

- «أنت تؤمن بالحب، أليس كذلك؟» قال جم، وهو يجلس بالقرب من آرون، مبتسمًا له.

- «الحب!» قال آرون.

- «إنه يقول الحب!» قال جِم متهكمًا وهو يبتسم للفريق.

- «ماذا عنه؟» سأل آرون.

- «إنه الحياة! الحب هو الحياة» قال جِم بشراسة.

- «إنه رذيلة، مثل الشراب» قال ليلي.

- «إيه؟ رذيلة!» قال جِم «قد يكون كذلك بالنسبة لك أيها الطائر العجوز» قال ليلي:

- «وأكثر من ذلك بالنسبة لك»

- «إنه الحياة. إنه الحياة!» كرر جِم «ألا توافقينني؟» استدار بدهاء ذئبٍ إلى كلاريس.

- «أوه، نعم - دائمًا» قالت في بطء ولا مبالاة.

- «هيا، دعونا نكتبها» قال ليلي ثم عثر على قلم رصاص أزرق اللون

فكتب بأحرف كبيرة على الرخام الكريمي القديم لرف الموقد (الحب هو الحياة)

نهضت جوليا فجأة وطوحت ذراعيها بعنف واحتجت قائلة:

- «أه، أنا أكره الحب، أكرهه»

نظر إليها جِم ساخرًا:

- «انظروا إليها! انظروا إلى ليسبيا[1] التي تكره الحب»

- «لا، لكن ربما يكون مرضًا. ربما نكون جميعًا مخطئين ولا نستطيع أن نحب بشكل صحيح» أوضحت جوزفين.

- «حاولي مرة أخرى» قال جِم «أنا أعرف ما هو الحب. لقد فكرت في ذلك. الحب هو تنفس الروح»

- «لنكتب هذا أيضًا» قال ليلي.

(الحب هو تنفس الروح) كتب الجملة على رف الموقد القديم.

تأمل جِم الحروف وقال:

- «هذا صحيح. صحيح تمامًا. عندما تحب، تتنفس وتدخل الهواء إلى روحك. وإن لم تتنفس، ستختنق»

- «وماذا عن الزفير؟» قال روبرت. «إن لم تزفر، فإنك ستختنق»

- «أنت على حق أيها السلحفاة الحزينة[2]» قال جم بخبث.

- «الزفير ثورة دموية» قال ليلي، فعلق جِم في وقار:

- «لقد أصبت كبد الحقيقة»

- «دعونا إذن نسجل هذا أيضًا» قال ليلي، وخط بقلم الرصاص الأزرق: عندما تحب، تتنفس روحك - عندما تتنفس روحك، تحدث ثورة دموية.

ثم التفت إلى جِم وقال:

1- لسبيا هو الاسم المستعار الذي منحه الشاعر الروماني كايوس كاتولوس لحبيبته التي تغنى بها في العديد من قصائده، والاسم الذي اختارة يلمح إلى جزيرة لسبوس الإغريقية التي عاشت فيها الشاعرة الشهيرة صوفي التي كثيرًا ما تغزلت بمريداتها. وأصبحت كلمة لسبية لاحقاً تعني كما هو معروف المثلية الجنسية لدى الإناث (السحاقية)

2- السلحفاة الحزينة: إحدى شخصيات كتاب أليس في بلاد العجائب للويس كارول وتتميز بجنونها وسوداويتها الشديدة.

- «أقول يا جِم: لابد من أنك تعذب نفسك كثيرًا من أجل أن تتنفس»

- «لا تتـذاكَ كثيرًا» قال جِـم «لقد فكرت في الأمر. عندما أكون في حالة حـب أحصـل على دفعة كبيرة مـن الطاقة. أشـعر في الواقع أنـه يتدفق فيّ - هنـا!» ودس إصبعـه فـي حفرة معدته «إنه توسـع الروح. وإذا لـم أتمكن من الحصول على هذه التدفقات من الطاقة، فأنا أموت، وأنا أعلم أنني أموت»

نطق الكلمات الأخيرة بضراوة ويأس مفاجئين.

قالت تاني:

- «كل ما أعرفه هو أنك لا تبدو كذلك»

- «بلى، أنا أموت. أنا أموت» اعترض جِم «أنا أحتضر. الحياة تغادرني»

قال روبرت:

- «ربما تغص بالحب. ربما تكون قد استنشقت كثيرًا، ولا تعرف كيف تتركه يخرج مرة أخرى. ربما تعاني روحك من تشنج عضلي، بسبب توسعها المفرط!»

- «أنت خنزير صغير مصاص للدماء، هذا هو أنت» صاح جِم.

أجاب روبرت:

- «حتى وأنا صغير، تعلمت التهذيب»

نظر جِم حول الجماعة، ثم التفت إلى آرون سسن وقال:

- «ما رأيك بهم؟»

هز آرون رأسه وضحك وقال:

- «أنا؟»

لكن جِم لم ينتظر إجابة.

قالت تاني وهي تنهض فجأة:

- «لقد اكتفيت. أعتقد أنكم كلكم سخفاء. ثم إن الوقت قد تأخر»

- «هي!» قال جِم وهو ينهض ويشير بغطرسة إلى كلاريس «إنها الحب. وهو الشعب العامل. هذان الاثنان هما الأمل» وأشار بإبهامه إلى آرون سسن بعد أن أشار إلى السيدة براوننغ.

- «أوه كـم هـو ممتع» قالـت كلاريس «لقـد مر وقت طويـل منذ آخر

مرة كنت فيها مثالًا مجسدًا لشيء. أفترض أنك لم تكن كذلك من قبل؟»
والتفتت مستنتجة إلى آرون الذي أجاب:

- «كلا، لا أعتقد أنني كنت كذلك»

- «آمل أن يكون التجسيد صحيحًا - هل يجب أن يكون تعبيرًا مجازيًا أو شيئًا آخر؟» قالت كلاريس لروبرت.

ضحك الملازم الشاب وقال:

- «أو مثلًا يا كلاريس»

- «وداعًا. أشعر بملل شديد» قالت تاني.

- «حقًا؟» ابتسم جِم ابتسامة عريضة «مع السلامة! حظًا أوفر في المرة القادمة»

قال روبرت:

- «من الأفضل أن نسرع، إذا أردنا اللحاق بالمترو»

أسرع الفريق عبر الشوارع الضيقة الممطرة وصولًا إلى محطة إمبانكمينت. كان روبرت وجوليا وكلاريس متجهين غربًا، وكان ليلي وزوجته ذاهبين إلى هامبستيد، بينما كان جوزفين وآرون سسن متجهين إلى بلومزبري. قال روبرت وهم على الدرج:

- «أفترض أن السيد سسن سوف يرافقك حتى بابك يا جوزفين. إنك على طريقه»

- «لا حاجة على الإطلاق» قالت جوزفين.

نزل الأربعة المتجهون إلى الشمال إلى مستوى المترو السفلي. إنه آخر قطار تقريبًا. كانت المحطة نصف مهجورة ونصف صاخبة والكثير ممن فيها في حالة سكر، يزعقون ويصيحون. هناك في أحشاء لندن، بعد منتصف الليل، بدا كل شيء مريعًا وغير طبيعي.

- «كم أكره لندن هذه» قالت تاني. كانت نصف نرويجية، وقد أمضت جزءًا كبيرًا من حياتها في النرويج قبل أن تتزوج من ليلي.

- «نعم، وأنا كذلك» قالت جوزفين «لكن على المرء أن يبقى هنا إذا أراد أن يكسب لقمة عيشه. أتمنى أن أعود إلى باريس. لكن ليس لدي ما أفعله في فرنسا. متى تعودان إلى الريف؟»

– «الجمعة» أجاب ليلي.
– «ما أسعدك بذلك! ومتى ستذهبين إلى النرويج يا تاني؟»
– «في غضون شهر تقريبًا»
– «لا بد أنك سعيدة للغاية»
– «أوه. أنا ممتنة – ممتنة للخروج من إنجلترا»
– «أنا أعرف. هكذا أشعر. كل شيء فظيع جدًا – موحش وكئيب. لقد وجدتها...

واحتشدوا في العربات. لم يتوقف الرجال عن الصراخ مثل الوحوش البرية. وكان آخرون نائمين. بينما كان الجنود يغنون.

– «هل حقًّا فسخت خطوبتك مع جِم؟» صاحت تاني بصوت عال بينما زأر القطار.
– «نعم، إنه مستحيل» قالت جوزفين «هستيري تمامًا ولا يطاق»
– «وأناني» صاحت تاني.
– «أوه. إلى درجة رهيبة» صرخت جوزفين.
– «تعال إلى هامبستيد لتناول الغداء معنا» قال ليلي لآرون، فأجابه:
– «آه، شكرًا»

وخربش ليلي اتجاهات الطريق على إحدى البطاقات. وحشرج قطار منتصف الليل، ساخنًا، منهكًا، تحت الأرض. ونزل آرون وجوزفين ليغيرا القطار.

الفصل السابع

حديقة الساحة المظلمة

كانـت جوزفيـن قـد دعت آرون سـن لتناول العشـاء، مسـاء أحـد أيام الأحد، في مطعمٍ في حي سـوهو[1]. اتخذا لنفسـيهما ركنًـا فيه، ومع زجاجة من نبيذ البرغندي أخذت تحصل منه على تاريخه.

كان والـده خبيـرًا في حفر الأعمدة ويكسـب أجرًا جيـدًا، لكنه قُتل حين هوى داخل المنجم عندما كان آرون يبلغ من العمر أربع سنوات فقط. فتحت الأرملة دكانًا: كان آرون طفلها الوحيد. عمل المتجر بشـكل حسن، وأرادت أن يصبح آرون معلمًا، فأمضى ثلاث سـنوات في التدريب، لكنه رماها جانبًا على حين غرة وذهب إلى المنجم.

- «لكن لماذا؟» قالت جوزفين.

- «لا أعرف ماذا أقول. لقد شعرت نحوه بميلٍ أكبر»

كان يتمتـع بصفـة فضولية تنبع من عقل ذكي ينفر مـن التعليم. لقد حافظ عـن قصـد على لهجـة ميدلاند في خطابـه. كان يفهـم تمامًا ما هو التجسـيد والمجاز، لكنه فضل أن يبقى دون تعليم.

عرفـت جوزفين منه ما هو مراقب الوزن في المنجم، وحاولت معرفة أي نوع من الزوجات كانت زوجته، لكن باسـتثناء أنهـا كانت ابنة أحد أصحاب الحانات وأن صحتها كانت ضعيفة، لم تستطع معرفة أي شيء.

1- سوهو: أحد أحياء لندن. يضم الكثير من المسارح ومقرات شركات السينما والمطاعم والأماكن الترفيهية.

- «وهل ترسل لها النقود؟» سألته.

- «نعم. المنزل ملكي وأسمح لها بسحب الكثير من نقودي في البنك كل أسبوع. لقد تركت لي والدتي أكثر من ألف بقليل عندما ماتت»

- «أنت لا تمانع في ما أقول، أليس كذلك؟» قالت جوزفين. فضحك وأجاب:

- «كلا، لا أمانع»

كان يتمتع بأسلوب مهذب لطيف. لكنه في الواقع أبقاها على مسافة معينة. كان يذكرها في بعض الأمور بروبرت: أشقر، منتصب، قوي البنية، مفعم بالنشاط، إنجليزي المظهر. لكنها أحست بمسافة باردة غريبة لم تستطع عبورها. لامبالاة داخلية بها - ربما تجاه كل شيء. ومع ذلك كانت ضحكته آسرة.

- «هل ستخبرني لماذا تركت زوجتك وأطفالك؟ ألا تحبهم؟»

نظر آرون إلى مقدمة وجهها الغريبة المستديرة السمراء. كان شعرها متمايلًا قصيرًا مخصلًا، يتدلى فوق أذنيها في ثنايا غريبة داكنة اللون، شديدة السواد.

- «لماذا تركتها؟» قال «بدون سبب معين. إنهم بخير بدوني»

راقبت جوزفين وجهه. رأت شحوب المعاناة تحت طراوته، وتوترًا غريبًا في عينيه.

- «لكن لا يمكنك ترك بناتك الصغيرات بدون سبب على الإطلاق»

- «نعم أنا فعلت ذلك، وبلا سبب -باستثناء أنني أردت الحصول على بعض المساحة الحرة حولي- كي أحرر نفسي»

- «هل تقصد أنك كنت تبحث عن الحب؟» احمرت جوزفين وقد ظنت أنه قال أخسر روحي[1]

- «لا، لقد أردت هواءً نقيًا. لا أعرف ماذا أردت. ولماذا علي أن أعرف؟»

1- يعتمد الكاتب هنا على التقارب اللفظي بين كلمة loose بمعنى يحرر أو يرخي المجال وكلمة lose بمعنى يخسر أو يضيع.

- «لكن يجب أن نعرف: خاصة عندما يتأذى الآخرون»

- «آه، حسنًا! نسمة من الهواء النقي، لوحدي. لقد كنت أشعر بأنني مجبر على الشعور -أشعر بأنني، إذا عدت إلى المنزل الآن، سأكون مجبرًا- مجبرًا على الحب، أو الاهتمام، أو شيء من هذا القبيل»

- «ربما أردت أكثر مما تستطيع زوجتك أن تقدمه لك»

- «ربما أقل. لقد قررت أنها تحبني، وأنها لن تسمح لي بالرحيل»

- «ألم تحبها قط؟» قالت جوزفين.

- «نعم بالتأكيد. ولن أحب أي شخص آخر. لكن عليّ اللعنة إن أردت أن أكون عاشقًا بعد الآن، لها أو لأي شخص آخر. هذا كل ما في الأمر. لا أريد أن أهتم بأحد عندما لا يكون الاهتمام نابعًا من داخلي. ولن أجبر على ذلك»

كان النادل الفرنسي المؤتزر السمين يحوم قريبًا منهما. تركته جوزفين يزيل الأطباق والزجاجة الفارغة.

- «مزيدًا من النبيذ؟» قالت لآرون.

لكنه رفض. لقد أعجبت به بسبب عدم اكتراثه المطلق بما حوله: النُدُل الفرنسيين والطعام الأجنبي. صحيح أنه لاحظهم بطريقته السريعة الودود، لكنه كان غير مبال. وانزعجت جوزفين. لقد أرادت أن تخترق هذا التحفظ اللطيف الذي يحيط نفسه به.

طلبت القهوة والبراندي.

- «لكنك لا تريد الابتعاد عن كل شيء، أليس كذلك؟ أنا نفسي أشعر بالضياع أحيانًا - أشعر بوحدة مخيفة. ليس بطريقة عاطفية سخيفة، لأن الرجال ما فتئوا يخبرونني بأنهم يحبونني، ألا تعرف. لكن حياتي تبدو وحيدة، لسبب ما»

- «أليس لديك أي أقرباء؟» سألها.

- «لا أحد الآن. أمي ماتت. أقرب أقربائي هم العمات وأبناء العم في أمريكا. أفترض أنني سأراهم ذات يوم. لكنهم بالكاد يؤخذون بالحسبان»

- «لماذا لا تتزوجين؟ كم عمرك؟»

- «أنا في الخامسة والعشرين. وكم عمرك أنت؟»

- «ثلاثة وثلاثون»

- «قد تكون في أي عمر تقريبًا. لا أعرف لماذا لا أتزوج. أنا، بطريقة ما، أكره العمل لكسب عيشي، لكنني أستمر، وأحب عملي»

- «وماذا تفعلين الآن؟»

- «أرسم مشاهد مسرحية جديدة - عمل ممتع نوعًا ما. إنني أستمتع به. لكنني كثيرًا ما أتساءل عما سيحدث لي»

- «من أي ناحية؟»

شعرت بشيء من الإهانة فأجابت:

- «ماذا يحدث لي؟ أوه، لا أعلم، ولا يهم أحدًا غير نفسي»

- «ماذا يحدث لأي شخص، على أي حال؟ نحن نعيش حتى نموت. ماذا تريدين؟»

- «حسنًا، ما زلت أقول إنني أريد أن أتزوج وأشعر بالثقة بشيء ما. لكنني لا أعرف. أشعر بالفزع أحيانًا، كما لو أن كل دقيقة ستكون الأخيرة. أستمر وأستمر دون أن أعرف الهدف. وما زالت حياتي تجري وتجري، يعلم الله لماذا»

- «عليك ألا تقلقي. دعي كل شيء يمضي في طريقه»

- «لكن علي أن أقلق. عليّ أن أفكر وأشعر»

- قال: «ما من شيء يدعوك لذلك»

- «كيف؟» قالت بضحكة حزينة مفاجئة. وأشعلت سيجارة ثم أردفت «لا. ما أحبه أكثر من أي شيء آخر هو نهاية العالم. أتمنى أن ينتهي العالم!»

ضحك وسكب قطرات البراندي في حلقه وقال:

- «أنا لا أتمنى ذلك»

- «لا هذا هو الجزء الفظيع من الأمر. سيستمر الأمر ويستمر - ألا يصيبك هذا بالجنون؟»

نظر إليها وهز رأسه وقال:

- «الأمر لا يشغلني كما ترين، ما دمت قادرًا على أن أعوم لوحدي»
- «ولكن هل أنت راض؟» صاحت.
- «أحـب أن أكـون بمفردي. أكره الشـعور والاهتمـام، وأن أجبر على ذلك. أريد أن أبقى وحيدًا»
قالت وهي تضحك بشيء من البؤس:
- «أنت لست مؤدبًا جدًا مع مضيفتك هذا المساء»
- «أوه، نحن على ما يرام. أنت تعرفين ما أعنيه»
- «هـل تحـب أن تكون لوحدك؟ هـل أنت كذلك؟ أحيانًـا أعتقد أنني لست شيئًا عندما أكون وحدي. في بعض الأحيان أعتقد جازمة بأنني لا شيء - لا شيء»
هز رأسه وقال:
- «لا، لا أريد فقط أن أترك وحدي»
- «أن لا تكون لديك أي علاقة مع أي شخص؟» تساءلت بسخرية.
- «ولو لأدنى حد»
نظرت إليه ثم انفجرت ضاحكة وقالت:
- «أظن أنك مضحك. أنت لا تمانع أن أقول هذا؟»
- «لا لمـاذا؟ الأمـر تمامًـا كما تريـن. جِـم بريكنيل كوميـدي نادر في نظري»
- «أوه، هو! - لا ليس صحيحًا. إنه مغرور وأناني وهسـتيري. لن يعود الأمر مضحكًا أبدًا بعد فترة».
- «أنا أعرف فقط ما رأيته. لكن كلاكما، بالرغم من ذلك، تحبان اندلاع ثورة دموية»
- «نعم. لكنه لن يكون حاضرًا عندما تندلع»
- «وأنت؟»
- «نعـم سـأكون حاضـرة بالفعل. سـأقدم كل شـيء كي أشـارك فيها. سأهب السماء والأرض من أجل ثورة كبيرة عظيمة. وليكن بعدها الظلام»

- «لعلك ستنالينه عندما تموتين»
- «أوه، لكنني لا أريد أن أموت وأترك كل هذا المشهد. أنا أكره ذلك جدًا»
- «لماذا؟»
- «لكن ألست مثلي؟»
- «لا، هذا لا يزعجني حقًا»
- «هذا يجعلني أشعر أنني لا أستطيع الاستمرار في العيش»
- «لا يمكنني رؤية ذلك»
- «أنت تحب دائمًا أن تختلف مع أحدهم!» قالت جوزفين «ماذا عن ليلي؟ ما رأيك فيه؟»
- «يبدو ذكيًا»
- «لكنه أكثر من ذكي»
- «نعم بالتأكيد! لقد دس إصبعه في معظم الفطائر[1]»
- «ولم يعجبه الخوخ في أي منها». قالت جوزفين بتردد.
- «ماذا يعمل؟»
- «يكتب القصص والمسرحيات»
- «وهل يكسب منها؟»
- «بالكاد - يريدون منا أن نغادر. هلا قمنا؟»

نهضت عن الطاولة. سلمها النادل عباءتها وخرجا في الليل المظلم. لفّت دثارها حولها وسارعت إلى الأمام بخطوات قصيرة وحادة. يحيط بها نوع من الأناقة والرقة الباريسية، حتى في مشيتها: ولكن تحت هذا، ثمة مسحة متوحشة كما لو كان بإمكانها إن شاءت أن تتقدم بخطوات عظيمة، مثل واحدة من الهنود الحمر.

ضغط آرون بقبعته على جبينه.

- «هل تفضل ركوب الحافلة؟» قالت بصوت عال بسبب الريح.
- «أفضل المشي»

1- تعبير دارج يراد منه أنه خاض في كل المجالات.

- «وأنا كذلك»

سارعا عبر طريق تشارينغ كروس، حيث كانت الحافلات الكبيرة تترنح وتتأرجح، مكتظة بالناس. وتردد صوت كعبها فوق الرصيف أثناء سيرهما شرقًا. عبرا هولبورن، ومرا بالمتحف. ولم يقل أي منهما شيئًا.

عندما وصلا إلى منعطف شارع مدت يدها مودعة.

- «انظر» قالت «لا تأتِ أبعد من ذلك: لا تزعج نفسك»

- «سأسير معك قليلًا، إلا إذا كنت لا تفضلين ذلك»

- «كلا، ولكن هل تريد أن تتعب نفسك؟»

- «ما من تعب»

وهكذا تابعا طريقهما خلال الرياح العاتية، وتحولا أخيرًا إلى الساحة القديمة الجميلة. بدت مظلمة ومهجورة، مظلمة مثل برية وحشية في قلب لندن، وكانت الرياح تهب خلال الأشجار العارية العظيمة في وسطها، كما لو كانت بستانًا برّيًا مظلمًا في أعماق أرض منسية.

فتحت جوزفين بوابة الحديقة المربعة بمفتاحها، وتركتها تصطفق خلفها.

- «ما أروع الريح!» هتفت «هل نبقى لنستمع إليها لدقيقة؟»

قادته عبر العشب مرورًا بالشجيرات إلى الشجرة الكبيرة في الوسط. وهناك جلست على أحد المقاعد، وجلس بجانبها. جلسا في صمت، ينظران إلى الظلام. أخذ المطر يضرب مع الريح. ربضا أمام جذع الشجرة الكبيرة بحثًا عن ملجأ وأخذا يتأملان المشهد.

وراء الشجيرات العالية والسور المرتفع الثقيل، كان الشارع المبلل يلمع بصمت. ارتفعت منازل الساحة مثل جرف على حافة هذا البحر الداخلي الداكن، ترسل ضوءًا خافتًا من نوافذها المتفرقة. تمايلت الأغصان وصفّرت. حامت سيارة أجرة حول المنعطف مثل قطة، وشخرت ثم توقفت تمامًا. انبعث ضوء من باب صالة مفتوح. لكن كل شيء كان بعيدًا، بعيدًا بشكل لا يمكن تصوره. جلس آرون وتأمل المشهد. كان خائفًا، بدا كل شيء مشؤومًا للغاية في هذا القلب المظلم اللامع للندن. هبت الرياح وتمزقت مثل الأمواج التي تمزق شاطئًا من الحصى. بدأ الضوءان الأبيضان لسيارة

الأجرة بالدوران واختفيا تاركين ذلك الساحل عند سفح المنحدرات مهجورًا إلا من الضوء الخافت المنبعث من المصباح العالي. وبعيدًا، هناك على الحافة الخارجية، مر شرطي منتصب.

كانت جوزفين تبكي دون توقف طوال الوقت، لكن بصوت غير مسموع. وكانت، من حين لآخر، تنفخ أنفها وتمسح وجهها. لكنه لم يدرك ذلك. بل إنها، هي نفسها، لم تدرك ذلك إلا بالكاد. جلست بالقرب من الرجل الغريب. وكان يبدو ساكنًا وبعيدًا - ورائعًا للغاية.

- «أعطني يدك» قالت له مقهورة.

أخذ يدها الباردة في قبضته الدافئة النابضة بالحياة. وبكت بمرارة أكبر فلاحظ أخيرًا.

- «لماذا تبكين؟»

- «لا أعرف» أجابت مستسلمة من خلال دموعها. فتركها تبكي ولم يقل أكثر من ذلك، بل جلس ويدها الباردة في قبضته الدافئة اللينة.

- «ستظنني حمقاء، لكنني لا أعرف حقًّا لماذا أبكي»

- «يمكنك البكاء دون سبب، أليس كذلك؟»

- «آه، نعم، لكنه ليس منطقيًا»

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

- «منطقي!»

- «أنت رجل غريب»

لكنه لم يعر انتباهًا.

- «هل نويت يومًا الزواج من جِم بريكنيل؟» سألها.

- «نعم بالطبع»

- «لا أستطيع تخيل ذلك»

- «ولم لا؟»

كلاهما كان يراقب في ذهول ليلة قلب لندن الصاخبة، ساحة بلومزبري القديمة الخيالية. كانا لا يزالان يدًا بيد.

- قال «امرأة مثلك يجب ألا تتزوج»

- «لكن لم لا؟ أنا أريد ذلك»

- «هل تعتقدين هذا»

- «نعم بالفعل»

لم يقل المزيد لكنها استمرت بالكلام.

- «لم لا؟ لا أعرف»

ومرة أخرى لاذ بالصمت. ثم سألها:

- «لقد خضت مغامرات في حياتك، أليس كذلك؟»

- «أنا؟ لماذا؟»

- «يبدو عليك ذلك»

- «صحيح؟ أنا آسفة. هل أبدو شريرة؟ لا، أنا لست شريرة. ربما خبرت الحياة إلى حد ما. في باريس في الغالب. لكن ليس كثيرًا. لماذا تسأل؟»

- «لم أكن أفكر»

- «ولكن ماذا يعني هذا؟ ماذا تظن؟»

- «لا شيء. لا شيء»

- «لا تكن مزعجًا إلى هذا الحد»

فلم يجبها، وسكتت هي أيضًا. جلسا جنبًا إلى جنب.

- «ألن تقبلني؟» خرج صوتها من الظلمة.

انتظر بضع لحظات، ثم قال بصوت رقيق، نصف ساخر، نصف موبخ:

- «كلا!»

- «ولم لا؟»

- «لا أريد ذلك»

- «ولم لا؟» سألته من جديد. فضحك ولم يرد.

جلست ثابتة تمامًا لبعض الوقت. لقد توقفت عن البكاء. كان وجهها في الظلام جامدًا ومتجهمًا ورذاذ المطر يهب عليه بين الفينة والأخرى. سحبت يدها من يده ونهضت على قدميها وقالت:

- «سأدخل الآن»

- «لست مستاءة، أليس كذلك؟»

- «كلا. لماذا؟»

فأجابها وهما ينزلان من مقعدهما في الظلام.

- «كنت أتساءل»

سارت بضع خطوات ثم استدارت وقالت:

- «نعم، أعتقد أنها إهانة إلى حد ما»

- «كلا لم أقصد ذلك! لم أقصد!»

وتبعها إلى البوابة.

فتحت بمفتاحها، وعبرا الطريق إلى بابها، فاستدارت ومدت إليه يدها وقالت:

- «تصبح على خير»

- «ستأتين لتناول العشاء أو الغداء معي، أليس كذلك؟ متى نفعلها؟»

- «حسنًا لا يمكنني الجزم. أنا مشغولة جدًا هذه الفترة. سأخبرك فيما بعد»

سلط شرطي الضوء عليهما وهما يقفان على الدرج.

- «حسنًا»

قال آرون وهو يتراجع، وسارعت هي إلى فتح الباب الكبير، ثم دخلت.

الفصل الثامن
لكمة في الفؤاد

كانت عائلة ليلي تمتلك كوخًا عماليًا لطيفًا ومتواضعًا في هامبشاير إذ لم يكونا غنيين. وكان ليلي رجلًا صغير الجسم، نحيفًا، داكنًا، سريع الحراك، وكانت زوجته شقراء قوية البنية. إنهما يعرفان روبرت وجوليا منذ عدة سنوات، لكن جوزفين وجم كانا من المعارف الجدد إلى حد ما.

ذات يوم في أوائل الربيع وصلت برقية إلى ليلي «قادمٌ لزيارتكم. أصل الرابعة والنصف. بريكنيل» تفاجأ ليلي، لكنه قام، هو وزوجته، بتهيئة الغرفة الاحتياطية. وفي الساعة الرابعة توجه ليلي إلى المحطة. تأخر بضع دقائق، وأبصر شخص جم الطويل والأنيق إلى حد ما وهو يمشي مختالًا على رصيف المحطة. كان جم ضابطًا نظاميًا في الجيش، وما زال يقضي ساعات مع خياطه. لكن بدلًا من أن يكون جنديًا، كان اشتراكيًا من نوع ما، وثوريًا متحمسًا لكن دون فعل بالمرة.

- «يا لك من فتى طيب!» صاح عندما رأى ليلي «ظننت أنك لن تبالي»

- «بالعكس تمامًا. دعني أحمل حقيبتك» كان جم يحمل حقيبة يد وحقيبة أخرى على ظهره.

- «شيء ما ألهمني هذا الصباح» قال جم «رأيت فجأة أنه إذا كان في إنجلترا رجل يمكنه إنقاذي، فهو أنت»

- «إنقاذك من ماذا؟» سأله ليلي بشيء من الارتباك.

- «إيه؟» وانحنى جم، مبتسمًا للرجل الأقصر.

كان ليلي في حيرة من أمره، لكنه يحتفظ بإيمان معين بنفسه كمنقذ. تخبط الرجلان بخطى غير متناسقة عبر الدروب المؤدية إلى الكوخ.

كانت تاني في المدخل عندما بلغا ممشى الحديقة.

- «جميل جدًا أن أراك! هل أنت بخير؟» قالت تاني.

- «في أحسن حال!» قال جم مبتسمًا «جميل منكما أن تستقبلاني»

- «أوه، نحن سعيدان للغاية»

رمى جم حقيبته على الأريكة العريضة وقال:

- «لقد أحضرت معي بعض الطعام»

- «صحيح؟ هذ تصرف حكيم» قالت تاني «ليس لدينا الكثير هنا، إلا في عطلات نهاية الأسبوع»

أخرج جم رطلاً من النقانق ووعاءً من عجينة السمك. قالت تاني:

- «ما أجمل النقانق. سوف نتناولها على العشاء الليلة. وسنتناول الآخر مع الشاي الآن. هل تريد الاغتسال؟»

لكن جم كان قد فتح حقيبته بالفعل، وخلع معطفه، ولبس واحدًا قديمًا.

- «شكرًا» قال لتاني.

حضر ليلي الشاي. وجلس الجميع أخيرًا.

- «حسناً» قالت تاني «يا لها من مفاجأة لطيفة»

- «جميلة، إيه؟» قال جم.

كان يأكل بسرعة، يحشو فمه حشوًا.

- «كيف حال الجميع؟» سألت تاني.

- «حسنًا. ذهبت جوليا مع سيريل سكوت. لا يمكنك تحمل ذلك الشخص، أليس كذلك؟»

- «نعم، أعتقد أنه لطيف إلى حد ما» قالت تاني «وماذا سيفعل روبرت؟»

- «سيجرب حظه على جوزفين، على ما يبدو»

- «حقًا؟ هل هو مغرم بها؟ كنت أعتقد ذلك. وهي تحبه أيضًا، أليس كذلك؟» قالت تاني.

– «هذا محتمل جدًا» قال جم، فضحكت تاني وقالت:

– «أفترض أنك تشعر بالغيرة»

– «أنا!» هز جم رأسه «إطلاقًا. أحب رؤية الأمور تسير على طبيعتها»

– «ماذا كنت تفعل مؤخرًا؟»

– «كنت أمضي بضعة أيام مع زوجتي»

– «لا حقًّا!؟ لا أصدق ذلك»

كان لجم زوجة فرنسية طلقته ولها منه طفلان. وكان قد عاد الآن إلى التردد عليها بطريقة ودية بحتة. تولت تاني معظم الحديث. لقد أثارها جم، بابتسامته الذئبية وبطريقته في النظر إلى وجهها، وفي طلبه الخلاص في نفس الوقت.

بعد تناول الشاي أراد إرسال بعض البرقيات، فاصطحبه ليلي إلى مكتب بريد القرية. كانت البرقيات جزءًا ضروريًا من حياته. لقد اعتاد أن ينطلق فجأة لمواعيد مفاجئة، وإلا شعر بأنه مجرد فقاعة في الهواء. تحدث إلى ليلي عن الإصلاح الاجتماعي، وما إلى ذلك. كان عمل جم في المدينة شكليًا فقط، ولهذا يمضي أوقاته مترددًا إلى اجتماعات مختلفة، أو مغازلًا وباكيًا.

ظل ليلي، في باطنه، منشغل الفكر بالخلاص الذي جاء جم ليبحث عنه. كان ينوي بذل قصارى جهده. جلس الثلاثة بعد العشاء ليرتاحوا حول نار المطبخ.

– «ولكن ماذا سيحدث للعالم في رأيك؟» سأل ليلي جم وسط حديث طويل.

– «ماذا؟» قال جم «هناك شيء كبير قادم»

– «من أين؟»

– «انظر إلى إيرلندا، وانظر إلى اليابان – إنهما قطبا العالم»

– «كنت أفكر في روسيا وأمريكا»

– «إيه؟ ماذا؟ روسيا وأمريكا! سوف يعتمدان على إيرلندا واليابان. أنا أعلم ذلك. إنها رؤيا رأيتها. إيرلندا من هذا الجانب واليابان من ناحية أخرى – سوف يحسمان الأمر»

- «لا أرى كيف سيحدث هذا» قال ليلي.

- «لا أرى كيف؟ لكنه تكشف لي في رؤيا»

- «أي نوع من الرؤيا؟»

- «لا يمكنني شرحها»

- «لكنك لا تفكر كثيرًا في اليابانيين، أليس كذلك؟»

- «ألا أفعل! ألا أفعل! ماذا، ألا تعتقد أنهم رائعون؟»

- «كلا. أعتقد أنهم بغيضون إلى حد ما»

- «أرى أن خلاص العالم يقع عليهم»

- «خلاص مضحك» قال ليلي «أعتقد أنهم أي شيء سوى الملائكة»

- «هل تظن ذلك حقًّا؟ إن هذا لأمر مضحك. لماذا؟»

- «يكفي النظر إليهم. كنت أعرف طبيبًا روسيًا خاض الحرب الروسية اليابانية وصار غريب الأطوار بعض الشيء. قال إنه رأى اليابانيين وهم يقتحمون خندقًا وإنهم رموا كل أسلحتهم وألقوا بأنفسهم عبر النيران الروسية وتساقطوا بالجملة بكل بساطة. لكن الذين وصلوا إلى الخنادق هجموا على الروس بأيديهم العارية ومزقوا وجوههم وعضوا حناجرهم -نزعوا الوجوه من العظام. الأمر الذي أفقد الطبيب بعض عقله. قال إن منظر الجرحى كان فظيعًا- وجوههم منزوعة وحناجرهم ممزقة. أما اليابانيون القتلى فقد رأى قطع اللحم بين أسنانهم - يعلم الله إن كان هذا صحيحًا. لكن هذا هو الانطباع الذي تركه اليابانيون على الرجل. لقد أثر الأمر على عقله حقًّا»

نظر جم إلى ليلي وابتسم كما لو كان سعيدًا وقال:

- «لا - حقًّا!»

- «على أي حال هم شياطين أكثر منهم ملائكة، على ما أعتقد»

- «أوه، لا يا رودون، إنك تبالغ دائمًا» قالت تاني.

- «ربما» أجابها ليلي.

- «أعتقد أن اليابانيين رائعون - رائعون. سريعون جدًا، ويتمتعون بقوة عجيبة»

- «علـى الأرجـح!» قال جم وهو ينظر بابتسـامة سـريعة إلى تاني التي أطلقت ضحكة محفوفة بالمخاطر وقالت:

- «أعتقد أن العاشق الياباني سيكون رائعًا»

- «أظنه كذلك» قال جم وهو يغمض عينيه نصف إغماضة.

- «هل تكره البريطانيين العاديين بقدر ما أفعل؟» سألته تاني.

- «أكرههم! أكرههم!» قال بابتسامة حميمة.

- «يـا لفضيلتهـم الوحشـية. أعتقد أنـه لا يوجـد أحد أكثر منهـم خبثًا من الداخل»

- «لا أحد!» قال جم.

- لكنك أنت نفسك بريطاني». علق ليلي.

- «لا، أنـا إيرلنـدي. عائلتـي إيرلنديـة - كانـت والدتـي مـن أسـرة فيتز باتريك».[1]

- «على أية حال أنت تعيش في إنجلترا»

- «لأنهم لن يسمحوا لي بالذهاب إلى إيرلندا»

وتشـعب الكلام. أنهى جم كل البيرة، واسـتعدوا للذهـاب إلى الفراش. كان جم ثملًا منتشيًا بعض الشيء. طلب بعض الخبز والجبن ليأخذهما معه إلى الطابق العلوي.

- «هل ستتعشى؟» قال ليلي. لقد تفاجأ، لأن جم أكل كثيرًا في الغداء.

- «لا، أيـن الرغيـف؟» وقطـع لنفسـه نحـو نصفـه. لـم يكـن هنـاك جبن. فقال جم:

- «الخبز سيفي بالغرض»

- «اجلس وتناوله» قالت تاني.

- «لا، أحب أن آكله في غرفة نومي»

- «أنت لا تأكل الخبز في الليل؟» قال ليلي.

1- أسرة من قدامى النبلاء في إيرلندا.

- «نعم أنا أفعل»

- «يا له من شيء مضحك»

كان الكوخ يسبح في الظلام. نام آل ليلي بعمق. استيقظ جم ومضغ الخبز وعاد إلى النوم، واستيقظ عند الفجر ونزل إلى الطابق السفلي. سمعه ليلي وهو يتجول، ثم سمع المرأة التي جاءت للتنظيف - سمعهما يتحدثان فنهض ليهتم بزائره، رغم أن الساعة لم تبلغ السابعة وأن المرأة مشغولة. لكن قبل أن ينزل، سمع جم وهو يصعد إلى الطابق العلوي مرة أخرى.

كانت السيدة شورت مشغولة في المطبخ عندما نزل ليلي.

- «لقد نزل السيد الآخر يا سيدي» قالت السيدة شورت «وسألني عن مكان الخبز والزبدة، فعرضت عليه أن أقطع له قطعة. لكنه لم يسمح لي بذلك فأعطيته سكينًا وأخذها بنفسه من حجرة المؤن»

عند الإفطار سأل ليلي ضيفه:

- «أقول يا بريكنيل، لمَ تأكل الكثير من الخبز؟»

- «يجب أن أتغذى. لقد جوعوني خلال هذه الحرب اللعينة»

- «لكن قطع الخبز الكبيرة لن تغذيك»

- «إنها تعطي المعدة شيئًا تعمله، ويمنعها من طحن الأعصاب»

- «لكنك بالتأكيد لا تريد أن تبقي معدتك ممتلئة وثقيلة دائمًا»

- «أنا أفعل ذلك يا ولدي. أفعل. أحتاج إلى أن أبقى صلبًا. سأموت إن لم أفعل. أقول لك إنني سأموت. اسمحوا لي أن أضع شيئًا في جوفي»

- «لا أعتقد أن الخبز له أي فائدة»

تحدث جم أثناء الإفطار عن مستقبل العالم:

- «أظن أن المسيح هو أفضل شيء أنتجه الزمان على الإطلاق وسيبقى كذلك»

- «لكنك لا تريد عمليات صلب إلى ما لا نهاية» أجابه ليلي.

- «ماذا؟ ولم لا؟»

- «مرة واحدة تكفي، وقد حدثت بالفعل»

- «ألا تعتقد أن الحب والتضحية هما من أفضل الأشياء في الحياة؟» قال جم وهو عاكف على لحم الخنزير المقدد.

قال ليلي:

- «الأمر يعتمد على نوع الحب، ونوع التضحية. إذا كنت أؤمن حقًّا بإله قدير فأنا على استعداد للتضحية من أجله. أي إنني على استعداد للتنازل عن مصلحتي الشخصية للمصلحة الخلاقة الأكبر. لكن من الواضح أن الله القدير ليس مجرد محبة»

- «أعتقد أنه كذلك» قال جم «الحب والحب فقط. أعتقد أن الفرح الأعظم يكمن في التضحية بالنفس من أجل الحب»

- «تعني من أجل شخص تحبه» قالت تاني.

- «لا، أنا لا أقصد شخصًا معيناً على الإطلاق. أنا أعني الحب -الحب- الحب. أنا أضحي بنفسي من أجل الحب. أعتقد أن هذا هو أعلى ما يبلغه الإنسان»

- «لكن لا يمكنك التضحية بنفسك من أجل مبدأ مجرد» قالت تاني.

- «هذا بالضبط ما يمكنك القيام به. وهذا هو الجميل فيه. لا يهم من يمثل المبدأ» قال جم ثم أضاف «المسيح هو مبدأ المحبة»

- «لكن لا!» قالت تاني «يجب أن يكون الأمر أكثر فردية. يجب أن يكون هناك شخص تحبه وليس الحب المجرد في حد ذاته. كيف يمكنك أن تضحي بنفسك من أجل فكرة مجردة»

- «ها، أعتقد أن الحب ومسيحك مقيتان. إنهما الذل بعينه» علق ليلي، فأجابه جم.

- «إنه أفضل شيء أنتجه العالم»

- «كلا. إنه الشيء الذي يضع نفسه أسيرًا للخيانة! لا، هذا خطأ. ألا ترى أن ما تقدسه حقًّا هو مبدأ يهوذا. إن يهوذا هو البطل الحقيقي. لولا يهوذا للاقى العرض إخفاقاً مريعاً»

قال جم:

- «أوه نعم. يهوذا لا مفر منه. ربما كان يهوذا أعظم الحواريين - وكان يسوع يعلم ذلك. ربما كان يهوذا الحواري الأقرب إلى قلب يسوع»

- «لقد شجعه يسوع بالتأكيد في أحابيله اليهوذية» قالت تاني.

ابتسم جم عامدًا في وجه ليلي.

- «ثم إنه كان مزيجًا سيئًا. وأي شيء ينقلب إلى ذروة يهوذية هو عرض قذر حسب تفكيري. أعتقد أن يهوذاك ليس إلا دودة فاسدة قذرة، مجرد إعصار مغرور صغير متسخ. ومن بين كل المسيحية هو اليوم البطل. عندما يقول الناس المسيح يقصدون يهوذا. لقد وجدوا له لذة في الفم، عززها يسوع» قال ليلي.

- «يهوذا شخصية عميقة» قال جم وهو يدفع الخبز والمربى في فمه «لقد استغرق الأمر ألفي عام حتى نبدأ في فهمه»

- «الخائن هو الخائن -لا داعي لمزيد من الفهم. والنظام الذي يضع كل ثقله على خيانة يجعل هذه الخيانة لا حتمية فحسب، بل مقدسة. هذا هو السبب في أنني سئمت من المسيحية، أو تجارة المسيح الحديثة هذي- على أي حال»

- «أفضل ما أنتجه العالم، أو سينتجه على الإطلاق هما المسيح ويهوذا». قال جم فأجابه ليلي:

- «ليس بالنسبة لي. إنها لتركيبة كريهة»

كان صباحًا جميلًا في أوائل شهر مارس. كانت الشمس دافئة جدًا. لقد تفتحت أزهار البنفسج، وأولى شقائق النعمان البرية. كان الثلاثة على وشك الخروج في نزهة غداء، لكن ليلي كان متضايقًا من وجود جم.

- «المكان هنا لطيف حقًا» قال جم «هل تمانعان إذا بقيت حتى يوم السبت؟»

حلت وقفة قصيرة. وشعر ليلي أنه كان يتعرض للتنمر، تنمرٍ بغيض. هل عليه أن يوافق؟ فجأة نظر إلى جم وقال:

- «أفضل أن تذهب غداً»

أنزلت تاني، التي كانت تجلس أمام جم، رأسها في حيرة.

- «غدًا أي يوم؟» قال جم.

- «الخميس» أجابه ليلي.

- «الخميس» كرر جم ونظر إلى الأعلى في عين ليلي وأراد أن يقول «الجمعة إذن؟»

- «نعم، أفضل أن تذهب يوم الخميس» كرر ليلي.

- «لكن يا رودون!» تدخلت تاني المنزعجة. لكنها تراجعت.

قال ليلي لجم:

- «يمكننا أن نسايرك إلى مسافة ما عبر الريف إذا أردت» وكان هذا نوعًا من التسوية.

- «حسنًا!» قال جم «وهو كذلك»

كانت الشمس مشرقة جميلة فتجولوا في الغابة. لاحظ ليلي نوعًا من التقارب المتزايد بين جم وتاني، الأمر الذي أثار أعصابه.

- «لماذا بحق الجحيم تتخذين تلك النغمة الحميمة البغيضة؟» صرخ ليلي في تاني، بينما جلس الثلاثة تحت شجرة زان كبيرة عارية من الأوراق.

- «لكنني لست حميمة على الإطلاق، أليس كذلك يا بريكنيل؟» قالت تاني.

نظر جم إلى ليلي، وابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- «ولماذا لا تكون كذلك، على أية حال؟»

- «نعم!» رددت وراءه «ولم لا!؟»

- «ليس وأنا هنا. أنا أشمئز من هذه الحميمية الزاحفة القذرة. ألا تعتقد يا سيد بريكنيل أنه من الجميل أن تكون قادرًا على التحدث إلى شخص ما بكل بساطة؟ أوه، ذلك يبعث على الارتياح عند معظم الناس» قال ليلي مقلداً قول زوجته الأخير بقسوة.

- «لكنني أتعمد ذلك» صرخت تاني «إنه جميل»

- «العبث القذر». قال ليلي في غضب.

نظر جم باستمتاع إلى الرجل الصغير الغضوب الأسمر. ثم قاموا ليبحثوا عن حانة وبيرة، وظلت تاني ملتصقة إلى جانب جم.

لكنه كان يومًا جميلًا، أول أيام الربيع، وقد تفتح الزعفران والمنثور في حدائق الأكواخ، وتصاعد صياح الديوك البيض في القرية الهادئة.

عندما عادوا عصراً إلى الكوخ، وجدوا برقية لجم. تركهما كي يرياها «سألتقي بك في نزهة على الأقدام في رحلة عودتك. لويز»

أرادت تاني أن تعرف في الحال كل شيء عن لويز. كانت لويز فتاة لطيفة من الطبقة الوسطى الميسورة، لكنها ممثلة أيضًا، وهي مستعدة لفعل أي شيء يريده جم.

- «يجب أن أرسل لها برقية لمقابلتي غداً. أين أقول لها؟

فتح ليلي الخريطة، وقرروا الوقت المحدد والمحطة التي يجب أن يلتقي فيها جم بلويز القادمة من لندن. ثم يمكن للثنائي السعيد المشي على طول وادي التايمز، وقضاء ليلة ربما في مارلو، أو في مكان ما.

ذهب جم وليلي مرة أخرى إلى مكتب البريد. كانا الآن صديقين جيدين، فقد أراد ليلي أن يكون لطيفًا، بعد أن حدد ساعة المغادرة بشكل غير مضياف. وصلا إلى مكتب البريد ووجداه مغلقاً: كانت ساعة إغلاق منتصف النهار للمحل الصغير. قال ليلي:

- «حسنًا. سوف نذهب إلى المحطة»

مضيا قدماً إلى المحطة، وعثرا على ناظرها، واقتيدا إلى صندوق الإشارة. ابتعد ليلي عن الناس بحكم طبيعته، لكن جم سرعان ما رفع الكلفة مع مدير المحطة ورجل الإشارة، كما يفعل الضابط مع جنوده. جلس ليلي على درجات صندوق الإشارة، خجِلًا نوعًا ما، بينما كانت البرقية الطويلة تتلى بصوت كالصراخ عبر الهاتف إلى مدينة التقاطع - أولًا السيدة الشابة وعنوانها، ثم الرسالة «قابليني في محطة (س) غداً الساعة 3:40. يسعدني أن نعود سائرين. جم»

أتما المهمة على أي حال، وعادا إلى المنزل لشـرب الشاي. بعد الشاي، ومع حلول المسـاء، اقترح ليلي التنزه قليلًا في الغابة بينما تعد تاني العشـاء. وافـق جم وانطلقا. تجول الرجلان سـاعة الغسـق بين الأشـجار حتى وصلا إلـى ضفة نهـر على الطرف البعيد للغابة وجلسـا عندها. وهنـاك قال ليلي ما كان عليه أن يقول:

- «فـي واقـع الأمـر، مـا من شـيء سـوى الحـب والتضحيـة بالنفس يجعلانك تشعر بأنك تخسر الحياة»

- «أنت مخطئ. الحب فقط ما يعيدها -هو والنبيذ. إذا شـربت زجاجة من البورغندي، سأشـعر بأن نفسـي قد عادت إلي، هنا فـي المنتصف- هنا! سأشعر بالطاقة مرة أخرى. وإذا كان بإمكاني الوقوع في الحب - لكن الأمر أصبح صعباً لدرجة اللعنة»

- «ماذا، الوقوع في الحب؟» سأل ليلي.

- «نعم»

- «فلماذا لا تتخلى عن المحاولة؟ لماذا تريد أن تنخس نفسك وترغمها على الحب؟»

- «لأنني ميت بدونه. أنا ميت. أنا أحتضر»

- «فقط لأنك تجبر نفسك. إذا توقفت عن دفع نفسك فسوف...

- «سـوف أموت. أنا أعيش فقط عندما أقع في الحب. وإلا فأنا أموت موتًا مؤلمًا بطيئًا. ويحك يا رجل. أنت لا تعرف كيف كان الأمر. كنت أشعر بأكبـر قدر من المشـاعر - مثل اندفاع كبير للقـوة، أو الضوء -اندفاع كبير- هنـا، كمـا قلت، في الحشـا. وهو يأتي فـي أي وقت -فـي أي مكان- بغض النظر عن مكان وجودي. وبعد ذلك كنت أشعر بأنني في أفضل حال»

- «في أفضل حال لأجل ماذا؟ لأجل ممارسة الحب؟»

- «نعم يا رجل، كنت كذلك»

- «ولـم تعد الآن كذلك؟ حسـنًا، دع الحب وشأنه، كما قد ينصحك أي طبيب بقرشين»

- «لا، أنت هنا تجانب الصواب. ما من شيء تقني، فأنا من الناحية التقنية يمكنني ممارسة الحب بقدر ما تريد. لا رأي للطبيب في هذا الموضوع. إنه ما أشعر به بداخلي. إنني أشعر بأن الحياة تستمر. أنا أعلم أنها تستمر. لا تحصل لي هذه التدفقات الآن إلا إذا شربت الكثير، أو إذا أمكن أن أقع في الحب. من الناحية الفنية، أنا قوي وبخير - أوه، نعم!»

- «عليك أن تنأى بنفسك عن تدفقاتك هذه»

- «لكن لا يمكنك ذلك. إنها نوع من الأوجاع»

- «إذن عليك أن تصلِّب ظهرك. ما يهم هو ظهرك، عمودك الفقري. لا ينبغي أن تتخلى عن نفسك. لا يجب أن تلقي نفسك على عواهنها في حضن أية امرأة. يجب أن تقف بمفردك وتتعلم أن تكون بمفردك. لماذا لا تكون مثل اليابانيين الذين تتحدث عنهم: هادئين، شياطين صغارًا متحفظين؟ إنهم لا يبالون بأن يكونوا محبوبين. إنهم يبقون أنفسهم مربوطين بإحكام داخل أنفسهم، هناك، في نهاية العمود الفقري. هناك موضع القوة الشيطانية التي يملكونها»

تأمل جم قليلًا ثم ضحك.

- «هل تعتقد أن لديهم ما تقول؟» كان الأمر كوميديًا بالنسبة له.

- «بالتأكيد! انظر إليهم. لماذا لا يمكنك أن تجمّع قوتك هناك كما يفعلون؟»

- «في الذيل؟»

- «نعم. استجمع قوتك هناك»

انفجر جم مقهقهًا وقام. مضى الاثنان عبر الغابة المظلمة إلى الكوخ. تعثر جم وترنح مثل رجل مخمور: أو ما هو أسوأ، مثل رجل مصاب بخلل عصبي عضلي، كمن فقدت أطرافه السفلى قوتها.

- «سِر من هناك!»

قال ليلي إذ عثر على أسلس جزء من الطريق المظلم. لكن جم تعثر ومشى متثاقلًا في حالة من الرخاوة الغثيانية الضعيفة. لكنهما وصلا مع ذلك

إلى الكوخ والطعام والبيرة وتاني التي كان يأكلها الفضول لمعرفة ما دار بين الرجلين على انفراد.

بعد العشاء جلسوا يتحدثون حول النار من جديد. اتخذ جم كرسيًا صغيرًا قبالة النار، بينما جلس الزوجان في كرسيين بذراعين على جانبي الموقد.

- «ما أجمل أن تمشي مع لويز باتجاه لندن غداً» قالت تاني في نبرة تفيض عاطفةً.

- «يا إلهي!» قال ليلي. «لماذا بحق الشيطان لا يسير بمفرده، دون أن يحتاج دائمًا إلى امرأة تمسك بيده؟»

- «لا تكن تواقًا إلى الإغاظة». قالت تاني: «أنت تعلم أن لديك دائمًا امرأة تمسك بيدك»

- «يدي لا تحتاج إلى من يمسكها» جاء رد ليلي الموجز.

- «ألا تفعل؟! بلى، إنها تحتاج إلى ذلك أكثر من معظم الرجال! لكنك ذكوري شديد الجحود. لأنني أحافظ عليك طوال الوقت فإنك تريد أن تتظاهر بأنك تفعل كل شيء بنفسك».

- «حسنًا». قال ليلي وهو يشعر في تلك اللحظة بنوع من البغضاء لزوجته «لا تقحمي نفسك في الأمر» ثم التفت إلى جم وقال: «على كل حال. لقد حان الوقت لتتوقف عن إسالة لعابك على كثير من النساء الصغيرات، واحدة تلو الأخرى»

- «ولـمَ لا، إذا كنت أحب ذلك؟» قال جم.

- «نعم لم لا؟» أعادت تاني السؤال.

- «لأنه يجعلك أحمق. انظر إلى نفسك، متعثرًا ومترنحًا دون أن تفيد من ساقيك. سأخجل لو كنت مكانك»

- «هل ستفعل هذا حقًا؟» قال جم.

- «نعم سأفعل. وما من سبب لذلك سوى رغبتك في أن تكون معشوقًا، سكران يعوّل لكي تعشقه إحداهن. وهو ما يجعل ركبتيك رخوتين»

- «أتظن أن هذا كل شيء؟» سأل جم.

- «ومـاذا غيـر ذلك؟ لم تكمل يومًا واحدًا هنـا، وها أنت تبرق لإحدى الإناث كي تتجهز للإمساك بيدك لحظة رحيلك. وقبل أن تتركها سوف تبرق لواحـدة أخرى. أنـت تريد أن تكون محبوبًا، تريد أن تكون محبوبًا. رجل في عمرك - هذا مقرف!»

- «أنـا لا أرى ذلـك، أنـا أؤمـن بالحـب» قـال جـم وهـو ينظـر إليـه بابتسامةٍ غريبة.

- «يـا للقـرف، الحب! إنه العبث لا غير. لا مشـكلة إذا لم يسـبب لك أي ضـرر. لكـن عندمـا تتأرجح وتترنـح في طريق، بسـبب الارتخـاء القذر لإرادتك...

عنـد هـذه النقطة قفز جم فجأة من كرسـيه ليهجم على ليلـي، ووجه إلى بطنه بقبضتيه بضع لكمات قاسـيات، ثم جلس مرة أخرى على كرسيه ليقول في ارتباك:

- «كنت أعلم أن عليّ فعل ذلك إذا تفوّه بالمزيد»

جلـس ليلي في كرسـيه مثل تمثال دون حراك ووجهـه في بياض الورق. كانـت إحدى اللكمات قد أصابته في موضع منخفض بعض الشـيء، بحيث نزلت على فؤاده وجعلته يتنفس بصعوبة. جلس جامدًا مشـلولًا مثل شخص توقـف عـن التنفـس. لكنه لم يـدع ذلك يظهر عليـه. حاول بكل مـا لديه من إرادة أن يمنع نفسـه من اللهاث فأخذ ينتزع شـهقات قصارًا من خلال شـفتيه المنفرجتيـن قليـلًا، متحكمًا فيها دون أن يبدي شـيئًا للاثنيـن الآخرين. لقد كرههما كثيرًا.

سـاد سـكوت دام لبضع دقائق بينما يقاتل ليلي بصمت وشراسة من أجل اسـترداد أنفاسـه. فتحت تاني عينيها على مصراعيهما في ذهول يخالطه نوع من السرور، وأدار جم وجهه جانبًا، ودلّى يديه المتشابكتين بين ركبتيه.

- «ها قد ساد صمت عظيم على حين غرة!» قالت تاني.

- «وهـل هنـاك ما يقال؟» قذف ليلي الكلمات بسـرعة، بجرعة صغيرة مـن الهـواء الذي تمكـن من ضغطـه ليحيله إلـى كلام مفهوم. ثـم جلس بلا حراك مرة أخرى، منشغلًا بأمر استعادة أنفاسه دون السماح لهما بملاحظته.

جلس جم في كرسيه ونظر حوله ثم قال بصوت ضعيف:

- «ليست القضية أنني لا أحب الرجل. لكنني كنت أعرف أنني يجب أن أفعل ذلك إذا استمر بهذه الطريقة»

بدا لليلي، المتصلب والمشغول بحالة جسده، أن صوت جم فيه نوع من الانشغال بالذات، كما لو أن الأمر برمته كان شبه متعمد. اكتشف نوعًا من تعمد الشكوى والبكاء الذي يتماشى مع الهستيريين، وغدا أكثر برودًا، أكثر برودًا من أي وقت مضى.

نظرت تاني إلى ليلي مرتبكة محتارة، لكنها ما زالت راضية نوعًا ما كما لو أنها تنظر إجابة. وعندما طال انتظارها قالت:

- «يجب بالطبع ألا تتوقع أن تتفوه بكل هذه الأشياء دون أن تستفز الرجل»

ولم يزل ليلي صامتاً لا يجيب. نظر إليه جم نظرة خاطفة، ثم نظر إلى تاني. ثم قال ببطء:

- «ليس الأمر أنني لا أحبه. أنا أحبه أكثر من أي رجل عرفته في حياتي، على ما أعتقد»

ثم شبك يديه وأدار وجهه جانبًا. وكانت كلمة «يهوذا!» تومض في عقل ليلي.

ومرة أخرى تطلعت تاني إلى إجابة زوجها.

- «نعم يا رودون» قالت «لا يمكنك أن تقول ما تريد دون أن ترى آثاره. أنت تسعى لذلك حقًّا، كما تعلم»

- «هذا لا يهم» اعتصر ليلي الكلمات ببرود «لقد أراد أن يفعلها، وقد فعلها»

ساد الآن صمت مطبق، ونقّلت تاني نظرها بين الرجلين. ثم قال جم:

- «لقد شعرت بأنه تجاوز الحد»

- «بالطبع!» قالت تاني «رودون لا يعرف ما يقول» كانت مسرورة لأنه اضطر لدفع ثمن أقواله مرة واحدة.

يستغرق الإنسان وقتًا طويلًا لاستعادة أنفاسه بعد ضربة قوية في الفؤاد. وقد فعل ليلي ذلك بشكل تدريجي. لكن تاني وجم لم يساورهما الشك بأن صمته يرجع إلى ما يدور برأسه من أفكار عميقة أو شرسة. لم يكن الأمر شيئًا من هذا القبيل. كان مجرد كفاح بارد لاستعادة أنفاسه دون أن يشعرا، وكراهيةً شديدة وعنيفة تجاههما. ثم قال جم أخيرًا:

- «أنا أحب الرجل. لم أحب رجلًا قط أكثر مما أحبه» وكان يتحدث كأنه يجد في ذلك صعوبة. وعلقت كلمة «الرجل» في أذني ليلي الذي استطاع أن يقول:

- «أوه، حسنًا. هذا لا شيء. لقد قلت ما أريد وتلقيت الإجابة هذه المرة»

- «نعم يا راودي، لقد تلقيت الإجابة ولو لمرة واحدة. إنك لا تتلقى إجابة في العادة، كما تعلم، ولهذا السبب تذهب بعيدًا في ما تقول. الآن ستعرف المشاعر التي تدفعهم إليها»

- «تمامًا!» قال ليلي.

- «لا أشعر بأي شيء» قال جم فعلقت تاني:

- «نعم، لكن عليه أن يعرف ما يقول. إنه يمضي دون أن يأبه بمن يتحدث إليه. ولقد نال عاقبة ذلك هذه المرة. ينبغي عليه ألا يقول مثل هذه الأشياء الشخصية، إذا لم يرغب في المخاطرة بتلقي إجابة كهذه».

- «لا يهمني ما يقول» قال جم، فقال ليلي بلامبالاة:

- «ولا أنا. إنني أقول ما أشعر به، وأنت (تفعل) ما تشعر به. وهذا كل شيء»

وساد صمت كصمت الحملان كسرته ضحكة مفاجئة من تاني:

- «ما أعجب ما يحدث لنا!» قالت وهي تضحك بصوت عال «فجأة سكتنا جميعًا كمن ضربتهم صاعقة!»

- «لعبة خطيرة، إيه!» قال جم مبتسمًا.[1]

- «أليس هذا مضحكًا!؟ أليست الحياة نفسها مضحكة للغاية!؟»

1- في الأصل rum game وهي إحدى ألعاب الورق.

ونظرت إلى زوجها من جديد «لكن يا رودي، يجب أن تعترف بأن ذلك كان خطأك»

لم يتغير وجه ليلي المتيبس.

- «لماذا تسمينه خطأً؟» قال وهو ينظر إليها ببرود «وماذا لدينا للحديث عنه؟»

- «هناك الكثير في العادة» قالت ساخرة.

تقطرت بضع عبارات خارجة من الصمت. عبثًا حاول جم إقناع ليلي بإذابة الجليد، وعبثًا أبدت تاني ملاحظاتها الساخرة عن زوجها. إذ لم يتغير وجهه المتيبس الغامض، وظل مؤدبًا ونائيًا بنفسه. لذلك خلدوا جميعًا إلى النوم.

في الصباح، كان من المقرر أن يسيروا على الأقدام حسب ما خططوا له، أي أن يرافق ليلي وتاني جم عبر الريف حتى المحطة الثالثة. كان الصباح جميلًا، والريف جميلًا. أحب ليلي الريف واستمتع بالمشي. لكن ثمة صلابة داخل نفسه لم تلِن. تحدث جم مرة أخرى قليلًا عن مستقبل العالم، والحالة السامية من التشبه بالمسيح لدى الإنسان، لكن ليلي اكتفى بالضحك. ثم تقدمته تاني برفقة جم، والتصقت بجانبه وشرعا بالحديث في أمور عاطفية شخصية. لكن ليلي، الذي شعر بذلك من بعيد، ركض وراءهما وقاطعهما فسكتا.

- «ما الموضوع المهم الذي كنتما تتحدثان به؟» قال مقاطعًا.

- «لا شيء على الإطلاق!» قالت تاني بغضب «لماذا يجب أن تتدخل؟»

- «لأنني أريد ذلك» أجابها ليلي.

وتباعد الاثنان الآخران كأنهما قُطعا بسكين. ومشى جم بشيء من الارتباك، مثل المهزوم.

وهكذا وصلوا أخيرًا، مرورًا بالقنوات، إلى المحطة القائمة على جانب الطريق. وأخيرًا جاء قطار جم فتوادع الجميع. وكان كل من جم وتاني ينتظران أن يُظهر ليلي بعض علامات المصالحة الحقيقية، لكنه لم يأتِ بشيء منها. كان مرحًا ونائيًا. ثم قال لجم:

- «وداعًـا. آمـل أن تكون لويز علـى ما يرام. المحطة الثالثـة القادمة. مع السلامة! مع السلامة!»

- «هل ستأتيان إلى راكهام؟» قال جم متكئًا على نافذة القطار.

- «سنكون مسرورين بذلك»، نادت تاني، بعد سير القطار.

- «حسنًا» قال ليلي بلهجة غير ملزمة.

لكنه وزوجته لم يريا جم مرة أخرى. لم يسعَ ليلي قط لرؤيته: ثمة شيطان جثم في صدر الرجل الصغير.

وكانت كلمة تاني الأخيرة:

- «ينبغـي أن لا تلعـب دور يسـوع الصغيـر، فتقتـرب جـدًا مـن الناس وتطمعهم بتلقي مساعدتك»

الفصل التاسع

علامة الجزر الأقصى[1]

ذهبت تاني إلى النرويج لتزور أهلها للمرة الأولى خلال ثلاث سنوات. لم يذهب ليلي معها؛ لم يكن يريد ذلك. جاء إلى لندن واستقر في غرفة مطلة على سوق كوفنت غاردن. كانت الغرفة عالية وذات حجم معقول وتقع عند زاوية أحد الشوارع والسوق نفسه وتطل على الأكشاك والعربات والأروقة. كان ليلي يتسلق خارجًا من النافذة ويجلس لساعات يراقب سلوك خيول الجر العظيمة التي تجلب جبال الصناديق والخضروات. لقد بدت مثل كائنات نصف إنسانية مضحكة، ضخمة ولحيمة للغاية، لكنها كوكنية[2]. كان هناك واحد منها لا يطيق الحمير، وقد اعتاد على أن يكشر عن أسنانه الكبيرة مثل أفعوان ضخم كلما صادف حمارًا صغيرًا مسكينًا يجر عربة للخضار. وثمة حصان عظيم آخر لم يكن يتحمل الوقوف، فلا يكف عن هز نفسه والتوثب للانطلاق، ثم الرجوع إلى أكوام الجزر والبروكلي فيدفع السائق إلى حالة من الغضب المسعور.

ثمة شيء يستحق المشاهدة على الدوام. في إحدى المرات رأى حمولتين كبيرتين من الصناديق الفارغة التي تشابكت أثناء مرورها وتمايلت

LOW-WATER MARK يستخدم خبراء الري والبحرية منذ القدم أنواعًا من أجهزة القياس المزودة بعلامات تتيح لهم معرفة مستوى المياه في حالات المد والجزر والفيضان الخ.

2- الكوكني cockney أحد أبناء لندن وخصوصًا أطرافها الشرقية، وهم يتميزون بلهجة خاصة بهم.

آيلةً لسقوطٍ كارثي، فتعالت شتائم السائقين اللذين ترجلا ونزلا ليحدقا في الأحمال المهدَّدة، حتى أقنعا رجلًا نحيفًا بالتسلق فوق جبال الأقفاص مثل القردة. وقد نجح في الواقع في إعادتها إلى مكانها فتنفس الجميع الصعداء عندما تمايلت العربتان أخيرًا خارجتين من السوق.

في مناسبة أخرى، شاهد صبيَّ خدمة ذا مؤخرة مستديرة ومرحة، يرتدي سترة بصفين من الأزرار يسير برشاقة تحت الأقواس الجانبية للسوق وهو يحمل صينية إلى مكان ما. كان الحمالون المفتولو العضلات يتحرشون به فيتوقف ليرد عليهم بوقاحة. بعد ظهر أحد الأيام، اندفع رجل عملاق وراءه: انطلق الصبي برشاقة بين أكوام الخضار، وهو يرفع صينية الشاي عاليًا، مثل مساعد كاهن شاب ذي أزرار زرقاء هاربٍ من أمام إله زائف. ترنح العملاق وهو يلاحقه حتى انزلق مساعد كاهن الشاي بين الخضار فسقطت الصينية للأسف. ثم انهمرت دموع الفتى وتعالى زئير ابتهاج قاسي الفؤاد من بين العمالقة، لكن ليلي شعر بأنهم سيعوضونه بطريقة ما.

بعد ظهر يوم آخر، كان متغندر شاب يروح ويجيء على مهل بين الخضار. تساءل ليلي، الجالس في شرفته الصغيرة العالية، عن السبب. ثم ظهرت أخيرًا سيارة أجرة وأنثى ظاهرة الغنى في عباءة من قماش الديباج الفضي وشال فرائي عظيم وريشات عقاب في قلنسوتها المشدودة تحت ذقنها. من الواضح أنهما في لقاء غرامي سري، لكن ما الذي يمكن أن يكون أكثر وضوحًا من هذا الزوج الأنيق الذي يشق طريقه عبر أوراق الكرنب؟

بعدها، وفي ظهيرة أحد الأيام الرمادية الباردة في أوائل أبريل، أبصر رجلًا يرتدي معطفًا أسود وقبعة مدورة يتخبط في مشيته. كان ليلي قد نهض للتو ليحتمي من الهواء البارد الرطب. لكنه، لسبب ما، استمر في مراقبة ذلك الشخص. كان يسير شرقًا. خطا نازلًا من الرصيف بشكل غير آمن إلى حد ما، وترنح فوق حجارة الشارع بين عجلات العربات الصغيرة المتوقفة، ثم هوى فجأة. لم يستطع ليلي رؤيته على الأرض، لكنه شاهد بعض سائقي العربات يتقدمون نحوه، ورأى أحدهم يحمل قبعة الرجل فقال في نفسه:

- «من الأفضل أن أنزل»

وهكذا أخذ يجري نازلًا الدرجات الحجرية الطوال للطوابق الأربعة،

ومجتازًا للعديد من أبواب المباني التجارية المتنوعة حتى بلغ السـوق فوجد حشـدًا صغيرًا متجمعًا وشرطيًا ضخم الجثة يشق طريقه نحو مركز الاهتمام. كان ليلي معتادًا على الابتعاد عن مثل هذه التجمعات العامة، لكنه دنا مترددًا هذه المرة حتى وصل الحلقة الداخلية للجمع.

- «ما هذا؟» سـأل مراسـلًا يافعًـا متعجرفًا بعض الشـيء، فأجابه بلهجة كوكنية وقحة:

- «سكران»

لبث ليلي على مسافة أبعد قليلًا عن دائرة الحشد الصغير وسمع الشرطي يقول بلهجة عنيفة:

- «تعال إلى هنا. أين تريد الذهاب؟»

- «أنا بخير. أنا بخير» جاءت إجابة المخمور النكِد.

- «حسنًا، أنت بخير؟ هيا، قف على قدميك»

- «أنا بخير! أنا بخير»

دفع الصوت ليلي إلى استراق النظر من بين الناس. وهناك، رأى صاحبنا آرون شـاحباً منفوش الشـعر، جالسًا على حجارة الشـارع الجرانيتية، يجذبه شرطي ضخم الجثة.

- «تريدنـي أن أعـدل الغطاء من حولك؟ أليس كذلك؟ تتخيل نفسـك ناعمًـا بالدفء في سـريرك، أليس كذلك؟ لا تـدرك أنك تجلس في منتصف الشارع تمامًا، في سوق كوفنت جاردن؟ هيا، سننظر في أمرك»

ورفع الشرطي آرون المكره المعاند. وسرعان ما تدخل ليلي، الحيي مثل ظل، والمختلف عن الآخرين.

- «ستسـاعدني فـي إيصاله إلـى غرفتي، أليس كذلك؟» قال للشـرطي «إنه صديقي»

نظـر الشـرطي الضخم مـن الأعلـى إلى ليلـي الحاسـر الـرأس، الهزيل المسـالم، بشـك ولكن ببشاشـة. لم يكـن بإمـكان ليلي أن يتحمـل أن ينطق الشرطي بأي من عبارات التشكك الكوكنية، لذلك وقف يراقبه. كانت هناك فجوة كبيرة بين المسؤول الحكومي وهذا الشخص الصغير الغريب الهادئ، لكن ليلي نال ما يريد.

- «أية غرفة؟» قال الشرطي في نبرة شك.

أشار ليلي إلى غرفته بسرعة ثم قال لآرون:

- «هل كنت قادمًا لرؤيتي يا سسن؟ سوف تدخل، أليس كذلك؟»

أومأ آرون برأسه في نزق وغباء. بدت عيناه غاضبتين. كان أحدهم قد ضغط قبعته على رأسه فجعله يبدو أكثر حمقًا. نزعها ليلي وحملها في يده. استدار وخف الحشد. نظر إلى آرون مليًا وأدرك أنه لا يستطيع المشي بسهولة فأمسكه من ذراعه الثانية بمساعدة الشرطي، وعبروا الطريق إلى الرصيف. قال الشرطي:

- «لا تحدث أمور كثيرة من هذا القبيل في هذه الأيام»

- «ما من فرص كثيرة لحدوثها» قال ليلي.

- «لكنها رغم ذلك أكثر مما كان قبلًا. إنها تعود شيئًا فشيئًا إلى مثل ما كانت في الأيام الخوالي»

عندما وصلوا إلى الدرج تعثر آرون.

- «اثبت الآن! اثبت!» قال الشرطي وهو يقوده.

كان هناك فارق غريب في المسافة بين ليلي والشرطي. وتمكن ليلي في النهاية من فتح بابه. كانت غرفة لطيفة. نشرت النيران الدفء، وثمة بيانو مفتوح، وأريكة تناثرت فوقها الوسائد والأوراق. غطت الكتب والأوراق منضدة الكتابة الكبيرة، وخلف الحاجز المصنوع من رفوف الكتب والبيانو، كان هناك سريران ومغسلة بجانب إحدى النوافذ الكبيرة، تلك التي عبر ليلي من خلالها. نظر الشرطي حوله بفضول وقال:

- «هنا أكثر راحة من موقف السجن، يا سيدي!»

ضحك ليلي وهو يرتب الأريكة على عجل وقال:

- «اجلس على الأريكة يا سسن»

أنزل الشرطي حمله وتنهد:

- «ها نحن قد وصلنا إذن!»

تحسس ليلي جيبه، ونفح الشرطي نصف كراون[1]. لكنه لم يرفع عينه عن آرون الذي جلس على الأريكة بغباء، شاحبًا جدًا وفي نصف وعيه.

- «هـل تشـعر بأنك مريض يا سسـن؟» خاطبه بصوت عـالٍ. فنظر إليه آرون بعيون ثقيلة وهز رأسه قليلًا.

- «أعتقد أنك كذلك» قال ليلي وهو يمسك بيده. فقال الشرطي:

- «ربما تكون الأنفلونزا، كما تعلم»

- «نعم» قال ليلي بعد تفكير «هل من طبيب قريب؟»

- «الأقرب؟ هل أوصل له رسالة يا سيدي؟»

كتب ليلي عنوانه على بطاقة ثم غير رأيه وقال:

- «كلا، سأبحث بنفسي إذا لزم الأمر»

وغادر الشرطي.

- «سـوف تخلـد إلى الفراش، أليس كذلك؟» قـال ليلي لآرون بعد أن أغلق الباب، فهز الأخير رأسه متجهم الوجه.

- «كنت سـأفعل لو كنت مكانك. يمكنك البقاء هنا حتى تكون بخير. أنا لوحدي، فلا تحمل همًا»

لكـن آرون كان قـد انتكـس إلـى حالة نصـف واعية. وضع ليلـي الغلاية الكبيـرة علـى موقد الغاز، والغلايـة الصغيرة على النار. ثـم وقف على رأس الرجل الذاهل شاعرًا بالقلق من جديد فأمسك يد آرون وتحسس نبضه.

- «أنـا متأكد من أنك لسـت بخير» قال له «يجـب أن تخلد إلى النوم» وجثـا علـى ركبتيه وفك حـذاءه. وفي هذه الأثنـاء بدأ المـاء بالغليان فوضع كيس ماء ساخن في السرير وقال للرجل المشدوه:

- «دعنا نخلع معطفك. تعال» واسـتطاع بعد كثير من الإقناع والجذب والدفـع من نـزع المعطف والسـترة والصدرية. وأخيرًا، جـرد آرون من ثيابه ووضعه في الفراش. أحضر له ليلي الشـاي فأطاعه في استسـلام متبلد وأخذ الكأس وشرب. ثم نظر إلى ليلي بعيون ثقيلة قائلًا:

1- الكراون: قطعة نقدية تساوي خمس شلنات.

- «لقد استسلمت، استسلمت لها، لو لم أفعل لكنت بخير»

- «لمن؟» سأله ليلي.

- «استسلمت لها - وبعد ذلك بكيت وأنا أفكر في لوتي والأطفال. شعرت بأن قلبي يتفطر، كما تعلم. وهذا ما فعلته. لو لم أستسلم لها لكنت بخير»

- «إلى من؟» سأله ليلي من جديد.

- «جوزفين. في اللحظة التي كنت أمارس الحب معها شعرت بأنني خنت نفسي. هذا ما فعله. انهار كل شيء فوق رأسي. كنت سأبقى على ما يرام لو لم أستسلم لها»

- «لا عليك الآن. ابق دافئاً ولا تتحرك»

- «لقد شعرت بذلك - شعرت به في أعماقي، في اللحظة التي استسلمت فيها لها. ربما قتلتني»

- «لا، ليس الأمر كذلك. لا تهتم، ابق ساكنًا. ابق ساكنًا وستكون بخير في الصباح»

- «إنه خطأي، لأنني استسلمت لها. لو كنت تراجعت لما تمزق كبدي، ولما مرضت، لقد عرفت...»

- «لا تهتم الآن. هل شربت شايك؟ اضطجع. اضطجع واخلد إلى النوم»

دفع ليلي آرون على السرير وغطاه. ثم دس يديه تحت أغطية السرير وتحسس قدميه - ما زالتا باردتين. عدّل كيس الماء. ثم وضع غطاء آخر على السرير.

رقد آرون لبعض الوقت، دون حراك، ذاويًا كئيبًا، في سكون مرضيّ. كان ليلي يدنو خلسة من وقت لآخر ليلقي نظرة سريعة على مريضه. ثم جلس ليقرأ. لكن أنين تنفسه المضطرب وتقلبه القلق في السرير أقاماه من جلسته فمضى إليه: كانت عيناه مفتوحتين ومعتمتين.

- «هل تشرب القليل من الحليب الساخن؟» سأله ليلي فهز آرون رأسه بضعف وشرود.

- «القليل من خلاصة اللحم؟»

ولم يتلق سوى هزة الرأس الضعيفة ذاتها.

كتب ليلي ملاحظة للطبيب، وذهب إلى المكتب في نفس الطابق كي يطلب من أحد الموظفين الموشكين على المغادرة أن يوصل الورقة، وعندما عاد وجد أن آرون ما زال يقظًا.

- «هل أنت هنا لوحدك؟» سأل المريضُ.

- «نعم. زوجتي سافرت إلى النرويج»

- «دون عودة؟»

ضحك ليلي وقال:

- «لا لشهرين أو نحو ذلك. ستعود إلى هنا، ما لم تنضم إلي في سويسرا أو في مكان ما»

ظل آرون ساكنًا لبعض الوقت ثم أخيرًا:

- «لم تذهب معها»

- «لرؤية أهلها؟ لا، لا أعتقد أنهم يتوقون لرؤيتي - ولم أتق أنا أيضًا إلى الذهاب. لماذا ينبغي علي ذلك؟ من الأفضل أن يتباعد المتزوجون في بعض الأحيان»

- «صحيح!» قال آرون وهو ينظر إليه بعيون عتّمتها الحمى.

قال ليلي:

- «أنا أكره المتزوجين الذين هم روحان في جسد واحد - ملتصقين معًا مثل أقراص العناب[1]»

- «وأنا مثلك تمامًا. أنا أيضًا أكرههم» قال آرون.

- «على كل إنسان أن يقف بمفرده، في المقام الأول - وكذلك الرجال والنساء. يمكنهم، في المقام الثاني، أن يجتمعوا إذا رغبوا في ذلك. ولكن لن يأتي خير ما لم يقف كل فرد بمفرده، بشكل جوهري»

قال آرون:

1- يتخذ من ثمار العناب أحيانًا أقراص مصّ محلاة لتخفيف احتقان الحلق.

- «أنـا معـك في هذا. لو كنت حافظت على نفسـي لمـا كنت في هذه الحال السـيئة -رغم أنني لست سيئًا للغاية. سأكون بخير في الصباح. لكنني آذيت نفسـي عندما ذهبت مع امرأة أخرى. شـعرت بأنني أموت- كما لو أن مرارتي تنفجر بداخلي، وأحسست بالغثيان»

- «هل أغوتك جوزفين؟» ضحك ليلي. فأجاب آرون في وجوم:

- «آه، هذا صحيح. لن تأتي إلى هنا، أليس كذلك؟»

- «ليس إلا إذا طلبت منها ذلك»

- «لكنك لن تطلب منها؟»

- «لا، لن أفعل إذا كنت لا تريد رؤيتها»

- «كلا لا أريد»

جعلت الحمى آرون سـاذجًا وكثير الكلام خلافًا لطبيعته. وكان يعلم أنه كان مخالفًـا لطبيعتـه، ويعلم أنه لا يتحكم بنفسـه بشـكل حسـن، ولهذا كان تعيسًا وقلقًا.

- «سأبيت هنا الليلة إذا كنت لا تمانع» قال آرون. فأجابه ليلي:

- «عليك أن تفعل. لقد أرسـلت في طلب الطبيب. أعتقد أنك مصاب بالأنفلونزا»

- «هل تعتقد ذلك؟» قال آرون خائفًا فضحك ليلي قائلًا:

- «لا تخف»

تلـت ذلك وقفـة طويلة. وقف ليلي عند النافذة ينظر إلى السـوق المظلم تحت مصابيح الشوارع. وجاء صوت آرون:

- «سأضطر للذهاب إلى المستشفى، إذا كان علي ذلك»

- «لا، إذا كانت المسألة مسألة أسبوع أو أسبوعين، يمكنك البقاء هنا. ليس لدي ما أفعله»

- «لا يوجـد سـبب يدعـوك إلـى أن تحمل عبئـي» قـال آرون باكتئاب فأجابه ليلي:

- «يمكنك الذهاب إلى مشفاك إذا أردت، أو العودة إلى مسكنك - إذا كنـت ترغـب في ذلـك. يمكنـك أن تتخذ قـرارك بعـد أن تـرى وضعك في الصباح»

- «لا فائدة من العودة إلى مسكني» قال آرون.

- «سأرسل برقية إلى زوجتك إذا أردت»

بقي آرون صامتًا كالميت لبعض الوقت ثم قال أخيرًا بصوت حازم:

- «كلا. حتى إذا مت من أجل ذلك»

لم يتحرك ليلي، فيما انحدر آرون في نوع من شبه النوم، مخذولًا وهامدًا. حل الظلام فوق لندن. وبعيدًا إلى الأسفل كانت المصابيح بيضاء.

أشعل ليلي مصباح القراءة المظلل باللون الأخضر فوق المكتب. ثم وقف ونظر إلى آرون البادي المرض، الراقد دون حراك. كانت عظام وجهه جميلة إلى حد ما، لكن جمجمته بدت صغيرة جدًا على مثل هذا الفك الثقيل والفم الخشن إلى حد ما. فتح آرون عينيه إلى النصف، وتلوى من الحمى وكأن أطرافه لا يمكن أن تثبت في مكانها. أصلح ليلي النار وجلس ليكتب. ثم نهض ونزل ليفتح باب الشارع كي يسمح بصعود الطبيب عند حضوره. كان أصحاب الأعمال قد غادروا جحورهم المختلفة، وغرق الجزء السفلي من المبنى العالي في الظلام.

انتظر ليلي وانتظر. وسلق بيضة وأعد لنفسه قطعة من الخبز المحمص. قال آرون إنه قد يأكل الطعام نفسه فسلق له ليلي بيضة أخرى وأخذها إلى الرجل المريض. نظر إليها آرون ودفعها بعيدًا شاعرًا بالغثيان. وأراد أن يشرب بعض الشاي فقدمه ليلي له.

- «ليس الأمر ممتعًا بالنسبة إليك» قال آرون «أعني أن تفعل هذا لشخص لا يشكل لك شيئًا» أجابه ليلي:

- «يفترض بي ألا أفعل ذلك إذا كنت غير متعاطف معي. لكن هذا قد حدث على أي حال، وسنتركه يمضي»

- «كم الساعة؟»

- «إنها الثامنة تقريبًا»

- «آه، يا إلهي. الأوبرا!»

ورفع آرون نصف جسمه من الفراش، لكنه أدرك حين جلس على حافة السرير أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه بأمان، فظل صورة ناطقة للكآبة والحزن.

- «ربما يجب علينا إخبارهم» قال ليلي.

لكن آرون، الذاهل الغارق في بؤسه الأبله، ظل جاثمًا على جانب السرير دون إجابة. قال ليلي:

«سأذهب وأبلغهم. أفترض أن آخرين غيرك قد أصيبوا بالأنفلونزا. اضطجع!»

لكن آرون جلس ببلاهة وكآبة متجمعًا على جانب السرير، مرتديًا بيجاما قديمة من الفانيلا من ليلي، صغيرة عليه بعض الشيء. شعر بأنه أكثر سوءًا من أن يتحرك.

- «اضطجع! اضطجع!» قال ليلي «ولا تتحرك ريثما أعود. لن أغيب لأكثر من عشر دقائق»

- «لا يهمني إذا مت» قال آرون. فضحك ليلي وقال:

- «أنت بعيد جدًا عن الموت، وإلا ما كنت لتقول ذلك»

لكن آرون اكتفى بأن نظر إليه بعينين غريبتين، بعيدتين، شرستين، شيء مثل مجرم سيعدمونه بعد لحظات.

- «اضطجع!» قال ليلي ودفعه برفق إلى السرير «لن تحسن من حالتك بجلوسك هناك، على أية حال»

استلقى آرون واستدار، وكان ساكنًا تمامًا فغادر ليلي الغرفة بهدوء ليقوم بمهمته.

لم يأتِ الطبيب حتى الساعة العاشرة. وكان منهكًا من العمل حين وصل.

- «ألا يوجد مصعد في هذه البناية؟» قال وهو يتلمس طريقه صاعدًا السلالم الحجرية. سمعه ليلي، وركض لمقابلته.

وضع الطبيب المحرار تحت لسان آرون وجس نبضه. ثم طرح بعض الأسئلة استمع لتنفسه ونبضات قلبه.

- «نعم، إنها الأنفلونزا» قال باقتضاب «ليس لدينا ما نفعله سوى أن نبقيه دافئاً في سريره ونمنعه من الحركة مع شرب الكثير من الحليب والأغذية السائلة. سآتي في الصباح وأعطيك حقنة. الرئتان على ما يرام حتى الآن»

- «كم عليّ أن أبقى في السرير؟» سأل آرون.

- «أوه - الأمر يعتمد. أسبوعًا على الأقل»

راقبه آرون متجهمًا، وشعر ببغض نحوه. ضحك ليلي مع نفسه. كان الرجل مثل كلب مريض لكنه لا يكف عن الزمجرة من زاوية بعيدة، مستعدًا لعضّك إذا وضعت يدك عليه. كان في حالة من الاكتئاب القاتم.

حرص ليلي على تهدئته طوال الليل، ثم ذهب هو نفسه إلى الفراش. كان آرون يتلوى طوال الليل جراء أطرافه الثقيلة المتألمة، ونام ليرى أحلامًا سيئة. نهض ليلي ليسقيه. كان الضجيج في السوق رهيبًا قبل الفجر فعانى آرون ما عاناه.

في الصباح كان أسوأ حالًا فأعطاه الطبيب حقنة ضد الالتهاب الرئوي.

- «ألا تريد مني أن أتصل بزوجتك؟» سأل ليلي فأجاب آرون فجأة:

- «كلا، لكن يمكنك إرسالي إلى المستشفى. لستُ سوى قطعة من الجيفة»

- «جيفة! لماذا؟»

- «أنا أعرف هذا. أنا أحس بأنني كذلك»

- «أه، هذا ليس سوى إحساس بالغثيان يصاحب الإنفلونزا»

- «أنا لا أصلح إلا لوضع حد لي ورميي تحت الأرض. أنا لا أطيق نفسي»

ظهر بتلك الهيئة البغيضة المكفهرة من الاشمئزاز الذاتي.

- «إنها الجرثومة. هي التي تسبب لك هذا الشعور. إنها تسمم الجسم لبعض الوقت. لكنك ستتخلص منها»

لم يكن أفضل حالًا عندما حل المساء. إذ لم تزل الحرارة مرتفعة. لكن لا مضاعفات - عدا اضطراب في دقات القلب.

- «الأمر الوحيد الذي يثير تساؤلي» قال ليلي «هو إن كان من الأفضل إبعادك عن ضجيج السوق. لا بد أنه يخيفك عند حلول الصباح الباكر»

- «إنها لا تفرق معي»

في اليوم التالي ساءت حالته قليلًا. وعرف الطبيب أنه لا يستطيع أن

يفعل لهه شيئًا. عند المساء أعطى مريضه حبة كالوميل[1]. كانت قوية نوعًا ما فمر آرون بوقت عصيب. كانت أحشاؤه الملتهبة المتيبسة المتسممة تتلوى وتتمزق بينما تواصل العربات قرقعتها والحمالون صياحهم في جحيم السوق، هناك فوق حجارة الرصيف. لكن الرجلين لم يسمعا هذه المرة. سأل ليلي:

- «هل تشعر الآن بتحسن؟ بعد إجراءات الطبيب؟»

- «بل زادت الأمور سوءًا» صاح آرون في غضب «أرسلني إلى المستشفى، وإلا ندمتَ. تخلص مني قبل فوات الأوان»

- «كلا. ستتحسن. اللعنة، إنك مجرد واحد من مليون»

ومرة أخرى غطت وجه آرون تكشيرة شنيعة من اشمئزاز ذاتي وقال:

- «لقد تعفنت روحي»

- «كلا. إنه التوكسين الذي في دمك[2]»

في اليوم التالي تدهورت حالة المريض، وازداد اضطراب دقات قلبه ونام نومًا سيئًا. كان ليلي قد نال، حتى الآن قسطًا لا بأس به من النوم خلال الليل. وها هو آرون قد استيقظ وبدا كمن يصارع في سريره.

- «تشجع يا هذا» قال له الطبيب بحدّة «إنك بهذا تستسلم»

نظر إليه آرون في وجوم، ولم يجب.

استيقظ ليلي مرارًا أثناء الليل. فقد كان آرون ينزلق على ظهره غائصًا في فراشه ويفقد الوعي جزئيًا ثم يعود ليصحو كما لو أنه يغرق ويكافح كي يتحرك، ويصرخ ذهنيًا دون أن يصدر صوتًا لبضع لحظات، يصرخ ذهنيًا في هلع دون أن يقدر على أن يتزحزح أو يصدر صوتًا. وأخيرًا، عندما استجمع نوعًا من السيطرة على جسده، صاح قائلًا:

1- هو كلوريد الزئبق وكان يوصف على نطاق واسع كعلاج لكثير من الأمراض لكنه لم يعد يستعمل منذ بدايات القرن العشرين إلا نادراً كدواء مسهل أو مضاد للفطريات.

2- التوكسين سم حيوي تصنعه بعض الكائنات الحية. قد يؤدي إدخال جزء من هذه المركبات لخلية أكبر منها ببلايين المرات إلى قتلها.

- «ارفعني! ارفعني!»

أسرع ليلي إليه ورفعه، فجلس يلهث ويهتز كأنه ينتحب وعيناه قاتمتان خائفتان، كأقرب ما يكون إلى مجرم على وشك الإعدام. ثم شرب قليلًا من البراندي وأرقده ليلي على جنبه.

قال وهو يرتجف هلعًا:

- «لا تدعني أستلقي على ظهري» فطمأنه ليلي:

- «لا، لن أفعل»

قطب آرون جبينه بطريقة غريبة وهو ينظر إلى ممرضه وقال وهو في غاية الرعب:

- «عدني أن لا تتركني»

- «لا، لن أتركك»

وهكذا بقي ليلي يتفقده ويسحبه ويرقده على جنبه كلما وجده ينزلق على ظهره.

صبيحة اليوم التالي كان الطبيب في حيرة من أمره. ربما كان التوكسين في الدم هو الذي سمم القلب. لم يكن هناك التهاب رئوي، ومع ذلك كان من الواضح أن آرون يزداد سوءًا. وافق الطبيب على إرسال ممرضة لتسهر عليه.

- «ما خطبك يا رجل!» خاطب مريضه بحدة «إنك تستسلم! تستسلم! ألا يمكنك أن تستجمع نفسك؟»

لكن آرون ازداد كآبة، وتراجع منكمشًا عن الحياة. وبدأ ليلي يشعر بقلق حقيقي. استدعى أحد أصدقائه ليجلس مع المريض بعد الظهر، بينما خرج لينام في غرفة آرون في مسكنه.

حين عاد في صباح اليوم التالي وجد المريض مستلقيًا كما كان، متكومًا في السرير. توجب على الممرضة أن ترفعه مرة بعد أخرى، وها هو الآن يرقد في نوع من ذهول خدر وخوف وغضب محبط وتعاسة ونفور من الذات: نوع من الاكتئاب المتشابك.

عبس الطبيب عندما جاء. تحدث مع الممرضة وكتب وصفة أخرى، ثم انتحى بليلي قرب الباب.

- «ما خطب صاحبك؟ ألا يمكنك إيقاظ روحه؟ يبدو كمن ينسحب من الحياة. سوف يموت فجأة، كما تعلم، إذا استمر على هذا النحو. ألا يمكنك إيقاظه؟»

- «أعتقد أنه محبط جزئيًا لأن أمعاءه لا تعمل. هذا يخيفه. لم يمرض في حياته قط»

قال الطبيب بفارغ الصبر:

- «أمعاؤه لن تنشط إذا استسلمت روحه، مثل حيوان يموت من الغم. قد يسقط ميتًا فجأة، في طرفة عين»

كان ليلي مضطربًا بما يكفي، لكنه لم يكن يعرف تمامًا ما يجب فعله. كانت الدقائق الأولى لما بعد الظهر، والشمس مشرقة في الغرفة. ثمة جرة من أزهار النرجس البري وشقائق النعمان والبنفسج والفريزيا، وفي الأسفل، في السوق، كشكان يعرضان زهورًا ذهبية وزرقاء بهيجة.

قال ليلي:

- «الزهور جميلة في ضوء شمس الربيع. أتمنى لو كنت في الريف، ألست كذلك؟ سنذهب إلى هناك حالما تتحسن حالتك. لقد كان ربيعًا باردًا ممطرًا. لكن الجو سيكون لطيفًا الآن. هل تحب أن تكون في الريف؟»

- «نعم» قال آرون.

كان يفكر في حديقته. لقد أحبها. لم يسبق له في حياته أن عاش بعيدًا عن حديقة ما.

- «سارع بالتحسن وسنذهب معًا»

- «إلى أين؟» قال آرون.

- «هامبشاير. أو بيركشاير[1]. أو ربما ترغب في العودة إلى المنزل؟ هل تريد ذلك؟»

رقد آرون ساكنًا ولم يجب. قال ليلي:

- «ربما تريد ذلك ولا تريده، لكن يمكنك أن تفعل ما يحلو لك في كل الأحوال»

1- مقاطعتان جنوبي إنكلترا.

لكنـه لـم يحصل على شـيء محدد من الرجـل المريض - بـدت روحه عالقة كما لو أنها لا تستطيع التزحزح من مكانها.

فجأة نهض ليلي وذهب إلى منضدة الزينة.

- «سأفرك جسدك بالزيت» قال له «سأقوم بفركك مثلما تفعل الأمهات لأطفالهن الذين لا تتحرك بطونهم»

عبـس آرون قليلًا وهو يحدق في الوجه الداكن المتمالك لنفسـه للرجل الصغير.

- «ما فائدة ذلك؟» قال باهتياج. «أفضّل أن أترك لوحدي»

- «إذن لن تكون لوحدك»

وأسرع بكشف الجزء السفلي الأشقر من جسم مريضه، وبدأ في فرك البطن بالزيـت، مسـتخدمًا حركـة دائرية بطيئة ومنتظمة. واسـتمر يفـرك لفترة طويلة، يفرك بدقة وثبات. ثم مر على الجزء السـفلي من الجسـم بالكامل، دون تمييز، كما لو كان يقوم بتعويذة ما، مدلكًا كل بقعة من الجزء السفلي من جسم الرجل - البطـن والأرداف والفخذيـن والركبتيـن، وصـولًا إلى القدميـن فركها كلها بزيـت الكافـور حتى غـدا كل جزء منها دافئًـا ولامعًا، ثم مر علـى أصابع القدم برشاقة حتى شعر بالإنهاك. وأخيرًا أعاد تغطيته وجلس مرهقًا ينظر إلى مريضه.

رأى تغييـرًا. عـادت التماعـة الحياة إلـى العينين المريضتيـن، وبان على وجهه أثر باهت لابتسـامة خافتة مضيئة. كان آرون يسـتعيد نفسـه. لكن ليلي لم يقل شيئًا.

رأى مريضه يغط في نوم هادئ. وجلس يراقبه. وفكر في نفسه:

- «أتسـاءل لماذا أفعل ذلك. أتسـاءل لماذا أزعج نفسي به. يفترض أن جِم قد علمني درسـاً لا أنساه. بمجرد أن يتحسن هذا الرجل، سوف يلكمني في فؤادي، مَجازيًا إن لم يكن فعليًا، لتدخلي في شـؤونه. وسوف تقول تاني إنـه محـق تمامًا في فعل ذلك. سـتقول إنني أريد أن أتسـلط عليهم. وماذا لو فعلـت؟ إنهم لا يهتمون بمدى سـلطة الغوغاء عليهم، وسـلطة الأمة، ولويد

جورج ونورثكليف[1] والشـرطة والمال. سوف يسـلمون أنفسهم لهذا النوع من السـلطة بسرعة ويسـر، ويضحون بأنفسـهم طوعًا ومجانًا بالملايين. وما هو الخير العام والمصلحة العامة إلا قوة الغوغاء؟ لماذا لا يمكنهم الخضوع لقليل من السلطة الفردية السليمة؟ سيموت هذا الأحمق من دوني تمامًا كما سيموت ذلك الأحمق جِم يومًا ما في حالة هستيرية. لماذا يبقى طويلًا!؟

إن تاني لا تختلف عنهما. إنها لا تفعل شيئًا حقًّا سوى مقاومتي، ومقاومة سـلطتي أو تأثيـري، أو مجـرد مقاومتي. إنها تعارضني فـي أعماقها معارضة عميـاء لا هـوادة فيهـا. يعلم الله ما تعارضه: ربما شـخصي فقـط. هي تعتقد أننـي أريدهـا أن تخضع لي. وهذا ما أفعلـه أنا أيضًا، بطريقـة تلائم طبيعتينا. يجـب عليها، في نقطة ما، أن ترضخ لي. لكنهم كلهم يفضلون العناد الفارغ. اللعنة عليهم جميعًا، لماذا لا أتركهم وشأنهم؟ إنهم يبتسمون فقط ويشعرون بالانتصار عندما يهينون أحدهم ويلكمونه في فؤاده.

هذا الآرون سـيفعل الشـيء نفسـه. أنا أحبه، ولابد أن يحبني. وسـيكون جِماً آخر: سـوف يحبنـي، إذا كان بإمكانـه لكمي وقطع أنفاسـي. الكثير من الستافروجينات الصغيرة تأتي لتهمس بمودة وتعض أذن المرء[2]

لكـن علـى أي حـال سـأكون قـادرًا عمـا قريب علـى التوقف عـن رؤية هـذا الشـاب، هـو وكل البقية. سـأكون ملعوناً إلـى الأبد إذا رأيـت جِماتهم وروبرتاتهـم وجولياتاتهـم وسـكوتاتهم بعـد الآن. دعهـم يرقصـون حـول حسائهم الجهنمي[3] المخفف الخالي من الطعم.

هناك عالم كامل إلى جانب هذه العصابة الصغيرة من الأوروبيين، لولا

1- لويد جورج 1863-1945 كان رئيس وزراء المملكة المتحدة بين عامي 1916-1922 وقاد بريطانيا في النصف الثاني من الحرب العالمية الأولى، أما ألفريد نورثكليف (1865-1922) فهو سياسي وأحد أباطرة الصحافة وكان له تأثير كبير على صناعة الرأي العام والسياسات الحكومية.

2- يشير لورانس إلى نيقولاي ستافروجين الشخصية المركزية في رواية الشياطين لدوستويفسكي وقيامه في أحد الفصول بالاقتراب من المحافظ كأنه يريد أن يهمس له بشيء ثم عضه من أذنه دون سابق إنذار.

3- حساء يستخدم لأغراض شريرة في السحر الأسود.

أنهم، يا إلهي، قد أبادوا كل الشعوب التي تستحق المعرفة. لا أستطيع أن أطيق أقوامًا يتوالدون بالمليارات، مثل الصينيين واليابانيين والشرقيين كلهم. الهوام فقط تتكاثر بالمليارات. الأنواع الأعلى تتكاثر بشكل أبطأ. ربما كنت سأحب الأزتيك والهنود الحمر. أعرف أنهم يحملون عنصر الحياة الذي أبحث عنه: الفخر بالحياة. لا مثل الآسيويين الذين تلدغهم البراغيث -حتى الزنوج أفضل من الآسيويين، على الرغم من تخبطهم- السلالات الأمريكية - وسكان جزر بحر الجنوب وجزر الماركيز، وعرق الماوري[1]. تلك كانت الأعراق الحقيقية. لم تكن خائفة. أما الباقون فهم جبناء -أوروبيين كانوا أم آسيويين أم أفارقة- كل فرد منهم في صميمه جبان ومتملق معتدّ بالحشود، بالغوغاء. كم أكرههم: المتنمرين كجماعات، اليهوذات كأفراد.

حسنًا، إذا كان المرء سيصبح يسوعًا فعليه أن يتوقع يهوذاه. لهذا أصيب أبراهام لينكولن بالرصاص[2]. إن يسوع يجعل يهوذا أمرًا لا مفر منه. على الإنسان أن يحافظ على وجوده الفردي، لا أن يحاول نشر نفسه على البشرية. يجب أن يتمحور حول كبريائه.

أعتقد أنه كان علي بالفعل أن أحمل هذا الآرون إلى المستشفى. لكن ها أنذا، بدلًا من ذلك، أفركه بالزيت لأفرك الحياة فيه. وأنا أعلم أنه سوف يعضني مثل ثعبان دافئ في اللحظة التي يتعافى فيها. وستقول تاني، وهي محقة تمامًا، إنني ما كان يجب أن أكون حميميًا جدًا. لا، كان يجب أن أترك الأمر للأطباء والممرضات الميكانيكيين.

هذا ما كان علي فعله. أن أترك كل شيء وشأنه. وآرون ينتمي إلى هذا النظام الصغير، وجِم ينتظر التحليل النفسي، وتاني تنتظر تمجيدها.

حسنًا يا آرون. هذه آخر مرة أكسر فيها رغيفي لأي شخص. تحسّن إذن يا عازف الفلوت حتى أتمكن من الذهاب لشأني.

1- الماوري (Māori) هم السكان الأصليون لنيوزيلندا وجزر كوك.

2- Abraham Lincoln (1809-1865) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية. قتل على يد متطرف جنوبي رداً على إعلان لنكولن تحرير العبيد وخسارة ولايات الجنوب للحرب الأهلية.

كان من السـهل على الهنود الحمر والآخرين أن يتحكموا بالموت. ربما بقوا لفترة أطول قليلًا لمساعدة المرء على تحدي الجماهير البيضاء.

سأعد بعض الشاي»

نهـض ليلي بخفة وذهـب إلى الموقد. كان عليه أن يجتاز منبسـط الدرج ليبلـغ نوعًا من المرحاض الصغير به حوض وصنبـور للمياه. نظر إليه الكتبة مـن مكتب مجاور وأومأوا برؤوسـهم محيين فأومأ لهم برأسـه واختفى عن أنظارهم بأسرع ما يمكن حاملًا غلايته. عيناه الغامقتان كانتا تتحركان سريعًا، وشعره الداكن مهملًا، وثمة شيء صامت وغامض يحيط به ويمنع الناس من الاقتراب منه بشكل عادي.

وضـع الغلاية، ثم صف الأكواب والصحـون على الصينية بهدوء. كانت الغرفـة نظيفـة ومريحة ولطيفـة. كان ينظفها بنفسـه بكفاءة لا تقـل عن كفاءة أيـة ربـة منزل نشـيطة وغير متطفلـة. وبينما كانـت الغلاية تغلـي جلس يرتق الجـوارب التـي كان قد خلعهـا من قدمي عـازف الفلوت عندما نـزل عنده، وكان قد غسـلها. لقد فضل ألا يراه أي غريب وهو يفعل هذه الأشـياء. لكنه فضل أيضًا أن يفعلها بنفسه، حتى يكون في غنى عن أي عون خارجي.

كان وجهه مظلمًا وأجوف، وعليه أمارات الضعف وهو يجلس هناك في هـذا الأصيل اللندني ليرتق الجوارب الصوفية السـوداء. كان جبينه الواسـع معقودًا بعض الشـيء ويبدو عليه التوتر لكنه محاط في الوقت عينه بهالة من سكون لا يقهر. لم تكن يداه، على صغرهما، بالنحيفتين للغاية. عندما انتهى من رتق الجوارب قطع الصوف بأسنانه. وبينما هو يحضر الشاي، رأى آرون يستيقظ في السرير.

– «لقد أخذت قسـطاً من النوم» قال المريض وهو يسـتدير ليرى ما كان يفعله الرجل الآخر. وبدا منظر البخار الصاعد من إبريق الشاي جذابًا.

– «نعم» قال ليلي «لقد نمت نومًا عميقًا لساعتين كاملتين»

– «نعم قد فعلت»

– «هل تريد القليل من الشاي؟»

– «نعم – وقليل من الخبز المحمص»

- «ليس من المفترض أن تتناول طعامًا صلبًا. اسمح لي أن أقيس حرارتك»

كانت الحرارة قد انخفضت إلى المائة[1] فأعطاه ليلي، على الرغم من إرشادات الطبيب، قطعة من الخبز المحمص مع الشاي، وأمره بعدم إخبار الممرضة.

في المساء تحدث الرجلان.

- «أنت تفعل كل شيء بنفسك إذن؟» قال آرون.

- «نعم، أفضل ذلك»

- «هل تحب العيش بمفردك؟»

- «لا أعرف شيئًا عن ذلك. أنا لم أعش وحدي قط لقد كنت أنا وتاني وحيدين جدًا في بلدان مختلفة. لكننا كنا اثنين وليس واحدًا»

- «هل تفتقدها إذن؟»

- «نعم بالطبع. اشتقت إليها بشكل فظيع عندما بقيت في الكوخ بعد سفرها مباشرة. شعرت أن قلبي قد تحطم. لكن هنا، حيث لم نعد معًا، لا ألاحظ ذلك كثيرًا»

- «سوف تعود»

- «نعم ستعود. لكنني أفضل مقابلتها في الخارج بدلًا من هنا، ومتابعة حياتنا على أساس مختلف»

- «لماذا؟»

- «أوه، لا أعرف. أعتقد أن هناك شيئًا ما يتعلق بالزواج بشكل عام. أعتقد أنها حالة من الأنا الازدواجية[2]»

- «ماذا يعني ذلك؟»

- «الأنا الازدواجية؟ إنها شخصان وأنا واحدة. يبدو لي أن الزواج حالة أنا مدركة لذاتها»

- «ألم ترزقا بأطفال؟»

1- بمقياس فهرنهايت وهي تعادل 37،8 درجة مئوية.

2- Egoisme a deux وهي حالة تجمع شخصين معًا، لا بسبب الحب أو الفهم المتزايد بعضهما لبعض، بل بسبب التشابك المفرط والحرمان المتبادل من الذات.

- «لا تاني تريد ذلك بشدة. أما أنا فلا. أنا ممتن لأننا بدون أطفال»

- «لماذا؟»

- «لا أستطيع أن أحدد السبب تمامًا. أنا أفكر فيهم كعبء. إلى جانب ذلك، هناك ملايين ومليارات من الأطفال في العالم. ونحن نعلم جيدًا ما هو نوع الملايين والمليارات من الأشخاص الذين سيكونون. لا أريد إضافة حصتي إلى الحشود - هذا ضد غريزتي»

- «أنا معك!» ضحك آرون ضحكة مقتضبة موافقة.

- «تاني غاضبة. ولكن بعد ذلك، عندما تنجب المرأة أطفالًا، ستبدأ بالاعتقاد أن العالم يتحرك فقط لهم ولها، ولا شيء آخر. العالم كله يتحرك من أجل الأطفال، ومن أجل أمهم المقدسة»

- «نعم، هذا صحيح» قال آرون مؤيدًا.

- «أما عن نفسي فقد سئمت من فكرة الأطفال. الأطفال شيء جيد، طالما أنك تأخذهم كما هم: أشياء صغيرة غير ناضجة مثل القطط الصغيرة والكلاب نصف البالغة، مزعجة، وساحرة جدًا بعض الأحيان. لكن فلأُشنق إذا استطعت أن أرى أي شيء سامٍ ومقدس في الأطفال. ثم عليّ أن أكون آسفًا أيضًا حيال الأطفال، إذ سيكونُ الأمر سيئًا جدًا بالنسبة لهم. الأطفال الصغار مخلوقات مزعجة، متعبة وممتعة بالتناوب»

- «عندما لا يبالغون في الإحساس بأهميتهم»

- «نعم بالفعل. وهذا ما يفعلونه نصف الوقت. الأطفال المقدسون، والأمومة المقدسة، لقد شبعت تمامًا من ذلك. لهذا أنا ممتن لأنه ليس لدي أطفال. تاني لا يمكن أن تتفق معي في هذا»

- «إنها حقيقة. عندما تنجب المرأة أطفالها، أقسم بالله، ستكون مثل أنثى كلب في المعلف[1]. يمكنك أن تتصور جوعًا وهي جالسة على التبن. إنها تحرص على إبقاء صغارها دافئين»

- «نعم»

---

(1) a bitch in the manger وهذا مثل على الشخص الذي يستأثر بأشياء لا يستفيد منها ويمنعها عمن يحتاج إليها.

- «حسنًا، كما تعلم» استدار آرون بحماس في السرير «هن ينظرن إلى الرجل كما لو كان مجرد أداة للحصول على الأطفال وتربيتهم. إذا كان لديك أي علاقة بامرأة، فهي تعتقد أن هذا بسبب رغبتك في إنجاب الأطفال بواسطتها. فلتنزل علي اللعنة إن كنت كذلك! أنا لا أريد سوى سعادتي أو لا شيء: ولتحل اللعنة على الأطفال»

- «آه من النساء. يجب أن يكن محبوبات بأي ثمن!» قال ليلي «وإذا كنت لا تريد أن تحبهن -وتقول لهن ذلك- فيا لها من جريمة»

- «جريمة!» قال آرون «سوف يجعلن منك مجرمًا. اللعنة عليهن وعلى أولادهن! هل وهبت حياتي من أجل إنجاب الأطفال والعمل على تربيتهم؟ فلأرهم جميعًا في الجحيم أولًا من الأفضل أن يموتوا وهم أطفال، إذا كانت الطفولة مهمة للغاية»

- «أتفق معك تمامًا. إذا كانت الطفولة أهم من الرجولة، فلماذا تعيش حتى تكون رجلًا؟ لماذا لا تبقى رضيعًا؟»

- «اللعنة والدمار على النساء وكل ما لهن من أهمية» صاح آرون «إنهن يردن أن يسيطرن عليك، والأطفال هم سلاحهن الرئيسي»

- «على الرجال أن يواجهوا حقيقة أن الرجولة هي أكثر من مجرد طفولة - ومن ثم إجبار النساء على الاعتراف بذلك. لكن البكّائين العفنين كلهم يَحْبون متذللين أمام حفاظات الأطفال وتنورات النساء»

- «إنها لحقيقة» قال آرون. لكنه نظر إلى ليلي بغرابة، كما لو كان مرتابًا. والتقط ليلي النظرة، لكنه تابع:

- «وإذا اعتقدوا أنك تحاول الوقوف على ساقيك والمشي بأقدام الرجولة، فلن ترى بينهم أبًا وعشيقًا مزدهرًا إلا ويبذل قصارى جهده لإحباطك وخنقك - إما بحفاظة رضيع أو تنورة نسائية»

كانت شفاه ليلي تتلوى. كان مكفهرًا وقاسيًا قال آرون بهدوء:

- «آه، الأمر كذلك»

- «لقد غادرت روح الرجولة عالمنا. لا يستطيع الرجال التحرك شبرًا واحدًا ما لم ينبطحوا متذللين في نهاية الرحلة»

- «لا لن يستطيعوا»

- «لهذا السبب يحتاج الزواج إلى إعادة التكيف، أو التوسع، لجعل الرجال يقفون على أرجلهم مرة أخرى، وفتح باب المغامرة أمامهم من جديد. لكن الرجال لن يتكاتفوا ويقاتلوا في سبيل ذلك، فبمجرد أن ترفع المرأة رأسها مع أطفالها، ستجد الكثير من المنبطحين المستعدين لدعمها وخنق أي روح متحدية. وستضحي النساء بأحد عشر رجلًا وأبًا وزوجًا وأخًا وعشيقًا من أجل طفل واحد، أو من أجل إشباع غرورها الأنثوي»

- «ستفعل ذلك»

- «وهل يمكنك أن تجد رجلين متكاتفين دون أن يشعرا بأنهما مجرمان، ودون تذلل وخنوع، ودون أن يخون أحدهما الآخر؟ لا يمكنك. من المؤكد أن أحدهما سيهز ذيله متملقًا حول بعض الإناث، ثم يستمتع كلاهما بالتخلي بعضهما عن بعض، كي يتذللا من جديد أمام إحدى النساء»

- «صحيح» قال آرون. ثم سكت ليلي.

الفصل العاشر

الحرب من جديد

- «لا بـد أن يكون المرء أحمق» قال ليلـي «ليكون بكاءً. ما يجب فعله هو المضي قدمًا»

نظر إليه آرون وعلى وجهه ظل ابتسـامة. كان الرجلان جالسين أمام النار فـي ختام يـوم بارد ورطب من شـهر أبريـل: آرون في طور النقاهة، مشـذب الهيئة بعض الشيء.

- «إيه» قال آرون بمرارة «عودة إلى شارع جيلفورد[1]»

- «أوه، قصدت أن أخبرك بأنني كنت أقرأ تاريخ بادن القديم. لقد سنّوا قانونـًا فـي عام 1528 – ليـس قانونًا بل نظام ينص على أنـه: إذا هجر الرجل زوجته وأطفاله، كما يحدث الآن كثيرًا، يجري فورًا إرسال الزوجة والأطفال في إثره. أظن أن هذا كان سيسعدك. أليس كذلك؟»

- «نعم» أجاب آرون بإيجاز.

- «كانوا سيصلون في اليوم التالي، مثل رسالة مُعاد توجيهها»

- «ولكان عليّ أن أتحرك بشـكل أسـرع كثيرًا، بهـذا المعدل» قال آرون ضاحكًا.

- «أوه، لا قد تحبهم تمامًا هنا» لكن ليلي رأى العبوس الشاحب المعبر عن الاشمئزاز المصمم على الوجه الناقه.

1- شارع في وسط لندن، يضم فيما يضم معهدًا للأمراض العصبية ومدخلًا إلى متنزه كبير خاص بالأطفال والمراهقين يحظر على البالغين دخوله، ربما يشير آرون إلى واحد منهما.

- «أليس كذلك؟» سأل ليلي فهز آرون رأسه وقال:

- «لا» وكان من الواضح أنه لا يريد الخوض في الموضوع «وماذا ستفعل بالنسبة لسفرك؟»

- «أنا!» قال ليلي «سأقلع الأسبوع المقبل - أو أبحر كما أنا على متن سفينة شحن تسمى جناح مود آلن»

- «إلى أين؟»

- «مالطا»

- «من أين؟»

- «رصيف لندن. رتبت أموري هذا الصباح على العمل فيها مقابل عشرة جنيهات. أنا مساعد الطباخ، لقد وقّعت العقد»

نظر إليه آرون ببعض من الإعجاب وقال:

- «لديك القدرة على الإقدام على قفزات مفاجئة، أليس كذلك؟»

- «بل إن الصعوبة تكمن في الامتناع عن القفز: في البحر أو في أي مكان»

دخن آرون غليونه ببطء.

- «وبماذا ستفيدك مالطا؟» سأله وقد شعر بالحسد.

- «الله أعلم. سأعبر إلى سيراكيوز، وأتقدم في إيطاليا[1]»

- «تتكلم كما لو كنت مليونيرًا»

- «كل ما أملك في هذا العالم هو خمسة وثلاثون باونداً. لكنني بانتظار المزيد»

- «لدي أكثر من ذلك» قال آرون.

- «هنيئًا لك» أجاب ليلي ثم قام وتوجه إلى الخزانة وأخرج وعاءً وسلة من البطاطس وجلس مرة أخرى ليقشر البطاطس. انزعج آرون وهو يلاحظ نشاطه.

1- سيراكوز أو سَرَقُوسَة :مدينة في جزيرة صقلية تقع في الساحل الجنوبي الشرقي لها.

- «ولكــن ما فائـدة الذهاب إلى مالطـا؟ هل سـتكون مختلفًا عما أنت عليه، في مكان آخر؟ ستكون هناك كما أنت هنا»

- «كيف أنا هنا؟»

- «حسـنًا، أنت تسـحن نفسـك طوال الوقت بشـيء ما في داخلك. أنت لست حرًا أبدًا. أنت لا تقتنع أبدًا. أنت لا تتوقف أبدًا عن إبلاء نفسك»

غمس ليلي البطاطس في الماء وقطع درناتها بعناية ثم قطعها إلى قسمين ووضعها في الماء النظيف في الوعاء الثاني. لم يكن يتوقع هذا النقد.

- «قد يكون هذا صحيحًا»

- «إذن ما فائدة الذهاب إلى مكان آخر؟ إنك لن تغير نفسك»

- «قد أفعل في النهاية»

- «ستظل على طبيعتك، سواء في مالطا أو في لندن»

- «هـذا قـدري» قال ليلي ضاحـكًا. كان المـاء يغلي علـى النار. نهض وألقـى فيه الملح، ثم قطـع البطاطس التي كانت تبقبق قليلًا وهي تسـقط في المـاء وقـال «ثمة الكثير من أناي. أنا لسـت مجرد فرضيـة واحدة. كل مكان جديد يبرز شـيئًا جديدًا في الإنسـان، وإلا لكنت سـتبقى فـي مكانك القديم مع عائلتك»

- «الرجل الذي في أعماقك لا يتغير»

- «هل ترى ذلك؟»

- «نعم. في كل مرة»

- «إذن ما العمل؟»

- «لا شيء، حسبما أرى. يحصل المرء على أكبر قدر ممكن من المتعة من الحياة، وهذا كل شيء»

- «حسنًا، سأحصل على المتعة»

- «حسـنًا إذن» قال آرون «لكن ما من شـيء رائع في ذلك. أنت تتحدث كما لو كنت تفعل شيئًا مميزًا، لكنك لست كذلك. أنت لست أكثر من مجرد رجـل يرتمـي في حانـة لاحتسـاء كأس لينعش نفسـه قليلًا. كل مـا في الأمر

هو أنك تعطي المسألة الكثير من الأسماء، وتتظاهر بأنك تبحث عن حجر الفلاسفة، أو شيء من هذا القبيل بينما تقتل الوقت فقط مثل بقية الناس، قبل أن يقتلك الوقت»

لم يجب ليلي. لم تبلغ السابعة بعد، لكن السماء كانت مظلمة. جلس آرون في ضوء النار. حتى القدر على النار كان صامتًا. وليس غير الظلام والرجلين والصمت وضوء النار في العلية.

قال ليلي وهو يتكئ على رف الموقد ويحدق في النار:

- «هذا ليس صحيحًا تمامًا»

- «وأين الخطأ؟ أنت تتحدث وتدفع المقابل إلى الاعتقاد بأن لديك شيئًا لا يملكه؟ ولكن أين هذا الشيء؟ ماذا لديك أكثر مني أو من جم بريكنيل! يبدو لي أنه مجرد خيار أكبر من الكلمات»

ظل ليلي بلا حراك، غامضًا مثل ظل.

- «أهو هكذا يا آرون!» قال بصوت لا لون له.

- «نعم. ماذا هناك أكثر من هذا؟» بدا آرون غاضبًا.

- «حسنًا، في كلامك بعض الصحة» قال ليلي أخيرًا «أوافقك الرأي. ما تقوله عني صحيح. لكن فاتك شيء صغير: هناك شيء ما بداخلي، على ما أعتقد، لا يتمثل برجل يجري إلى حانة لاحتساء كأس و...

- «وماذا؟»

رن صدى السؤال في عتمة الشفق مثل قطرة ماء تسقط في جوف بئر عميق.

- «أعتقد أن الرجل قد يمتلك زمام روحه في النهاية -كما يعلّم البوذيون- لكن دون أن يتوقف عن الحب، أو حتى الكراهية. قد يحب المرء أو يكره - ولكن في مكان ما وراء كل ذلك، سيدرك المرء، ويمتلك زمام روحه في صبر وسلام»

- «نعم» قال آرون ببطء «هذا صحيح عندما تتوقف لتتحدث عنه فحسب. لكن عندما لا تكون لديك فرصة للتحدث عن ذلك، وعندما يتعين عليك أن تعيش، فأنت لا تملك زمام روحك، لا في صبر ولا في

سـلام، ولكن أي شـيطان يسـتطيع، متى ما أحب، أن يملـكك ويفعل بك ما يحب، بينما تبلي نفسك كخرقة من قماش»

- «أنـا لا أهتـم، أنا أتعلم أن أمتلك روحي في صبر وسـلام، وأنا أعلم ذلك. وهي ليسـت نرفانا[1] سـلبية أيضًا. وإذا كانت تاني هي الأخرى تمتلك روحها في صبر وسـلام، وإذا كنا نفهم بعضنا بعضًا في هذا الخصوص -فها نحـن هنا، معًا ومنفصلين في نفس الوقت، ومتحررين بعضنا من بعض وغير منفصليـن إلى الأبد. لدي نرفانتي- وهي لـي وحدي. لكن الأهم من ذلك أنها تتزامن مع نرفانتها»

- «آه، نعم. لكنني لا أفهم كل هذه التقسيمات الكلامية»

- «لكننـي أفهم. أنت تتعلـم أن تكون وحيدًا تمامًا، وأن تمتلك روحك في عزلة، وأن تكون في نفس الوقت مع شخص آخر تمامًا. هذا كل ما أطلبه»

- «نـوع من الجلـوس على قمة جبل ظَهرًا لظهر مع شـخص آخر، مثل اثنين من الأصنام»

- «لا لأنها ليسـت قضية جلوس، أو قضيـة ظهر لظهر. إنه ما تحصل عليـه بعـد الكثيـر مـن الكفـاح والكثير مـن الإنجاز الحسـي. وهـو لا يلغي الكفـاح والعاطفـة الحسـية على الإطلاق. إنـه يزهر فوقهما، ولـن يزهر أبدًا إلا فوقهما»

- «من تقصد؟»

- «امتـلاك المـرء لروحه، والبقاء مع شـخص آخر، فـي صمت، وراء نطاق الكلام»

- «وهل نِلتَهما؟»

- «أملك القليل من الهدوء الحقيقي بداخلي»

- «وهذا ما يملكه كلب يقعي على حصيرة»

- «هذا ما اظنه أنا أيضًا»

1- النرفانا nirvana في البوذية: حالة من السعادة القصوى التي تتخطى الألم وتتخلص من دورة الولادة والموت وتُبلغ عن طريق قتل الشهوات.

- «أو رجل في حانة»
- «هذا ما لا أظنه»
- «هل تفضل الكلب؟»
- «ربما»

ساد صمت قصير ثم قال آرون:

- «وأنا رجل الحانة»
- «أنت لست الكلب على الحصيرة، على أي حال»
- «وأنت الصنم الجالس على قمة الجبل لتسجد لنفسك»
- «أنت تتحدث معي كامرأة يا آرون»
- «وكيف تتحدث أنت معي، في رأيك؟»
- «كيف؟»
- «هل البطاطس جاهزة؟»

استدار ليلي جانبًا بسرعة وأشعل الضوء الكهربائي. تغير كل شيء. جلس آرون أمام النار غاضبًا، وانهمك ليلي بإعداد العشاء.

كانت الغرفة لطيفة في الليل. فصلت ستارتان طويلتان داكنتان بين السريرين. وفي صدر الغرفة كانت مخطوطات الموسيقى متناثرة على البيانو، وتبعثرت الأوراق فوق منضدة الكتابة. خرج ليلي إلى فسحة الدرج، وهيأ الشرائح للشواء على موقد الغاز. وضع على عجل طاولة صغيرة على سجادة الموقد، ونشر فوقها قطعة قماش زرقاء وبيضاء وصفّ الأطباق والأكواب. لم يتحرك آرون. لم يكن من طبعه الاهتمام بالأمور المنزلية، وقد أكملها ليلي على أفضل وجه.

كان الرجلان يتبادلان فهمًا غريبًا بعضهما لبعض - مثل اثنين من الإخوة. لقد انحدرا من نفس المقاطعة، ومن نفس الطبقة. حتى لتحسب أن كلًّا منهما قد ولد في مكان الآخر. ثمة خصام عميق بينهما شبيه بخصام الإخوة، لكن الخصام شيء والكراهية شيء آخر.

كانت مهارة ليلي المنزلية تثير حنق آرون: لقد كان شديد الاكتفاء بنفسه. لكن الأكثر إزعاجًا هو شعوره اللاواعي بالتفوق. لم يكن ليلي مدركًا في

الواقع لهذه الهيمنة الهادئة على الآخرين. لقد هرس البطاطا، وسخن الأطباق، ودفأ النبيذ الأحمر، وخفق البيض بالحليب، وخدم ضيفه مثل مدبرة منزل ماهرة. لكن لا شيء من هذا كان ينتقص من الثقة الصامتة التي يضعها في نفسه، والتي بدت من خلالها هيمنته على معارفه.

أخيراً صار الطعام جاهزاً، فسحب ليلي الستائر وأطفأ الضوء المركزي ووضع المصباح الكهربائي المظلل باللون الأخضر على الطاولة وجلس الرجلان إلى المائدة. كان طعامًا جيدًا، ساخنًا وحسن الطبخ. من المؤكد أن يدي ليلي لم تعودا نظيفتين، لكنها القذارة النظيفة، كما سماها.

جلس آرون إلى المائدة على كرسي بذراعين منخفضين، لذلك كان وجهه في الأسفل، تحت الضوء الكامل، بينما جلس ليلي على كرسي صغير أكثر ارتفاعًا، بحيث انغمس وجهه في الظل الأخضر. كان آرون وسيمًا، ويتمتع دائمًا بهذا المظهر الغريب الأنيق الذي يميزه، وكان ليلي قليل المبالاة بمظهره، ولم تكن ياقته لتزيد عن خرقة من القماش.

أكل الرجلان في صمت. لقد عاشا معًا لوحدهما لمدة أسبوعين فقط: لكنها كانت مثل أبدية صغيرة. صار آرون بصحة جيدة الآن، عدا بعض الاكتئاب وذلك النوع من الخوف الذي يعقب الإنفلونزا.

- «متى تسافر؟» سأل بانفعال ونظر إلى ليلي الذي كان وجهه يحوم في ذلك الظل الأخضر، وأشعره بالقلق.

- «في أحد أيام الأسبوع المقبل. سيرسلون لي برقية. في موعد لا يتجاوز الخميس»

- «هل تتشوق إلى الذهاب؟» كان سؤالًا نصف مرير.

- «نعم. أريد أن أطلق نغمة جديدة من دواخلي»

- «هل سئمت مما لديك؟»

- «نعم»

وبانت على وجه آرون سورة من الغضب وقال:

- «أنت تشتعل بسهولة، وتنطفئ بسهولة» كان في هذا شيء من الإهانة.

- «هل أنا كذلك؟» قال ليلي «ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟»

- «الظروف» أجاب آرون بقسوة. ولم يتلق جوابًا من مضيفه الذي رفع الأطباق ووضع الحلوى على المائدة ثم دفع الوعاء نحو آرون.

- «أفترض أنني لن أراك مرة أخرى بمجرد رحيلك» قال آرون.

- «لك الخيار. سأترك لك عنوانًا»

وانتهيا من تناول الحلوى في صمت. وقال ليلي وهو يشرب آخر رشفة من النبيذ:

- «إلى جانب ذلك، ماذا يهمك إن رأيتني مرة أخرى أم لا؟ ماذا يهمك إن رأيت أي شخص مرة أخرى أم لا؟ إنك تبحث عمن يسليك. وها أنت الآن غاضب لأنك تعتقد أنني لن أرغب في تسليتك بعد اليوم، ولا تعرف من الذي سيسليك. أعترف أنها معضلة. لكنها معضلة لذّية من النوع الأكثر شيوعًا[1]»

- «لا أعرف ما اللذية. ولنفرض أنني كما تقول، فهل أنت مختلف؟»

- «لا، أنا لست مختلفًا تمامًا. لكنني أقنع نفسي دائمًا بوجود قليل من الاختلاف. هل تعرف ما اعترفت به جوزفين فورد لي؟ قالت إنها اكتفت من كثرة العشاق. وقالت لي «لا يوجد شيء اسمه الحب يا ليلي. كل ما في الأمر هو أن الرجال يخشون ببساطة أن يكونوا بمفردهم. هذا كل ما في الأمر: الخوف من الوحدة»

- «وماذا في ذلك؟» قال آرون.

- «هل توافقها؟»

- «نعم، بشكل عام»

- «وأنا كذلك - بشكل عام. ثم سألتها ماذا عن المرأة فقالت إن الأمر مع المرأة لا علاقة له بالخوف، إنه مجرد الملل. المرأة مثل عازفة كمان: إنها تفضل أن تمسك بأي كمان، أو أي آلة موسيقية بدلًا من يدين فارغتين ودون لحن يجري»

- «نعم، وهذا ما قلته قبل قليل: الحصول على أكبر قدر ممكن من التسلية من الحياة»

1- نسبة إلى اللذية hedonism وهو المذهب القائل بأن اللذة أو المتعة هي الخير الأوحد في الحياة.

- «أنت تسليني وأنا أسليك»

- «نعم. بالضبط»

- «حسنًا يا آرون لن أرغب في تسليتك أو أحاول ذلك بعد الآن»

- «ستجرب شخصًا آخر، ومالطا»

- «مالطا على أية حال»

- «أوه، وشخص آخر، في الدقائق الخمس القادمة»

- «نعم، وهذا أيضًا»

- «وداعًا وأتمنى لك التوفيق»

- «وداعًا وأتمنى لك التوفيق يا آرون»

قال ليلي وقام ليغسل الصحون. جلس آرون وحيدًا تحت الضوء مقلبًا مخطوطة بيلاس[1] كان ضجيج لندن بعيدًا في الأسفل رغم أنه كان يحيط بهما. وسبحت الغرفة في صمت عميق وبدا كل منهما غارقًا.

وفجأة أخذ آرون فلوته، وبدأ في تجربة مقاطع صغيرة من الأوبرا التي وضعها على ركبته. لم يعزف منذ مرض فجاء الصوت مرتعشًا قليلًا لكنه منخفض وعذب. تقدم ليلي ومعه طبق وقطعة قماش في يده وقال مبتسمًا:

- «ها هي عصا هارون تورق من جديد»

- «ماذا؟» قال آرون وهو يرفع نظره إليه.

- «قلتُ إن عصا هارون تورق من جديد»

- «أية عصا؟»

- «فلوتك، في الحالة الراهنة»

- «إن عليها أن تورق خبزًا وزبدًا»

- «هل هذه كل البراعم التي ستحصل عليها؟»

- «وماذا غيرها!»

- «كلا، هذا ما عليك أنت أن تظهره. ما الزهور التي تتخيل أنها خرجت من عصا شقيق موسى؟»

هي أوبرا من خمسة فصول ألفها كلاود ديبوسي.

- «سويقات لوبياء قرمزية، أتساءل إن كان عليه أن يعتاش عليها»

- «أراهن على أنها تكفي»

عـاد آرون شـارد الذهن إلى موسـيقاه. أنهى ليلي مسـح الأطباق ثم أخذ كتابًا وجلس على الجانب الآخر من الطاولة. قال آرون فجأة:

- «إذن فالأمر عندك سواء إن رأينا بعضنا بعضًا مرة أخرى أم لا؟»

- «أبداً» قال ليلي وهو يتطلع إليه من فوق نظارتيه «أتمنى بشدة أن يوجد شيء يجمعنا معًا»

- «إذا كنت ترغب، فلماذا لا يوجد؟»

- «قد ترغب في أن ينبت فلوتك من مفاصله زهور لوبياء قرمزية»

- «نعم، ربما. ولن يتغير شيء»

كانت لحظة الصمت التي تلت استثنائية في عدائها. ثم قال آرون:

- «أوه، سوف نلتقي مرة أخرى في وقت ما»

- «بالتأكيـد. بل أكثر من ذلك: سـأكتب لك عنوانًـا تجدني عليه دائمًا. وسوف أجيبك عندما تكتب»

أخـذ قطعة مـن الـورق وكتب عنوانًـا فطواهـا آرون ووضعهـا في جيب صدرته. كان عنوانًا إيطاليًا.

- «ولكـن كيـف يمكننـي العيش في إيطاليـا؟» قـال آرون «يمكنك أن تتنقل بحرية. أما أنا فمرتبط بوظيفة»

- «أنت، بعصاك المتبرعمة، بفلوتك وبسحرك - يمكنك دائمًا أن تفعل ما يحلو لك»

- «بماذا؟»

- «بفلوتك وسحرك»

- «أي سحر؟»

- «سحرك أنت. لا تتظاهر بأنك لا تملك جاذبية وسحرًا. أنا عن نفسي لا أحب السـحر؛ فهو ينطوي على الكثير من الخداع، ولكنك تتمتع به سـواء أحببته أم لا»

- «هذه معلومات جديدة بالنسبة لي»

- «ليست كذلك»

- «بلى إنها حقًّا كذلك»

- «ها! ستجد دائمًا شخصًا مفتونًا بك، ويمكنك العيش على ذلك، مثل أي شيء آخر»

- «لمَاذَا تتكلم دائمًا باستخفاف؟»

- «ولم لا؟»

- «هل تملك الحق في أن تحتقر إنسانًا آخر؟»

- «ومتى سارت الأمور حسب الحقوق؟»

- «لا، ليس معك»

- «تجيبني مثل امرأة يا آرون»

ومرة أخرى سادت برهة من الصمت. ومرة أخرى كان آرون هو من كسرها أخيرًا فقال:

- «نحن في موقعين مختلفين، أنا وأنت»

- «كيف؟»

- «يمكنك العيش بواسطة كتاباتك، أما أنا فيجب أن أحصل على وظيفة»

- «هل هذا كل شيء؟» قال ليلي.

- «نعم. وهو كثير. أنت تتمتع بأفضلية علي»

- «صحيح. لكن لماذا؟ لقد كنتُ طفلًا صغيرًا قذر الأنف عندما كنتَ طفلًا صغيرًا نظيف الأنف. كان في مؤخرة سراويلي رقع أكثر منك على الدوام: ورقع نظيفة أيضًا، يا لأمي المسكينة! إذن ما فائدة الحديث عن المزايا والأفضليات؟ لقد سبقتني في نقطة البداية. وحتى في هذه اللحظة بالذات يمكنك شرائي بقضي وقضيضي. لذلك لا تشعر بالغبن. إنها كذبة»

- «لديك حريتك»

- «أنا أصنعها وأنا أنتزعها»

- «الظروف تصنعها لك»

- «كما تحب»

- «أنت لا تقدر الإنسان حق قدره»

- «وهل يهتم الإنسان بهذا؟»

- «هذا ممكن»

- «إذن فهو ليس إنسانًا»

- «شكرًا مرة أخرى يا صديقي العزيز»

- «على الرحب والسعة» قال ليلي متجهماً.

نظـر إليه آرون مرة أخرى نظرة حيرى أقرب إلى الكراهية. بينما نظر ليلي إلـى الجـدار الفارغ المقابل وقـد اكفهر وجهه، وبدا كأنه يتأمل في شـيء ما. ثم عاد إلى كتابه. ولـم يكد ينسـى وجود آرون ويسـتغرق في قراءة فانتازيات شخص يدعى ليو فروبينيوس[1] حتى تقدم آرون من جديد.

- «لا يمكنك القول إنه لا يوجد فرق بين وضعك ووضعي»

نظر ليلي نحوه متجهمًا من وراء نظارتيه وقال:

- «لا وحق الله، وإلا لكنت في حالة سيئة»

- «لا يمكنك القول إنك لا تتمتع بميزة. عملك يمنحك الميزة»

- «حسنًا. دع عملي إذن وشأنه، ودعني وشأني»

- «هذه طريقتك في المراوغة»

- «عزيـزي آرون، أتفق معك تمامًا. لا يوجد فرق بيننا، باسـتثناء الميزة الوهمية التي أعطتها لي وظيفتي. فباسـتثناء وظيفتي -وهي كتابة الأكاذيب- أنـا وآرون رجـلان صغيـران متطابقـان في نفس القـارب الصغيـر. هل نترك الأمر عند هذا الحد الآن؟»

- «نعم. هذا كل ما في الأمر»

- «دعنـا نتفـق على هذا ونذهب إلـى الفراش، يا صديقـي العزيز. لقد بدأت توًا بالتعافي من الإنفلونزا، وتبدو أكثر شحوبًا مما أحب أن أراك عليه»

- «تقصد أنك تريد التخلص مني»

1- ليو فروبنيوس: عالم أنثروبولوجي، ومؤرخ فني، وعالم آثار وإثنيات ألماني.

- «نعم، أعني ذلك»
- «حسنًا»

بعد بضع دقائق أخرى من التحديق في مخطوطة بيلاس قام وتركها على البيانو، ووضع الفلوت بجانبها وانزوى خلف الستارة. في صمت لا يعكره سوى ضجيج لندن الخافت الغريب القادم من الأسفل، قرأ ليلي عن القبائل[1]. كانت روحه تمتلك القدرة على تجريد نفسها من لحظتها الراهنة والسعي إلى مزيد من اهتمامات أكثر عمقًا. هؤلاء الأفارقة القدامى! وجبال أطلس! الحكمة غريبة عجيبة من القبائل! أفريقيا القديمة، القديمة السوداء، وعالم ما قبل الطوفان! كم بدا آرون غيورًا! مثل ابن لإلهٍ غيور. إله غيور! هل يمكن لأي عرق أن لا يكون إلا حقيرًا، مع مثل هذا الماضي؟

لكن لا كان آرون مصرًا كالإله الغيور لا ابنه، فعاد إلى الظهور في بيجاما، وجلس على كرسيه.

- «ما الفرق إذن بيني وبينك يا ليلي؟»
- «ألم نتفق على الأمر. اختلاف في الوظائف»
- «لكنك لا تعتقد ذلك، أليس كذلك؟»
- «كلا، يبدو لي أنك تجاوزت الآن حدود الكياسة»
- «لماذا؟ أعلم أنك لا تعتقد ذلك»
- «ماذا أعتقد إذن؟» قال ليلي.
- «أنت تعتقد أنك تعرف شيئًا أفضل مني، وأنك شيء أفضل مني. أليس كذلك؟»
- «هل تعتقد ذلك؟»
- «ماذا؟»
- «أنني أفضل منك، وأنني أعرف شيئًا أفضل؟»
- «لا، لأنني لا أرى ذلك»

1- القبائل: مجموعة عرقية أمازيغية أصلية في منطقة القبائل في شمال الجزائر تنتشر عبر جبال الأطلس وتمثّل أكبر عدد من السكان الناطقين باللغة البربرية في الجزائر وثاني أكبر عدد في شمال إفريقيا.

- «إذا كنت لا تراها فهي ليست موجودة إذن. لذا اذهب إلى الفراش ونم نومًا عميقًا، نوم الناقهين. لن أسمح بمزيد من الإزعاج»

- «هل أزعجك؟» قال آرون.

- «نعم، إن أردت الحق»

- «إذن أنا مخطئ مرة أخرى؟»

- «مرة أخرى يا عزيزي»

- «أتعلم. أنت إله قدير على طريقتك»

- «طالما لا أقف في طريق غيري. على أية حال، سيكون من الأفضل لك أن تنام عميقًا. سوف أخرج لمدة دقيقة أو دقيقتين. تغط جيدًا حتى لا تصاب بالبرد» وأضاف وهو يقوم «أريد أن ألحق بالبريد»

نظر إليه آرون بسرعة. ولكن قبل أن يتاح له وقت للكلام، كان ليلي قد اندس في معطفه ووضع قبعته وحمل رسائله وخرج.

كانت ليلة ممطرة. انعطف ليلي في شارع الملك ليسير إلى تقاطع تشارينج. كان يحب أن يكون في الخارج، ويحب إرسال رسائله من مكتب بريد تقاطع تشارينج. لم يعد يرغب بالتحدث مع آرون بعد الآن. كان سعيدًا لوحده.

سار بسرعة في شارع فِيلِيَر[1] حتى بلغ النهر، ليراه وهو يتدفق غارقًا في عتمته نحو البحر. كان له سحر لا ينتهي: لم يخفق قط في تهدئته وإعطائه إحساسًا بالحرية. كان يحب الليل والمطر الداكن والنهر وحتى حركة المرور. لقد استمتع بإحساس الاحتكاك الذي حصل عليه من تدفق الأشخاص الذين لا يعنون شيئًا بالنسبة له. كان الأمر أشبه بانزلاق ثعلب متأهب بين الماشية المطمئنة. عندما عاد رأى من بعيد أضواء سيارة أجرة واقفة خارج المبنى الذي يعيش فيه، وسمع خبطًا وهتافًا محييًا، فسارع إلى الأمام. كان رجلًا يدعى هربرتسون.

- «أوه، ها أنت ذا!» صاح هربرتسون عندما اقترب ليلي «هل يمكنني الدخول والدردشة معك؟»

1- Villiers Street شارع مخصص جزئيًا للسابلة وسط لندن وينتهي بنهر التِيمز.

- «لدي ذلك الرجل المصاب بالأنفلونزا. أعتقد أنه ذهب إلى الفراش»

- «أوه!» كانت خيبة الأمل واضحة «حسنًا، انظر، سأصعد لبضع دقائق» وضع يده على ذراع ليلي «سمعت أنك ستسافر. إلى أين تذهب؟»

- «مالطا»

- «مالطا! أوه، أنا أعرف مالطا جيدًا. حسنًا الآن، هل سيكون كل شيء على ما يرام إذا صعدت لدقيقة؟ لن أراك كثيرًا بعد الآن على ما يبدو» التفت بسرعة إلى سيارة الأجرة. «كم أجرة العداد؟»

دفع الأجرة، وصعد الرجلان إلى الطابق العلوي. كان آرون في السرير، لكنه نهض عندما دخل ليلي الغرفة.

- «مرحبًا!» قال ليلي «لست نائمًا؟ جاء الكابتن هربرتسون لدقيقة واحدة»

قال الكابتن هربرتسون وهو يضع عصاه وقفازيه وقبعته:

- «آمل ألا أزعجك»

كان يرتدي زيًا عسكريًا. إنه أحد الضباط القلائل الذين بقوا على قيد الحياة في الحرس الملكي: رجل يبلغ من العمر حوالي خمسة وأربعين عامًا، وسيم المظهر، قوي البنية إلى حد ما. استقر على الكرسي حيث جلس آرون، ورفع طرف سرواله. ولمعت لوحة الهوية الذهبية بسلسلتها الذهبية بشكل واضح على معصمه. قال:

- «كنت في روزماري. مسرحية سخيفة كما تعلمان، لكنها تمضي الوقت بشكل جيد إلى أبعد حد[1]. أوه، لقد استمتعت بها كثيرًا»

عرض عليه ليلي السوتيرن[2]: الشيء الوحيد في المنزل.

- «نعم بالتأكيد! كم هو لطيف! نعم، شكرًا، أحب هذا. هل يمكنني شربه مع الصودا؟ شكرًا! هل تعلم، أعتقد أن هذا هو أفضل مشروب في المناطق الاستوائية: النبيذ الأبيض الحلو مع الصودا؟ نعم - حسنًا!، حسنًا، والآن، لماذا تريد السفر؟»

1- لم أهتد إلى الروزماري المقصود، وربما كان مسرحاً أو مقصفاً من نوع ما في الشارع المسمى بهذا الاسم في لندن.

2- Sauterne نبيذ فرنسي أبيض حلو الطعم.

- «من أجل التغيير»

- «أنت محق تمامًا. يحتاج المرء إلى التغيير الآن وقد انتهت هذه اللعنة. بمجرد أن أخرج من الخاكي سأكون في الخارج. مالطا! نعم! لقد كنت في مالطا عدة مرات. أعتقد أن فاليتا ممتعة للغاية، خاصة في فصل الشتاء[1]، مع الأوبرا. أوه -إيه- كيف حال زوجتك؟ جيدة؟ نعم! مسرورة لرؤية أهلها مرة أخرى. لا بد أن تكون كذلك. أوه، بالمناسبة، لقد قابلت جِم بريكنيل. إنه يرسل لك رسالة تأمل في أن تنزل وتقضي بعض الوقت في منزل الكابتن بينغهام في سَري[2]، كما تعلم. إن فيها أشخاصًا غريبي الأطوار بدرجة فظيعة. ليسوا من النوع المفضل لدي، لا، لن تنزل؟ ولا أنا. ليسوا النوع المناسب من الناس»

ثرثر هربرتسون كثيرًا، بطريقة متشنجة إلى حد ما. لقد عاش الجحيم الأمامي للحرب، ومثل كل رجل عاش هناك، كانت الحرب في مؤخرة عقله، مثل الهوس. لكن في غضون ذلك كان منهمكًا بالثرثرة.

- «نعم. كنت في نوبة حراسة ذات يوم عندما أقامت الملكة إحدى حفلات الشاي للمكفوفين. عمل فظيع. لكن الأطفال كانوا لطفاء للغاية. أمير ويلز لطيف جدًا، لطيف للغاية. الأمير هنري الفتى الذكي أيضًا، أوه، ولد ذكي. صبت الملكة ماري الشاي، وقمتُ بتوزيع الخبز والزبدة. أخبرتني أنني كنت نادلاً جيدًا. قلت: شكرًا لك سيدتي. لكنني أحب الأطفال. إنهم مختلفون تمامًا عن الباتنبرغ[3]. أوه!» جعد أنفه «لا يمكنني تحمل عائلة باتنبرغ»

- «ماونت باتن» صحح ليلي.

- «نعم! خطأ فادح، تغيير الاسم الملكي. كانوا غويلف[4]، فلماذا لا يبقون كذلك؟ حسنًا، سأخبرك بما فعله باتنبرغ. كان في الحرس أيضًا...

1- فاليتا هي عاصمة مالطا وأكبر مدنها.

2- مقاطعة في الجنوب الشرقي من إنجلترا، إلى الجنوب مباشرة من لندن.

3- باتنبرغ: عائلة من النبلاء المنحدرين من دوقية هيس. ارتبطت بعلاقات مصاهرة مع عدد من الأسر الملكية في أوروبا وبريطانيا. غيرت الأسرة لقبها إلى ماونت باتن بعد تصاعد المشاعر المعادية للألمان خلال الحرب العالمية الأولى.

4- هم أعضاء أسرة وحزب في إيطاليا القروسطية معادية لسلطة الإمبراطور الجرماني في بلادها.

استمر الحديث عن الملوك والحرس وقصر باكنغهام وسانت جِمس.

- «ثمة قصة جميلة عن الملكة فيكتوريا. رجل يدعى جويس، أو ما شابه، كان معتادًا على تناول العشاء في القصر. كان مقلدًا جيدًا جدًا، ذكيًا حقًّا، كما تعلم. اعتاد على تقليد الملكة. «سيد. جويس» قالت الملكة «سمعت أن تقليدك ممتع للغاية. هل ستؤديه لنا الآن وتدعنا نرى كيف يكون؟» «أوه، لا يا سيدتي! أخشى أنني لا أستطيع فعل ذلك الآن. إنني لست في مزاج فكه». لكنها أصرت على أن يفعل ذلك. وكان الأمر مضحكًا حقًّا. لقد اضطر لفعل ذلك. هل تعرف ماذا فعل. أخذ منديل طاولة ووضع إحدى زواياه على جبهته، وترك الباقي يتدلى خلفه، مثل حجابها. ثم طلب غطاء الغلاية. كان يستعمل غطاء الغلاية ليمثل تاجها الصغير. ثم بدأ بتقليد شخصيتها. كان جيدًا للغاية - ذكيًا جدًا. «سيد جويس» قالت له «لسنا مستمتعين. من فضلك غادر الغرفة» نعم، هذا بالضبط ما قالته: «لسنا مستمتعين. غادر الغرفة من فضلك». لقد أحببت هذه النحن، أليس كذلك؟ وهو رجل في الستين أو نحو ذلك، ومع ذلك، فقد غادر الغرفة ولم يدع إليها لمدة أسبوعين أو نحو ذلك. أليست رائعة، الملكة فيكتوريا؟»

وهكذا، من خلال انتقالات خفيفة، إلى أمير ويلز في الجبهة، ثم إلى الخنادق. وبعد ذلك عاد هربرتسون إلى الحديث عن الموضوع الذي كان مهووسًا به. لقد جاء دون وعي من أجل هذا، وهذا فقط: للتحدث إلى ليلي، أو تصديع رأسه بالحديث عن الحرب، لأن هذا الأخير كان يستمع وينظر دون أن ينبس بشيء، مثل رجل يستقل سيارة أجرة في الليل بلا حول ولا قوة ليعثر على امرأة ما، أو عاهرة ما. كان هربرتسون قد ركب سيارة أجرة دون تفكير تقريبًا وجاء ليطرق الباب في كوفنت غاردن، فقط للتحدث عن الحرب إلى ليلي الذي يعرفه بالكاد. لكنها كانت الغريزة التي تسوقه للمجيء وإخراج ما في صدره.

تحدث وتحدث وهو يحتسي نبيذه وصوداه. لم يكن معجبًا بنفسه، لم يكن متفاخرًا. هو بعيد عن ذاك. هذا الذي في هذا الضابط هو الشيء نفسه في الجنود الأفراد. هذا الذي في الرجل الإنجليزي هو نفسه في الفرنسي أو الألماني أو الإيطالي. لقد جلس ليلي في حظيرة أبقار يستمع إلى شاب في

شمال البلاد جالسٍ على قش الذرة الذي وطأته الثيران، في كالابريا[1]، تحت القمر. جلس في مطبخ مزرعة مع ألماني أسير. وفي كل مرة كان الأمر نفسه، نفس الصوت المحموم الأعمى البائس لرجل رأى الكثير وعانى الكثير، ولا يعرف إلى أين يتجه. لا شيء من سحر الأبطال العائدين، لا شيء من قصص الحرب الرومانسية: فقط صوت محموم، أعمى، مفتون، مستمر، مسكون برؤية لا تستطيع الروح تحملها.

في هذا الضابط كانت هناك خفة وظهور خجل وروح دعابة. لكن تحتها كان كل شيء كما هو الحال في الرجال العاديين من جميع الدول المتقاتلة: الألم الحارق المذوي لتجربة لا تطاق، تجربة لم تشف ولم تبرد، ولا يخف ألمها. لقد بردت جراح المحنة تدريجيًا في الأعلى، لكنها تركت قشرة سطحية يسهل نكؤها. الروح لم تشف ولم تسترد عافيتها.

قال هربرتسون ضاحكًا:

- «لقد اعتدت على أن أكون مرعوبًا. والآن قل يا ليلي، ما كنت ستصمد قط. لكنك تفعل. أنت متوتر -والأشخاص المتوترون هم فقط من تحملوا ذلك. عندما قُتل جميع ضباطنا تقريبًا خرج رجل- رجل يُدعى مارجريتسون، من الهند - من التجار الكبار هناك. قالوا جميعًا إنه لم يكن جيدًا. فتى عصبي لا ترجى منه فائدة. ليس فيه شيء جيد على الإطلاق. ولكن عند الاضطرار للخروج من الخندق والهجوم على الألمان، كان مثاليًا، مثاليًا. لقد أظهر كل ذلك في تلك الساعة الحرجة، وكان مثاليًا.

بعض الأشياء تخيف رجلًا دون الآخر. أنا مثلًا لا تخيفني القذائف. لكنني لم أستطع تحمل القنابل. يمكنك معرفة الفرق بين مدافعنا ومدافع الألمان. مدافعنا كانت تصدر صوتًا ثابتًا: دررررر! أما أصوات مدافعهم فكانت ثقيلة:دررووررر رور! وكان ذلك، صدقًا، يثير أعصابي.

لا لم أتعرض للإصابة قط. كان أقرب شيء عندما أسقطتني قذيفة متفجرة -عدة مرات- كما تعلم. عندما تصرخ بجنون ليأتي الرجال ويخرجوك من تحت الأرض. صدقًا، أنت تشعر بالخوف حينها»

1- إقليم في إيطاليا، يقع أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية.

وضحك هربرتسون وهو يطرف بعينه نحو ليلي، لكن توترًا أشبه بالجنون كان يلوح بين حاجبيه.

- «ومـن المضحـك أن تعـرف كيـف لا تلاحظ الأشـياء. فـي -دعني أرى- عـام 1916، كانـت البنـادق الألمانية أفضـل بكثير مـن بنادقنا. كانت بنادقنـا قديمـة، وعندما يحدث هـذا لا يمكنك معرفة المكان الذي سـتصيبه وهل سـتتجاوز الهدف أو سـتقصر عن الوصول إليه. حسـنًا، في ذلك اليوم كانـت بنادقنـا تطلق نيرانهـا ولا تصل العدو بـل تقتل رجالنـا. كان لدينا أمر بالهجـوم، وكنا نركـض إلى الأمام، وشـعرت فجأة بماء سـاخن يتدفق على رقبتـي» ووضـع يده علـى مؤخرة رقبتـه ونظر مسـتديرًا بقلق «لقد كان شـابًا يُدعى إينيس. أوه، كان شـابًا رائعًا بشـكل فظيع. يعيـش أهله في الأرجنتين. لقـد كان يناديني بينما نحن نركض، وكنت أهم بالإجابة عندما شـعرت بهذا المـاء السـاخن على رقبتي ورأيته يركض أمامي بـلا رأس - نعم دون رأس، ومضـى يركـض أمامي، لا أعرف إلى أية مسـافة، ولكنها طويلـة. إنها حرارة الدم، كما تعلمون، نعم، حسنًا.

آه، كرهت تشيلسـي، شـعرت بالاشمئزاز من تشيلسـي -كانت تشيلسي موضع عذاب بالنسبة لي. كان لدي عريف يدعى والاس. كان شابًا رائعًا، أوه، شابًا رائعًا، ستة أقدام وإنشان- ويبلغ من العمر حوالي أربعة وعشرين عامًا. لقد كان مسـاعدي. أوه، كرهت تشيلسي واسـتعراض الطوابير والتدريبات. كمـا تعلـم، أثناء التماريـن، وأنت تصـدر الأوامـر، فإنك تنسـى الأمر الذي أصدرتـه للتـو. هناك أمام القصر لا يلاحظ الحشـد، لكنه فظيع بالنسـبة لك. فأنـت تعلم أنـك لن تجرؤ علـى النظر حولك لتـرى ما يفعلـه الرجال. لكن والاس كان رائعًـا. لقـد كان ورائي تمامًا، وكنت أسـمعه بهدوء تام كما تعلم «إنها العجلة اليمنى، سيدي» دائمًا مثالي، دائمًا مثالي. نعم - حسنًا...

أنت تعلم أنك لن تقتل إذا كنت لا تعتقد أنك ستقتل. حسنًا، لم أعتقد قط أنني سوف أُقتَل. ولـم أعرف أن رجلًا سيُقتل إذا لم يكن يفكر في ذلك. قلت لـوالاس إننـي أفضل أن أكون هنـا، في الخطوط الأمامية، علـى أن أكون في تشيلسـي. كرهت تشيلسي - لا أسـتطيع أن أخبرك كم. «أوه لا يا سيدي!» قال والاس «أفضل أن أكون في تشيلسـي علـى أن أكون هنا. أفضل أن أكون

في تشيلسي. لا يوجد جحيم مثل هذا في تشيلسي» كانت لدينا أوامر بأن نعود إلى المواقع الخلفية في اليوم التالي. قلت له «لا تهتم يا والاس. غداً نخرج من هذا الجحيم الأرضي» وأخذ يدي. لم نكن نهتم كثيرًا بإظهار المشاعر أو أي شيء من هذا القبيل في سلاح الحرس. لكنه أخذ يدي وخرجنا من الخنادق كي نهجم. رفيق مسكين، لقد قُتل» ودلّى هربرتسون رأسه، وبدا أنه فقد وعيه لبضع لحظات كما لو ضرب على رأسه. ثم رفع وجهه واستمر في نفس أسلوب الحديث المتحرك العذب «أترى، كان لديه إحساس مسبق. أنا متأكد من ذلك. لم يُقتل أي رجل ما لم يكن لديه إحساس مسبق. هكذا، كما تعلم...»

أومأ هربرتسون برأسه إلى ليلي في حماس، بعينيه الحادتين المتلألئتين لكن المهووستين. تساءل ليلي لماذا جعل الإحساس المسبق مسؤولًا عن الموت -وهو ما فعله بوضوح- وليس العكس. أشار هربرتسون في كل مرة إلى أنك لن تُقتل أبدًا إذا كان بإمكانك منع نفسك من الإحساس المسبق. ربما كان شيء من الصحة في كلامه. ربما تصدر الروح بطاقة الموت الخاصة بها عندما لا تستطيع الاستمرار في التحمل. بالتأكيد الحياة تتحكم في الحياة، وليس الصدفة.

- «ما تحدثه الصدمة شيء مضحك. كان لدينا رقيب يصيح مستنجدًا بي. كانت كلتا قدميه مبتورتين -كلتا قدميه مبتورتين تمامًا من الكاحل. أعطيته المورفين. أنت تعلم أنه لا يُسمح للضباط باستخدام الإبرة- فقد يتسبب ذلك في تسمم دم الجريح. عليك أن تعطيه تلك الحبوب. يقولون إن مفعولها يبدأ في بضع دقائق، لكن هذا ليس صحيحًا، إنها ربع ساعة. وليس هناك ما هو أكثر تثبيطاً لمعنوياتك من أن يكون لديك رجل جريح، كما تعلم، ويصرخ. حسنًا، هذا الرجل أعطيته المورفين قبل أن يفقد صوابه، كما تعلم. لذلك لم يشعر بالألم. حسنًا، لقد حملوه إلى الداخل. كنت دائمًا أحب الاعتناء برجالي. لذلك ذهبت في صباح اليوم التالي ووجدت أنه لم ينقل بعد إلى محطة الإخلاء. أمسكت بالطبيب وقلت له: «انظر هنا! لماذا لم ينقل هذا الرجل إلى محطة الإخلاء؟ كنت كثير الغضب، لكنهم اعتادوا علي بعد بضع سنوات «لا تغضب يا هربرتسون، الرجل يحتضر» قلت له «لكنه

كان يتحـدث معي بقوة مثلك» لقد تحدث - بقوة ووعي مثلك أو مثلي، ثم سـكت قليلًا. قلت إنني أعطيته المورفين قبل أن يفقد الوعي لذلك لـم يشـعر بشيء. لكنه مات خلال ساعتين. يقول الطبيب إن الصدمة تفعل ذلك أحيانًا. لا يمكنك فعل أي شـيء لهم. لم يصب أي شـيء حيوي، ومع ذلك تنكسـر الحياة فيهم. لا يمكن فعل أي شـيء. شـيء مضحك. لا بد أن يكون شيئًا ما في الدماغ»

- «من الواضح أنه ليس الدماغ» قال ليلي «إنه أعمق من الدماغ»

- «أعمق» قال هربرتسون وهو يهز رأسه «موضع الحياة شيء مضحك. كان لدينـا مـلازم أول. أنـت تعلـم أننا جميعًا دفنّا موتانا. حسـنًا، بـدا كما لو كان نائمًا. كل الأولاد كانوا يبدون هكذا» وأغمض هربرتسـون عينيه ووضع وجهه جانبًا مثل رجل نائم وميت بسـلام. «نـادرًا ما ترى رجلًا ميتًا بأية نظرة أخـرى على وجهه. أنت تعرف النظرة الأخرى» وأطبق أسـنانه كمن يتعرض لتشـوه مفاجئ من أثر الرعب «حسـنًا، لم تكن لتعرف أن الفتى كان ميتًا. كان مصابًـا بجـرح هنا -في مؤخرة رأسـه- وقليل من الدم على يده، ولا شـيء آخر، لا شيء. حسنًا، لقد قلت إننا سنواريه الثرى بطريقة لائقة. استلقى هناك منتظـرًا -ولفّـوه في بطانية قذرة- كما تعلم. حسـنًا، قلت إنه يسـتحق بطانية مناسبة. بقي مسجى هناك يومًا ونصف اليوم كما تعلم. لذلك ذهبت وجلبت بطانية، بطانية جميلة، من تجهيزاته الخاصة - كان إيرلنديًا من عائلة معروفة جدًا. ثم عثرت على بعض الدبابيس، كما تعلمون، تصلح لتثبيت كفنه بشكل صحيح، ليقوم الحرس الإسكتلندي بدفنه. ظننت أن جسمه سيكون متصلبًا، كما ترى. لكن عندما أخذته من ذراعيه لأرفعه، جلس بسـهولة. لقد أصابني بصدمـة مروعـة «يا إلهي، إنه حـي!» هتفت أنا لكنهم أجابونـي بأنه ميت. لم أصـدق ذلـك. لقد أصابني المشـهد بصدمـة مروعة. كان جسـمه مرنًا مثلك ومثلـي، وبدا كمـا لو أنه كان نائمًا. لا يمكنك أن تصـدق أنه ميت حقًا. لكننا لففنـاه في بطانيته وثبتناها بالدبابيـس. كانت صدمة مروعة لي. لم أصدق أن الرجل يمكن أن يكون هكذا بعد موته بيومين...

كان الألمان رائعين في اسـتخدام المدافع الرشاشـة -إنه شيء شرير، هذا المدفع الرشاش. لكنهم لا يسـتطيعون لمسنا بالحراب. كان رجالنا يمارسون

التدريب على الحراب في كل مرة يعودون فيها من القتال، وكانوا في حالة جيدة للغاية. عليك أن تعرف متى تطعن الألماني، لذا فإنك إذا أخطأته، تعيد بندقيتك إلى الخلف بشكل حاد وتديرها وتطوح بها بقوة بحيث تضرب بعقبها تحت الفك. إنها حركة واحدة، تتبعها الطعنة، كما ترى، إذا فاتتك. كان الأمر سريعًا جدًا بالنسبة لهم- لكن الهجوم بالحربة كان الأسوأ، كما تعلم، لأن خصمك يصرخ عندما تمسك به، عندما تنال منه، كما تعلم. هذا ما تفعله...

لا، لا، لم تكن هذه حربًا مثل الحروب الأخرى. مع كل ما فيها من أسلحة آلية. لا، لا يمكنك تحملها إلا من أجل الرجال. إنهم رجال رائعون، كما تعلم. سوف يبادون إن لم تستمر... لا، رجالك هم من يجعلونك تستمر، إذا كنت ضابطًا... لكن لن تكون هناك حرب أخرى كهذه. لأن الألمان هم الوحيدون الذين يمكنهم شن حرب مثل هذه، ولا أعتقد أنهم سيفعلونها مرة أخرى، أليس كذلك؟

أوه، لقد كانوا رائعين. هؤلاء الألمان كانوا مدهشين. ما اخترعوه وفعلوه كان أمرًا لا يصدق... كان علينا التعلم منهم في العامين الأولين. لكنهم كانوا منهجيين للغاية، منهجيين ولهذا خسروا الحرب. كانت أساليبهم منهجية للغاية. كانوا يطلقون نيران أسلحتهم كل عشر دقائق، بشكل منتظم. فكر بالأمر. بالطبع عرفنا متى نركض ومتى ننبطح. كنت ستعرف تمامًا تقريبًا ما الذي سيفعلونه، إذا كنت قد قضيت وقتًا طويلًا في الخارج. وبعد ذلك يمكنك توقيت ما تريد أن تفعله بنفسك.

لقد كانوا متوترين أكثر مما كنا عليه في النهاية. كانوا يرسلون ما يكفي من الضوء في الليل من خنادقهم -كما تعلمون، تلك الأشياء التي تنفجر في الهواء مثل الضوء الكهربائي- لم يكن لدينا أي شيء من هذا القبيل. لقد فعلوا كل ذلك من أجلنا، فقد أضاءت لنا كل شيء. كانوا أكثر توترًا مما كنا عليه...

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل عندما غادر هربرتسون. بقي ليلي، وقد غرق في كآبته، أمام النار. ونهض آرون من سريره ودنا من النار مضطربًا ثم قال:

- «إنها توجع أحشائي، تلك الحرب اللعينة»

- «وكذلك الحال بالنسبة لي» قال ليلي «كل شيء غير واقعي»

- «لكنه حقيقي بما فيه الكفاية لأولئك الذين اضطروا إلى خوضها»

- «لا، على الأقل بالنسبة لهم» قال ليلي في عناد «إنها أقل حقيقية من حلم مزعج. لماذا بحق الجحيم لا يستيقظون ويدركون ذلك!»

- «هذا صحيح. إنهم منومون بها»

- «ويريدون أن ينوّموني. ولن أكون منومًا مغناطيسيًا. كانت الحرب كذبة وهي كذبة وستظل كذبة حتى يحطمها أحد ما»

- «لقد كانت حقيقة - لا يمكنك أن تحطم ذلك. لا يمكنك أن تلغي حقيقة حدوثها»

- «نعم يمكنك ذلك. إنها لم تحدث قط. لم تحدث بالنسبة لي قط. ليست أكثر حقيقية من أحلامي. أحلامي لا تحدث على أرض الواقع، بل تبدو كذلك فقط»

ابتسم آرون بشحوب:

- «لكن الحرب حدثت بالفعل»

- «لا، لم تحدث. ليس لي ولا لأي رجل في دواخله الشخصية. لقد حدث ذلك في الفضاء الأوتوماتيكي، كما تفعل الأحلام. لكن الرجل الفعلي في داخل كل رجل كان غائبًا، نائمًا، أو مخدرًا، خاملًا، غارقًا في أحلامه. هذا كل شيء»

- «قل لهم ذلك»

- «أنا أفعل. لكن دون جدوى، لأنهم لن يستيقظوا الآن أو ربما للأبد. سوف يقتلون أنفسهم جميعًا أثناء نومهم».

- «لن يكونوا أفضل إذا استيقظوا وعادوا إلى طبيعتهم، أي بافتراض أنهم نائمون، وهو ما لا أراه. إنهم ما هم عليه، وجميعهم متشابهون، ولن يختلفوا أبدًا عما هم عليه»

حدق ليلي في آرون بعينين معتمتين وسأله:

- «هل تؤمن بهم أقل مني يا آرون؟»

- «أنا لا أريد حتى أن أؤمن بهم»

- «ولكن هل تؤمن بنفسك؟» كان ليلي حزينًا وآرون قلقًا.

- «لا أظن أن لي الحق في الإيمان بنفسي أكثر منهم» أجاب آرون.

تأمله ليلي متفكرًا ثم قال:

- «لا هذا ليس صحيحًا. لقد كنت أعلم أن الحرب خاطئة: كاذبة تمامًا من الناحية الإنسانية. كنت أعلم دائمًا أنها كانت خاطئة. الألمان كانوا زائفين، كنا زائفين، كان الجميع زائفين»

- «إلا أنت؟» سأل آرون بوقاحة.

- «كان في داخلي شطر من اليقظة وامتلاك الذات يعلم أن الحرب وكل تلك الحركة المروعة كانت خاصة. ولذا لم أنجر إليها. كان بإمكان الألمان إطلاق النار علي أو على أمي أو من يحلو لهم: لكنني لم أكن لألتحق بالحرب. كان بإمكاني أن أقتل عدوي. أما أن أتحول إلى جزءٍ صغيرٍ من تلك الآلة القذرة الضخمة التي يسمونها الحرب، فهذا ما لن أفعله أبدًا، لا، حتى إذا متُّ عشر مرات وانتهكوا لي إحدى عشرة أماً. لكنني أرغب في قتل عدوي: نعم، وأكثر من عدو، لكن ليس كوحدة في آلية قذرة كبيرة. أبدًا، لا، أبدًا»

كان ليلي المسكين شديد الجدية والحماس. لكنه بدا لآرون كأنه يقول الكثير من الكلمات ويحاول اللف والدوران.

- «حسنًا، لديك رجال وأمم، ولديك آلات الحرب - فكيف ستخرج منها؟ عصبة الأمم؟» قال آرون.

- «اللعنة على كل العصب. اللعنة على كل الجماهير والجماعات كيفما كانت. كل ما أريده هو إخراج نفسي من الكومة الرهيبة: الخروج من الحشد. الحشد بالنسبة لي هو كابوس وبطلان -تلوٌّ عاجز فظيع في الحلم. أريد أن أدفع نفسي للاستيقاظ والتحرر من كل هذا- كل هذا الوعي الجماعي، كل هذا النشاط الجماعي. إنه كابوسي الأفظع. ما من إنسان صاحٍ وسويّ، ما من إنسان مستيقظ ومالك لنفسه يستخدم الغازات السامة: لا أحد. إن نفسه المستيقظة سوف تحتقر مثل هذا الشيء. فقط عندما يتغلب

عليـه النوم الغوغائي المروع، وعجز أحلام النفـس الجماعية، يصبح داعرًا، قاسيًا تمامًا وفاحشًا»

- «حسنًا» قال آرون «إن المستيقظين تمامًا هم من يخترعون الغاز السام ويستخدمونه. أين كنا سنكون بدونها؟»

أجفل ليلي، وتصلب وصار عدائيًا.

- «هـل تقصـد ذلك يـا آرون؟» قـال وهو ينظـر في وجـه آرون بنظرة قاسية متصلبة.

أدار آرون وجهه جانبًا في شيء من الخجل والارتباك. وقال:

- «هكذا يبدو ظاهريًا، أليس كذلك؟»

- «انظـر هنـا يا صديقي، لقـد فات الأوان لتحدثني عـن ظاهر الأمور. إذا كان هـذا ما تشـعر به، فلملم أغراضـك واتبع هربرتسـن. نعم. اخرج من غرفتي. أنا لا أطيق ظاهر الأمور هنا»

نظر إليه آرون بذهول بارد.

- «يناسبك صباح الغد، أليس كذلك؟» سأل في سخرية.

- «نعم» قال ليلي ببرود «ولكن من فضلك اذهب صباح الغد»

- «أوه، سأذهب دون ريب» قال آرون ثم أضاف «على الجميع أن يتفق معك. هذا هو الثمن الذي تطالب به»

لكـن ليلـي لم يجـب. تحـول آرون إلـى السـرير وعلـى وجهه ابتسـامة سـاخرة، لكنـه مندهش إلى حد ما من هـذا التحول المفاجـئ للأمور. وكان على وشـك النـوم، وهو يطرد الأمر مـن باله، دنا ليلي مرة أخرى من سـريره وقال بصوت خشن:

- «لن أتظاهر بأن لدي أصدقاء يتفقون معي في ظاهر الأمور. لا، ليس لدي أصدقاء لا يتفقون معي بشـكل أساسـي. الصديق يعني الشـخص الذي يقف معي في أمور الحياة والموت. وإذا كنت متماهيًا مع كل الآخرين فأنت صديقهـم لا صديقي. فلتكن إذن صديقهـم ولتتركني في الصباح رجاءً. أنت لا تدين لي بشيء، ليست لديك أي علاقة بي. لقد سئمت من هذه الصداقات

حيث أدفع للزمار ويهنأ الغوغاء بالنتائج.[1] ودعني أخبرك بشيء آخر: إن أبطالك الهربرتسنيين أخسرونا أكثر مما ربحوا في أي وقت. النملة الشجاعة هي فرد جبان ملعون. ضباطك البطوليون يستحيلون إلى مشاهد جديرة بالرثاء بعد عودتهم إلى الوطن. باه، يا لهربرتسونك! إن المبرر الوحيد للحرب هو ما نتعلمه منها. ولكن ما الذي تعلموه؟ لماذا امتلك الكثير منهم أحاسيس مسبقة، كما أسماها؟ لأنهم شعروا في دواخلهم بأن لا شيء يأتي فيما بعد. لم تكن تلك شجاعة حياة: كانت فقط شجاعة موت. لا شيء وراء هذا الجحيم غير الموت أو ذبول الحب»

– «ماذا يمكن أن يروه، على أية حال؟» قال آرون.

– «ليس هذا ما تراه، في الواقع. إنه نوع الروح الذي تحتفظ به بداخلك: روح الحياة. عندما كان لدى والاس أحاسيس مسبقة كان على هربرتسون، بصفته ضابطًا، أن يقول له «لا شيء من هذا يا والاس. أنت وأنا علينا أن نعيش ونجعل الحياة تسير» لكنه، بدلًا من ذلك، ترك والاس يُقتل وينكسر قلبه. نميل لخيار الموت دائمًا، ولن نواجه، ببساطة لن نواجه العالم كما صنعناه، ولن نواجه أرواحنا كما نجدها، ونتحمل المسؤولية. لن نصل أبدًا إلى أي مكان حتى نقف رجلًا لرجل ونواجه كل شيء ونكسر الأشكال القديمة دون أن نسمح أبدًا بتحطيم كبريائنا وشجاعتنا في الحياة»

وابتعد ليلي وتوجه إلى الفراش بصمت وانقلب آرون لينام، مستاءً من وقع تلك الكلمات الكثيرة. ما الفرق الذي أحدثته، على أي حال؟ ومع ذلك، عندما رأى في الصباح الوجه المتغطرس الشاحب المنغلق لليلي، أدرك أن شيئًا ما قد حدث. كان ليلي مهذبًا، بل حتى ودودًا: لكنه احتفظ بمساحة باردة غريبة بينه وبين آرون. انتهى الفطور وعرف آرون أنه يجب أن يغادر. كان هناك شيء في وجه ليلي يقوده نحو الباب. في شيء من الدهشة والارتباك، في بعض الغضب الممزوج بالسخرية وروح الدعابة،

1- إشارة إلى حكاية زمار مدينة هاملين الذي اتفق مع أهالي المدينة المنكوبة بالقوارض على تخليصهم منها ونجح في قيادتها إلى النهر وإغراقها فيه باستعمال مزماره السحري لكنهم تنصلوا عن دفع مكافأته فانتقم منهم شر انتقام بقيادة أطفالهم إلى مغارة أغلقت عليهم أبوابها للأبد.

وضـع أغراضـه في حقيبتـه ولبس قبعته ومعطفـه. وكان ليلي جالسًـا ليكتب ببعض الجفاء.

- «حسنًا» قال آرون «أفترض أننا سنلتقي مرة أخرى»

قال ليلي وهو ينهض من كرسيه:

- «أوه، بالتأكيد. أنا على يقين من أننا سنتواجه»

- «متى تسافر؟» سأل آرون.

- «في غضون أيام قليلة»

- «أوه، حسنًا، سأمر عليك لأراك قبل أن تذهب، أليس كذلك؟»

- «نعم، افعل ذلك»

اصطحـب ليلـي ضيفـه إلى أعلى الـدرج، وصافحـه ثم عاد إلـى غرفته، وأغلق الباب على نفسه.

لـم يجد آرون صديقه فـي المنزل عندما عـرّج عليه. لقـد اعتبرها صفعة علـى الوجه. ولكنـه أدرك بعد ذلك أن ليلي قد وجه دعـوة معينة إلى روحه، أي روح آرون: دعـوة لـم يـرد آرون أن يلبيها قط. حسـنًا، إذا اختار المتصل الروحي في المقابل أن يغلق بابه في وجه صديقه الدنيوي، فليهجره. لم يكن متأكدًا إن كان يشـعر بأنه متفوق على عدوه غير الدنيوي أم لا لكنه اعتقد أنه كذلك على الأرجح.

الفصل الحادي عشر
مزيدٌ من أعمدة الملح

انتهى موسم الأوبرا، ودعا سيريل سكوت آرون للانضمام إلى مجموعة من الموسيقيين في قرية على البحر، فقبل الدعوة وقضى شهرًا سعيدًا. فرح الشباب الذين يميلون إلى الموسيقى والبوهيميون المحترفون برعاية عازف الفلوت الذي أعلنوا أنه رائع. البوهيميون المولودون لآباء ميسورين يمكنهم بالفعل إنفاق قليل من الرعاية المتقطعة إرضاءً لذواتهم. أما آرون فلم يمانع بأن يكون تحت رعايتهم. لم يكن لديه شيء آخر ليفعله.

لكن المجموعة تفرّقت في أوائل سبتمبر. واحتُجز عازف الفلوت بضعة أيام في منزل ريفي لتسلية الضيوف. ثم غادر إلى لندن.

في لندن وجد نفسه عاطلًا مؤقتًا. بعض الكراهية والنفور من وجوده تحت رعاية شباب لاأباليين أصغر منه سنًا، ونفوره من العمل المنتظم في الأوركسترا جعلاه يدرس العديد من الاحتمالات. أراد شيئًا آخر. أراد أن يختفي مرة أخرى. لقد تغلب عليه وخز ضميره وحنينه لعائلته المهجورة. وأثر عليه الخريف المبكر الرقيق فاستقل قطاراً إلى ميدلاندز.

ومرة أخرى، بعد حلول الظلام بقليل، كان يمضي حاملًا حقيبته الصغيرة عبر الحقل الذي ينتهي إلى حديقته. كان الحقل مجزوزًا، وقد بدأ العشب ينمو من جديد. وقف ليتأمل خط النوافذ الخلفية المضاء من جديد. تنسّم عبق الخريف وأزهار الفلوكس والنباتات القديمة الرطبة وحُزم الذرة. انتابه حنين يخالطه النفور. لقد فتنه المكان والمنزل في الحال، لكنهما أهاجا شعوره المتمرد.

جلس تحت السقيفة وراح يتفحّص حديقته بعناية تحت ضوء النجوم. ثمة صفان من اللوبياء، المهملة بعض الشيء. قريبًا من متناول اليد امتدت ثمار القرع من فراشها القديم، وكان بمقدوره أن يميز رائحة زهور القرنفل المتفرقة. وتساءل عمن زرع الحديقة خلال فترة غيابه الطويلة. لكن هي ذي على كل حال، مزروعة ومثمرة وآخذة في الذبول بفعل الخريف.

لم تكن الستارة مسدلة. كانت الساعة الثامنة والصغيرات ذاهبات إلى الفراش. انتظر آرون في سقيفته، وأحشاؤه تضطرب بعواطف عنيفة نصف معلنة. كانت زوجته هناك، نحيفة ورشيقة، تمسك كوبًا صغيرًا تقربه إلى فم الطفلة لتشرب. بدت وحيدة. هاجت في قلبه مشاعر عنيفة. ثمة مصالحة جامحة وعاطفية في الانتظار.

هل حدث ذلك؟ بدا الأمر كشيء مخيف وشيك الحدوث. جاشت في دواخله نوبة من المشاعر والرغبة بالمصالحة العاطفية العنيفة. انتظر بفارغ الصبر أن تنام الصغيرات، تقضم قلبه رغبة لا تهدأ.

سمع دقات الساعة التاسعة، ثم التاسعة والنصف من القرية التي وراءهم. لا بد أن الأطفال نائمون. كانت زوجته جالسة تخيط فستانًا صغيرًا. اجتاز متباطئًا ممر الحديقة وهو ينحني ليلتقط أزهار القرنفل الساقطة ويفحصها. كانت الزهور وفيرة بيد أنها صغيرة الحجم. قطف واحدة ثم رماها. وكان العصا الذهبي[1] مزهرًا، حتى المرج الصغير لم يخلُ من زهور الأستر، كما في السابق.

أنصتت زوجته، وسمعت وقع خطوته. كان ممتلئًا بصراع عنيف لمشاعر الرقة والحنان، شبيه بالمرض. تردد وهو ينقر على الباب ودخل. أجفلت زوجته وانتصبت واقفة في وضع دفاعي.

- «لماذا جئت!؟» هتفت بشكل لا إرادي.

لكنه، بهزة رأسه الغريبة المألوفة نحو الحديقة، سأل بابتسامة باهتة:

- «من اهتم بالحديقة؟»

1- العصا الذهبي أو عصا الذهب golden rod نبات عشبي دائم الخضرة ذو أزهار نجمية ينبت في المروج والمراعي وجوانب الطرقات.

وشعر بنفسه يسقط في رطانة العامية التي كان قد نبذها.

وقفت لوتي وحدقت فيه بتجرد. لم تفكر في الإجابة. نزع قبعته ووضعها على الخزانة. وجن جنونها بسبب تصرفه الاعتيادي.

- «ما الذي أتيت من أجله؟» صاحت مرة أخرى بصوت مفعم بالكراهية. أو ربما بالخوف والشك وحتى الأمل أيضًا. لكنه لم يستشف سوى الكراهية.

هذه المرة التفت لينظر إليها. ثم استل عليها الخنجر القديم وأجابها:

- «أنا نفسي أتساءل»

وتمالكت نفسها، والتقطت الفستان بيدها المرتجفة مرة أخرى. لكنها ظلت واقفة بعيدًا عن الطاولة ولم تقل شيئًا. جلس على الكرسي القريب من الباب وهو يشعر بالتعب. لكنه مد يده إلى قبعته وأبقاها على ركبته، أما هي فقد واصلت الخياطة وهي واقفة هناك بشكل غير طبيعي. ساد الصمت لبعض الوقت. سرت في كيان الرجل دفقات من الأحاسيس والعواطف الغريبة التي بدت كأنها توشك على تدميره. كانت أشبه بالصدمات الكهربائية التي شعر بأنها تندفع منها نحوه. وعاوده المرض القديم الذي كان قد نسيه. كان مرض الشد المبهم اللامفهوم ما بينها وبينه.

بعد قليل تركت الخياطة التي بيدها، وجلست مرة أخرى على كرسيها.

- «هل تعرف بأي احتقار عاملتني؟» قالت وهي تحدق به عبر الفراغ فحوّل وجهه عنها وأجاب بطريقة لا تخلو من السخرية:

- «أظن ذلك».

- «و لماذا؟» صاحت «أود أن أعرف لماذا»

لم يجبها. الطريقة التي اندفعت بها جعلته يزداد غموضاً.

- «برر لنفسك. قل لي لماذا تصرفت معي بهذه الخسة؟ قل لي ما الذي أخذته عليّ؟»

- «ماذا أخذتُ عليها» فكر في نفسه وتساءل عما دفعها لاستخدام صيغة الفعل الماضي. ولم يجبها.

أصرت قائلة:

- «اتهمني. قل لي ما الشيء الذي فعلته لأجعلك كي تعاملني بهذه الطريقة. سمّه. لا بد أنك تعتبره أنه شديد القسوة»

- «كلا. لا أعتبره كذلك»

هذا الكلام الذي قصد به فقط أنه لم يكلف نفسه عناء التفكير في صياغة أية اتهامات ضدها أصابها بالحيرة.

- «لا تأتني متظاهرًا بأنك تحبني الآن. لقد فات الأوان» قالت بازدراء ربما خالطه بعض الأمل رغم كل شيء.

- «حبذا لو انتظرتِ حتى أبدأ بالتظاهر»

أغضبها هذا فهتفت متسائلة:

- «أنت مخلوق شرير! اذهب! علامَ أتيت؟»

- «لكي أراكِ» قال ساخرًا.

بعد بضع دقائق انفجرت بالبكاء. شرعت في نشيج مرير وقد دفنت وجهها في مئزرها. ومرة أخرى تقلبت أحشاؤه وأخذت تغلي.

- «ماذا فعلت! ماذا فعلت! لا أعلم ما الذي فعلته حتى يتصرف معي هكذا» ذرفت الدموع في مئزرها. كان مشهدًا طفوليًا، وربما كان صادقًا. كان هذا صادقًا في ما يتعلق بالجانب الطفولي من طبيعتها على الأقل. جلس كئيبًا ومضطربًا. أبعدت المئزر عن وجهها الملطخ بالدموع ونظرت إليه. لقد كانت امرأة جميلة حقًا في لحظات انفعالاتها المتأججة. هذا صحيح؛ إنها لامرأة جميلة في هذه اللحظة، بحزنها المتوهج العنيد المصبوغ بالدموع، نعم كانت جميلة.

- «قل لي» قالت في تحدٍ «أخبرني! قل لي ماذا فعلت. قل لي ما هي مآخذك عليَ. أخبرني»

كانت تراقبه مثل الوشق، فرأت النظرة المتألمة الحيرى على وجهه. ليست الإجابة بهذه السهولة - خصوصاً عندما تضرب المشكلة جذورها في أعماق يعجز الفهم الواعي عن الوصول إليها. لم يستطع أن يعبر عن مآخذه

عليها. ولم يكن لديه أدنى نية لفعل ما كانت تريده أن يفعل، أن يشرع في تعداد شكاواه التفصيلية. كان يعلم أن الشكاوى التفصيلية ليست شيئًا في حد ذاتها.

- «لا تستطيع» صرخت في حقد «لا تستطيع. لا يمكنك العثور على أي مأخذ حقيقي ضدي، رغم أنك ترغب في ذلك. تريد أن تكون قادرًا على اتهامي بشيء ما، لكنك لا تستطيع، لأنك تعلم أنه لا يوجد أي شيء»

كانت تراقبه، تراقبه. وكان هو جالسًا دون حراك على كرسي قريب من الباب.

- «أنت غير طبيعي، هذا أنت» صرخت بوجهه «أنت غير طبيعي. أنت لست رجلًا. ليس لديك مشاعر رجل. أنت مقرف وبارد وغير طبيعي. وأنت جبان. أنت جبان. أنت تهرب مني دون أن تخبرني بما عندك ضدي»

- «حين تنال كفايتك، سترحل دون أن تبالي بما تفعل» أجابها بطريقة لاذعة

توقفت للحظة.

- «كفايتك من ماذا؟» قالت «ما الذي سئمت منه؟ مني ومن بناتك؟ إنه لقول رجولي لطيف. أوَلم أحبك منذ اثنتي عشرة سنة، وعملت مثل العبيد لأجل أن تكون بأفضل حال؟ السماء تعرف أين كنت لولاي، وأنت بهذا الشر الذي يسكن في أعماقك. أنت شرير، هذه حقيقتك، شرير وضعيف. أنت أضعف من أن تحب المرأة وتعطيها ما تريد: ضعيف جدًا. ها هو يولي الأدبار بكل جبن وانعدام للرجولة»

- «لا عجب»

- «لا» صاحت «لا عجب في هذا، مع شخص في طبيعتك: ضعيف وشرير وغير سوي. لا عجب»

وسكتت، ثم بدأت تبكي مرة أخرى في مئزرها. انتظر هارون وقد شعر بضعف جسدي.

- «ومن يدري ما كنت تفعله كل هذه الأشهر؟» قالت من خلال دموعها «من يعرف كل الأشياء الحقيرة التي كنت تقوم بها؟ وأنت والد أطفالي -

والـد بناتي الصغيرات الذي لا يدري أحـد ما هي الدناءات التي كان يرتكبها طوال هذه الأشهر؟»

- «لا تدعي خيالك يسـرح بعيدًا» أجاب «لقد كنت أعزف على الفلوت في أوركسترا أحد المسارح في لندن»

- «هـا!» صاحـت «إنـه أكثر من ذلـك. لا أعتقـد أنني سـأصدقك. أنا أعرفـك، بأكاذيبـك التي تبـدو ناعمة. أنـت كاذب كما تعلم. وأنـا أعلم أنك كنـت تقوم بأشـياء أخرى بجانب العـزف على الفلوت في أوركسـترا. أنت! كأننـي لا أعرفـك. ثم تعود إلـيّ زاحفًا بأكاذيبـك ومزاعمـك. لا تعتقد أنني سأنخدع بكلامك»

- «عليّ أن أقدم اعتذاري»

- «تعـود إلـيّ زاحفًـا، متوقعًـا أن أغفر لـك. لكن لا أنا لا أسـامح، ولا أستطيع أن أسامح. أبدًا لن أغفر لك ما فعلته بي، طالما أنا على قيد الحياة»

- «يمكنكِ الانتظار حتى يُطلب منك، على أي حال»

- «ويمكنكَ الانتظار. ولسوف تنتظر»

وحملت الفستان وشرعت تخيط بإيقاع منتظم، كأنْ لا شيء يقلقها حتى إن أي ناظر من الخارج في تلك اللحظة لا بد أن يخال أنه يرى جلسـة منزلية رائقة حول المدفأة. أما هو فقد ظل صامتًا وقد انتابه ضعف جسـدي وشعور بأن روحه غائبة عن المشهد.

ومرة أخرى، انهمرت دموعها على نحو مفاجئ، وأخذت تنتحب بمرارة.

- «والصغيـرات» قالت وهي تنشـج وتهتز من الحـزن والغم «ماذا كان بإمكاني أن أقول لهن؟ ما الذي استطعت أن أخبرهن به؟»

- «ماذا قلت لهن؟» سأل ببرود.

بكت وهي تضع رأسها فوق ذراعيها على الطاولة:

- «قلت لهن إنك سافرت للعمل. ماذا يمكنني أن أقول لهن غير ذلك؟ لم أسـتطع إخبارهن بالحقيقة الدنيئة عن والدهن. لم أسـتطع أن أخبرهن كم أنت شرير» كانت تبكي وتئن.

تساءل مع نفسه عن ماهية تلك الحقيقة الدنيئة التي كانت ستخبرهن إياها. وبدأ يشعر ببرودة وسخرية بسبب الاسترسال المترَف الذي يتخلل هذا الفيض من المشاعر العنيفة في هذا المشهد، بل وفي الموقف برمته.

ثم هدأت مرة أخرى والتقطت خياطتها. أخذت تُعمِل إبرتها بهدوء وحزن لبعض الوقت، ثم نظرت إليه نظرة طويلة امتزج فيها التوبيخ والاتهام الحزين وحنان الزوجة. فأدار وجهه جانبًا.

- «أنت تعلم أنك كنت مخطئاً معي، أليس كذلك؟» قالت نصف حزينة ونصف متوعدة.

شعر بحزنها ووعيدها يمزقان أمعاءه وخاصرته.

- «أنت تعرف، أليس كذلك؟» أصرت في مناشدة حزينة وتهديد مستتر «أنت تعرف هذا وإلا لكنت أجبت. لا يزال لديك ما يكفي من الصواب في داخلك لتعرف هذا»

انتظرت. وجلس ساكنًا دون حراك. ثم أسرعت إليه، ولفت ذراعيها حوله، وجثت على ركبتيها بجانبه، وغرست وجهها فوق فخذه وناشدته:

- «قل إنك تعرف كم أنت مخطئ. قل إنك تعلم كم كنت قاسيًا معي»

لكنه أحس تحت مناشدتها وإغرائها بملمس حديد تهديدها الذي لا يلين. تمتمت وهي تنظر إلى وجهه وهي جاثمة عند ركبته:

- «أنت تعرف ذلك. أنت تعرف ذلك. أستطيع أن أرى في عينيك أنك تعرف ذلك. ولماذا عدت إلي إذا كنت لا تعرف ذلك!؟ لماذا عدت إلي؟ أخبرني!»

وأنشبت ذراعيها بقوة حول خصره.

- «أخبرني! أخبرني!» تمتمت بكل ما في حنجرتها من إغراء. لكنه أحس بأنه نصف مهزوم ونصف مرعوب في الوقت ذاته. كان يشعر بضرب من الخوف منها. بدا له الوقع العذب الغريب لندائها مثل تأرجح ثعبان يخدر طائرًا منكوبًا يرفرف بلا حول ولا قوة. شبكت ذراعيها حوله وجذبته إليها، ونجحت في إثارته بعض الشيء، لكنها في الوقت نفسه أخافته وصدته

ببـرود. لـم يكن لديـه أدنى شـعور بخطئه في تلـك اللحظة لكنهـا أرادت أن يكشـف عـن خيانته لذاتـه. كان يمكن أن يرى نفسـه كضحية مفتونة، يسـقط فـي شـباك هذه المـرأة المغويـة الفظيعة، زوجـة أحضانه. ولكنـه كان يملك أيضًـا روحًا خارج نفسـه، روحًـا ثابتة كما الزمـن، تنظر إلى المشـهد بأكمله باشمئزاز بارد.

قال لها:

- «كلا. أنا لا أشعر بأنني أخطأت»

- «بلـى أنت تفعل!» قالت وهي تغـرس فيه أصابعها بقوة «أنت تفعل. لكنك فقط سـخيف وعنيد، طفولي وسـخيف وعنيد. طفل صغير عنيد. إنك تشعر بأنك مخطئ. وأنت مخطئ بالفعل. وعليك أن تقول ذلك»

لكنـه تحرر من يديها بهـدوء ونهض واقفًا، بوجهه الشـاحب المتصلب، عنيـدًا كما قالت. لبس قبعتـه وأخذ حقيبته الصغيـرة. راقبته بفضول وهي لا تزال جالسة بجوار كرسيه.

- «سأذهب» قال لها وهو يضع يده على المزلاج.

فقفـزت فجأة واقفة على قدميها وأمسـكته من ياقـة قميصه، ويدها داخل طوقه الناعم، وكأنها تخنقه.

- «أيهـا الشـرير» وتغيـر وجهها في انفعـال فظيع لم يسـبق أن رآه قبلًا «أنت وغد!» قالت بغلاظة «ما الذي جاء بك؟»

واسـودّت روحه عندما نظـر إليها. أبعد يدها عن ياقـة قميصه، فتحررت أزرارها بقوة. وتراجعت في صمت. وفي حركة واحدة، سـوداوية لا واعية، كان قـد اختفى، مضى مجتازًا الحديقة والسـياج والريف، غارقًا في حالة من اللاوعي الكالح.

انهارت فوق سجادة الموقد والتفت على نفسها وقد أدركت أنها هزمت. لكنهـا هي الأخرى لن تستسـلم أبدًا. اسـتلقت بلا حراك لبعـض الوقت. ثم نهضت إذ شـعرت بتيـار الهواء البارد على الأرض. أغلقت الباب وسـحبت السـتارة ثـم نظـرت إلـى معصمها الـذي كان قد أمسـك بـه بقـوة آلمتها. ثم ذهبت إلى المرآة وحدقت مطولاً في وجهها الأبيض المتوتر الحازم. فلتأتِ

الحيـاة، أو فليـأتِ الموت، هي أيضًا لن تستسـلم أبـدًا. وأدركت الآن أنه لن يستسلم أبدًا.

كانـت على وشـك الإغماء مـن التعب، وسـتكون سـعيدة بالذهاب إلى فراشها والاستغراق في النوم.

في هذه الأثناء كان آرون يمخر الريف باحثًا عن مكان للراحة. وجد حقل ذرة بـه كدس نصف مكتمـل وحُزم محصودة مرفوعة عن الأرض. إن واحدًا من كل عشرة مشردين يمكن أن يسعده الحظ بالعثور على كدس كهذا. ألقى بضع عشـرة حزمة على الأرض واسـتلقى فوقها، ناظرًا إلى النجوم في سماء سـبتمبر. هـو أيضًا لن يستسـلم أبدًا. لقد ذهـب وهم الحب إلـى الأبد. كان الحب معركة سـعى فيها كل طرف للسيطرة على روح الآخر. حتى الآن كان الرجل هو الذي يتنازل عن السـيادة للمرأة. لكنه الآن يقاتل من أجل استعادة سيادته من جديد. لقد فات الأوان، لن يستسلم للمرأة أبدًا.

ولكن سواء استسلمت المرأة أم لا، فإنه سيحتفظ بسيادة روحه وضميره وأفعاله. لن يسـلم نفسـه أبدًا لحكمها مرة أخرى. ولسـوف يحفظ نفسه إلى الأبد خارج نطاق سلطانها.

من الآن فصاعدًا، حياة واحدة، لا حياة مزدوجة.

الفصل الثاني عشر

نوفارا[1]

لـم يكـن لآرون من عمل في الخريـف، فصار يتململ مـن بقائه في لندن. عـزف في بعـض الحفلات الموسـيقية وبعض العروض الخاصـة، فكان على سبيل المثال، عضوًا في الرباعي الغريب الذي كان يعزف لليدي أرتميس هوبر عندما لزمت السرير بعد مغامرتها الشهيرة عندما سقطت من نافذة سيارة الأجرة التي كانت تستقلها. كانت لدى آرون تلك الموهبة الغريبة التي يمتلكها بعض النـاس حين يندمجون في أي جو جديد دون أن يتعمدوا ذلك. أحبت السـيدة أرتميـس عزفـه علـى الفلوت، وطلبت منـه أن يعزف لها من جديـد. نظر إليها آرون ونظرت إليه. كانت هذه المرأة المتكئة على سريرها في مكياجها المتقن تحـت الضوء الشـحيح، وهـي تنفث دخان سـجائرها متحدثـة بصوت أجش بعض الشيء، ملقية بتعليقات لا تخلو من الإثارة والذكاء للرجال الآخرين في الغرفـة (وكان هناك بالطبع رجال آخـرون هم الجمهور) بمنزلة صدمة لعازف الفلـوت. كانـت تلك أكثر اللحظات إثارة! كم بـدا غريبًا هذا الصوت الأجش مـن خلال دخان السـيجارة! لكنه أعجـب بها رغم ذلك - باللمسـة المتهورة لقرصان اجتماعي معاصر. لقد كانت فيه هو أيضًا لمسة من نفس النوع.

- «هـل تحب موسـيقاك؟» سـألته فأجاب وقـد ارتسـمت على وجهه ظلال سخرية بدت كأنها ابتسامة:

1- نوفارا هي عاصمة مقاطعة نوفارا في شمال غرب إيطاليا، إلى الغرب من ميلان، وهي مفترق طرق مهم للنقل التجاري على طول الطرق من ميلانو إلى تورينو ومن جنوة إلى سويسرا.

- «نعم»

- «وتعيش من أجلها، إذا جاز التعبير؟»

- «أنا أكسب رزقي بها»

- «لكنك لا تنظر إليها هكذا في الحقيقة؟»

نظر إليها. كانت تراقبه من فوق سيجارتها. لقد كانت لحظة شخصية.

- «لا أفكر في ذلك». قال لها.

- «أنا متأكدة من أنك لا تفعل ذلك. لن تكون شخصًا ممتازاً إذا فعلت ذلك. أنت محظوظ للغاية، كما تعلم، إذ تتمكن من سكب روحك في الفلوت»

- «هل تعتقدين أنني أنسكب بسهولة؟» قال ضاحكًا.

- «آه!» أجابت وهي تنقر رماد سيجارتها «هذا هو بيت القصيد. ماذا تقول في هذا يا جيمي؟» التفتت إلى أحد الرجال. عدّل الرجل نظارته بعصبية وصلّب جسمه لينظر إليها.

- «أنا، أنا لا أود أن أعلق دون تروٍ» أجاب جيمي بصوته الخفيض الواثق. ثم كبح نفسه ونظر إلى آرون.

- «هل يرهقك هذا، إذن؟» قالت وهي تلتفت إلى آرون مرة أخرى، فأجابها:

- «لا، لا أستطيع أن أقول ذلك. ما يتدفق مني يتدفق بسهولة كافية. ما يرهقني هو ما لا يتدفق»

- «وكم هذا؟» سألت وهي تتطلع إليه، فقال:

- «قليل، ربما»

ردت بسخرية:

- «أي ما يندلق على الجوانب، إذا جاز التعبير. وما الذي تستمتع به أكثر، أن تنساب خيطًا رقيقًا على فلوتك أو أن تتدفق إلى حضن الأرض الأم، أو الآنسة الأرض، وهو الأكثر احتمالًا!»

- «هذا يعتمد»

وبعد أن جعلته يبتعد بضع خطوات فوق ملعبه الشخصي، تركته لينزل بمفرده.

وهكـذا وجد لندن مؤذية لأعصابه. وشـعر بأنها تؤثر عليه بطريقة سـيئة. لقد شـعر بالإطراء، بالطبع، لنجاحه، لكنه أحس فـي نفس الوقت بالانزعاج لنفـس السـبب. هذه الحالـة الذهنية لـم تكـن مقبولة بأي حـال من الأحوال. أينمـا حل، كان يحـب أن يُعطى، ضمنيًا، المركـز الأول أو مكانًا بين الأوائل على الأقل. وحين يتردد على أهل الموسـيقى كان يجد نفسـه، في لحظة ما، مسـاويًا للآخرين، حتى النجوم والأرستقراطيين، ودخيلًا مهمشًا في اللحظة التالية. كل شـيء رهين باللحظة. ثمة ضرب مـن الإثارة في الانزلاق لأعلى ولأسفل في السلم الاجتماعي.

ولقـد تراه فـي دقيقة مـا منخرطًا فـي حديث حميـم مع أكثر حسـناوات المجتمع شـهرة أو سـوء سـمعة، لتراه في الدقيقـة التالية وهو يمشـي تحت المطـر، وفلوتـه في كيسـه، نحو مسـكنه الحقير فـي بلومزبري. ما من شـيء مثل الإثارة كان يوقظ كل السـخرية الوحشـية الكامنة في أعماق روحه، تلك السخرية التي ظلت تستعر هناك كعصارة صفراء مريضة.

لذلـك قرر أن يرحل، أن يختفي. كانت لديه رسـالة مـن ليلي، من نوفارا حيـث ألقـاه طريقه. كتب آرون إلى نوفارا، وسـأله عما إذا كان يجب أن يأتي إلى إيطاليا دون أن يملك نقودًا يعتد بها، فأجابه:

- «تعـال إذا كنـت ترغـب. أحضر فلوتـك. وإذا لـم يكـن لديك نقود، فالبـس بذلـة جيـدة وقبعة سـوداء كبيرة واعـزف خارج أفضـل مقهى في أي مدينة إيطالية، وستجمع ما يكفي لتعيش»

كانـت فرصة محتملة. حزم آرون حقيبته وحصل على جواز سـفر وكتب إلـى ليلـي ليخبره بأنـه سـينضم إليه، كمـا جاءته الدعـوة، عند السـير ويليام فرانكس. كان يأمل أن تصل إجابة ليلي قبل مغادرته لندن. لكنها لـم تصل.

لذلـك نـرى بطلنـا ينزل فـي نوفـارا، متأخـرًا سـاعتين، في أمسـية رطبة ومظلمـة. كان يأمـل أن يكون ليلي هناك: لكن لا أحد. واجه المحطة الكبيرة المزدحمة بشـيء من الفزع. حمله تيار من النـاس تلقائيًا عبر الحاجز، حيث استولى حمال على حقيبته وأمطره بسيل من الأسئلة المختلفة غير المفهومة. لم يفقه آرون كلمة واحدة، لذا اكتفى بأن تبع بلوزة الحمال الزرقاء.

وضـع الحمال الحقيبة على درجات واجهـة المحطة، وأطلق المزيد من الأسـئلة مشـيرًا إلى الفضاء المظلم نصف المضاء خارج المحطة. قرر آرون أن الحمال يتحدث عن سـيارة أجرة، فأومأ برأسـه وقال «نعم». لكن لم تكن هناك سـيارات أجرة، فعاد الحمال ذو البلـوزة الزرقاء لتعليق الحقيبة الكبيرة والحقيبـة الصغيـرة على حـزام كتفه من جديد، وانغمسـا في أحضـان الليل باتجاه بعض الأضواء وشيء بدا مثل مسرح.

وقفت إحدى العربات تحت المطر. نعم، كانت شاغرة.

«عربـة؟ نعم يا سـيدي. أليس كذلـك؟ إلى أين أنت ذاهب؟ السـير وليام فرانكس؟ نعم أنا أعلم. طريق طويل، طريق طويل. السير وليام فرانكس»[1]

طرطـش سـائق العربة الكلمات القليلـة التي يعرفها فـي الإنجليزية. أعطى آرون الحمـال شـلناً إنكليزيـاً. وضع الحمـال العملة في منتصف كفـه، كما لو كانت خنفساء حية، وانطلق إلى ضوء العربة ليفحص الوحش وهو يهذر بصوت مسـموع. نظر سـائق العربة وقد أخذه الاهتمام، من مقعده إلـى راحة الحمال، وانخرط معه في حوار حماسي بينما وقف آرون على الدرج برجل واحدة.

- «ماذا أعطيت هو؟ واحد فرنك؟» سأل السائق.

- «شلن واحد» قال آرون.

- «شـيلن واحـد. نعـم. أنـا يعـرف. واحد شـيلن الإنجليـزي» وأطلق السـائق عبـارات تعجب عاطفيـة باللهجـة التورينيـة. بينما اسـتدار الحمال الذي لم يزل يتمتم فاتحًا يده كما لو أن العملة قد تلسعه، ثم ابتعد.

- «صحيح. هو يعرف -شيلنغ- جيد. النقود الإنجليزي، إيه؟ نعم هو يعلم. اصعد يا سيدي»

وانـدس آرون تحـت غطـاء العربة التـي مضت تقعقع تحـت جنح ظلام نوفارا الفسيح فوق جسر على ما يبدو، مرورًا بتماثيل ضخمة منقوعة بالمطر وعبـر المزيـد من شـوارع ممطرة نصف مضـاءة. توقفا أخيرًا خارج ما يشـبه سياج حديقة تعلوه الأشجار. وكانت البوابات الكبيرة وراء ذلك بقليل.

1- يتحدث السائق بلغة إنكليزية تشوبها الإيطالية.

- «السير ويليام فرانكس. هناك» قال السائق في مزيج من اللغتين الإيطالية والإنجليزية، وطلب من آرون النزول ودق الجرس على اليمين. نزل آرون واستطاع في الظلام أن يقرأ الاسم على اللوح.

- «كم تريد؟» سأل آرون السائق.

أجاب السائق السمين:

- «عشرة فرنكات»

وجاء الآن دوره لينعم النظر في الورقة النقدية الوردية ذات العشرة شلنات. لوح بها في يده.

«ليس جيدًا، إيه؟ ليست نقودًا جيدة؟»

- «بلى». قال آرون ساخطًا «نقود إنجليزية جيدة. عشرة شلنات. أفضل من عشرة فرنكات، صفقة جيدة. أفضل، أفضل»

- «جيد - تقول؟ عشرة شيلين» تمتم السائق وتمتم، كما لو كان غير راض. ولكنه دس الورقة في جيب صدرته بارتياح كبير ونظر إلى آرون بفضول ثم انطلق مبتعدًا.

وقف آرون هناك في الظلام خارج البوابات الكبيرة وتمنى أن يكون في مكان آخر. لكنه قرع الجرس. ارتفع نباح الكلاب على الجانب الآخر. ثم اشتعل ضوء وظهرت امرأة يتبعها رجل بحذر في المدخل نصف المفتوح.

- «السير وليام فرانكس؟» قال آرون.

- «سي سنيور[1]»

وعبر آرون البوابة مع حقيبتيه. تقافزت كلاب ضخمة ووقف في الظلام تحت الأشجار عند أقدام المنتزه. أغلقت المرأة البوابة ورأى آرون بابًا وأبصر من خلال نافذة غير مغطاة رجلًا يكتب على منضدة - مثل موظف في بهو فندق. كان ذاهبًا بحقيبتيه إلى الباب المفتوح عندما أوقفته المرأة وبدأت تتحدث إليه بالإيطالية. وفهم منها أن عليه ألا يمضي لأبعد من ذلك، لذا وضع الحقائب جانبًا. بينما وقف الرجل متيقظًا على بعد ياردات قليلة.

1- نعم يا سيدي (بالإيطالية)

نظر آرون إلى المرأة وحاول أن يفهم شيئًا مما كانت تقوله، لكنه أخفق في ذلك. كانت الكلاب لا تزال تنبح بشكل متقطع، وسقطت قطرات المطر من الأشجار الطويلة القاتمة التي ارتفعت في سماء المنطقة.

- «هل السيد ليلي هنا؟ السيد ليلي؟» سألها.

- «سنيور ليلي؟ لا يا سنيور»

وطفقت تتحدث بإيطالية لا يفهمها. لكنه فهم منها أن ليلي لم يكن في المنزل. تمنى آرون أكثر من أي وقت مضى لو أنه لم يأت إلى هنا وذهب إلى أحد الفنادق. ثم أدرك أن المرأة كانت تسأله عن اسمه «ميستر؟ ميستر؟» ظلت تقول بنبرة استجواب.

- «سسن. السيد سسن» قال آرون الذي بدأ صبره بالنفاد. ووجد في جيوبه بطاقة زيارة قدمها إليها. بدت هادئة. ثم قالت شيئًا عن الهاتف وتركته واقفًا.

توقف المطر، لكن الأشجار العالية المظلمة ظلت تنفض قطرات كبيرة منه. ومن خلال النافذة غير المسدلة الستائر رأى الرجل الجالس إلى المكتب وهو يتناول الهاتف. كانت هناك وقفة طويلة، ثم عادت المرأة أخيرًا وأبلغته أن يصعد الطريق الملتوي المختفي تحت الأشجار المظلمة.

- «هل أذهب إلى هناك؟» قال آرون مشيرًا.

من الواضح أن هذا هو المقصود. لذا حمل حقيبتيه وسار خارجًا من دائرة الإنارة الكهربائية، صعوداً إلى المسار المنحني في الظلام. كان منحدرًا حادًا. رأى الأشجار والمنحدرات المعشبة. وأحس في الهواء بأثر من الثلج.

فجأة أضاء نور لامع. واصل صعوده نحوه على طول الطريق المحاط بالأشجار حتى وجد نفسه تحت أقدام درجات كبيرة انتصب فوقها مدخل زجاجي عريض، وأبصر خادمًا إيطاليًا يرتدي قفازين أبيضين يحوم كما لو كان على شفا حفرة.

خرج آرون من الطريق وصعد الدرج. نزل الخادم درجتين وأخذ الحقيبة الصغيرة. ثم أدخل آرون والحقيبة الكبيرة إلى قاعة كبيرة ذات أعمدة مفروشة بسجادة تركية سميكة وأثاث أنيق. كانت واسعة ومريحة ودافئة، لكنها فخمة

بشكل مبالغ فيه بعض الشيء وكأنها القاعة المهيبة التي تدخل إليها البطلة فجأة في الأفلام.

ألقى آرون حقيبته الثقيلة بارتياح ووقف هناك في دائرة الضوء في معطفه الرطب وقبعته في يده، ناظرًا في إبهام إلى الأعمدة الرخامية الصفراء والأقواس المذهبة التي تعلوه والمسافات المظللة والسلالم الكبيرة. اختفى كبير الخدم ثم عاد للظهور بعد لحظة. وعبر المدخل المفتوح جاء المضيف. كان السير ويليام شيخًا ضئيل الجسم، مهندمًا ذا لحية بيضاء مشذبة ومشية تمتاز بالكياسة، يرتدي سترة سوداء مخملية للسهرة مغطاة بالحرير الأرجواني.

- «كيف حالك، سيد سسن. أتيت مباشرة من إنجلترا؟»

مد السير ويليام يده في كرم ولطف، مبتسمًا ابتسامة مضيف كريم عجوز.

- «هل رحل السيد ليلي؟» سأل آرون.

- «نعم. لقد رحل عنا منذ عدة أيام»

تردد آرون.

- «لم تتوقع قدومي إذن؟»

- «أوه نعم، نعم. نعم أوه نعم. سعيد جدًا برؤيتك. حسنًا، تفضل الآن وتناول بعض العشاء»

في هذه اللحظة ظهرت الليدي فرانكس؛ قصيرة، ممتلئة الجسم، لكنها منتصبة واضحة القسمات، مرتدية ثوبًا حريريًا أسود ولآلئ تحيط حنجرتها.

- «كيف حالك؟» قالت: «لقد بدأنا عشاءنا للتو. أنت لم تأكل؟ لا؟ حسنًا إذن. هل ترغب في الاغتسال الآن، أو...؟»

كان من الواضح أن آل فرانكس قد أظهروا الكثير من كرم الضيافة، ينبع معظمه من حبهم لعمل الخير. وهذا ما شعر به آرون.

- «لا» قال آرون «سأغسل يدي وأدخل في الحال، أليس كذلك؟»

- «نعم، ربما يكون ذلك أفضل»

- «أخشى أن أكون مصدر إزعاج»

- «لا على الإطلاق. بيبي» نادت وأعطت تعليماتها باللغة الإيطالية.

ظهر رجل آخر وأخذ الحقيبة الكبيرة فيما حمل آرون الصغيرة هذه المرة. صعدوا السلالم العريضة المنعطفة، وعبروا صالة جلوس أخرى، توزعت فيها كراس مذهبة ومنجدة بالحرير الأصفر ونسخ متناثرة من مجلتي المصور والحياة الريفية، ثم دلفوا عبر مدخل آخر إلى سلالم أضيق بكثير إذ نادرًا ما يستطيع المرء أن يحافظ على مظاهر الأبهة إلى ما لا نهاية.

ظهرت خادمتان بثياب بيض وسود. ووجد آرون نفسه في غرفة نوم مفروشة بالحرير الأزرق وخادم يرخي أشرطة حقيبته التي لم يكن يريد فتحها. في اللحظة التالية استدعته الخادمتان وقادتاه في الممر وأوصلتاه إلى الحمام الأنيق الفسيح الدافئ ذي اللون الكريمي المتألق بالفضة الوافرة والمجهز بأحدث وسائل الراحة الغامضة بالنسبة إليه، وتُرك هناك مع تلك الأجهزة التي شعر معها كأنه صبي صغير يحاول اكتشاف طريقة تشغيلها، ذلك لأن مجرد إدارة الصنابير كان يمثل مشكلة في تلك الميكانيكا الفضية.

على الرغم من كل الفخامة ووسائل الراحة المتقنة فإنه اكتفى بتشطيف سريع بالماء الساخن الوفير، وهو يتمنى لو أنه أخذ حمامًا كاملًا بسبب خزانة الملابس المليئة بالمناشف التركية الرائعة. ثم وجد طريقه عائدًا إلى غرفته وغيّر قميصه ومشط شعره في غرفة النوم الزرقاء الحريرية المزينة بلوحة لجريوز[1] وشعر بشيء من الاندهاش السطحي الغامض. لقد صادف أن كان في حفلات منزلية ريفية من قبل، لكنه لم يشهد قط مثل هذا الإحساس الباذخ بالثراء، وشعر بأن المفترض به أن يحبس أنفاسه. غير أن السينما قد سلبت ما تبقى من ألبابنا مع الأسف حين حاصرتنا بكل مشاهد الفخامة والثراء لأصحاب الملايين الأمريكيين أو بطولات وعجائب القطب الشمالي أو السوم[2] حتى لم تعد في الحياة من أعلام أثرى منا ولا أبطال أنبل مما كنا

1- جان بابتسانت جريوز (1725-1805) رسام فرنسي اشتهر بلوحاته الشخصية وأعماله التي تصور الحياة اليومية والأحداث التاريخية.

2- معركة السوم هي معركة مروعة بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وقعت في فرنسا، على ضفتي نهر السوم في الفترة 1 يوليو - 18 نوفمبر 1916 وانتهت بخسائر فادحة للطرفين.

عليه في الفيلم. معلوم! معلوم![1] كل ما تقدمه الحياة معروف لنا، ولا يمكن معرفته بشكل أفضل من السينما.

وهكذا شد آرون ربطة عنقه أمام مرآة فينيسية كبيرة، ولم يكن هناك ما يفاجئه. وجد خادمًا يحوم لكي يرافقه إلى غرفة الطعام - خادمًا إيطاليًا حقيقيًا يشعر بالضيق بسبب تأخر عشاء السيدة النبيلة. دخل غرفة الطعام الصغيرة ورأى الناس على المائدة وقيلت له أسماء مختلفة: انحنى لشابة نحيفة ذات عينين زرقاوين كبيرتين وشعر داكن مثل صورة فوتوغرافية، ثم لشابة أصغر شاحبة بعض الشيء ذات أنف كبير، ثم إلى شابة قوية البنية ضاربة إلى الحمرة وعقيد أصلع ورائد نحيف طويل القامة ذي مظهر أكسفوردي[2] مع عصابة سوداء تغطي إحدى عينيه، وكلاهما يرتدي الكاكي. وأخيرًا كان هناك شاب حسن المظهر جيد التغذية يرتدي بذلة السهرة وقد جلس إلى يسار مضيفته متأهبًا لتناول حسائه، بينما جلس العقيد بكل ثقة إلى يمينها. وكان السير ويليام الضئيل الجسم، بشعره ولحيته الناصعي البياض مثل الزجاج المغزول وبأسلوبه اللطيف المحبب والحواشي الأرجوانية الساحرة لسترته المخملية، يجلس في نهاية الطاولة وهو يداعب السيدات ويظهر أسنانه في ابتسامة رجل عجوز متلطف يتمنى السعادة للجميع.

تناول آرون حساءه محاولًا اللحاق بهم. كان الخادم الإيطالي الموثوق الخاص بالليدي، وهو الدقة المتناهية بعينها، يحوم بالقرب من الوافد الجديد ويساعده نفسيًا على اللحاق بالركب. طبقان رئيسيان صغيران لطيفان أعدا خصيصًا لآرون ليحلا محل الوجبة الرئيسية التي فاتته من السمك والفطائر المحشية، ليشهدا على كرم وحسن مجاملة مضيفته.

حسنًا، كان يأكل بسرعة جعلته يواكب الآخرين إلى حد ما بحلول الوقت الذي قدمت فيه الحلويات فعبّ كأسًا من النبيذ ونظر حوله. كانت مضيفته،

1- بالأصل في الفرنسية !Connu! Connu

2- إشارة إلى طراز الأزياء التي يرتديها طلبة جامعة أوكسفورد العريقة والمتسم بالتحفظ والتقليد.

بلآلئها ونجمها الماسي المثبت في شعرها الرمادي، تتحدث إليه عن ليلي ثم عن الموسيقى.

- «سمعتُ أنك موسيقي. هذا ما كان يجب أن أكونه لو كان لي أن أختار طريقي»

- «أي آلة؟» سأل آرون.

- «أوه، البيانو. يقول السيد ليلي إن آلتك هي الفلوت. أعتقد أن الفلوت يمكن أن يكون جذابًا للغاية، لكنني أشعر، بالطبع، بأن البيانو يمنح المرء مدى أرحب. أحب البيانو والأوركسترا»

في تلك اللحظة، شتت انتباهها الكولونيل وواجبات المضيفة. لكنها عادت إليه بعد لحظة خاطفة. كانت امرأة تذكره بعض الشيء بالملكة فيكتوريا وهي واثقة مطمئنة في حجرتها مانحة دائمًا حيزًا كبيرًا من اهتمامها لواجباتها المتعاقبة جاعلة الباقي تحت تصرف ضيوفها. كان شعورًا قديمًا غير مزعج بالمرة، مثل ماضٍ مستعاد. لكنها كانت تزين أصابعا بخواتم من زمرد وياقوت جميل وكبير وناعم. المال! يا له من شيء غريب! لاحظ آرون شدة إذعان كل الضيوف على المائدة ولمسة التذلل التي لا تخفى أمام النقود! وكان المضيف والمضيفة يتقبلان هذا الإذعان، لا بل كانا يتوقعانه باعتباره استحقاقًا. ومع ذلك، كان كل من السير ويليام والليدي فرانكس يدرك أن الأمر يتعلق بالمال والنجاح فقط. فلم يغب عن بالهما أن اللعبة لم تكن سوى لعبة، وأنهما ليسا في هذه اللعبة سوى القادة المرغمين الذين لا حول لهم. كان لديهما عادات أساسية معينة تمنعهما من القيام بأي ضربات عظيمة، وتحررهما من أوهام العظمة. لقد ظلا يتذكّران أيام كانا فقيرين مهمشين.

- «وسمعت أنك كنت تعزف في الأوركسترا في كوفنت جاردن[1]. لقد عدنا من لندن الأسبوع الماضي حيث استمتعت كثيرًا بأوبرات بيتشام[2]»

1- Covent Garden أحد الأحياء في لندن فيه الكثير من المطاعم والمسارح ودور الأوبرا الراقية.

2- *توماس بيتشام* *Thomas Beecham* موسيقي وقائد أوركسترا بريطاني شهير (1879-1961).

- «وأيها تفضلين؟» سأل آرون.

- «أوه، الروسية. أعتقد أنها إيفان. إنها موسيقى رائعة[1]»

- «أجد إيفان مصطنعة»

- «حقاً؟ أوه، لا أعتقد ذلك. لا، لا أعتقد أن بإمكانك قول ذلك»

تعجب آرون من نبرتها الواثقة المؤكِدة. بدت كأنها وضعته في مكانه قليلًا، حتى في رأيها بشأن الموسيقى. لقد أعطاها المال هذا الحق أيضًا. غريب، إنها السلطة الوحيدة الباقية. ونزل عند رأيها: أي إلى مالها. لقد فعل ذلك عمدًا تقريبًا. نعم - بماذا كان يؤمن عدا المال؟ بماذا يؤمن أي إنسان؟ نظر إلى العصابة السوداء فوق عين الرائد. لأجل ماذا خسر عينه؟ أموال الأمة. هذا حسن، وضروري جدًا أيضًا؛ وإلا لكنا في مكان النمساويين البائسين. لكننا بدلًا من ذلك... آهٍ ما أنعم ياقوتات المضيفة!

قال آرون:

- «بالطبع أنا نفسي أفضل موسورسكي[2]. أعتقد أنه أعظم فنان. لكن ربما يكون هذا مجرد تفضيل شخصي»

- «نعم. بوريس رائعة[3] أوه، بعض المشاهد في بوريس!»

- «وأكثر روعة في خوفانتشينا[4]». قال آرون: «أتمنى أن نعود إلى اللحن النقي البسيط. ومع ذلك، أجد خوفانتشينا، وهي موسيقى جماعية عمليًا، تمنحني الرضا أكثر من أي أوبرا أخرى»

- «حقًا؟ لا أعتقد ذلك. أوه، لا لكن لا يمكنك أن تعني أنك تريد أن تعود كل الموسيقى إلى اللحن النقي والبسيط! مجرد فلوت، مجرد

1- تقصد أوبرا إيفان الرهيب التي قدمها بيتشام.

2- موديست بتروفيتش موسورسكي (1839-1881) مؤلف موسيقي روسي يعتبر أحد الموسيقيين الخمسة الروس الكبار المعروفين باسم جماعة الخمسة الذين أسسوا المدرسة القومية الروسية.

تقصد أوبرا بوريس غودونوف لموسورسكي.

أوبرا من خمسة فصول شرع موسورسكي بكتابتها وتوفي قبل إكمالها فتولى ذلك زميله ريمسكي كورساكوف.

مزمار! أوه، سيد سسن، أنت متعصب لآلتك الموسيقية. أنا أذوب حبًّا في الهارموني؛ في النغمات المتآلفة، في الكوردات!»

وضربت على الأوتار الوهمية على الحرير الدمشقي الأبيض، وعامت ياقوتاتها في زرقتها. لكنها في الوقت نفسه كانت تراقب السير وليام لتتأكد من وجود ظرف الدواء الأبيض الذي يجب أن يبتلعه في كل وجبة إلى جانب طبقه. لأن عليها في هذه الحالة أن تذكره بتناوله. لكنه على كل حال كان قد وضعه فوق لسانه في تلك اللحظة بالذات كي تتمكن من تحويل انتباهها مرة أخرى إلى آرون والوتر الوهمي على الدمشقي الأبيض؛ إلى ما كانت تعيشه للتو. لكن العقيد الأصلع المحمرّ، الذي ازداد احمرارًا بعد النبيذ، ثم احمرّ أكثر فأكثر حين أخذ نبيذ المارسالا الصقلي يسري في عروقه، شتت انتباهها بإطرائه الأخرق لأنوثتها، وشاركها مخاوفه بتودد صبياني.

عندما صعدت النساء اقترب السير ويليام ووضع يده على كتف آرون. من الواضح أن السحر بدأ يعمل. كان السير وليام رجلًا عصاميًا، وليس فيه شيء من التكبر. لقد أحب سلوك آرون، فطرية الإنسان العادي.

– «حسناً الآن، سيد سسن، نحن سعداء جدًا برؤيتك! سعيد جدًا في الواقع. أنا أعتبر السيد ليلي واحدًا من أكثر الرجال إثارة للاهتمام ممن كان من حسن حظي أن أعرفهم. ومن أجلك، ومن أجل السيد ليلي، نحن سعداء جدًا برؤيتك. آرثر يا ولدي، ناول السيد سسن بعضًا من المارسالا، وخذ بعضًا منها لنفسك».

قال الشاب الحسن التغذية الذي يرتدي ملابس سهرة جميلة:

– «شكراً سيدي. هل ستشرب كأسًا أخرى يا سيدي؟»

– «نعم، سأفعل، سأفعل. سأشرب كأسًا مع السيد سسن. أيها الرائد. إلى أين تمضي؟ تعال وخذ كأسًا معنا يا ولدي»

– «شكرًا، سيدي ويليام» تشدق الرائد الشاب ذو العصابة السوداء.

– «الآن، أيها العقيد. أتمنى أن تكون بصحة جيدة ومعنويات عالية»

– «لا أفضل من ذلك، سيدي وليام، لن أكون أفضل حالًا من هذا أبدًا»

- «أنا سعيد جدًا لسماع ذلك؛ سعيد جدًا حقًّا. جرب مارسالتي. أظن أنها ممتازة. نبيذ البورت ليس في متناولنا في الوقت الحالي»

وارتشف الرجل العجوز نبيذه البني وابتسم مرة أخرى. لقد كان ذا هيئة جميلة تمامًا، لكنه كان ضعيفًا.

- «وأين مقصدك، سيد سسن؟ نحو روما؟»

- «لقد جئت للقاء ليلي»

- «آه! لكن ليلي سيكون قد عبر الحدود بحلول هذا الوقت. هذا الرجل ليس له مثيل في عبور الحدود. إنه لشخص رائع إذ يكون قادرًا على القيام بذلك»

- «أين ذهب؟» سأل آرون.

- «إلى جنيف في الوقت الحالي، كما أظن. لكنه تحدث بالتأكيد عن البندقية. وأنت، أليس لديك هدف محدد؟»

- «كلا»

- «آه! لم تأت إلى إيطاليا لممارسة فنك؟»

- «يفترض بي أن أمارسه وإلا لا، لم آتِ من أجل ذلك»

- «آه، عليك أن تمارسه. أه نعم! نحن جميعًا في حاجة إلى الطعام. ولديك عائلة في إنجلترا؟ ألستُ على حق؟»

- «تمامًا. لدي عائلة تعتمد علي»

- «نعم، إذًا يجب أن تمارس فنك. يجب أن تمارس فنك. حسنًا، هل ننضم إلى السيدات؟ لا شك في أنهم سيقدمون القهوة»

- «هل تأخذ ذراعي يا سيدي؟» قال آرثر حسن التغذية.

- «شكراً لك، شكرًا» أشار له الرجل العجوز رافضاً.

وهكذا صعدوا إلى الطابق العلوي حيث كانت النساء الثلاث جالسات في المكتبة حول النار وهن يتحدثن في غير كثير من الاهتمام. أثار دخول السير ويليام نشاطًا فوريًا.

أخذت الفتاة ذات الرداء الأبيض والأنف الكبير تحوم حوله. كانت زوجة آرثر. أما الفتاة في الثوب الأزرق الناعم فقد افترشت الأريكة: كانت

زوجة الرائد الشاب، وكانت تربط شريطًا أزرق حول شعرها. وكان العقيد الممتلئ يحوم متململًا بين الليدي فرانكس وحامل المشروبات. كان هو والرائد يرتديان الكاكي إذ لا يزالان ينتميان إلى خدمة الاحتياط في إيطاليا.

جاءت القهوة، وقدم لهم السير وليام الكِريم دومينث[1]. لم يجر حديث حقيقي، مجرد كلمات مملة. كانت الحفلة الصغيرة مألوفة وثقيلة ومضجرة. ومع ذلك، كان السير وليام، الرجل العصامي، لافتًا للأنظار. وكان الرائد الشاب ذو الهيئة الأوكسفوردية، بحيائه الإنجليزي وعينه الوحيدة المعتمة المتأملة المتحيرة، ينتظر فقط كي يكون فتى الخدمة المخلص المسكين.

كانت الفتاة ذات الرداء الأبيض وصيفة من نوع ما للسيدة فرانكس، لذلك كان آرثر يعد بمنزلة صهر بشكل من الأشكال، وبهذه الصفة كان يتصرف. تنقل آرون حوله وهو ينظر في برم إلى الكتب التي اشتريت ولم تُقرأ وفي الصور الكبيرة التي تعلوها. كان آرثر هو من أحضر الصناديق الصغيرة التي تحتوي على الأوسمة الممنوحة للسير وليام لمجهوداته الحربية، أو لما هو أهم: لآلاف الجنيهات التي أنفقها على تلك الجهود.

كانت هناك ثلاثة أوسمة: واحد بريطاني، مهم للغاية: نجمة فضية كبيرة للصدر؛ وواحد إيطالي أصغر منه، فضي وذهبي؛ وواحد من ولاية روريتانيا[2]، مطلي بالمينا الفضي والأحمر والأخضر، أصغر من الاثنين.

قالت الليدي فرانكس:

- «تعال الآن يا وليام، يجب أن تجربها جميعًا. يجب أن تجربها جميعًا معًا، ودعنا نرى كيف تبدو»

نفخ الشيخ الصغير الضعيف ذو العينين الزرقاوين الغريبتين العجوزتين والضحكة العجوز الدائمة صدره وقال:

- «ماذا، هل علي أن أظهر بكامل حُليي؟» وضحك قليلًا.

- «بالطبع» قالت الفتاة البيضاء «نريد رؤيتك».

1- creme de menthe شراب كحولي ممزوج بالنعناع.

2- روريتانيا هي مملكة افتراضية تقع في وسط أوروبا وعاصمتها سترِلسا، وفيها تدور أحداث ثلاث كتب للروائي البريطاني أنتوني هوب الذي اختلق هذه المملكة.

- «في الواقع نحن نريد ذلك! لا ينبغي أن نمانع في الظهور بمثل هذه الحلي. ما قولك يا سيدة فرانكس!» هتف العقيد، فأجابت مضيفته:

- «لا أظـن أنـه علينا أن نمانـع. عندما يُمنح الرجل مرتبة الشـرف، فإنه يظهر روحًا متخاذلة إذا لم يكن فخورًا بها»

- «بالطبع أنا فخور بها!» قال السير وليام.

- «حسـنًا، تعال وتقلدها» قالت الليدي فرانكس «أعتقد أنه من الرائع أن تحصل على الكثير منها في حياة واحدة. هذا رائع»

- «السير وليام رجل رائع» قال العقيد «حسنًا، لن نقول ذلك أمامه. لكن دعونا ننظر إليه وقد تقلد نياشينه»

أخرج آرثر، الذي كان مسـتعدًا دائمًا لهذه المناسـبات، النجمة البريطانية الكبيرة البراقة من صندوقها ودنا من السـير ويليام، الذي وقف نافخًا صدره، مسرورًا، فخورًا، وحزينًا بعض الشيء.

- «هذا أولًا يا سيدي» قال آرثر.

وقف السـير ويليام ساكنًا دون حراك، نصف مرتجف، مثل رجل يخضع لعملية جراحية.

- «مكانهـا هـا هنـا بالضبـط - فـي مسـتوى القلـب. هـذا هـو مكانها المناسـب» قال آرثر وشـبك بحذر الوسـام الكبير البراق على سـترة العشـاء المخملية السوداء للرجل العجوز.

قالت الليدي فرانكس:

- «هذا هو الأول. إنه لجذاب للغاية»

- «أوه، جذاب للغاية! جذاب جدًا!» قالت زوجة الرائد الطويلة. كانت شابة جميلة من ذلك النوع الطويل النحيف.

- «هـل تعتقديـن ذلك يـا عزيزتي؟» قـال العجـوز بابتسـامته الأبدية: الابتسامة الغريبة لكبار السن المقبلين على الموت.

- «ليـس جذابًـا فقـط يا سـيدي» قـال الرائـد وهو يحنـي هيئتـه الطويلة النحيلـة إلـى الأمـام «لكنه علامـة مطمئنـة على أن الأمـة تعرف كيـف تميز رجالها القيمين»

- «تمامًا!» قالت الليدي فرانكس «أعتقد أنه لشرف كبير أن يحصل عليه. كان الملك بالغ الكرم. والآن ضع الآخر، الإيطالي، الذي ينسجم معه بجانبه»

وقف السير ويليام خاضعًا لعملية التثبيت. كان الوسام الإيطالي أصغر إلى حد ما من البريطاني، كان هناك تساؤل بسيط حول المكان الذي يجب أن يوضع فيه بالضبط. لكن آرثر فصل في ذلك، ووقف الرجل العجوز أمام الجماعة ونجمتاه على صدره.

قالت الليدي فرانكس بلهفة:

- «والآن الروريتاني»

- «هذا لا يحسُن وضعه على نفس المستوى مع الآخرين، يا ليدي فرانكس. يجب أن ينزل كثيرًا - هنا»

- «هل أنت متأكد؟» قالت الليدي فرانكس «ألا يناسب أكثر هنا؟»

- «لا لا لا على الإطلاق. هنا! أليس كذلك يا سيبيل؟»

- «نعم، أعتقد ذلك» قالت سيبيل.

وقف السير وليام العجوز صامتًا تمامًا وقد هيأ صدره وهو يحدق من فوق حواشي معطفه ليرى إلى أين يتجه النجم. واستدعي الكولونيل ليدلي برأيه، وعلى الرغم من أنه لا يعرف شيئًا عن ذلك، فقد اتفق مع آرثر الذي يعرف شيئًا على ما يبدو. وهكذا ثبت النيشان في موضع منخفض جدًا. هتف السير وليام وقد اختلس النظر:

- «حسنًا، هذا هو الأمر الأكثر غرابة الآن! أن أضع وسامًا فوق نقرة معدتي! أعتقد أن هذا أمر غريب للغاية: إنه لمكان غريب لتثبيت وسام»

- «قف ودعنا ننظر!» قالت الليدي فرانكس «والآن، أليس هذا جميلًا؟ أليس هذا شرفًا كبيرًا لرجل واحد؟ هل كان يمكن أن يتوقع كل هذا خلال حياة واحدة؟ أنا أعتبره أمرًا رائعًا. تعال وانظر إلى نفسك يا عزيزي» وقادته إلى المرآة.

قال آرثر:

- «الأهم من ذلك أنه يستحق كل شيء بجدارة»

قال العقيد في ملل:

- «أنا أوافقك الرأي»

- «آه، نعم، لا أحد يستحقها أكثر منه» قالت سيبيل.

- «لا أحد لو نظرنا من ناحية الإنسانية والسخاء» قال الرائد بصوته الخفيض.

وعلقت زوجة الرائد الشابة:

- «إنه ثمرة الجهود المبذولة لإنقاذ الحياة. رائع حقًّا!»

وقف السير ويليام بسذاجة أمام المرآة ونظر إلى النياشين الثلاثة على سترة السهرة المخملية السوداء وقال:

- «فوق نقرة معدتي تقريبًا. آمل ألا يكون هذا وساماً على شهيتي التي لا تهدأ» وضحك للفتيات.

- «أؤكد لكم أنها في موقعها يا سيدي» قال آرثر «صحيح تمامًا. فلندعها في مكانها وسأنزعها لاحقًا»

- «ألست راضيًا؟ ألست رجلًا فخورًا! أليس هذا رائعًا؟» قالت الليدي فرانكس «حسنًا، ما الذي يرجوه الإنسان من الحياة أكثر من هذا؟ إنه لا يمكن أن يتوقع كل هذا»

- «نعم عزيزتي. أنا رجل فخور. لقد كرمتني ثلاث دول» وساد صمت قصير، ثم قالت سيبيل:

- «وهذا أقل ما ينبغي عليهم فعله»

- «حسنًا! حسنًا! سيدور رأسي. اسمحوا لي أن أعود إلى ذاتي المتواضعة. أشعر في هذه اللحظة بأنني أحلق مع النجوم»

التفت السير ويليام إلى آرثر لينزع الأوسمة. وشعر آرون، الواقف في الخلفية، بأن المشهد برمته غريب، طفولي، ومؤثر إلى حدٍ ما. من الواضح أن الليدي فرانكس كانت تحاول أن تواسي زوجها، أن تعزي الرجل العجوز الضعيف السريع التأثر عن طريق أوسمته. لكن لماذا تواسيه؟ هل يحتاج إلى العزاء؟ وهل نجحت في ذلك؟ كان من الواضح أن المرأة الثرية التي بداخلها هي فقط التي تمنح تلك الأوسمة قيمتها الكبيرة.

تقدم آرون وتفحص الأوسمة واحدًا تلو الآخر. كانت مجرد لعب معدنية من فضة لامعة وطلاء ذهبي ومينا. كان البريطاني أكثر ثقلًا، بيد أنه لم يكن غير شيء أشبه بإبزيم ثقيل، إذ يستحيل بمجرد قلبه إلى قطعة من المعدن البارد. أسقط أحدهم الصليب الإيطالي، وسادت لحظة من رعب. لكن الكتلة المعدنية لم يصبها أذى. كانت رؤية تلك الأوسمة وهي راقدة في صناديقها من جديد شيئًا يبعث الاستغراب، فلطالما تخيل آرون أن هذه الزخارف الغامضة تتألق بطبيعتها على صدور الأبطال. لكن مرأى القطع المعدنية المدنبسة[1] كان خيبة أمل كبيرة.

وضعت الأوسمة جانبًا، وجلست المجموعة حول النار في المكتبة المريحة، واحتسى الرجال مزيدًا من الكريم دومينث، طالما لم يقدم أي شيء آخر، وكانت أمامهم ساعتان تعدان بضجر الأحاديث التافهة لأناس مملين ليس لديهم حقًا شيء يقولونه ولا أساليب جديدة في قوله.

أما آرون فقد أخرج مضيفه من حسابه. جلس السير ويليام منتصبًا على كرسيه، بكل التصميم الذي يملكه رجل عجوز ضعيف يصر على أن يكون على نفس المستوى مع الشباب. جلس الضيف الجديد على كرسي منخفض وهو يدخن، وعلى وجهه ذلك البريق الفضولي الذي يجعله شديد الجاذبية، والذي يعني فقط أنه كان ينظر إلى المشهد بأكمله من الخارج، كما هو، من وراء السياج. وتنكب السير وليام للهجوم دون تأخير:

– «وهكذا، سيد سسن، ليس لديك هدف محدد للمجيء إلى إيطاليا؟»

– «لا، لا شيء. أردت الانضمام إلى ليلي»

– «وبعد أن تنضم إليه؟»

– «أوه، لا شيء. ابقى هنا لبعض الوقت، في هذا البلد، إذا استطعت كسب قوتي»

– «آه! – كسب قوتك؟ إذن كنت تأمل في كسب قوتك هنا؟ هل لي أن أسأل كيف؟»

– «بواسطة فلوتي»

1- المدنبسة أي المثبتة بالدنابيس.

- «لكن إيطاليا بلد فقير»

- «لا أريد الكثير»

- لديك عائلة تعولها»

- «لقد وفرت لهم ما يحتاجونه لعامين»

- «أوه، حقًّا! هل هذا صحيح؟»

انتزع العجوز من آرون وصفًا تفصيليًا لظروفه وكيف ترك الكثير من المال ليُدفع لزوجته دون أن يبقي لنفسه سوى مبلغ صغير. قال السير ويليام:

- «أراك مثل ليلي - أنت تضع ثقتك في العناية الإلهية».

- «العناية أو القدر». أجاب آرون، فقال السير ويليام:

- «ليلي يسميها العناية. أنا من جهتي أنصح دائمًا بالاعتماد على العناية الإلهية مضافًا إليها حساب مصرفي. لدي كل الإيمان بالعناية الإلهية، على أن يصحبها حساب مصرفي. لقد تعلمت بأن الاعتماد على العناية الإلهية في غياب الحساب المصرفي أمر مهلك بشكل دائم تقريبًا. لقد جادلت ليلي في ذلك. هو يؤمن بإلقاء خبزه على الماء. آمل بصدق ألا يضطر إلى إلقاء نفسه بعد خبزه، في أحد هذه الأيام[1]. العناية الإلهية مع الحساب المصرفي. صدّق بالعناية الإلهية بعد أن تحصل على ما يكفي للعيش. أنا أعتبر الايمان بالعناية الإلهية قبل ذلك أمرًا كارثيًا. لا يمكن لأحد أن يكون واثقًا تمامًا من العناية الإلهية»

- «بم يمكنك الوثوق إذن؟» سأل آرون.

- «حسنًا، بالاعتدال، يمكنني أن أؤمن بشيء من العملة الصعبة، وبقدرتي على كسب شيء منها»

- «ربما يؤمن ليلي بقدرته أيضًا»

- «لا ليس كذلك. لأنه لن يعمل أبدًا بشكل مباشر لكسب المال. إنه يعمل - ويعمل بشكل جيد، كما قيل لي: ولكن فقط كما تحركه الروح، ودون أن يحفل بالسوق. أنا أسمي هذا بالعناية الإلهية المغرية. قد تحركه

---

[1] إشارة إلى سفر الجامعة، الأصحاح الحادي عشر (ارْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ)

الروح في اتجاه معاكس تمامًا للسـوق، وعندها: أين ليلي؟ لقد أوضحت له ذلك أكثر من مرة»

قال آرون:

- «الروح عمومًا تدفعه ضد السوق بشكل كلي، لكنه ينجح في شق طريقه»

- «في وضـع محفـوف بالمخاطـر على الـدوام. كل وجـوده ووجود زوجتـه محفـوف بالمخاطـر. فـي شـبابي اكتشـفت أن الـروح قـد دفعتنـي إلـى أمـور عديدة كانت سـتجوعني أنا وزوجتـي. لذلك أدركـت في الوقت المناسـب أن هذا لم يكن أمرًا جيدًا، وأمسـكت بزمـام روحي وجعلتها تجر العربـة التي يركبها بنو البشـر، وسـخرتها للعمل المنتـج. ولذلك قدمت لي المكافأة التي أستحقها»

- «نعم» قال آرون «لكن كل إنسان وإيمانه»

- «لا أرى كيـف يمكن للإنسـان أن يؤمن بالعنايـة الإلهية ما لم يوطن نفسـه للعمل على كسـب قوت يومـه وتوفيـر احتياجاته المسـتقبلية. هذا ما تعنيه العناية الإلهية بالنسـبة لي: أن أؤمن حياتي وحياة أسـرتي. والآن يا سيد ليلـي، هـا أنت تقـول إنك تؤمـن بالعناية الإلهيـة التي لا تجبرك على كسـب قوتـك اليومي وتوفير احتياجاتك. أعترف بأنني لا أسـتطيع فهم ذلك، مثلما عجز ليلي عن إقناعي»

قال آرون:

- «أنا لا أؤمن بالعناية الإلهية الرحيمة، ولا أعتقد أن ليلي يفعل ذلك. لكننـي أؤمـن بالصدفـة. أنا أؤمـن بأنني إذا ما سـلكت طريقـي دون أن أربط أنفـي بوظيفـة محـددة، فـإن الفرصة سـترمي دائمًا فـي طريقي شـيئًا يكفيني لتدبر أموري»

- «لكن علام تبني مثل هذا الاعتقاد غير المبرر على الإطلاق؟»

- «أنا أشعر بهذا فحسب»

- «وإذا لم تنجح قط ولم تجد ما تستند إليه؟»

- «يمكنني العمل في شيء ما»

- «وفي حالة المرض، على سبيل المثال؟»

- «يمكنني أن أذهب إلى المستشفى أو أموت»

- «يا ويلي! ومع ذلك، فأنت أكثر منطقية من ليلي. يبدو أنه يعتقد أنه كسب اللامرئي -سمِّه العناية الإلهية إن شئت- إلى جانبه، وأن هذا غير المرئي لن يخذله أو يتركه يُهزم أبدًا طالما أنه متمسك بما يخصه من الصفقة ولا يعمل أبدًا من أجل غاياته الخاصة. لا أرى كيف يعمل بالضبط. يبدو لي بالتأكيد رجلًا يهدر قدرًا كبيرًا من المواهب دون فائدة. ومع ذلك، لسبب أو لآخر، يسمي ما يفعله بالنشاط الحقيقي الأصيل، ويزدري العمل الفعلي الذي يقوم به الإنسان لتأمين مستقبله ومستقبل أسرته. ولسوف يضطر في النهاية إلى التراجع واللجوء للمحسنين. لكن عندما أقول ذلك، فإنه ينكره ويقول إننا، نحن الرجال الذين يعملون ويؤمنون حاجاتهم، سنضطر إلى الالتجاء إليه. حسنًا، كل ما يمكنني قوله هو أنه حتى الآن معرض لخطر اللجوء إليّ أكثر بكثير من خطر لجوئي إليه»

وعاد الرجل العجوز إلى كرسيه وأطلق ضحكة نصر صغيرة. لكنها وقعت على أذني آرون بطريقة شبه شيطانية، وشعر، للمرة الأولى في حياته، بضرورة الانحياز إلى أحد الجانبين، فقال:

- «لا أظن أنه سيتراجع كثيرًا»

- «حسنًا، إنه ما يزال شابًا. كلاكما شاب. أنتما تبددان شبابكما. أنا رجل عجوز، وأرى النهاية»

- «أية نهاية يا سير وليام؟»

- «العيش على الصدقات، والفقر، أو القبول بـ «وظائف» غير ملائمة، كما تسميها، من أجل رغيف الخبز. لا، لا، لا أريد أن أضع ثقتي بالعناية الإلهية أو الحظ الذي تتحدث عنه، رغم أنني أقر بأن فرصتك تمثل عرضًا أسلم من عناية ليلي الإلهية. أنت تضارب بحياتك وموهبتك. أنا أسلّم بالطبيعة باعتبارها مضارباً بالفطرة. مهما حصل، سوف تستطيع بمعيّة فلوتك أن تخمن طريقة تذوق الآخرين للرفاهية، كما يخمن الرجل ما قد يلقاه في المسارح أو القطارات الفاخرة. أنت مضارب. قد تكون هذه طريقتك في

التماس الحكمة، لكن ليلي لا يخمن شيئًا على الإطلاق. لا أستطيع أن أفهم وجهة نظره. لا أستطيع أن أفهم وجهة نظره. لا أستطيع أن أرى وجهة نظره. ومع ذلك، فإنني عظيم الإعجاب بعقليته»

كان الرجل العجوز قد اتقد حماسة خلال هذه المحادثة، والتزم الصمت كل من في الغرفة. كانت الليدي فرانكس قلقة بشكل واضح. إنها الوحيدة التي تعرف مقدار ضعف الرجل العجوز - أضعف بكثير من عمره. كانت وحدها تعرف أي خوف من العمر، وأي خوف يطارده من الموت الآن: الخوف من فنائه. كانت شيخوخته تعذبه، بل أكثر من ذلك: كانت ترعبه. أراد أن يظل شابًا، أن يعيش، يعيش. لكنه طاعن في السن، آيل للانهيار. لقد فتنه شباب آرون المتلألئ، وسحره طيش ليلي. ويبدو أن كلا الرجلين يشكلان النقيض الرصين لثروته وأوسمته.

حاولت الليدي فرانكس أن تحول المحادثة إلى مجرى الدردشة العادية. كان الكولونيل يشعر بالملل الشديد، وكذلك كل النساء. وكان آرثر غير مبال. وحده الرائد الشاب كان منجراً إلى ما يدور، مضطربًا في أعماق روحه الفلسفية الجادة. قال:

- «ما لا أستطيع رؤيته هو المكان الذي يحتله الآخرون في مخططك»

- «هذا ليس مخططًا» أجاب آرون.

- «حسنًا، أسلوب حياتك. أليس من الأنانية أن تتزوج امرأة ثم تتوقع منها أن تعيش على نزر يسير، وفوق هذا محفوف بالمخاطر دائمًا، لمجرد أنك تؤمن بالعناية الإلهية أو بالصدفة، التي أجدها أكثر سوءًا؟ ما لا أراه هو مكان الآخرين. كيف سيكون العالم إذا عاش الجميع بهذه الطريقة؟»

- «يمكن للآخرين أن يفعلوا ما يرضيهم»

- «لا، لا يمكنهم ذلك، لأنك تحتفظ بالخيار الأول، على ما يبدو لي. لنفترض أن زوجتك، أو زوجة ليلي، تطلب الأمن والطعام، كما يقول السير ويليام. إن لها الحق في ذلك بالتأكيد»

- «إذا كنت أنا نفسي لا أملك الحق في ذلك - وليس لدي فعلًا الحق في ذلك، إذا كنت أنا نفسي لا أريده، فما الحق الذي تملكه»

- «كل الحق، علي أن أقول. وأكثر من هذا طالما كنت لا تتحسب للأمور»

– عندها يجب أن تدبر حقوقها بنفسها. ليس من الجيد أن تقحمني في فرض حقوقها»

– «أليست هذه أنانية خالصة؟»

– «من الممكن أن تكون كذلك. سأواظب على أرسال المال لزوجتي طالما لديّ نقود أستطيع إرسالها»

– «لكن افترض أنك لا تملك أي شيء؟»

– «عندها لا يمكنني إرسالها، وعليها أن تعتني بنفسها»

– «أكاد أسمي ذلك أنانية إجرامية»

– «لا يمكنني فعل شيء إزاء ذلك»

انقطعت المحادثة مع الرائد الشاب، وقال السير ويليام ضاحكًا:

– «من المؤكد أنه أمر جيد للمجتمع أن رجالًا من أمثالك وأمثال السيد ليلي ليسوا كثيرين»

– «إنهم يزدادون كل يوم، سترى ذلك» تدخل العقيد.

– «بالفعل! بالفعل! حسنًا. هلا سمحت لنا بسؤال آخر يا سيد سسن؟ أرجو ألا تعترض على استجوابنا لك؟»

– «لا ولا على حكمكم في النهاية» قال آرون مبتسمًا.

– «إذن على أي أساس تخليت عن عائلتك؟ أعلم أنه موضوع حساس. لكن ليلي تحدث إلينا عن ذلك، وبقدر ما استطعت أن أفهم...

– «لم يكن هناك من أساس. كلا، لم يكن لقد تركتهم فحسب»

– «مجرد نزوة؟»

– «إذا كان إنجابك نزوة، وولادتك نزوة، وموتك نزوة – فهذه أيضًا مجرد نزوة، لأن الأمر سواء في الحالتين»

– «مثل الولادة أو الموت؟ لا أستطيع فهمك»

– «إنها صدفة اتفقت لي، كما اتفق لي أنني ولدت مرة – وكما سيتفق لي أن أموت. لقد كان نوعًا من الموت أيضًا، أو نوعًا من الولادة. لكنه مثلهما: أمر لا يمكن إنكاره. وبدون مزيد من الأسس الأخرى»

كان العجوز المرتعش والشاب يراقبان بعضهما بعضًا. قال السير ويليام:

- «حدث طبيعي»

- «حدث طبيعي» قال آرون.

- «ليس لأنك أحببت أية امرأة أخرى؟»

- «فليحمني الله من ذلك»

- «لقد كففت عن الحب فحسب؟»

- «ولا حتى ذلك. لقد أفلتّ بنفسي»

- «عن ماذا؟»

- «عن كل هذا»

- «عن المرأة على وجه الخصوص؟»

- «نعم بالتأكيد. نعم. نعم، هو ذاك»

- «ولا يمكنك العودة؟»

هز آرون رأسه نافياً.

- «ومع ذلك لا يمكنك إبداء أسباب؟»

- «ما من أسباب من شأنها أن تكون جيدة. لم تكن المسألة مسألة أسباب. كان الأمر يتعلق بي وبها وما الذي ينبغي أن يكون. ما الذي يجعل الطفل يخرج من بطن أمه لشقائه وشقائها؟ لا أعرف».

- «لكن هذه عملية طبيعية»

- «وكذلك هذه المسألة»

- «لا» قاطع الرائد «لأن الولادة هي عملية كونية - وحالتك هي حدث محدد وفريد تقريبًا»

- «حسنًا، سواء كانت فريدة أم لا، فقد حدثت. لم أتوقف قط عن حبها -على حد علمي. لقد غادرتها كما سأغادر الأرض عندما أموت- لأن هذا أمر محتوم»

- «هل تعرف ما هو رأيي يا سيد سسن؟» قالت الليدي فرانكس «أعتقد أنك في حالة ذهنية فظيعة، مثل السيد ليلي بالضبط. وعليك أن تكون حذرًا للغاية، وإلا وقعت لك مصيبة كبيرة»

- «ربما». قال آرون.
- «بل ستقع بالتأكيد. تذكّر كلامي، ستقع»
ابتسم آرون قائلًا:
- «تكادين تتمنين حدوث ذلك، كعقاب لي»
- «أوه، كلا في الحق. لسوف أكون فقط آسفةً للغاية، لكنني أشعر أن ذلك سيحدث، إلا إذا كنت حذرًا»
- «سأكون حذرًا إذن»
- «نعم، والى أبعد حد»
- «إنك تخيفينني»
- «أود أن أجعلك شديد الخوف حقًّا، حتى تعود بتواضع إلى زوجتك وعائلتك»
- «سيكون الأمر مخيفًا للغاية إذن، أؤكد لك ذلك»
- «آه، أنت حقًّا بلا قلب. هذا يدفعني للغضب» واستدارت حانقة.
- «حسنًا حسنًا! حسنًا حسنًا! الحياة! الحياة! الشباب شيء جديد بالنسبة لي!» قال السير وليام وهو يهز رأسه «حسنًا حسنًا! ما رأيك بشيء من الويسكي والصودا يا عقيد؟»
- «آه، بكل سرور يا سير وليام» قال العقيد واثباً.
- «كأس ليلية أخيرة ثم نخلد للنوم». قالت الليدي فرانكس.
جلس آرون متفكرًا. كان يعرف أن السير ويليام يحبه: وأن الليدي فرانكس لم تكن كذلك، وأنه قد يضطر في يوم من الأيام إلى طلب المساعدة من السير ويليام. لذلك كان من الأفضل له أن يسترضي الليدي. رسم الابتسامة الدقيقة نصف العابثة على وجهه، والتفت إلى مضيفته وهو يعول على سحره وقال:
- «لن تمانعي يا سيدة فرانكس إذا تفوهت بأشياء سيئة عن زوجتي ووجدت فيها الكثير من الأخطاء. ما يغضبك هو أنني أعلم أن انفصالنا ليس خطأها أكثر من خطئي. لم يكن هناك من جدوى»
- «أوه نعم بالفعل. أنا لا أوافق على طريقتك في النظر إلى الأشياء.

تبدو لي باردةً وغير رجولية ولا إنسـانية بالمرة. الحمد لله كانت تجربتي مع الرجال مختلفة»

- «لا يمكننـا أن نكـون جميعًـا متشـابهين، أليس كذلـك؟ وإذا لم أختر السـماح لك برؤيتي وأنا أبكي، فهذا لا يثبت أنني لم أعان من أوقات سـيئة، أليس كذلك؟ لقد كان لدي الكثير والكثير منها»

- «إذن لماذا أنت مخطئ جدًا، جدًا في سلوكك؟»

- «أفتـرض أنـه يجـب أن أنفـس عـن نوبـة غضبـي: وحيـن تنقضـي، يمكنني أن أتغير»

- «إذن أتمنى أن تكون قد أوشكت على التنفيس عنها»

- «وأنا كذلك» قال وقد ارتسمت على وجهه الجذاب نظرة نصف تائبة ونصف مكتئبة. ثم تجهمت زوايا فمه قليلًا تحت شاربه.

- «أفضل ما يمكنك القيام به هو العودة مباشرة إلى إنجلترا وإليها»

- «ربما كان من الأفضل أن أسألها إن كانت تريدني أولًا» أجابها بهدوء.

- «نعـم، يمكنك فعل ذلك أيضًا» وشـعرت الليـدي فرانكس أنها تتقدم في عملها الإصلاحي وسـعيها لإعادة المرأة إلى عرشـها الطبيعي، وبأن من الأفضل ألا تمضي في ذلك بسرعة كبيرة.

- «قل متى» صاح العقيد الذي كان يتلاعب بالسيفون.

- «متى» قال آرون.

وقام الرجال ليشربوا كؤوسهم.

- «هل ستغادر في الصباح يا سيد سسن؟» سألت الليدي فرانكس.

- «هـل أسـتطيع البقـاء حتـى صبـاح الإثنيـن؟» قـال آرون. كانـوا في مساء السبت.

- «بالتأكيد. وستتناول وجبة الإفطار في غرفتك: كلنا نفعل ذلك. متى تريد ذلك؟ الثامنة والنصف؟»

- «شكرًا جزيلًا»

- «إذن سيحضره الرجل في الثامنة والنصف. تصبح على خير»

ومرة أخرى، في غرفة النوم المفروشة بالحرير الأزرق، وقف آرون متجهمًا في منتصف الغرفة. وترددت تحذيرات مضيفته في أذنيه مثل تقريع شديد. نظر عبر النافذة: أبصر من خلال عتمة الأشجار أضواء مدينة ما بالأسفل. إيطاليا! كان الهواء باردًا مثلجًا فعاد إلى غرفته الدافئة الناعمة. كانت فاخرة. بسرير عميق دافئ.

كان لا يزال نائمًا عندما دخل الرجل مع صينيته دون ضوضاء: إنه الصباح. استيقظ آرون وجلس. لقد شعر أن السرير الوثير الدافئ والغرفة الناعمة الدافئة جعلاه ينام جيدًا واستأثرا بليلته، مثل المخدر. كان يفضل أن يكون أكثر قلقًا وأكثر وعيًا بمرور ساعات الظلام. لقد بدا الأمر مخدراً.

كان الخادم في سترته الرمادية أنيقًا وإيطاليًا ومتعاطفًا. قال صباح الخير باللغة الإيطالية ثم رتب بهدوء الطاولة الصغيرة بجانب السرير ووضع الخبز المحمص والقهوة والزبدة والبيض المسلوق والعسل في آنية من فضة وخزف رقيق. راقب آرون حركات الرجل الناعمة الشبيهة بالقطط. واختلست العينان الداكنتان نظرة سريعة إلى الرجل الأشقر المتكئ على مرفقه فوق الوسادة. كان وجه آرون يتمتع بذلك التعبير اليقظ ونصف المرح. قال الرجل شيئًا باللغة الإيطالية فهز آرون رأسه وضحك وقال:

- «تحدث معي بالإنكليزية»

مشى الرجل بهدوء نحو ستائر النافذة وأشار لها بيده فقال آرون:

- «نعم، افعل ذلك»

فأزاح الرجل الستائر الحريرية الصفراء - البرتقالية واستطاع آرون وهو جالس على سريره أن يمد نظره إلى ما وراء الأسطح الحمراء لبلدة وإلى حيث السماء البعيدة التي ترقد تحتها جبال ثلجية عظيمة.

- «جبال الألب» هتف متفاجئًا.

- «نعم يا سنيور، جبال الألب. نعم» ثم انحنى الرجل وجمع ثياب آرون وانسحب في صمت.

نظر آرون من خلال النافذة. كان صباحًا صقيعيًا في نهاية سبتمبر، بسماء الصباح الزرقاء الصافية، وجبال الألب، وقمم الجبال اليقظى المليئة بالثلوج التي تراصفت في البعيد، كما لو كانت تنتظر شيئًا. كانت هناك، تحوم، تدور وتنتظر. لقد ذكرته بنمور السماء المخططة الرائعة التي تحوم حول معسكر كبير، أعني المدينة ذات السقوف الحمراء. نظر آرون ثم نظر مرة أخرى. على مسافة قريبة كانت قمم أشجار الدردار في المنزل تصفرّ. وشعر بأنه يتغير داخل جلده.

وهكذا التفت إلى قهوته وبيضه. كوب بيض فضي صغير تحيطه حافة مزخرفة صغيرة غريبة حوله، وعسل في وعاء زجاجي رقيق قزحي الألوان، قزحي ذهبي: كان فيها سحر الأشياء الرقيقة والرائعة. ابتسم مع نفسه نصف ساخر وتلاعبت به غريزتان: الأولى غريزة الانجذاب إلى الأشياء الدقيقة والحساسة: كانت يداه هما الأخريان جذابتين. وكانت الثانية ميله لإلقاء الطاولة الصغيرة الأنيقة اللذيذة بكل جمالها خارج النافذة. وهي التي أثارت فيه نوعًا من الشيطان الساكن في داخله.

أخذ حمامه فيما أعاد الرجل أغراضه: ارتدى ثيابه ونزل إلى الطابق السفلي: لا أحد في الصالة. نزل إلى الطابق الأرضي: لا أحد في القاعة الكبيرة بأعمدتها الرخامية الصفراء وأقواسها الذهبية وسجادتها الغامقة الهائلة الحمراء والزرقاء. وقف أمام الأبواب الزجاجية العظيمة. بعض الزهور الحمراء الجميلة كانت لا تزال تتفتح في الأحواض وعلى السلالم، وأقاح أنيقة جميلة في الرواق المعمّد الفسيح. ووراءها كانت الأوراق الصفراء تتساقط بالفعل على العشب الأخضر والممر النظيف. كان المكان برمته صامتًا وفارغًا. صعد السلالم العريضة وجلس في الصالة الطويلة العليا حيث كانت أوراقه. أراد أن يأخذ قبعته ومعطفه لكنه لم يعرف مكانهما. تطل النوافذ على حديقة متدرجة، يرتفع التل بشكل حاد خلف المنزل. أراد الخروج.

لذلك فتح المزيد من الأبواب. وفي الصالة الطويلة وجد خمسة أو ستة من الخدم، كلهم في سترات المنزل الرمادية، وكلهم حليقو الذقون وأنيقون، بشعر أسود أنيق. وكلهم يحملون منافض الغبار أو الفرش أو

المكانس المصنوعة من الريش، وجميعهم يمرحون، يثرثرون، يلعبون مثل جوقة من القرود. كانوا جميعًا من نفس الحجم الأنيق والصغير. كانوا جميعًا يضحكون. دحرجوا سجادة رائعة كما لو كانوا في مباراة لكرة القدم، وطار أحدهم نحو الستائر. اكتفوا بالنظر إلى آرون وعادوا لأحاديثهم وضحكهم ونفضهم الغبار.

تفاجأ آرون وشعر أنه يتطفل عليهم فوقف عند النافذة وهو ينظر إلى الخارج. استمر الضجيج من ورائه. فالتفت مبتسمًا وطلب قبعته مشيراً إلى رأسه. عرفوا في الحال ما يريد. فقاده واحد منهم، ونزلا إلى القاعة حيث مكان الخزانة الطويلة التي تعلق فيها القبعات والمعاطف والعصي. كانت قبعته هناك فوضعها على رأسه بينما الرجل يثرثر معه في لطف بكلام غير مفهوم، وفتح له الباب الخلفي نحو الحديقة.

الفصل الثالث عشر

كما تحب[1]

ستجفل وتفاجأ عندما يدهمك هواء الصباح المنعش بعد تدفئة المنزل المركزية. هكذا أحس آرون. لقد شعر بنفسه وهو يندفع مرتقياً الدرجات إلى الحديقة مثل طائر ينطلق من فخ حبس فيه: ذلك المنزل الدافئ الفاخر. بارك الله فينا، نحن الذين نريد إنقاذ الحضارة. كان من الأفضل لنا أن نحسم أمرنا فيما نريد إنقاذه. قد تكون النواة جيدة وممتازة، لكنها مجرد نواة صغيرة ثمينة، يحيطها الكثير من حشوة الصوف والقشرة السامة.

لم تكن الحدائق المؤدية إلى مكان السير وليام على قدر كبير من الأبهة، ولا تزال مهملة بسبب الحرب. لكن برك المياه كانت ترقد بصفاء في الهواء الساطع، واستعرضت الأزهار ألوانها بجانب الممرات. اندفعت العديد من الطيور، في ضرب من الحيرة، بعد أن عبرت جبال الألب في هجرتها جنوبًا. تأمل آرون في امتنان ذلك الجلال والروعة والقوة الطائشة في أزهار الخريف التي لا تزال مزدهرة وذات ألوان خشنة. لقد استمد منها إحساساً واضحًا بالرضا.

مضى صاعدًا، مرتقيًا مجاميع متتالية من الدرجات حتى وصل إلى السياج العلوي غير المشذب ورأى الصخرة البرية على قمة التل التي تعلوها مباشرة. مر عبر فسحة في السياج، صعد الجزء الأخير الحاد من ممر السير وليام. كان كرمًا صغيرًا فيه كروم صغيرة وأوراق صفراء. المكان مهمل في كل أرجائه، ولكن كما لو أن المرء قد بدأ للتو في الاهتمام به من جديد.

1- عنوان الفصل في الأصل بالألمانية WIE ES IHNEN GEFAELLT

في الجزء العلوي، بالقرب من الوشيع البري حيث تدلى التوت المغزلي بلونه الوردي، انتصبت بعض المقاعد. ومن هنا كان المنظر أخاذًا. انحدر التل تحته بشدة. وتلوى نهر على الجانب القريب من المدينة، يقطعه جسر أبيض. كانت المدينة ململمة، ترقد بسطوحها الحمراء فوق السهول وتتلألأ في الهواء الصافي بأسقفها المسطحة وقبابها وأبراجها المربعة وتبدو عارية بشكل غريب في الهواء النقي النظيف، وضخمة إلى البعيد قليلًا، حيث الجبال المغطاة بالثلوج، جبال الألب الشبيهة بالنمور. نمور تجوس بين الشمال والجنوب. وهذه المدينة الجميلة الأقرب للناظر ترقد مكشوفة. مشطتها الرياح الثلجية هذا الصباح مثل شوارب نمور جليدية. تلك السابحة في الضياء في الضوء هي نوفارا، نوفارا الفسيحة، الشجاعة، العنيفة. جميلًا كان الهواء الذي لا تشوبه شائبة، وسماء الألب المثالية. ما أشبهها بأول زهرة جنوبية: نوفارا!

جلس آرون يراقب في صمت. ما من صوت سوى حفيف بعض الطيور المضطربة. راقب المدينة والنهر المتعرج والجسور وجبال الألب الشاهقة. كان على الجانب الجنوبي، وعلى الجانب الآخر من الحاجز الزمني. طبيعته الإنجليزية القديمة النائمة أجفلت أثناء نومها. لقد شعر كأنه رجل يعرف أن الوقت قد حان للاستيقاظ، ولا يريد أن يستيقظ لمواجهة مسؤولية يوم مختلف.

أن يفتح عينيه ويستيقظ على مسؤولية جديدة. أن يستيقظ وينوء بمسؤولية الذات الجديدة في نفسه. آه، رعب المسؤولية! لقد نام طوال حياته وترك العبء على الرف. وأراد أن يستمر في النوم. كان من البغيض للغاية أن يضطر إلى السيطرة من نوع جديد على أحشائه، وعلى تهور جديد قاسٍ في قلبه، ووعي جديد ومسؤول في عقله وروحه. لقد شعر ببعض النخس على الأصابع، نخس يحثه على الاستيقاظ من نوم الشفقة والمأساة والعواطف المتشنجة. وكان يتلوى، غير راغب، أوه، غير راغب في تولي العمل الجديد.

لقد هرب، في الحقيقة، مرة أخرى. ألقى نظرة أخيرة على المدينة وجبالها البيضاء، ونزل عبر الحديقة، حول طريق حديقة المطبخ والمرأب والإسطبلات والدجاج، وعاد إلى المنزل مرة أخرى. القاعة لا تزال خالية.

صعـد إلى الطابـق العلوي نحو الصالـة الطويلة. هناك جلـس العقيد، محمر البشرة، أصلع، يشـبه الصبي ليقرأ «المصور»[1]. جلس آرون أمامه، وحاول، دون حماس، أن يفتح معه حديثًا، لكن العقيد لم يكن لديه ما يقوله. كان من الواضح أنه لا يبدي أي اهتمام بهذا الشخص المسمى بالسيد آرون. تجاهله آرون وتشـاغل عنه بتقليب مجلة الملكة[2]. ولكن خادمًا دخل وأخبر العقيد أن «الكولونيلـو» مطلوب على الهاتف من المستشـفى. ومـا إن غادر العقيد حتى لاذ آرون بالفرار مرة أخرى، من الأبواب الأمامية هذه المرة، ونزل عبر الحديقة الصغيرة الشديدة الانحدار حتى البوابات.

تقدمـت نحوه مجموعـة من كلاب ضخمـة وأخرى صغيـرة. وخرجت حاملة المفاتيح من الكوخ وهي تبتسـم بسـرور شـديد هـذا الصباح. وهكذا وجد نفسـه في الشـارع. قاده الطريق العريض إلى الجسر الكبير الذي تحف بـه مجموعات من تماثيل الأجسـاد الحجريـة العنيفة. كان الرجال والنسـاء يتنقلـون هنا وهناك، ولاحظ لأول مرة صغر الإيطاليين وآنيّتهم في الشـارع. ربما كان اتسـاع الجسر والشارع الكبير الذي تلاه. لكن هذا كان واقع الأمر: بـدا الناس صغارًا بأجسـاد نشـطة منتصبة تتحرك في ضرب مـن العزلة، مثل شـخوص صغيرة فوق مسـرح كبير. وشـعر بأنه يتحرك في الفراغ بينهم. لقد اختفت كل الأجواء الحميمة الشـمالية، وأحس بأنه مغروس في مكان تحيط به فضاءات من كل جانب.

انطلقـت عربات التـرام الصغيرة في الجادة في الضوء السـاطع الجميل. كانـت جميع محلات الحلاقين مشـغولة. نصف أهل نوفاريس كان في تلك اللحظـة مغمـورًا بالرغوة أمام أنظـار الناس. الحلاقة فـي الجنوب. ليس لها معنـى إن لـم تكن أمـام أنظـار الناس. علـى الطـاولات الخارجيـة الصغيرة للمقاهي جلس بضعة أنفار من شـاربي القهوة وراء فناجينهم الفارغة. كانت معظم المتاجر مغلقة. لم يمض سوى القليل مذ وضعت الحرب أوزارها فلم

المصور The Graphic جريدة إنكليزية أسبوعية مصورة صدرت بين عامي 1869 و1932.

2- The Queen مجلة إنكليزية صدرت عام 1862 وكانت تهتم بشؤون البلاط والمجتمع الأرستقراطي.

تعد الحياة بعد إلى إيقاعها السريع. كان الشعور بالفراغ والإهمال ونقص الإمدادات واضحًا في كل مكان.

مشى آرون، وتفاجأ بإحساسه الباسل بالحرية: إحساس بالتهور يقترب من اللامبالاة المختالة التي هي أفضل هدية تقدمها إيطاليا للرجل الإنجليزي. لقد تجاوز الخط الفاصل، وكانت قيم الحياة، على الرغم من تشابهها الظاهري واللفظي، مختلفة ديناميكيًا. ومع ذلك، للأسف، فإن اللفظي والظاهري والمثالية الميكانيكية اللعينة تفوز يومًا بعد يوم على ديناميكية الحياة العفوية، بحيث تصبح إيطاليا أسيرة الفكرة وميكانيكية مثل إنجلترا: مجرد عرض عمل.

حين بلغ المحطة دخل إليها. وهناك رأى نافذة صرافة مفتوحة فدفع ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات وحصل على مائتين وعشر ليرات. هنا كانت البداية. في كشك الكتب رأى رجلًا يشتري جدولًا كبيرًا لمواعيد القطارات به خريطة كبيرة للسكك الحديدية فاشترى واحدًا على الفور ثم ركن إلى زاوية ليستدل على مكانه.

عليه أن يتحرك في الصباح، لكن إلى أين؟ نظر في الخريطة. يبدو أنها تقدم بديلين، ميلان وجنوا. اختار ميلان بسبب جمعياتها الموسيقية وكاتدرائيتها. ثم ميلانو. تجول في المكان، ورأى ألواحًا تعلن عن الوصول والمغادرة واستطاع أن يفهم أن القطار المتجه إلى ميلان قد غادر في الساعة التاسعة صباحًا.

بعد إنجازه هذا غادر الخان المهجور الكبير المقفر للمحطة. كان الجنود يخيمون في كل زاوية وهم نائمون في أكوام في زيهم الرمادي والأخضر. فوجئ بأطرافهم القوية وقاماتهم القصيرة الموحدة الطول. ورأى للمرة الأولى قبعات البيرساغلييري المزينة بريش الديك[1]. يبدو أن هناك نوعًا جديدًا من الحياة في كل مكان؛ عوالم كثيرة وليس عالمًا واحدًا. لكن العالم الواحد يواصل، ويا للأسف، انتصاراته على العوالم المتعددة، والأحادية

البيرساغلييري: صنف من الرماة ضمن قوات المشاة الإيطالية تأسس عام 1835 وتميز أفرادها بارتداء الخوذ والقبعات المزينة بريش الديوك.

الهائلة تبتلع العديد من الاختلافات الصغيرة بشهيتها القاضمة التي لا تشبع، تاركة العالم بأرجائه في تماثل كئيب، الأمر الذي لا يعني في النهاية سوى العقم التام.

لكن آرون كان جديدًا على الغربة، ولم يكن يرى التشابه الرهيب الذي ينتشر مثل المرض فوق إيطاليا قادمًا من إنجلترا والشمال. اندفع نحو الفسحة التي تقابل المحطة ثم اتخذ شارعًا جديدًا واسعًا. واندهش وهو يرى نفسه راكضًا نحو تمثال كبير ومليء بالحيوية انتصب بحزم مولياً ظهره إلى القباب الثلجية الرائعة لجبال الألب الوحشية. ما كان لذئاب تعرض له على قارعة الطريق أن تخيفه أكثر من تلك الجبال الثلجية الرائعة المتلألئة في نهاية الشارع، خلف التمثال. وقف متعجباً ولم يفكر قط في البحث عمن يكون هذا الرجل المحترم. ثم استدار يمينًا، وأخذ يمشي صوب المنزل.

كان موعد الغداء في الساعة الواحدة. وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف عندما قرع جرس بوابات النزل. صعد عبر أوراق الحديقة الصغيرة على طريق جانبي، على مضض إلى حد ما. في القاعة كانت الليدي فرانكس تناقش مع آرثر وضع كلبة البكيني السمين الذي لا يبدو جيدًا. كانت متأكدة من أن الخدم لم يطيعوا أوامرها المتعلقة بالكلبة البكينية، فيما أكد لها آرثر، الذي لم يخف اهتمامه بالأمر، أنهم فعلوا ذلك. لكنها بدت كأنها تعتقد أن ذكور الجنس البشري برمته متحالفون ضد هذه العينة البائسة التي تمثلها كلبتها. كادت تبكي، معتقدة أن كويني ربما تلقت كلمة أو نظرة قاسية. يبدو أن كويني قد غذيت وسمّنت على الكراهية السرية لذكور الجنس البشري.

قالت لآرون:

- «لا أستطيع أن أتحمل التفكير في أن مخلوقًا أبكم يمكن أن يتعرض لسوء المعاملة. أحمد الله على أن الإيطاليين أفضل مما كانوا عليه من قبل»

- «هل هم أفضل مما كانوا عليه من قبل؟»

- «أوه، كثيرًا. لقد تعلموا ذلك منا».

ثم استفسرت عما إذا كان ضيفها قد نام، وإذا كان قد استراح من رحلته. أجاب آرون، الذي رسمت الرياح الثلجية الخافتة والشمس وهجًا على

وجهـه بأنه نـام جيدًا واسـتمتع بالصباح، شـكرًا لك. عندئذ عقـدت الليدي فرانكس حاجبيها وقالت إن السير ويليام كان قد قضى ليلة بالغة السوء؛ ولـم يكـن قادرًا على النوم، وقام وتجول فـي الغرفة. عليه أن يتجنب أية إثارة لئلا تسبب انهياره. يجب أن يتمتع بالهدوء والراحة المطلقة.

– «آرون يا ولدي. هذه إشارة لك ولثرثرتك الليلة الماضية!» قال بطلنا لنفسه. ثم قال بصوت عالٍ:

– «اعتقدت أن السير ويليام بدا مليئًا بالحياة والطاقة».

– «آه، هل فعلت! كلا، إنه يريد أن يكون كذلك، لكنه لا يستطيع. كان مستاء جدًا هذا الصباح. لقد كنت شديدة القلق بشأنه».

– «أنا آسف لسماع هذا»

غـادرت الليـدي فرانكس للقيام ببعـض الواجبات. جلـس آرون وحده أمـام النار. كانـت مدفأة ضخمة، مثل حجرة مظلمة مسـدودة ببوابات طويلة مصنوعـة بدقة مـن الحديد. خلف هـذه البوابـات الحديديـة المصنوعة من الحديـد الملتـوي تحتـرق جذوع الأشـجار وتومض مثـل فهـود نائمة ترفع رؤوسـها داخل قفصها. تسـاءل آرون عمن يحرس هـذا العنصر المتوحش، ومن ذا الذي سـيفتح المشـبك الحديدي ويلقي بقطعة الحطـب التالية، كما اللحـم على الأسـود. كانت النـار هناك من أجـل النظر إليها فحسـب، مثلها مثـل الوحوش البرية في حديقـة الحيوان. لأن المنزل كان دافئًا من السـقف إلـى الأرض. كان مـن الغريـب رؤيـة الأثيـر الأزرق لضـوء الشـمس فـي الخارج، والأوراق ذات الحواف الصفراء وهي تتسـاقط في الريح، والزهور الحمراء وهي تهتز.

دق جـرس التنبيـه بهـدوء عبر المنـزل. دخل العقيـد متحمسًـا قادمًا من الحديقـة، لكنـه لم يتكلم مـع آرون. وجـاء الرائـد وزوجته الفاتـران نازلين الـدرج. وظهرت الليدي فرانكس وهي تتحدث عن بعض الشـؤون المنزلية مـع زوجـة آرثر الحسـن التغذية الذي كان ينـزل الدرج متصرفًـا كأنه في بيته تقريبًـا. ثـم نزل السـير ويليام، الذي بدا عجـوزًا واهنًا في هـذا الصباح، لكنه رغم ارتعاشـه تقدم نحو آرون بحرارة وسـأله عن حاله وكيف قضى صباحه.

هذا العجوز الذي جمع ثروة طائلة: ما أسرع ما نال التبجيل والتكريم اللذين كان يتوقعهما! إن التكريم والتبجيل، مثلهما مثل معظم الأشياء، هما مجرد تقليد وخدعة اجتماعية. وها هو آرون يجد نفسه يبجل مثلهم الرجل العجوز الذي جمع ثروة طائلة، لكنه كان ينتظر بالمقابل قدراً معيناً من التكريم من الرجل العجوز الذي جمع ثروة.، وقد حصل عليه أيضًا. ولكن على أي أساس؟ ربما بسبب شبابه، لكن في الغالب بسبب ازدرائه للثروات والسعي لصنعها. ولكن هل استهزأ حقًّا بالثروات وصنعها؟ كلا، إلا هو. ولكن من أين هذا التكريم للعجوز ذي المال الكثير؟ إن آرون، مثل أي شخص آخر، اعتراه الشلل بسبب مليون جنيه إسترليني متجسدة في هيئة رجل عجوز. إنه مشلول، مفتون، مقهور. الثلاثة معًا. لكنه لا يفتقر إلا لاستجماع عزيمته، لم يستطع دفع نفسه إلى جني المال أو حتى اكتساب عادة امتلاك المال. وكان لديه ما يكفي من الذكاء لتهديد مَلك السير ويليام الذهبي بملكته العاجية وفرسان الحياة العنيدين. وها هو السير وليم يأخذ بالترنح.[1]

- «حسنًا، وكيف قضيت صباحك؟» سأل المضيف.

- «ذهبت أولًا لألقي نظرة على الحديقة»

- «آه، ليس فيها الكثير لتراه الآن. لقد كانت تزهو بزهورها الجميلة في وقت ما، لكن المنزل ظل لمدة عامين ونصف العام مستشفى للضباط -وحتى مخيمًا يحتل المنتزه والحديقة لما يصل إلى مائتي جريح ومريض في وقت واحد. نحن ابتدأنا للتو بالعودة إلى الحياة المدنية، والزهور تحتاج إلى وقت. نعم- نعم -ضباط بريطانيون- لمدة عامين ونصف. لكن هل صعدت إلى البلفَدير؟»[2]

- «في الأعلى حيث الكروم؟ لم أتوقع قط رؤية الجبال».

- «لم تتوقع رؤية الجبال؟ عجباً، ولم لا؟ إنها هناك منذ الأزل!»

1- إشارات من لعبة الشطرنج. الملكة هي قطعة الوزير عند الشرقيين والفارس هو الحصان.

2- كلمة إيطالية الأصل تعني مبنى في مكان مرتفع مفتوح الجوانب عادة ويطل على مناظر جميلة.

- «لكنني لم أكن هناك من قبل. لم أكن أعرف قط أنها هناك، محيطة بالمدينة. لم أكن أتوقع شيئًا من هذا القبيل»

- «آه! وهل وجدت مدينتنا مثيرة للإعجاب؟»

- «جدًا! آه جدًا! إنها عالم جديد بالنسبة لي. أشعر بأنني صرت إنسانًا آخر».

- «نعم، إنه مشهد رائع -مشهد رائع- لكنك لم تذهب إلى المدينة نفسها؟»

- «نعم. رأيت الرجال يحلقون وجميع جنود المخفر: وتمثالاً وجبالاً من خلفه. أوه، لقد أمضيت صباحًا كاملًا».

- «صباحًا كاملًا! هذا جيد، هذا جيد!» نظر العجوز مرة أخرى إلى الشاب، وبدا أنه يستمد منه الحياة، ليعيش فيه مثل جسد بديل.

قالت المضيفة:

- «تفضلوا للغداء»

جلس آرون مرة أخرى على يسار المضيفة. الآن وقد حان وقت الطعام كان العقيد أكثر لطفًا ودماثة. وعاد السير وليم مرة أخرى إلى مزاجه الرائق الفكه، حيث كان يمازح السيدات الشابات بفروسية رجل عجوز، لكنه أصر الآن على جذب آرون إلى المسرحية. غير أن آرون لا يريد أن ينجذب إليها. لم يكن راغبًا البتة في ممازحة الشابات. بينه وبين السير ويليام كان هناك تنافس مثير للفضول -غير واعٍ على كلا الجانبين. كان الفارس العجوز قد كرس طبيعته النشطة المغامرة والفنية تقريبًا لتكوين ثروته وتطوير الأعمال الخيرية اللاحقة. الأعمال الخيرية. لم يكن لديه أطفال. في حين كان آرون يكرس طبيعة مماثلة لأي شيء سوى تكوين الثروة والعمل الخيري. أحدهما اعتبر أن الحياة عبارة عن تخزين للمنتجات والحفاظ على الطاقة: والآخر اعتبر الحياة مجرد إنفاق للطاقة وعدم تخزين شيء سوى الخبرة. وها هما الآن، الرجل العجوز والشاب، في موقفين متعارضين تمامًا. استمر السير ويليام في حث آرون على الانضمام للحديث الدائر في الطرف الآخر من الطاولة، وظل آرون يرفض الانضمام. كان، على أية حال، يكره أن يجيب من

مسافات طويلة. وفي مزاجه السائد كان يكره الفتيات. أجرى محادثة مع آرثر حول التماثيل، التي لا يعرف عنها شيئًا، ويعرف عنها آرثر أقل من اللاشيء. ثم حولت الليدي فرانكس المحادثة إلى الجنود في المحطة، وروت كيف قام السير ويليام بتجهيز أكواخ للراحة للعسكريين الإيطاليين بالقرب من المحطة وكيف تسببت غيرة وحقد الصليب الأحمر الإيطالي – أو هيئة محلية مشابهة –في ترك أكواخ السير ويليام فارغة، منتصبة غير مستخدمة– بينما ينام الرجال على أرض المحطة الحجرية، ليلة بعد أخرى، في برد الشتاء الجليدي. كان واضحاً أن العمل الخيري للسير وليم قد ولّد قدرًا كبيرًا من المشاعر المريرة. وبدا أن عسل الأعمال الخيرية الباذخة قد تحول هو الآخر إلى علقم في الفم الإيطالي: الفم الرسمي على الأقل، علقم أعاد بصقه على المؤسسة الخيرية، مما تسبب في حزنه الشديد. إنه في الحقيقة عالم صعب، خاصة عندما تتعامل مع عرق غريب.

ثم جاء دور لفائف لحم البقر المحشية.

قالت الليدي فرانكس:

– «أوه، يا للحلم المروع الذي رأيتُه الليلة الماضية، يا له من حلم. لم أستطع التخلص من الاضطراب الذي سببه لي طوال اليوم».

– «إذا كان؟» قال آرون. «قلها، وكسرها».

قالت مضيفته: «لماذا»، «حلمت أنني كنت نائمة في غرفتي –تمامًا كما كنت في الواقع– وأنه كان ليلًا، ولكن مع نوع رهيب من الضوء، مثل الضوء الميت قبل الفجر، بحيث يمكن للمرء أن يرى. وجاءت خادمتي جوزيبينا ركضت إلى غرفتي قائلة: ‹Signora! Signora! سي ألزا! سوبيتو! Signora! Vengono su!› –وقلت، تشي؟ تشي سونو تشي فينغونو؟ تشي؟– ‹أنا نوفاريسي! أنا Novaresi vengono su. Vengono qui!› – نهضت من السرير وذهبت إلى النافذة. وكانوا هناك، في الضوء الميت، يندفعون إلى المنزل عبر الأشجار. كان الأمر فظيعًا للغاية، ولم أتمكن من نسيانه طوال اليوم».

قال آرون: «قولي لي ما هي الكلمات في اللغة الإنجليزية».

قالت: حسنًا، انهضوا، انهضوا. النوفاريون، شعب نوفارا قادمون. إنهم قادمون. شعب نوفارا – شعب العمل. لا أستطيع أن أنسى ذلك. لقد كان حقيقيًا جدًا، ولا أصدق أنه لم يحدث بالفعل»

قال آرون:

– «آه. هذا لن يحدث أبدًا. أعلم أن كل ما يتوقعه المرء ويشعر بحدوثه لا يحدث أبدًا في الحياة الواقعية. إنها بنفسها نوعًا ما تعمل من خلال تخيلها»

قالت مضيفته:

– «حسنًا، لقد كان الأمر أكثر واقعية بالنسبة لي من الحياة الواقعية»

– «إذن لن يحدث ذلك أبدًا في الحياة الواقعية»

انتهى الغداء وشرب القهوة وبدأت الحفلة بالتفرق: الليدي فرانكس للرد على المزيد من الرسائل بمساعدة زوجة آرثر. ذهب البعض لينام والبعض الآخر ليتمشى. هرب آرون مرة أخرى عبر البوابات الكبيرة. وأدار ظهره هذه المرة للبلدة والجبال وارتقى التل إلى الريف. فتنقل بين الضفاف والشجيرات، يراقب النباتات والشجيرات المجهولة ويسمع الطيور ويشعر بتأثير التربة الجديدة. في الجزء العلوي من التل رأى كروم العنب، وواديًا غريبًا جديدًا به نهر متعرج وتلال متشابكة. ريف غريب جدًا بالقرب من المدينة. يبدو أنه يحافظ على همجية شبه عذراء، ومع ذلك فقد رأى البيوت البيضاء منتشرة هنا وهناك.

أسفله مباشرة ثمة بيت ريفي، وفلاحان في قمصان بيضاء ذات أكمام وبدلات سوداء جالسان في رواق مسقوف تحت أشعة الشمس ليحتسيا النبيذ وهما يثرثران ويثرثران. ثمة شباب من الفلاحين يرتدون قبعات سوداء، وحبيبات يرتدين فساتين داكنة اللون لا يضعن قبعات، بل أوشحة من حرير أسود أو أبيض، يمرون ببطء على طول الطريق الصغير أسفل التلال مباشرةً. لم يتطلع أحد للأعلى لرؤيته جالسًا هناك بمفرده. ومن مكان ما مخفي كان هناك شخص يعزف على آلة الأوكرديون ويعكر سكون تلك الظهيرة بصوته المتشنج. وبعيدًا عن ذلك امتد الوادي الغامض الذي لا يتغير وتلال إيطاليا الغامضة الملتفة.

عندما رجع عبر طريق آخر وجد نفسه تائهًا عند سفح التل في شوارع الضواحي الجديدة والمهجورة: منازل غير مكتملة في شوارع غير مكتملة، ثم شارع مشجَّر عريض تتنزه فيه العائلات البرجوازية في ظهيرة يوم الأحد: آباء بدينون، وأمهات بدينات شاحبات يرتدين فراء أسود رخيصًا، وفتيات صغيرات يرتدين ملابس أنيقة، وفتيان طوال يرتدون جوارب قصيرة وقبعات بحارة مستديرة بأشرطة مرفرفة. إنهم يشعرون بأنهم غرباء، غرباء، غرباء، كما يشعر دائمًا أي حشد من البرجوازيين، حشد برجوازي أجنبي بشكل خاص، حشد برجوازي يرتدي أفضل ما لديه في يوم أحد. سار آرون وسار، حتى وجد محطة الترام وجرب شارعًا فارغًا غير مكتمل بعد شارع. وهو عازف عن سؤال أحد عن الطريق.

وأخيراً اهتدى إلى الضفة وجدول المياه الصغير الذي يجري على جانب الشارع. ونجح بذلك في العودة في الوقت المناسب لتناول الشاي. كانت ممرضة المستشفى هناك، وامرأتان غريبتان أخريان. لعب آرثر دور المضيف. عاد السير ويليام من نزهة مع الكلاب، لكنه انسحب إلى غرفته دون شرب الشاي.

وهكذا حل المساء. جلس آرون في القاعة على مسافة من النار المشتعلة خلف حاجزها الحديدي. لقد كان متعبًا ومحبطًا من كل النواحي. كان يفكر في زوجته وأطفاله في المنزل: في أجراس الكنيسة التي تدق بصوت عالٍ عبر الحقل خلف حديقته: في الناس ذوي الملابس السوداء الذين يدبّون دون انتظام عبر مسارين، واحد إلى اليسار والآخر إلى اليمين، متفرقين صوب بيوت المدينة، إلى الكاتدرائيات أحيانًا والكنائس الصغيرة في الغالب. وكان هو نفسه يرتدي أفضل ملابسه، ويضع ربطة عنقه الفراشية، ويستعد للخروج إلى الحانة. وستكون زوجته مستاءة من خروجه في يوم العطلة، وتركها مع الأطفال.

كان متعبًا ومحبطًا في هذا المكان الغريب، وتساءل عما إذا كان يتمنى أن يعود. لكن في اللحظة التي تخيل فيها نفسه في البيت، وشعر بتوتر العقم الذي يعنيه، أحس بالمعارضة الغريبة والمميتة ما بين إرادة زوجته وطبيعته، والألم المقزز الذي يصل إلى حد الغثيان، تمالك نفسه وابتهج مرة أخرى في

محيطـه الجديد. إرادتهـا، إرادتها، إرادتها الرهيبة العنيـدة الماكرة، الماكرة! تسـاءل في نفسـه: مـا الذي يوجد فـي إرادة الأنثى الشـيطانية إلـى هذا الحد بحيث يمكنها أن تضغط مثل صفيحة مسطحة من الحديد على الرجل طوال الوقـت؟ إرادة الأنثـى! لقد أدرك الآن أنه كان يشـعر بالرعـب من ذلك. لقد كانت مسطحة وغير مرنة مثل صفيحة من الحديد، لكنها أيضًا ماكرة كالثعبان الذي يستطيع أن ينشد أغنيات غادرة.

كان يذكِّر نفســه دائمًا بشخصين وصلا إلى طريق مسدود، ما من شخص واحد يتحمل الخطأ وحده بالكامل. كلاهما يجب أن يكونا على خطأ. ونظرًا لأنـه يتمتـع بروح منفصلة ومنطقية، فإنه لا يسـمح لنفسـه أبدًا أن ينسـى هذه الحقيقة. خذ لوتي على سـبيل المثال! لقد أحبها، ولم يحب أي امرأة أخرى قط. إذا كان لديه شـؤونه الأخرى، فقد كان ذلك بدافع الحقد أو التحدي أو الفضـول. لم يقصدا شـيئًا. لقد أحب هـو ولوتي بعضهما بعضًـا. وقد تطور الحب على الفور تقريبًا إلى نوع من الصراع. كانت لوتي هي الطفلة الوحيدة لوالدين عنيدين وميسـورين. كما أنه كان الطفل الوحيد لأمه الأرملة. حسنًا، لقد نشأ هو ولوتي على اعتبار نفسيهما الأولين في أي شراكة وجدا نفسيهما فيها. خلال الأشـهر الأولى من الزواج، واصل بالطبع تدليل زوجته الشـابة. لكـن هذا لـم يغير قط حقيقـة أنه، بطبيعتـه، كان يعتبر نفسـه الأول والأوحد فـي أي علاقـة تقريبًا. إنه المتفرد والأول، وعلى هذا النحو كان يطيق نفسـه. لقـد اسـتغرق الأمر سـنوات ليدرك أن لوتي شـعرت بنفسـها أيضًـا وحيدة: كانت هناك تحت كل حنقها وتقلب نزواتها قناعة راسـخة مثل الفولاذ بأنها، كامرأة، كانت مركز الخليقة، وكان الرجل مجرد مساعد.

إنهـا كامـرأة، وخاصـة كأم، كانـت المصـدر العظيـم الأول للحيـاة والوجود، وكذلك للثقافة. ولـم يكن الرجل سـوى الأداة والنهاية. لقد كانت المصدر والجوهر.

من المؤكد أن لوتي لـم تقم قط بصياغة هذا الاعتقاد داخل نفسـها، لكنها صيغـت لها فـي العالم كله. إنه الإيمـان الجوهري والمُعلـن للعالم الأبيض بأكملـه. لم تفعل شـيئًا سـوى أن تمثل حتمًا مـا أكده العالـم كلـه من حولها: مركزية حياة المرأة. المرأة، حاملة الحياة، مصدر الحياة.

يوافـق جميـع الرجال تقريبًا علـى هذا التأكيد. من الناحيـة العملية يوافق جميـع الرجـال، حتى عندمـا يطالبـون بحقوقهـم الأنانية كذكـور متفوقين، يوافقـون ضمنـًا على حقيقة الأولوية المقدسـة للمرأة الحاملـة للحياة. إنهم يستسـلمون ضمنيًا لعبادة الأنثـى. إنهم يتآمرون ضمنيًـا للاتفاق على أن كل مـا هو منتـج وكل ما هو جيد وحسـاس ونبيل هـو المرأة. هذا مـا يؤمنون به فـي نفوسـهم المنتجـة والدينية. ومهمـا كان رد فعلهم ضد هـذا المعتقد، أو كراهيتهم لنسائهم، أو ركضهم إلى البغايا أو البيرة أو أي شيء، كرد فعل ضد هـذه العقيدة العظيمة والمخزية التي تمنح الأولوية المقدسـة للنسـاء، فإنهم لا يتوقفـون عـن الكفر بالإله الـذي يعبدونه. إنهم يكفـرون بالمرأة لكنهم ما زالوا يعبدونها.

ولكـن بذرة أخرى كانت قد زرعت في آرون دون أن يعرف. لقد بدأ على المسـار القديم الجيد، وهو عبادة امرأته عندما يكـون قلبه صادقًا، والكفر بها في نوبات غضبه وتمرده. لكنه أخفق في أدائه. لقد وُلد وفيه روح لا تسـتطيع أن تعبد المرأة: لا تسـتطيع ولا تريد. لـم يكن هذا في طبعه. في الأيام الأولى حـاول التظاهـر بعكس ذلك، ولكنه في ثنايا حبه الكئيـب وما يظهره من ولاء صادر عن زوج شاب، كانت تتضح للمرأة على الدوام، غطرسة الذكر العنيد. لم يستسـلم قط، قط. كل حبه المجنون كان مجرد محاولة يبذلها. ثم غدا بعد ذلك، متمردًا حرونًا كما كان دائمًا. كانت غريزتها تخبرها أن زوجها يجب أن يخضع لها، حتى تغلفه مستسـلمًا بحبها المحسن الرحيم. كانت متأكدة تمامًا من أن حبها كان محسنًا وكريمًا. ما سبيل إلى الشك في هذا. لقد كانت متأكدة تمامًـا مـن أن أعلى ما يمكن لزوجها أن يعرفه أو يصـل إليه على الإطلاق هو أن يكـون مغلفًا تمامًا بحبها المطلق. تلك كانت فكرتها عن الزواج. لكنها لـم تعتبرهـا فكرة، بل دافعًا وغريزة عميقة: غريزة تطـورت فيها مع تقدم عمرها. وكان كل ما هو عميق ومقدس في شعورها متمركزًا في هذا الإيمان.

وأسـاء إليها! آه، من أول يوم وأول ليلة أحسـت بأنه يسيء إليها. صحيح أنهـا كانـت قد انخدعت بحبه الظاهر لبعض الوقت. ولكنك لا تسـتطيع أبدًا خـداع الغريـزة العميقة اللاواعية علـى الرغم من قدرتك علـى خداع العقل الواعي. لم تسـتطع قط أن تفهـم، منذ الأيام الأولى لزواجهـا تقريبًا، من أين

نشـأت فيها نوبات الكراهية الرهيبة تجاهه. لقـد كانت تحبه: آه، يا إلهي، كم كانـت تحبه بجنون: كان له جمال معين لا يمكن السـيطرة عليه، جمال فتنها كما يفعل الثعبان بالطائر. لكن كم كانت تكرهه في ساعات تغيرها! كم كانت تشمئز منه! كم احتقرته وارتجفت منه! لقد بدا لها شيئًا فظيعًا.

ثـم يا إلهي! ها هـي تعود مرة أخرى إلى الألـم المبرح لرغبتها فيه. عذاب رغبتها الطويلة فيه. لقد كان عاشـقًا مشـبوب العاطفة. لقـد أعطاها، ظاهريًا، كل مـا طلبتـه. لم يحجـب عنها شـيئًا ولا خبرة ولا درجة مـن المودة. كانت مكرسة له أو كان مكرسًا.

ومع ذلك، يا لرعب المرأة، لقد حجب عنها كل شـيء. لقد حجب مركز نفسـه. لفتـرة طويلة، لـم تدرك ذلك قط. لقـد كانت في حالـة ذهول وجنون فقـط. ولكن، مع تحول أشـهر من الخبـرة الزوجية إلى سـنوات من العذاب الزوجي، بدأت تفهم الأمر. لقد حدث ذلك بعد عاطفتهما الهائلة التي كادت تشـق السـماء. نعم، عندما بدا لها كل حجاب ممزقًا وغطـى الظلام الخلاق الرهيـب والمقـدس الأرض -ثـم- بعد كل هـذه المعجزة - تسـلل ثعبان رمـادي سـام من خيبة الأمـل، ثعبان رمادي سـام من خيبة الأمـل عضها إلى حد الجنون، حتى إنها غدت حقًا امرأة مجنونة، مجنونة.

لماذا؟ لماذا؟ لم يسـلم نفسـه قط. لم يأت إليها حقًا. لقد حجب نفسـه. نعـم، فـي تلـك الأوقات السـامية والمقدسـة التـي كانت بالنسـبة لهـا ذروة الحياة والوجود ونشـوة الارتباط العاطفي الذي لا يوصف، لم يمنحها نفسه حقًا. لقد كان محجوبًا. لقد حجب الجوهر المركزي لنفسـه، مثل الشـيطان وعفريـت الجحيـم. لقد خـدع وتلاعـب بروحها العاطفيـة الهائلة، شـغفها الجنسـي المقدس، وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة. طوال الوقت، كان جزء مركزي منه يقف إلى الجانب، بعيدًا عنها، ويكتفي بالنظر.

آه يا للعذاب والرعب اللذين تقاسـيهما امرأة عاطفية شرسـة القلب! هي التـي أحبته، هي التـي أحبته إلى الجنون. هي التي كانت سـتموت من أجله. هـي التـي ماتت بين ذراعيـه، ذراعي زوجها، فـي كثير من الميتـات الزوجية الرهيبة الرائعة.

زوجها! كـم غدت الكلمـة مريرة بالنسـبة لها! زوجها! وهـو لـم يمنحها نفسه بالكامل ولو مرة واحدة. زوجها! وهي التي لـم تستحوذ عليه مرةً بشكل كامل رغم رغبتها المسعورة المطلقة. لا، ولا مرة واحدة. ومع مرور الوقت، تعلمت ذلك بشكل لا مفر منه. ولا مرة واحدة!

ثـم انظر كيـف كرهته! كيف خادعت، أُحبطت، خانـت، أُجبرت على أن تحبه أو تكرهه: دون أن تتمكن أبدًا من أن تنعم بالسـلام بالقرب منه أو بعيدًا عنه: لوتي المسـكينة، لا عجب أنها كانت مثل امرأة مجنونة. لقد غدت مثل امرأة مجنونة تمامًا بعد ولادة طفلتها الثانية. لأن كل غريزتها، وكل اندفاعها، وكل رغبتهـا، وفوق كل شـيء، كل إرادتها، كانت تهـدف إلى امتلاك رجلها بالكامـل مرة واحدة: مرة واحدة فقط: ومـرة واحدة وإلى الأبد. مرة واحدة، مرة واحدة فقط: وستكون مرة واحدة وإلى الأبد.

لكـن أبدًا! أبـدًا! ولا لمرة واحدة! أبـدًا! ولا لثانية واحـدة! ألم يكن هذا كافيًـا لأن يصيـب امـرأة بالجنون! ألـم يكن ذلـك كافيًا ليخـل بعقلها! نعم، وكانـت غاضبة. لقـد أحال حياته إلى جحيم. لقد عضتـه حتى العظم بجنون الغضـب والكـدر والألـم. لقـد جعلتـه مجنونـًا هو الآخـر: مجنونـًا لدرجة سـحقها، مجنونـًا حتى الرغبة فـي قتلها. ولكن حتى في أشـد حالات غضبه كان الأمر هو نفسـه: لم يفقد السـيطرة على نفسـه قط: لقد ظل، في مكان ما في المركز، متحكمًا بنفسـه. وكانت تتمنى أحيانًا أن يقتلها: أو أن تقتله. ولـم يحدث أي من الأمرين.

لـم يفهم أي منهمـا ما كان يحدث. وكيـف لهما أن يفهمـا؟ كانا كلاهما فـي حالة ذهـول، مذعورين، ومكللين بالعار. لقد اعتـاد على تركها بمفردها قـدر الإمكان. ولكن عندما كان عليه أن يعود إلى البيت، كانت تنظره إرادتها الرهيبة، مثل ثعبان منبطح بارد ملتف حول روحه ويضغط عليه حتى الموت. نعم، لم تلن. لقد كانت زوجة وأمًا صالحة. لقد قامت بجميع واجباتها. لكنها لـم تكن ممن يستسـلمون. يجب عليه هو أن يستسـلم. هذا مـا كُتب بأحرف أبديـة على لـوح إرادتهـا الحديدي. يجب عليه أن يستسـلم. إنهـا المرأة، أم بناته، كيف لها أن تفكر في الاستسلام؟ إنه أمر غير وارد. هو الرجل الضعيف الـكاذب الغـادر الفاتـر، هو من يجب أن يستسـلم. أليسـت صاحبـة الإرادة

الإلهية والحق الإلهي؟ ها، ستكون أقل من امرأة إذا استسلمت وتخلت عن مسؤوليتها الإلهية كامرأة! لا، يجب عليه هو أن يستسلم.

وهكذا لم يعد يخلص لها. وإذ راكم على نفسه عارًا تلو الآخر، أضاف الزنا إلى وحشيته. وكانت هذه بداية النهاية. كانت أكثر من غاضبة: لكنه بدأ يصمت، لا يستجيب، كأنه لا يسمعها. لم يخلص لها: وأه، من طريقته الدنيئة في فعل ذلك. يا لهذا العار، يا لهذا العار! لكنه صار يكتفي الآن بالابتسام بلا مبالاة وسؤالها عما تريد. كانت قد طلبت كل ما حصلت عليه، وهذا ما أعاد تأكيده. وكان هذا كل ما سيفعله.

وكان فظيعًا أنها وجدت حتى ابتسامته اللامبالية الوقحة نصف جميلة. أوه، إنها لسلسلة عسيرة الاحتمال! لكنها استجمعت كل إرادة المرأة الغريبة لديها. لقد حاربت ضد سحره، السحر الذي مارسه عليها. وبجهود إرادتها الخائفة، حاربت ضدها، وسيطرت عليها. وبعد ذلك، يغمرها الرعب والألم وهي ترى من جديد فورة رغبتها التي لا تطاق تجاهه، وشوقها إلى وصاله، إلى جماله الآسر.

إنه لصليب يشق حمله، لكنها تحملت ودربت نفسها على أسلوب اللامبالاة المزعج الفظ. إن غضبها غريب الأطوار يخفي إرادة كان هو وحده يعرف أنها أقوى من الفولاذ، قوية مثل ثعبان رمادي شيطاني بارد يضغط ويضغط ولا يستطيع الاسترخاء: لا، لا يستطيع الاسترخاء. أصبحت مثله. حتى في لحظات رغبتها الشديدة تجاهه، لم يكن توترها البارد الشبيه بالثعبان ليهدأ قط، ولم تكن عين نيتها الباردة الشبيهة بالثعبان لتنغلق قط.

وهكذا، حتى وصلت الأمور إلى طريق مسدود. كانت إرادة كل منهما متوترة وثابتة. ثابتة! دون استرخاء أو زيادة في الضغط. ثابتة! قاسية مثل تنمل ينتاب الجسد، مثل قبضة ما فتئت تتصلب وتستحيل إلى حجر.

لقد أدرك بطريقة ما، أنها ستهزمه في هذه اللعبة السلبية الرهيبة ذات التوتر المستمر، وأن روحها الأنثوية الثابتة، وإرادتها الأنثوية المجروحة ستتصلبان وتتحولان إلى حجر، في حين أن إرادته يجب أن تنكسر. إن فيه شيئًا يجب أن ينكسر. لقد كان طريقًا مسدودًا باردًا ومميتًا وغير مربح، وأوتوماتيكيةَ

حياة من التوتر المستمر الذي انكسر بداخله فجأة. قفزت إرادته مبتعدة عنها. لقد تركها بنفس الحتمية التي يطير فيها نابض مكسور من ماسكته.

لا يعني ذلك أنه قد كُسِر. لم يكن ليمنحها حتى هذا الفضل. لقد قفز فقط من ماسكته الوسطية القديم، لكن إرادته لا تزال كاملة وبلا هوادة. غير أنه لم يعرف: لم يفهم. كان يتأرجح بعنف من مكان إلى آخر، كما لو كان مكسوراً.

ثم فجأة، في مساء يوم الأحد هذا، في هذا البلد الغريب، أدرك شيئًا عن نفسه. لقد أدرك أنه لم يكن ينوي قط أن يسلم نفسه بالكامل لها أو لأي شيء؛ أن كيانه ذاته يتمحور حول حقيقة مسؤوليته الذاتية المعزولة، حول وحدته. كانت وحدته المتأصلة والمركزية مركزًا لوجوده. اكسره، وستكسر كيانه. اكسر هذه الوحدة المركزية، وستكسر كل شيء. كان استسلامه هو الإغواء العظيم: وكان في ذلك التدنيس الأخير للمقدسات. على أية حال، كان هذا شيئًا لم يكن ينوي القيام به من أعماق روحه. وبعزلة نفسه ووحدتها سيبقى متحملًا حتى لو أطبقت السماء على الأرض وانهارت السماوات السبع.

لقد أدرك هذا بشكل غامض. وأدرك بشكل غامض أن هذا كان السبب الجذري لصراعه مع لوتي: لوتي، الشخص الوحيد الذي كان يهمه على الإطلاق في كل العالم: ربما باستثناء والدته. ولم تكن والدته تهم لا بنصف ولا خمس ما كانت تهمه لوتي. وهكذا كان الأمر: لم يكن لديه في هذا الكون شيء أكثر أهمية منها. ورغم ذلك كانت الأمور بينها وبينه على تلك الحال.

لقد كرهها ببرود وفظاعة للحظة. ثم لا شيء بعدها. لم يكن هناك من حل. كان وضعًا لا حل له. ولكنه أصبح الآن وضعًا محددًا على أية حال. ويمكنه إذن أن يرقد بسلام.

أفكار مثل هذه مرت عبر عقل آرون الباطن بينما هو جالس بسكون في المنزل الغريب. لم يكن بإمكانه إلقاء كل ذلك على مسامع أي شخص مثلما يتلقى هذه الصفحات أي قارئ تصادفه. لكنها كانت هناك، تتصاعد في شبه وعيه. كان، طوال حياته، يكره معرفة ما يشعر به. لقد أبقى عن عمد، إن لم يكن بوعي، فجوة بين روحه العاطفية وعقله المنفتح. إنه يحتفظ في ذهنه

بوصف لطيفٍ لنفسه، ووصفٍ للوتي، ضربٍ من جوازات السفر الموثوقة الأصلية التي يمكن استخدامها في العالم الواعي. لقد أصر على أن تقوم هذه الجوازات الأصيلة التي تضم أوصاف حاملها (الأنف: قصير، الفم: عادي، الخ) بكل مهام الإنسان نفسه. هذه الفكرة الجاهزة الشديدة الابتذال عن نفسه كفرد بالغ اللطف: العيون زرقاء، الأنف قصير، الفم طبيعي، الذقن طبيعي؛ هي ما أصر على أنها نفسه الحقيقية. لقد كانت قناعه الواعي.

وأخيرًا، وبعد سنوات من الصراع، بدا الآن فجأة مثل من أسقط قناعه على الأرض فكسره. جواز سفره الأصيل الذي يصف نفسه، فكرته الكاملة والمرضية عن نفسه أصبحت فجأة قطعة تافهة من الورق. ماذا يهم بحق السماء إذا كان لطيفًا أم لا، إذا كانت ذقنه طبيعية أو غير طبيعية.

لقد سقط قناعه وفكرته عن نفسه وتحطما إلى جذاذات صغيرة. ها هو يجلس هنا غير مرئي وبلا قناع. كان هذا هو ما شعر به على وجه الدقة: إنه غير مرئي وغير محدد، مثل الرجل الخفي في رواية ويلز[1]. لم يعد لديه قناع يقدمه للناس: لقد كان حاضرًا وغير مرئي: لم يتمكنوا حقًّا من أن يظنوا به أي شيء، لأنهم لم يتمكنوا من رؤيته حقًّا. وماذا رأوا عندما نظروا إليه؟ الليدي فرانكس، على سبيل المثال. لم يكن يعرف ولا يهتم. كان يعلم فقط أنه غير مرئي لنفسه وللجميع، وأن كل التفكير في ماهيته هو مجرد لعبة سخيفة من لعبة موت السيدة ماكنزي.

هناك كان آرون سسن القديم كما لو أنه قد تحول بشكل مؤلم، كما حدث للرجل الخفي عندما مر بتحولاته. وها قد رحل الآن ولم يعد يُرى. لقد اختفت القدرة على رؤيته إلى الأبد.

ثم ماذا؟ بجلوسه هناك كحضور غير مرئي ذاب العالم المتصور مسبقًا أيضًا واختفى. الليدي فرانكس، والسير ويليام، وجميع الضيوف، تحدثوا وناوروا بشخصياتهم المرئية، وتلاعبوا بأقنعة أنفسهم. وتحتهم كان هناك

1- الرجل الخفي (The Invisible Man) هي رواية خيال علمي كتبها الروائي والمؤرخ الإنكليزي الشهير هربرت جورج ويلز.

2- Mrs. Mackenzie's Dead لعبة ألغاز.

شيء غير مرئي ومحتضر - شيء يتلاشى ويذبل: البلازما الأساسية لأنفسهم، كينونتهم غير المرئية.

حسنًا الآن وماذا بعد؟ بعد أن سقط بطريقة غريبة من شجرة المعرفة الحديثة، وتشقق وخرج من قشرة الفكرة المسبقة عن نفسه مثلما تخرج حبة كستناء قاتمة لامعة كظلام الليل من الخضرة الظاهرة لغلافها الصلب، رقد على الأرض كما لو كان مكشوفًا ولكن غير مرئي، عارفًا ولكن دون أي إدراك: عارفًا ولكن دون أية فكرة. الآن بعد أن كُشف وزال عنه القناع، تصدعت فكرته المقبولة عن نفسه وتدحرجت جانبًا مثل ثمرة كستناء مكسورة، وتصدع القناع وتشظى، وغدا أخيرًا هادئًا وحرًا. لقد خاف من الانكشاف. لكن انظر: ها نحن لا نُكشف لأننا لا نُرى. لا يمكننا أن نتعرض لنظرات الآخرين، لأن كياننا ذاته اكتسى سوادًا لامعًا كظلمة الليل، وغيرَ مرئي مثل الرجل الخفي الذي لا يمكن الكشف عنه إلا من خلال ملابسه وأقنعته.

أدرك آرون ذلك بطريقته القوية ولكن اللاواعية. لقد كان موسيقيًا، وعليه فإن أعمق أفكاره لم تكن أفكارًا كلامية، ولم تكن أفكاره نفسها مكونة من كلمات ومفاهيم مثالية. وهي أيضًا، أفكاره وتصوراته، كانت مظلمة وغير مرئية، مثلما لا تُرى الذبذبات الكهربائية بغض النظر عن عدد الكلمات التي يمكن استخلاصها منها. إذا كان علي، كمستخدم للكلمات، أن أترجم اهتزازاته الواعية العميقة إلى كلمات محدودة، فهذا شأني الخاص. لا أفعل سوى ترجمة الرجل. كان يتحدث بالموسيقى. أما أنا فبالكلمات.

لقد نقلت الموسيقى غير المسموعة لروحه الواعية كنهه بنفس الوضوح الذي أنقله بالكلمات، بل ربما بوضوح أكبر، لكن بطريقته الخاصة فقط. وبطريقته الخاصة فقط أدرك ما يجب أن أصوغه بالكلمات. هذه الكلمات هي شأني الخاص. أما عقله فكان محض موسيقى.

لا تتذمر مني إذن، أيها القارئ اللطيف، وتقسم لي أن هذا الرجل اللعين لم يكن نصف ذكي بما يكفي للتفكير في كل هذه الأشياء الذكية، وإدراك كل هذه التفاصيل الدقيقة. أنت على حق تمامًا، لم يكن كذلك، ومع ذلك فقد حل كل شيء فيه كما أقول، وعليك أن تثبت أنه لم يحدث ذلك.

كان الجمـع مبتهجًـا واحتفاليًا في سـاعة العشـاء، والنسـاء يرتدين أرقى فسـاتينهن، والزهور الجديـدة وأفضل أنواع النبيذ تفترش المائدة. إنه مسـاء الأحد. كان آرون أيضًا يرتدي ملابس السهرة، أما الليدي فرانكس فقد رفلت فـي الدانتيل الأسـود واللؤلؤ وبدت علـى قدر من المـرح. كان لديهم طيور السـماني للعشـاء. كان العقيد سـعيدًا جدًا. وسـاد جو مـن القصف والمرح حول الطاولة.

قال آرون:

– «آمل أن نستمتع ببعض الموسيقى الليلة»

فقالت مضيفته:

– «أتوق إلى سماع عزفك على الفلوت»

– «وأنا إلى عزفك على البيانو»

– «أنا ضعيفة جدًا، بعيدًا للغاية عن الممارسة. أرتجف من فكرة العزف أمام موسيقي. لكن يجب ألا تكون شديد الانتقاد»

– «أوه، أنا لست رجلًا يُخشى منه»

– «حسنًا، سوف نرى. لكنني أخاف من الموسيقى نفسها»

– «نعم. أعتقد أنها محفوفة بالمخاطر»

– «محفوفة بالمخاطر! أنا لا أرى ذلك! الموسيقى محفوفة بالمخاطر؟ بـاخ؟ بيتهوفـن! لا، أنـا لا أوافقك الـرأي. علـى العكس، أعتقـد أنها الأكثر ارتقـاءً والأكثر إلهاماً مـن الناحية الأخلاقية. لا، أنا أرتعـد أمامها لأنها رائعة وسامية»

– «كثيرًا ما تغمرني بإحساس شيطاني»

قالت الليدي فرانكس:

– «أنـا متأكـدة من أن هذا عائد إلى سـوء حظك. من فضلك خذ قطعة أخرى، لكن ربما لا تحب الفطر؟»

كان آرون يحب الفطر جدًا، فأقبل على الطبق الرئيسي.

قالت:

- «لكن ربما تكون عصريًا جدًا. أنت لا تهتم بباخ أو بيتهوفن أو شوبان، شوبان العزيز»

- «أجدهم جميعًا عصريين تمامًا مثلي»

- «هل هذا صحيح! نعم. أما أنا فمن الطراز القديم، على الرغم من أنني أستطيع أن أقدر شتراوس وسترافينسكي[1] أيضًا، في بعض الأشياء. لكن أشيائي القديمة - آه، لا أعتقد أن الأشياء الحديثة جيدة للغاية. إنهم ليسوا عميقين جدًا. إنهم لم يفهموا الحياة بعمق» تنهدت الليدي فرانكس بصوت ضعيف. وقال آرون:

- «إنهم لا يهتمون بالأعماق»

- «لا، ليست لديهم القدرة. لكنني أحب الموسيقى الجليلة والعميقة. أوه، أنا أحب الأوركسترا. لكن آلتي المفضلة هي البيانو. أنا أحب الأساتذة العظماء، باخ، بيتهوفن. إنهم يملكون مثل هذا الإيمان. لقد كنت تتحدث عن الإيمان، أي الإيمان بأن الأمور ستسير على ما يرام بالنسبة لك في النهاية. بيتهوفن يلهمني ذلك أيضًا»

- «يجعلك تشعرين أن كل شيء سيكون على ما يرام معك أخيرًا؟»

- «نعم، يفعل. إنه يجعلني أشعر بالإيمان بقدري الشخصي. وأشعر أن هناك شيئًا ما في قدر المرء الخاص. أشعر أن لديّ قدرًا من نوع خاص سيعتني بي دائمًا»

- «وهل يمكنك الوثوق به؟»

- «أجل، أستطيع. لقد كان مصيبًا على الدوام. إنك لتظن أن شيئًا ما قد حدث بالخطأ، وبعد ذلك، يتضح لك صوابه. مثلًا، عندما كنا في لندن. عندما كنا نتناول الغداء في صباح أحد الأيام، صُدِما فجأة، ألم أترك عباءتي المصنوعة من الفراء في مكان ما؟ كان الجو باردًا إلى حدٍ ما، لذا أخذتها معي، ثم لم أرتدها قط، ولم أعدها إلى المنزل. لقد تركتها في مكان ما. لكنني لم أستطع أن أتذكر إن كان ذلك في سيارة أجرة، أو في متجر، أو

1- إيغور سترافينسكي (1882-1971) مؤلف موسيقى وقائد أوركسترا روسي.

في معرض الصور الصغير الذي زرته، فقلت في نفسي: هل فقدت عباءتي؟ لقد ذهبت إلى كل مكان يمكن أن أفكر فيه ولم أعثر لها على أثر. لكنني لم أتخل عنها. لقد دفعني شيء ما إلى عدم التخلي عنها: من الواضح تمامًا أنني شعرت بشيء يخبرني أنه يجب علي استعادتها. لذلك اتصلت بسكوتلاند يارد وقدمت لهم المعلومات. حسنًا، بعد يومين تلقيت إشعاراً منهم فذهبت إليهم. وكانت هناك عباءتي. لقد عثروا عليها. وهذا ما حدث لي في كل مرة تقريبًا. أنا أستعيد أغراضي في كل مرة تقريبًا وأشعر دائمًا أن شيئًا ما يعتني بي، هل تعلم: يكاد يرعاني.

– «ولكن هل تقصدين عندما تفقدين الأشياء، أو في حياتك عموماً؟»

– «أعني عندما أخسر أشياء أو عندما أرغب في الحصول على شيء أريده – فأنا على وشك النجاح دائمًا وأشعر على الدوام بأن هناك نوعًا ما من القوة العليا التي تفعل ذلك من أجلي»

– «تجد عباءتك لك»

– «نعم. ألم يكن غير عادي؟ شعرت عندما رأيت عباءتي في سكوتلاند يارد: ها أنت ذي، لقد عرفت أنني سأستعيدك حتمًا. وأشعر دائمًا، كما قلت، بأن هناك قوة عليا تساعدني. هل تشعر بنفس الشعور؟»

– «لا، ليس بهذه الطريقة، حظي أسوأ. لقد فقدت رزمة من المدونات الموسيقية منذ شهر ولم تكن ملكًا لي، ولا يمكنني تعويضها. لكنني لم أتمكن من استعادتها قط، رغم تأكدي من أن أحدًا لا يريدها»

– «كم هو مؤسف! في حين أن عباءتي المصنوعة من الفراء كانت أكثر عرضة للسرقة»

– «تمنيت لو أن قوة ما تتبعت أوراقي الموسيقية. ولكن يبدو أننا لسنا جميعًا موهوبين بنفس القدر بالملائكة الحارسة»

– «كلا على ما يبدو. إنني أفكر بها بهذه الطريقة: باعتبارها هدية تقريبًا، هدية قدمتها لي جنيتي العرابة في مهدي»

– «لاستعادة ممتلكاتك دائمًا؟»

– «نعم، والنجاح في ما أنوي فعله»

- «أظن أنني لم أحظَ بجنية عرابة»

- «حسنًا، أعتقد أنني حظيت بواحدة، وأنا سعيدة جدًا بذلك»

- «آه، نعم» قال آرون وهو ينظر إلى مضيفته.

وهكذا مضى العشاء في مرح. وبعد قليل قال آرون:

- «لكن هل يجعلك بيتهوفن تشعرين بنفس الطريقة - بأنك ستجدين دائمًا كل شيء تفقدينه؟»

- «نعم، إنه يجعلني أشعر بنفس الإيمان: بأن ما أخسره سيعود إليّ مثلما وجدت عباءتي. وأنني سأنجح في كل مشروع أنويه»

- «وكانت حياتك ناجحة دائمًا؟»

- «نعم، دائمًا تقريبًا. لقد نجحنا في كل شيء تقريبًا»

- «أوه، نعم» قال آرون وهو ينظر إليها مرة أخرى.

ولكن على الرغم من ذلك، كان بإمكانه رؤية قدر كبير من الإرهاق الشديد تحت رضاها. لقد قاست ما قاسته بالتأكيد، لكنها كانت مع ذلك راضية على العموم. جلست هناك كمضيفة جيدة، وتوقعت التكريم بسبب نجاحها. ونالته بالطبع. لقد قام آرون بنفسه بنصيبه الصغير من لعق الأحذية، وابتلع طعم ملمع الأحذية وهو يلوي قسماته، عارفًا ما هو مقبل عليه.

انتهى العشاء بمرح حتى نهايته. وغادرت السيدات. ترك السير ويليام مقعد الشرف الخاص به في نهاية الطاولة وجاء وجلس بجوار آرون، واستدعى الرجال الثلاثة الآخرين للتجمع بالقرب وقال:

- «والآن أيها العقيد، أدر الشراب»

بحركة من مرفقه وكتف، قام العقيد إلى البورت[1]. بورت حقيقي، في تلك الأيام الكئيبة لما بعد الحرب!

قال السير ويليام:

- «حسنًا يا سيد سسن، سوف نشرب بصحة عنايتك الإلهية الكريمة: بشرط ألا نسبب أي إساءة بفعلنا هذا بالطبع»

نبيذ برتغالي.

- «لا سيدي؛ لا سيدي!» قال آرثر الذي كان متوردًا ومنتعشًا بالنبيذ، وبدا كما لو أنه سيكون صحن مقبلات لذيذًا لآكل لحوم بشر مرهف الذوق، ثم أضاف «العناية الإلهية تعود إلى السيد ليلي. أعتقد أن السيد سسن وضع رهانه على القدر الرحيم»

- «آه، نعم، في الواقع! وإنها لسيدة أكثر استحقاقاً لنيل حظوة رفع كؤوسنا لها: سيدة الحظ الرفيق[1] حسنًا يا سيد سسن، ولتبتسم لك سيدة الحظ دائمًا»

رفع السير ويليام كأسه بابتسامة متكلفة صغيرة غريبة، وفي رأسه المائل بشكل غريب مسحة من ساتير عجوز متأنق[2]. كلا، أكثر من الساتير: ذلك الشيطان الفضولي القوي الرهيب الذي حارب العالم وانتزع منه الثروة ويعرف كل شيء عنه. الروح الشيطانية للحديد نفسه، وآلات الحديد. لذلك، مع ابتسامته القديمة الغريبة التي تظهر أسنانه بشكل رهيب، حدق الفارس العجوز بطريقة خفية من فوق كأسه في آرون. ثم شربها بتلك الإيماءة الغريبة الحذرة في الشرب لدى العجوز.

- «ولكن» قال آرون «إذا كان القدر أنثى...

- «القدر! القدر! ماذا؟ الحظ سيدة بالطبع. ماذا تقول أيها الرائد؟»

قال الرائد، بوقار حزين يناسب عمره وثقافته:

- «إنها تتمتع بكل كبريائها يا سير ويليام» وكان الشاب يحدق مثل سايكلوبٍ مصلوب من إحدى عينيه[3]: بينما كان الغطاء الأسود فوق الأخرى.

- «وكل النِعم»، أكمل السير ويليام، مسرورًا بنفسه.

- «أوه، تمامًا!» قال الرائد «كل الكبرياء بالنسبة للبعض، وكل النعم بالنسبة للآخرين»

1- بالإيطالية في الأصل Fortuna gentil – issima.

2- الساتير satyr كائن من الكائنات التي تمثل أرواح الطبيعة عند قدماء الإغريق يتسم بالشهوانية والشبق والمرح. له ملامح تشبه ملامح الماعز بما في ذلك ذيله وأذناه.

3- السايكلوب Cyclops في الأساطير اليونانية: عملاق ذو عين واحدة تتوسط الجبين.

قال السير ويليام:

- «القلب الضعيف لن يفوز أبدًا بالسيدة الجميلة يا بني. ليس لأن قلبك ضعيف، بل على العكس، كما نعلم نحن وتعلم بلادك. ولكنك مع سيدة الحظ تحتاج إلى نوع آخر من القلوب الشجاعة، أوه، نوع آخر تمامًا»

قال الرائد:

- «أعتقد ذلك يا سيدي: وهذا هو نوع القلب الشجاع الذي أخشى أنني لا أمتلكه»

- «ماذا!» قال الرجل العجوز «أظهر علامات الجبن قبل أن تتعامل مع السيدة! املأ كأس الرائد أيها العقيد. أنا متأكد تمامًا من أن أيًا منا لن يرفع راية الاستسلام»

- «لا مجال لذلك» قال الكولونيل وهو ينفخ نفسه بحماس من داخل سترته «ليس إذا كنا ندرك ذلك»

لقد صار أكثر احمرارًا من حبة كرز. كل ما كان يشغل باله في تلك اللحظة هو قنينة البورت الصغيرة المرحة. لكن خد الرائد الصغير كان غائرًا وشاحبًا، وكانت عينه الواحدة مثيرة للشفقة إلى حد رهيب.

قال السير ويليام:

- «وأنت يا سيد سسن، تنوي أن تتغلب على كل شيء يواجهك من خلال عدم التفكير في الغد. حسنًا، لا يسعنا الآن إلا أن نتمنى لك النجاح»

- قال آرون: «لا أريد أن أتغلب على كل شيء أمامي. لسوف أشعر بالأسف إن فعلت. أريد فقط أن ألتف حوله وأجتازه»

- «هل يمكنك أن تخبرنا إلى أين؟ كلي فضول، كما تقول سيبيل، إلى معرفة المكان الذي ستمضي إليه. هلم الآن ونورنا»

- «إلى لا مكان على ما أعتقد»

- «لكن هل هذا مقنع؟ هل تجده مقنعًا؟»

- «وهل هو صحيح حتى؟» قال الرائد «أليس الابتعاد عن موقف ما أمرًا إيجابيًا تمامًا مثل السير نحوه؟»

- «يا ولدي العزيز، لا يمكنك مجرد الابتعاد عن موقف ما. صدق

هـذا. إذا ابتعدت عن روما، فإنك تمشـي إلى ماريمـا[1] أو إلى تلال ألبان، أو إلى البحر - ولكنك تمشـي إلى شيء ما. الآن، إذا كنت سأبتعد عن روما، فإنني أفضل اختيار اتجاهي، وبالتالي وجهتي»

- «لكنك لا تستطيع ذلك» قال الرائد؟

- «ما الذي لا تستطيع؟»

- «أن تختار. لا اتجاهك ولا وجهتك» كان الرائد عنيدًا.

- «حقًا!» قال السـير ويليام. «لم أجد الأمر كذلك. لم أجده كذلك. كان علي أن أجتهد في العمل طوال حياتي، وأختار بين هذا وذاك»

- «ونحن» قال الرائد «ليس أمامنا خيار إلا بين هذا أو اللاشيء»

- «حقًا!» قال السير ويليام: «أخشى أنني كبير في السن -أو صغير جدًا- فماذا علي أن أقول؟ حتى أفهم»

قال آرثر بلطف:

- «صغير جدًا يا سيدي. أعتقد أن الطفل كان دائمًا أبًا للرجل[2]»

- «أعتـرف أن الرائـد يجعلني أشـعر بأننـي طفل» قـال الرجل العجوز «الاختيـار بيـن هـذا أو لا شـيء هـو لغـز محيـر بالنسـبة لـي. هـل يمكنـك مسـاعدتي يا سيد سسن؟ ما رأيك في هذا الهذا أو لا شيء؟ أستطيع أن أفهم فكرة إما النصر وإما الهزيمة — - »

- قال آرون مبتسمًا:

- «أفضل جزء اللاشيء منه على جزء الهذا»

- «أيها العقيد، ألق بعض الضوء على هذا العدم» قال الرجل العجوز.

- «لا يا سير ويليام» قال الكولونيل «أنا بخير كما أنا» فعلّق آرثر:

- «في الواقع، نحن جميعًا كذلك، في أحسن حال تمامًا»

وانفجر آرون ضاحكًا. وقال وقد بدا وسيمًا وطافحًا بالنبيذ:

1- منطقة كبيرة في إقليم توسكانيا.

2- الطفل هو أبو الرجل. هي مقولة مأخوذة من قصيدة «يثب القلب مني» للشاعر ويليام وردزورث. وهناك تفسيرات عديدة مختلفة لهذه العبارة، أشهرها أن الإنسان هو نتاج عادات وسلوكيات تطورت في الإنسان في يفاعته.

- «هذه هي المسألة بقضّها وقضيضها. نحن جميعًا في أفضل حال[1]. لكن من الجميل أن نتبادل الحديث»

- «أحسنت!» قال السير ويليام «نحن جميعًا في أفضل حال مثل تسعة بنسات! نحن جميعًا بخير. لذا، اترك الأمر جانبًا، قبل أن يكون لدى الرائد الوقت ليقول إنه يفتقد بنسين!» وضحك السير ويليام ضحكته القديمة الغريبة التي لا صوت لها، وانحنى قليلًا. وقال: «تعالوا وانضموا إلى السيدات خلال دقيقة أو دقيقتين» ثم فتح له آرثر الباب وغادر الغرفة.

صمت الرجال الأربعة للحظة، ثم رفع العقيد الإناء وملأ كأسه. ثم وقف وقرع كأسه بكأس آرون، مثل صديق طيب قديم وقال:

- «أتمنى لك حظًا سعيدًا»

وأجابه آرون:

- «شكرًا لك»

- «هل ستغادر في الصباح؟» سأله آرثر.

- «نعم»

- «في أي قطار؟»

- «الثامنة وأربعين دقيقة»

- «أوه - إذن لن نراك مرة أخرى. حسنًا، حظًا سعيدًا»

- «حظًا سعيدًا» ردد العقيد.

- «ولكم أيضًا» ورفعوا كؤوسهم وقد ساد بينهم الوداد طوال دقيقة وردية. ثم قال الرائد الشاب أجوف الخدود ذو العصابة السوداء على عينه:

- «مع ذلك، أود أن أعرف إن كنت تقصد حقًّا أنك بخير وأن كل شيء على ما يرام معك، أم أنك تقول هذا للتهرب من المسؤولية فحسب»

- «أعني أنني لا أهتم حقًّا -لا يهمني قلامة أظفر- فليأخذ الشيطان كل شيء»

1- في الأصل as right as ninepence وهو مثل يضرب على تمام الحال، وربما يشير إلى عملة معدنية قديمة قيمتها تسعة بنسات ظهرت في زمن الملكة إليزابيث الأولى أو إلى لعبة القناني الخشبية السبع الشبيهة بالبولنغ.

قال الرائد:

- «الشيطان أيضًا لا يريد ذلك»

- «فيتركه إذن. أنا لا أهتم قدر لعنة صغيرة بكل ذلك»

- «فليكن ملعونًا. ما الذي يجب الاهتمام به؟» قال العقيد.

- «آي، ماذا؟» قال آرون.

- «الأمر سواء، سواء كنت تهتم أو لا تهتم». قال آرثر «لذلك أقول إن عدم الاهتمام أسهل بكثير»

قال العقيد بمرح:

- «إنه لكذلك بالطبع»

- «وأنا أعتقد ذلك أيضًا» قال آرون.

- «أنت على حق! نحن جميعًا على حق مثل تسعة بنسات - ماذا؟ وهذه من أجلك يا صاحبي الطيب» هتف العقيد.

فقال آرثر، الحكيم بالنسبة لسنّه:

- «يجب أن نصعد إلى أعلى»

عندما دخلوا القاعة، وضع آرثر فجأة إحدى ذراعيه حول خصر آرون، وذراعه الأخرى حول خصر العقيد، وقام الثلاثة فجأة برقصة ريفية صغيرة وهم يتجهون إلى السلالم. كان آرثر يشعر بأنه على سجيته مرة أخرى، في الصحبة المرحة لرفاق فوجه القديم.

وعندما دنا من أسفل الدرج أفلت يديه من جديد. لقد كان بتلك الحالة المعنوية المتفائلة التي نمر بها عندما نقف متحدين. ولكن لسوء الحظ، فإن صعود الدرج في انسجام تام هو مهمة معقدة. أوشكت المجموعة كلها على السقوط إلى الوراء، فتوقف آرثر، المتورد الممتلئ الجسم الحسن التغذية، لحظة واحدة للعثور على قدميه. وعندما عثر عليهما، شرع في وضعهما بعناية واحدة تلو الأخرى، وأدهشه أن هذا الإجراء كان يحمله بطريقة سحرية إلى أعلى الدرج. كان الكولونيل يتشبث بحاجز السلم الكبير مثل رجل غريق يتشبث بقشة. لكنه أخطأها وكاد يهوي للأسفل لولا أن يد آرون أمسكت بذراعه. وهكذا استدار مرة أخرى ومد يده مثل نبات معرش ضعيف

إلى حاجز الدرابزين وأمسك به. ثم رفع قدميه كما لو كانتا حزمتين صغيرتين مـن الرمل مربوطتين بـأزرار بنطاله، ودبر طريقه نحـو الأعلى. كان آرون في تلـك الحالـة المبهجة عندمـا رأى ما كان يفعلـه الجميع ولـم يكـن واعيًا بما فعله بنفســه. ثم جاء الرائد الشـاب أخيرًا، نحيلًا، طويلًا، هزيلًا، منتصبًا مثل هاملتٍ قتيلٍ بُعث من جديد في بزة كاكية ورقعة سوداء رهيبة فوق عينه.

كان آرثر يخوض معركة قاسية وصعبة من أجل تمالك نفسه. إن مستقبله كلـه يعتمد على ذلك. لكنه، رغم ما فعل، لم يتمكن من إزالة نظرة الاحمرار والسـرور والسـعادة من وجهه. أما العقيد، أوه، ويا لـه من رجل ضخم، فقد تطاوح يمينًا ويســارًا مثل صبي سمين حتى وصل مباشرة إلى باب المحراب المقـدس: المكتبة. وكان آرون يهتز من الضحك من الداخل. حتى إن الرائد نفسه كان يضحك.

لكن آرثر صلّب جسده بطريقة عسكرية وتنحنح. بدأ الأربعة في استجماع أنفســهم خارج باب المكتبة مثل الممثلين الذين يصعدون على المسرح، ثم فتح آرثر الباب بهدوء، وبوقار تقريبًا، وأمســك به حتى يمر الآخرون. انســل العقيـد بخنوع وجلس على كرسـي في الخلـف. ودخل الرائـد متصلبًا دون تعبير على وجهه، وسار نحو الأريكة التي تجلس عليها زوجته.

في المكتبة ســاد شـعور مثل شـعور من يسـيل الماء المثلـج على ظهره. جلسـت السيدات بانتظار القهوة. وكان السـير ويليام ينتظر أيضًا. وهكذا مع قليـل من التوتر، وفي نصف صمت، وزعت القهـوة. كانت الليدي فرانكس تناقـش أمـرًا ما مـع زوجة آرثـر التي كانـت جميلة في فسـتانها مـن الدانتيل الكريمـي، بينما ارتدت زوجـة الرائد ثوبًا من الشـيفون الأرجواني مع ورود حمـراء داكنة، وبدت جميلة بشـكل مذهل. نظـر الكولونيل في فنجان قهوته بحزن كما لو كان يتوهمه نبيذاً أسـمر، بينما ظل الرائد ينظر إلى الفضاء، كما لـو كان هناك بمفـرده، الخ. كان آرثر يفتش عن شـيء طلبته الليدي فرانكس وهو متحمس جدًا للعثور عليه. وأخذ السـير ويليام ينظر إلى آرون ويسـتعد لجولة أخرى من حديث القلب للقلب، فانبرى قائلًا:

- «حسـنًا، أشـك في أنك سـتهتم بميلانو. إنها واحدة مـن المدن الأقل

إيطالية بين جميع المدن في رأيي. فينيسا شيء مختلف بطبيعة الحال. أنا لا أستطيع أن أتحمل تلك العينة البائسة من مواطن روما المعاصر. إن فيه معظم رذائل الرومان القدماء وليس له أي من فضائلهم. ربما تكون المدينة الأكثر ملاءمة لشخص غريب هي فلورنسا. لكن مناخها سيئ للغاية»

نهضت الليدي فرانكس بجلال وغادرت الغرفة برفقة زوجة آرثر. عرف آرون، بصمت، أنه قد استدعي ليتبعها. كانت مضيفته تراقبه هذا المساء. لكنه كان يؤجل دائمًا طاعته لأوامر النساء الباردة، وظل يتحدث مع مضيفه في المكتبة، ويحتسي الكِريم دومينث! جاءت تموجات البيانو من المدخل المفتوح إلى الأسفل عند الطرف الآخر من الغرفة. كانت الليدي فرانكس تعزف في صالة الاستقبال الكبيرة. وكانت تموجات الموسيقى تشي بالإصرار الشديد لإرادة المرأة الصغيرة. ببرود وحزم، كانت تنوي ألا يكون هناك المزيد من المحادثات المزعجة للسير ويليام العجوز. كان على آرون أن يأتي على الفور إلى صالة الاستقبال. وهو الأمر الذي فهمه آرون بوضوح، ولذلك لم يذهب. لا، لم يذهب، على الرغم من تماوج البيانو وتضخم حجمه. لا، ولم يذهب حتى عندما توقفت الليدي فرانكس عن العزف ودخلت المكتبة مرة أخرى. جلس هناك يتحدث مع السير ويليام. دعونا نشيد بقوة إرادة الليدي فرانكس، ونعترف بأن الحديث كان فارغًا تمامًا ومشتتًا ولم يكن فيه شيء من العمق والمناوشات التي حدثت في الأحاديث السابقة. لكن الحديث استمر رغم ذلك، استمر الحديث. فغادرت الليدي فرانكس محبطة، لتعزف على البيانو مرة أخرى. إنها لا تقاطع حديث لوردها أبدًا.

ثم ما لبث آرون أن لان. وأخذ فكره يزداد تشتتًا. جال السير ويليام بعيدًا مثل روح مضطربة مطاردة. كان العقيد لا يزال جالسًا على كرسيه، وهو يرضع ممتعضًا آخر قطرة من الكِريم دومينث. لم يكن يهتم بالسكاكر الخضراء. كان آرثر مشغولاً. وانبطح الرائد على الأريكة ممسكًا بيد زوجته وهو ينوس، وجاءت الموسيقى المثيرة للعواطف عبر الأبواب المفتوحة القابلة للطي. لقد لعبت بالمشاعر بالطبع، وهذا أمر بديهي. انتاب روح آرون ضرب من التعب. لكنها كانت تتمتع بلمسة من التمييز أيضًا.

قام وذهب إلى صالة الاستقبال. كانت غرفة كبيرة، تبدو شاغرة، تشبه غرف الاستقبال الإمبراطورية، بكراسيها الحريرية الصفراء المصطفة على طول الجدران وحيطانها التي افترشتها ستائر الحرير الأصفر، والثريا الكرستالية الضخمة التي تتدلى من سقفها البعيد. جلست الليدي فرانكس أمام بيانو كبير أسود فخم في أحد طرفي هذه الغرفة الصفراء الشاغرة. جلست هناك، سيدةً عجوزًا صغيرةً ممتلئة الجسم ترتدي الدانتيل الأسود، كأنها الملكة فيكتوريا في رسم ماكس بيربوم لألفريد تينيسون وهو يقرأ لجلالتها الفيكتورية[1]، وأمامها مساحة فارغة. وكانت زوجة آرثر تنحني على بعض الأوراق الموسيقية في زاوية نائية من الغرفة الكبيرة.

جلس آرون على أحد الكراسي بجانب الحائط ليسمع. كانت آلة جميلة بالتأكيد، وكانت تحبها على طريقتها بالتأكيد، لكن الذاكرة عادت بآرون إلى نشيد شارك فيه عندما كان صبيًا.

عينه على العصفور
وأعلم أنه يراقبني.
كان يفشل لفترة طويلة في التقاط كلمة عصفور، ويسمع:
عينه على ثقب الرصد
وأعلم أنه يراقبني[2]
وهو ما بدا له عندما كان صبيًا.

الآن، كما كان دائمًا، شعر أن العين كانت على ثقب الرصد. هناك جلست المرأة تعزف الموسيقى. لكن عينها الداخلية كانت على مخبأ شؤونها الحيوية: ترتيباتها المنزلية، وسيطرتها على أسرتها، بمن في ذلك الضيوف والزوج. أما العين الأخرى فقد تركت للموسيقى، ألا تعلم؟

ماكس بيربوم Max Beerbohm (1872–1956) شاعر وروائي وناقد ورسام مائي وكاريكاتيري إنكليزي. وألفريد لورد تنيسون (1808–1892 Alfred Tennyson) واحد من أشهر شعراء الإنكليزية على مر العصور. سمي شاعراً للبلاط عام 1850.

بسبب التقارب اللفظي بين sparrow (أي عصفور) وبين spy–hole (أي ثقب المراقبة أو الرصد في باب وغيره)

ظهـر السـير ويليام وهـو يحوم في المدخـل، ولم يعجبـه على الإطلاق انشـقاق السـيد آرون. ثـم تراجـع. يبـدو أنـه لا يهتـم بالموسـيقى. هرعت زوجـة الرائد، إذ شـعرت أن من واجبها أن تسـتمع أو تلعب دور الجمهور، لتدخل القاعة، وجلسـت من جديد تشم شـذى الليلك والبنفسج القادم من مسـافة قريبة. ثـم تبعها الرائد، بعد قليل من التخبـط حول الأدغال، وجلس متدثـرًا فـي تأمل صامـت بالقرب مـن زوجته. وكان آرثر منشـغلاً، لحسـن الحظ، بشيء ما.

أدلـى آرون بالطبـع بملاحظات موسـيقية مناسـبة في الفواصـل الزمنية. وقامـت زوجة آرثر بفرز المزيد من المقطوعات الموسـيقية. وظهر آرثر، ثم ظهـر العقيد وتحرك على رؤوس أصابعه بطريقة أنيقة عبر المسـاحة الفارغة الواسـعة للغرفـة الإمبراطوريـة، وجلـس على كرسـي، بعيدًا بعض الشـيء وظهره إلـى الحائط، في مواجهة آرون. عندما أنهت الليدي فرانكس عزفها، ولدهشة الجميع، صفق الكولونيل بمرح وصاح برافو! كما لو كان في مقهى شانتان، يبحث في ما حوله عن كأسه. ولكن لم تكن هناك كأس. لذلك عقد ساقيه الكاكيتين المعتنى بهما، وبدا جذلاً مرة أخرى.

شـرعت الليدي فرانكس بعزف قطعة مفعمة بالحيوية لشـومان. اسـتمع الجميـع فـي صمت طاهر مقـدس، محاوليـن أن يبدوا كأنهـم يحبون ذلك. عندمـا بـدأ العقيد فجأة في القفز والتواثب على كرسـيه، رافعًا سـاقه الطليقة في الهواء بنوع من النشـوة، وهو يـكاد يثب مرحًا على مؤخرته ويرقص وهو جالس على أنغام شـومان السـريعة فغمـز آرثر، الجالس فـي أقصى الصالة، غمـز آرون بسـعادة غامرة. حـاول الرائد أن يبـدو كأنه لم يلاحظ شـيئًا، ولـم ينجـح إلا فـي أن يبدو متألمـاً. وتأملت زوجتـه طرف حذائهـا الفضي بدقة، مختلسـة النظـر من خلال شـعرها أثناء العـرض. ضحك آرون بوقار وشـعر بحب حقيقي نحو العقيد.

واسـتمرت اللعبـة والمعزوفـة مسـتمرة. ارتـد الكولونيـل الممتلئ على كرسـيه صعودًا ونزولاً، وهو يركل بإصبع قدمه الأسود اللامع أعلى وأعلى، وأصبح متحمسًـا جدًا لرقصتـه. كان متوردًا وجريئًا وجديـرًا بالأمة العظيمة التـي ينتمي إليهـا. لم يُظهر الكرسـي الإمبراطوري ذو المقاعـد العريضة أية

علامة على الاستسلام. دعه يستمتع بوقته هنا عبر الصحراء الصفراء في هذا الصالون المكسو بألواح الحرير. شعر آرون بسعادة غامرة وفكر في نفسه:

- «حسنًا، الآن، هذا الرجل يتولى القيادة الكاملة لفرع مهم جدًا من الخدمة البريطانية في إيطاليا. ما زلنا عرقًا رائعًا»

لكن لا بد أن الميدي فرانكس قد انتبهت للأمر. أصبح عزفها قاسيًا إلى حد ما. لقد وصلت إلى نهاية الحركة الحيوية وتخلت عن قطعتها.

قال آرون:

- «أنا أفضل دائمًا شومان في مزاجه المفعم بالحيوية»

- «حقاً؟» قالت الليدي فرانكس «أوه، أنا لا أعرف»

لقد حان الآن دور زوجة آرثر في الغناء. بدا آرثر كأنه يبتعد أكثر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأنه كان في أقصى نهاية الغرفة، بالقرب من أبواب الرواق. أصبح العقيد هادئًا ومتأملًا. نظرت زوجة الرائد إلى المرأة الشابة ذات الدانتيل الأبيض، وبدا أنها لا تهتم بالدانتيل. يبدو أن آرثر كان يحاول دفع نفسه للخلف عبر الحائط. أشعلت الليدي فرانكس المزيد من الأضواء في الثريا الكريستالية الضخمة التي كانت معلقة مثل سحابة مجد فوق مركز الغرفة. وغنت زوجة آرثر أغاني فرنسية صغيرة لطيفة دون جدال. كانت تمتلك صوتًا جميلًا وقد تدربت بشكل مناسب. وكانت أعصاب آرون على شفير الهاوية.

ثم كان عليه أن يعزف على الفلوت. صعد آرثر معه إلى الطابق العلوي، ذراعًا بذراع وهو ذاهب لإحضار آلته الموسيقية.

قال آرثر:

- «أجد الموسيقى في المنزل مصدرًا للتوتر، كما تعلم»

- «إجهاد وحشي» قال آرون: «أنا أتفق تمامًا»

- «لا أمانع كثيرًا في المسرح، أو حتى في الحفلات الموسيقية حيث الكثير من الأشخاص الآخرين الذين يمكن أن يخففوا من حدة الأمر، ولكن بعد عشاء دسم»

قال آرون:

- «إنه دواء»

- «حسنًا، كما تعلم، هذا هو الحال بالنسبة لي حقًّا. إنه يؤثر على باطني»

ضحـك آرون. وبعد ذلك، في صالة الاسـتقبال الصفـراء، نفخ في فلوته وعزف. لقد كان يعلم جيدًا أن آرثر، الرائد، وزوجة الرائد، والعقيد، والسـير يعتبـرون الأمر مملًا ولا يطاق. ومع ذلك عـزف. حتى إن مضيفته رافقته في مقطوعة لموزارت.

الفصل الرابع عشر
سبتمبر

استيقظ آرون في الصباح على الدخول الناعم للخادم الشخصي وهو يحمل صينية الإفطار. لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة. لقد كان منزل الليدي فرانكس دقيقًا كما الشمس نفسها.

لكن بطلنا أرغم نفسه على الاستيقاظ بصعوبة. كان مجرد رفع رأسه عن الوسادة أشبه بخوض معركة هذا الصباح. لماذا؟ لقد عرف أخيرًا سبب عذابه، الألم الذي يعاني منه بسبب اضطراره إلى الارتحال. لماذا لا يريد الارتحال؟ لماذا؟ لأنه لم يكن يريد اليوم الذي ينتظره: الغوص في بلد غريب، نحو اللامكان، دون أي هدف في الأفق. صحيح أنه قال إنه يريد أن يلتحق بليلي في النهاية، لكن هذا لم يكن أكثر من مجرد استرضاء، مجرد ذريعة لسلوكه غير العقلاني. لقد كان يتفكك من علاقة تلو الأخرى. ولماذا؟ لماذا كسر كل روابطه؟ سناب سناب سناب! بحركة خاطفة بعد أخرى ذهبت العلاقات والأربطة التي ربطته بالحياة التي شكلته، وبالأشخاص الذين أحبهم أو أعجب بهم. لقد وجد كل عواطفه تنقطع، وكل الروابط التي كانت تربطه بقومه تتفكك. ولماذا؟ لماذا بحق الله؟ وماذا كان ينتظره بدلًا منها؟

لم يكن هناك غير العدم. لم يكن هناك سوى نفسه، والعدم المحض. ربما كان لديه إحساس ضعيف بوجود ليلي أمامه؛ مجرد زخم في هذا الاتجاه، أو مجرد وهم. لم يستطع أن يقنع نفسه بأنه يبحث عن الحب، عن أي نوع من الاتحاد أو الشراكة. لقد كان يعلم جيدًا أن فكرة أي محبة، أو أي نوع من الالتقاء الحقيقي بينه وبين أي شخص أو أي شيء، كانت مجرد فكرة بغيضة

علـى قلبه. لا، لم يكن يتحرك نحو أي شـيء: كان يتحـرك بعنف تقريبًا بعيدًا عن كل شيء. وكان هذا ما أراده. هذا فقط: أن يتحرر من اعتناق أي شيء أو أي شـخص بأي شكل من الأشكال، هذا مبتغاه. إنه يرفض وجود أي اتصال جديـد بينه وبين أي شـيء على وجـه الأرض. دع جميع الاتصالات القديمة تنقطع. هذا ما كان يتحرق إليه.

ومع ذلك فقد كان يرزح تحته هذا الصباح كما لو كان تحت غطاء قبر. الثقل المفاجـئ الرهيب للقصور الذاتي! كان يعلم أن الصينية جاهزة بجوار السـرير، كان يعلم أن السـيارة ستكون عند الباب في السـاعة الثامنة لأن الليدي فرانكس قالت ذلك، وتكهن تقريبًا بأن الخادم قال ذلك أيضًا: ومع ذلك كان يرقد في هذا السـرير في نوع من الشـلل. وبـدا للحظة أنه فقد إرادته. لمـاذا يمضي قدمًا نحو المزيد من العدم، بعيدًا عن كل ما عرفه وكل ما اعتاد عليه، وكل ما ينتمي إليه؟

لكنـه مـع ذلـك هب جالسًـا في غمضـة عين. وفـي اللحظة التي سـكب فيهـا قهوته من إبريق القهـوة الفضي الصغير في فنجانه الرقيق، كان مسـتعدًا لأي شـيء وكل شـيء. لقد استولى عليه إحسـاس المغامرة الصامتة، وشعر بالابتهاج كأنه يحقق مصيره الداخلي. كان طعم القهوة والخبز والعسل لذيذًا.

أحضر الرجل ملابسـه وأخبره مرة أخرى أن السـيارة سـتكون عند الباب عند الساعة الثامنة: أو هذا ما فهمه على الأقل.

قال آرون:

- «أستطيع المشي»

فقال الرجل بهدوء:

- «لقد أمرت سيدتي بتجهيز السيارة»

كان مـن الواضـح أن كل مـا تأمر به الليـدي واجب التنفيـذ. لذلك غادر آرون المنزل الذي كان لا يزال يغط في النوم وركب السيارة الناعمة الفاخرة. وبينما كان ينزل في الحديقة، تسـاءل عما أوجب على السـير ويليام والليدي فرانكـس أن يتعامـلا معه، هو الغريـب تمامًا، بكل هذا اللطـف. لكن هذا ما حصل. وها هو جالس في سـيارتهما. ثم تساءل أيضًا، وهو يعبر الجسر نحو مركز المدينة، عما إذا كانت هذه السـيارة ذات الحركة الهادئة سـتثير أي نوع

مـن الحقد الاشـتراكي لدى العمال. ولأول مرة فـي حياته، بينما كان يجلس بين الوسائد المريحة، أدرك ما قد يعنيه أن تكون غنيًا وقلقًا. قلقًا، حتى لو لم تكن خائفًا، وأنت تندس هناك داخل سيارة باهظة الثمن. – حسـنًا، لم يكن فـي الأمـر الكثير من إثارة الإحسـاس على أيـة حال: فلقد أحس بـأن الثروة كانت خانقة مثل أقمشـة التنجيد المحشـوة التي تلف كل شـيء. كان سعيدًا بالخـروج إلى الهـواء النقي نحو الجمهـور العادي. كان سـعيدًا بوجوده في المحطـة الجـرداء الكئيبـة غير المزدحمـة. كان سـعيدًا بأن يكون جـزءًا من الحياة المشـتركة. لأن جو الثروات نفسه يبدو محشوًا ومنجدًا، خاليًا من أي تفاعـل حقيقي. كان الأمر فظيعًا، كما لو أن جسـد المـرء وأكتافه وذراعيه قد نُجِّدت وأحيلت إلى وسـائد. آه، لكنه كان سعيدًا بالتخلص من أجواء الثروة والسـيارات، ليخـرج مـن كل ذلك. كان الأمر أشـبه بالخـروج من الملابس المبطنة الشبيهة باللحافات.

– «حسـنًا» فكـر آرون «إذا كان هذا هـو كل ما يعادل أن تكـون ثريًا، فإن فـي مقـدورك أن تنال الثـروة. يقولون إن المال هو القوة. لكـن النوع الوحيد مـن القـوة التي يفرضها المال عليّ هو إحداث نوع من الخدر، وهو ما أكرهه تمامًا. لا عجب أن الأثرياء لا يبدون على قيد الحياة حقًّا».

لقـد أزالـت الراحـة التي شـعر بهـا من الهـروب شـعوره بالإحـراج في المحطة. حمل حقائبه بنفسـه واشـترى تذكرة درجة ثالثة، وركـب القطار إلى ميلانو دون أن يبالي ولو قيد شعرة بتعليقات الحمالين أو نظراتهم.

بـدأت تمطـر. نزل المطـر مدرارًا عبـر السـهل الكبير في شـمال إيطاليا. وجلـس آرون فـي عربتـه ذات المقاعد الخشـبية، ودخّن غليونـه في صمت وهـو ينظـر إلـى اللومبارديـين القِصـار الغِـلاظ الجالسـين قبالتـه دون أن يعيرهـم اهتمامًا، بل إنه لم يكن يولي أي اهتمـام تقريبًا لما يحيط به، فجلس مستغرقًا في نفسه.

فـي ميلانو، نُصح بالذهـاب إلى فندق بريتانيا، لأنـه زهيد الثمن ومفضّل لـدى الإنكليز، لذلك اسـتقل عربـة، ودار في المنطقة الخضـراء أمام محطة ميلانو، ودخل المدينة. كانت الشوارع مزدحمة، ولكن بفتور.

يجب الاعتراف بأن كل خطوة جديدة قام بها كانت تمثل جهدًا حقيقيًا، حتى إنه تساءل هو نفسه لماذا كان يجاهد مع الحمالين الأجانب وسائقي عربات الأجرة الأجانب الذين يتحدثون إليه ولا يفهمون كلمة واحدة. لكنه كان هناك، ولذلك مضى لا يلوي على شيء.

كان الفندق صغيرًا ومريحًا. تحدث معه حمال الفندق باللغة الإنجليزية. أُعطي آرون غرفة صغيرة ذات شرفة صغيرة تطل على شارع هادئ. وهكذا صار لديه مسكنه الخاص من جديد، فاغتسل ثم عد ماله. كان معه سبعة وثلاثون جنيهًا لا أكثر. وقف على الشرفة ونظر إلى الناس الذين يمرون بالأسفل. يبدو أن الحياة تتحرك بسرعة كبيرة، عندما ينظر إليها المرء من الأعلى.

على الجانب الآخر من الطريق كان هناك مبنى حجري كبير، مصاريعه الخضراء مغلقة بالكامل. ولكن من سارية العلم تحت إفريز فوق النافذة المركزية للطابق العلوي (وكان المبنى مكونًا من أربعة طوابق) لوح العلم الإيطالي في الهواء الرطب الكئيب. تأمله آرون: ألوان ثلاثة: الأحمر والأبيض والأخضر، وفي وسطها صليب سافوي الأبيض. وهو معلق في كآبة وسكون. ران على المدينة فراغ غريب. كان ثمة شيء شاغر ومحبط في هذا التجمع الإنساني الكبير. لا يعني ذلك أن هناك بالفعل شحة في أعداد الناس، لكن روح المدينة بدت مكتئبة وفارغة. لقد كانت عطلة وطنية. وكان العلم الإيطالي معلقًا على كل واجهة منزل تقريبًا.

كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر. جلس آرون في مطعم الفندق يشرب الشاي، لأنه كان متعبًا بعض الشيء، وأخذ ينظر من خلال الستائر الرقيقة إلى الساحة الصغيرة بالخارج حيث يمر الناس: مجموعات صغيرة من الرجال ذوي البشرة السمراء الذين يبدون على قدر من الفقر وهم يمضون بلا هدف. ربما كانوا أقصر قامة إلى حد ما، لكنهم يشبهون الناس في أية مدينة أخرى. ومع ذلك، كان الإحساس الذي توقِعه المدينة في النفس مختلفًا تمامًا عن مثيله في لندن. لقد بدا أن فراغًا غريبًا يهيمن عليها. توقف المطر، لكن الأرصفة كانت لا تزال مبللة. وعم توتر شديد.

وفجأة سمع صوت طلقتين، أطلقتا في تتابع سريع. أجفل آرون واستدار لينظر إلى ساحة الميدان الهادئة، لكنه، ولدهشته، وجد الأرصفة مقفرة تمامًا ولا أحد في مرمى البصر. قبل دقيقتين كان المكان مزدحمًا بالمارة وكان بائع الصحف ينادي على جريدة الكورير[1] وعربات صغيرة تتجول في المكان. أما الآن، كما لو بفعل السحر، فلا يوجد أحد، لا شيء، وكأنهم ذابوا جميعًا في الهواء الشفيف.

كان النادل هو الآخر يختلس النظر من خلف الستار. جاءت عربة تخبّ إلى الميدان، وسار رجل غريب بمفرده، وبدأت حركة المرور تتحرك مرة أخرى، وعاد الناس إلى الظهور فجأة كما اختفوا. بعد ذلك، ركض النادل بعجالة وخفة ومدّ رقبته وتطلع إلى الساحة، ثم تحدث مع شابين - شابين فظين إلى حد ما، وعاد إلى عمله في مطعم الفندق.

- «ماذا حدث؟ ما هذه الطلقات؟» سأله آرون، فأجابه دون اكتراث:

- «أوه، شخص ما يطلق النار على كلب»

- «على كلب!» قال آرون وقد تكورت عيناه من الدهشة.

أنهى شايه وخرج إلى المدينة. لم يكن الفندق الذي يقيم فيه بعيدًا عن ساحة الكاتدرائية. ورأى، وهو يقطع الرواق، تلك الكاتدرائية الشهيرة بنتوءاتها المستدقة العديدة التي تخترق هواء الظهيرة. لم يعجبه المنظر كما يفترض به. ومع ذلك، كان ثمة شيء ما في هذه المدينة الشمالية، وهذه الساحة الكبيرة التي تتشابك فوقها جميع خطوط الترام وعرباتها الصفراء الصغيرة الأوروبية الطراز: والجزء الأكبر الشائك من الكاتدرائية العظيمة، مثل قنفذ بحر رمادي - أرجواني تغطيه عشرات الأشواك من جهة، ومساحات من العشب المزين وأحواض الزهور من جهة أخرى، والمحلات التجارية الكبيرة الممتدة على طول الطاقات الطرفية في كل مكان، والاندفاع العصبي المضطرب الذي لا نهاية له للحشد الشمال إيطالي، العصبي، الشديد التشنج، الذي يمضي متوترًا مضطربًا مثل عربات

1- كورير ديلاسيرا Corriere della Sera واحدة من أعرق الصحف الإيطالية. بدأت بالصدور عام 1876.

الترام الصفراء الصغيرة. ملأه كل ذلك بشعور بالغرابة والعصبية واقتراب فصل الشتاء، وصدمه أن الناس كانوا خائفين من أنفسهم، خائفين من نفوسهم، ومما في نفوسهم.

صعد الدرجات الواسعة للكاتدرائية، ودخل المبنى الشهير. كانت السماء صافية، وأشرق الضوء المتجدد ملونًا بألواح حية حول غسق الكنيسة العظيمة الوردي الشاهق. كانت الأضواء تومض في اضطراب فوق بعض المذابح. وفي جهة غير مرئية، كان قداس المذبح مستمرًا، وثمة موسيقى غريبة تتخلل الغسق العابق بالبخور داخل المبنى الشامخ الكبير الغارق في الظلال، كل شيء غارق في الظلال التي تتدلى من حولها ألواح مرصعة من الضياء. لكن الكوة الشرقية الكبرى، فوق المذبح الكبير بدت جميلة على نحو خاص. وأنت تسمع طوال الوقت نقرة خافتة وحفيف أقدام تأتي وتذهب فوق الأرضية الرخامية الكبيرة المنقوشة، تأتي وتذهب مثل مياه ضحلة غير مستقرة تتدفق ذهابًا وإيابًا في حوض صغير. هرول كلب أبيض شاحب عبر العتمة الخفيفة فوق الأرضية الشاحبة ذات النقوش الكبيرة. تقدم آرون إلى المذبح الجانبي حيث كان القداس مستمرًا والشموع تتأرجح بلونها الأحمر. كانت هناك مجموعة صغيرة من النساء الراكعات وحفنة رثة من الرجال المتفرجين، وأناس يتجولون هنا وهناك، شابات بشعر أسود أنيق وشالات، لكن من غير قبعات؛ شابات جميلات يلبسن أحذية بكعوب عالية جدًا؛ شباب ليس لديهم ما يفعلونه؛ رجال متعَبون ليس لديهم ما يفعلونه. توزعوا جميعًا في فتور، ونقروا بأقدامهم على الأرضية المكسوة بالبلاط، وألقوا نظرات خاطفة على المذبح الذي تتراقص فوقه أضواء الشموع حيث أولاد في أردية كهنوتية سوداء يقدمون فروض الاحترام، والكاهن في أرديته البيضاء والذهبية ينحني واضعًا يديه فوق صدره تحت ضوء الشموع. توزع الجميع في الأرجاء وهم يلقون النظرات، ثم يتلكؤون، ثم يتفرقون من جديد كما لو أن المشهد لم يكن ليتسع للجميع. دق الجرس المؤذن لرفع القربان، لكن السيل الخفيف من الناس ظل يتدفق بنفس الطريقة، بقلق، على الأرضية المبلطة للكاتدرائية الشاهقة الفسيحة المزخرفة بالظلال.

كانت رائحة البخور عالقة في أنفه عندما خرج من باب جانبي، وأخذ

يسير على طول أرصفة ساحة الكاتدرائية، متفرجًا على المحلات التجارية التي أغلق بعضها أبوابه وترك عليها إشعارات صغيرة. وكان بعضها مفتوحًا وبدا مليئًا إلى النصف بأشياء أنيقة بعض الشيء. كان الرجال يحملون الصحف. وفي المقاهي جلس عدد قليل من الرجال يشربون الفيرموت[1]. وعند مداخل المطاعم وقف النُدُل في خمول وهم ينظرون إلى الشوارع. وشيئاً فشيئًا سيطر على بطلنا ذلك السأم الآكل للقلوب الذي يهيمن على المدن الكبيرة أيام العطل. ولم يعد يتحمل. وشعر بأن عليه الخروج مهما كلف الأمر.

وهكذا عاد إلى فندقه وصعد إلى غرفته. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة. ولم يعرف ماذا يفعل بنفسه. استلقى على السرير ونظر إلى اللوحة المرسومة على سقف غرفة نومه. لقد كان عملاً فظيعاً مرسوماً بالأزرق الحبري والذهبي البني، بوحوش كتلك التي ترسم على الدروع وشعارات النبالة، وحوش فظيعة متلوية كالديدان، معروضة في حقل أزرق.

كان يرقد وهو لا يفكر في شيء ولا يشعر إلا بنوع من الضجر أو الكآبة أو التوتر أو الله يعلم ماذا، فإذا به يسمع من بعيد هديراً أجش لأصوات بشرية. كان شيئًا مخيفًا. نهض وتوجه إلى شرفته الصغيرة. إنه نوع من موكب أو مسيرة للرجال، رفرفت فيه هنا وهناك راية حمراء في قبضة واحد من الرجال. كان تجمعًا كبيرًا، تلك هي المسألة.، مظاهرة غير منتظمة لكنها قوية. صفوف من أربعة رجال خرجوا بشكل غير منتظم من الساحة الصغيرة إلى الشارع وهم يهتفون ويصخبون. توقفوا أمام متجر وتجمعوا هناك وهم يصرخون ويزدادون شراسة. علق فوق باب المتجر علم وطني ثلاثي الألوان. كان المحل مغلقًا، لكن الرجال بدأوا يطرقون الباب. إنهم جميعًا عمال، يرتدي قليل منهم قبعات رجال السكك الحديدية، بينما وضع معظمهم قبعات سوداء، فيما ربط البعض على أعناقهم أوشحة عنق قطنية حمراء. رفعوا وجوههم إلى العلم الوطني وهم يصرخون ويلوحون. وتمكن آرون من رؤية أسنانهم القوية البارزة من فكوكهم. كنتَ، وأنت تنظر

1- الفرموت vermouth صنف من النبيذ المنكه بأعشاب عطرية.

في وجوههم الأجنبية ذات الشكل الجنوبي التي تبدو أكثر تحديدًا وشيطانية من الوجوه الشمالية، ترى شيئًا مخيفًا في الفكوك الإيطالية الضامرة القوية، شيئًا ممسوسًا غير بشري. كان لديهم تصميم شيطاني محدد، وكان ضجيج أصواتهم يشبه ضِراب الأسلحة الفولاذية. تساءل آرون عما يريدون. لم تكن هناك نساء، كلهم رجال، وثمة صوت ذكوري غريب يشق الفضاء. كان منظرًا ضاريًا - كانت مقدمة المسيرة تترجرج مثل بركة صغيرة، بينما الإسفين السميك للمسيرة من خلفه مرقط بالأعلام الحمراء.

فُتحت نافذة فوق المتجر، وكان رجل ذو مظهر كريه متجهم، شاحب الصفرة يسحب العلم الوطني إلى الداخل بسرعة وعصبية. وارتفعت صيحات استهزاء وسخرية لاذعة. واختفى العلم وصاحبه مجللين بالعار. ومضى الموكب. كان لكل متجر تقريبًا علم يرفرف. وها قد اختفت الآن، بسرعة أو ببطء، عاجلاً أم آجلاً، في طاعة لهذا الآمر الضاري الذي لا يرحم: الحشد الساخر الذي يسير ويتخثر ببطء في الشارع، ويمضي في طريقه المقرر.

لم يبق سوى علم واحد هو العلم الكبير ذو الألوان الثلاثة الذي كان يرفرف من الطابق العلوي للمبنى المقابل لفندق آرون. يتكون الطابق الأرضي من هذا المبنى من محلات تجارية مغلقة الآن. ولم تكن هناك أي علامة على وجود أي شاغل. رفرف العلم خاملاً عاليًا.

توقف الحشد بأكمله أسفل الفندق مباشرة، وأخذ الجميع ينظرون الآن إلى الألوان الثلاثة الخضراء والبيضاء والحمراء التي تتمايل بخمول في ضوء المساء المبكر من تحت أفاريز المبنى الواسعة المقابلة. نظر آرون إلى العلم الطويل، الذي يتدلى تقريبًا دون أن يتحرك من ظل الإفريز وهو يتوقع أن ينطوي من تلقاء نفسه نزولاً عند إرادة الجماهير. ثم نظر إلى الأكتاف السوداء المكتظة للحشد الموجود بالأسفل وإلى الطريقة الغريبة التي يتماوج بها هذا البحر من القبعات السوداء الذي لا يرى منه سوى القبعات والأكتاف وهو يتحرك باضطراب مثل القار المغلي بعيدًا تحت ناظريه. لكن الصيحات أخذت تزداد سخونة وترتفع أكثر وأكثر. وسُمع رنين عظيم لجرس الباب وقرع على باب المتجر. تحدث الحشد - رأس

الموكب المتورم، وصرخوا، واحتلوا وسط الشارع، لكنهم تركوا الرصيف خاليًا. ظهرت امرأة ترتدي بلوزة بيضاء عند باب المتجر. خرجت ونظرت إلى العلم وهزت رأسها وأومأت بيديها. من الواضح أنه لم يكن علمها، ولم يكن لها أي علاقة به. استدار القادة مرة أخرى نحو باب المبنى الكبير وبدأوا في قرع جميع الأجراس وضرب الأبواب بأيديهم، لكن دون فائدة، لم يتلقوا أية إجابة. نظروا مرة أخرى إلى العلم. ارتفعت الأصوات خشنة وساخرة. شرحت المرأة شيئًا مرة أخرى. يبدو أنه لم يكن هناك أحد في الطوابق العليا بالمنزل، إذ كانت جميع المداخل مغلقة، ولم يكن هناك حارس. ما من مالك للعلم. كان معلقًا هناك، تحت الحواف العريضة للمبنى الحجري القوي دون أن يعلم بذنبه. عادت المرأة إلى متجرها وأغلقت المصراع الحديدي من الداخل.

بدأ الحشد المرتبك يتجادل ويصرخ ويصفر. وارتفعت الأصوات في حدة وسخرية. وتصاعدت النقمة. هوذا العلم هناك، والموكب يحتشد ويتقدم وتغص به تلك البقعة من الشارع. أمّا ما تبقى منه فكان فارغًا وصامتًا. وظلت قطعة القماش المبهرجة ذات الألوان الأحمر والأبيض والأخضر معلقة من فوقهم.

وفجأة ساد الهدوء، ثم ارتفعت صرخات نصف مشجعة ونصف ساخرة، ورأى آرون شابًا صغيرًا أسمر البشرة، أشقر الشعر، لا يزيد عمره عن سبعة عشر عامًا، ملتصقًا مثل القرد بمقدمة المنزل، بمساعدة ماسورة الصرف الثقيلة وزخرفة الواجهة الحجرية. ثم تسلق إلى الحافة الحجرية الممتدة تحت نوافذ الطابق الأرضي، ليحط مثل قطة رشيقة على القاعدة البارزة. لم يتوقف عند هذا الحد، بل واصل سباقه مثل سحلية مسعورة تركض عبر حواجز الواجهة الكبيرة، بعيدًا عن الضوضاء المتصاعدة بالأسفل، كما لو كانت في حالة ذعر شديد. في التواءات حركية لا تنتهي، أمام المبنى الحجري الثقيل الذي لا يتزحزح من مكانه.

كان العلم معلقًا على سارية أسفل واحدة من نوافذ الطابق العلوي – الطابق الثالث. واصل الشاب ذو الجسد المتلوي الذي تلبّسه الشيطان صعوده. تحولت صرخات الحشد في الأسفل الآن إلى انفجارات جامحة

ممزقة من الإثارة والتشجيع. بدا الأمر كأن الشاب قد ارتفع، بطريقة سحرية تقريبًا بسبب الإثارة الشديدة التي أبداها الرجال المحتشدون في الأسفل. لقد مر بحافة الطابق الأول، مثل سحلية تتلوى للأعلى ومر بحافة الطابق الثاني، وها هو هناك، مثل ظل يتسلق للأعلى، يندفع نحو الإفريز المائل للطابق الثالث. ظل الحشد ساكنًا كما لو صعقته الكهرباء لبرهة طويلة بينما نهض الصبي منتصبًا، ملتصقًا بالجدار بأطراف أصابعه.

لكنه لم يتوقف لالتقاط أنفاسه، وفي اللحظة التالية كان منتصبًا على قدميه ويركض عبر الممر الضيق الذي يمر على طول المبنى تحت نوافذ الطابق الثالث، ثم يجري هناك على تلك القاعدة الضيقة بعيدًا عن الشارع، مباشرة نحو العلم. ثم أمسك به، بطرف منه، بقبضة يده وارتفعت معه صرخة الحشد مثل شعلة عظيمة بينما كان الصبي يرتعش ويحرر العلم. ها قد مزقه وانتزعه. دوت صرخة طويلة هائلة، ممزوجة بزمجرة انتصار ارتفعت مثل ألسنة من اللهب، بينما ظل الصبي للحظة واحدة والعلم في يده ينظر إلى الحشد بالأسفل. كان وجهه غريبًا ومبهجًا وساكنًا. ثم أبدى إيماءة وجيزة وألقى العلم، وشاهد آرون المزقة المبهرجة تتساقط نحو الوجوه الكثيرة، بينما ارتفع صوت الصراخ دون أن يُسمع.

وتصاعد لغط الحشد الذي توقف عن الحراك. ظل الصبي واقفًا دون حراك، واضعًا إحدى يديه خلفه، وهو ينظر إلى الأسفل من ارتفاعه الخطير في نوع من الذهول.

وما هي إلا لحظات حتى انتبه آرون لصوت الأبواق. واندفع فجأة كأنما من العدم جنود سلاح الكارابينيري الخضر - الرماديون[1] ونزلوا على الحشد بضربٍ عنيف بالهراوات. كان الأمر مفاجئًا جدًا لدرجة أن آرون لم يعد «يسمع» شيئًا. لقد كان يرى فقط.

وفي أقصى درجات الدهشة، رأى رجال الكارابينيري يندفعون نحو

الكارابينيري: هي قوات الدرك الوطني الإيطالية، وكانت تقوم بمهام الشرطة بين العسكريين والمدنيين وهي الآن فرع من القوات المسلحة إلى جانب الجيش والقوات البحرية والجوية.

الحشد بضراوة ودون تمييز: حشد متحمس جديد مفاجئ في زي رسمي يهاجم الحشد الأسود ويضربه بعنف بالهراوات. سادت لحظة غليان تحت في الشارع، وعلى الفور تقريبًا انفجر الحشد الأصلي في نوبة من الرعب والجنون وتناثر الجمهور كما لو أن شيئًا ما قد انفجر بداخله. حارب قليل من الرجال ذوي القبعات السوداء بشراسة لتحرير أنفسهم من الجنود الممقوتين؛ وفي وسط الارتباك ترنح بعض من الرجال وداروا حول أنفسهم ثم سقطوا. كانوا يتصارعون بين أرجل رفاقهم وجنود الكارابينيري. لكن الجزء الأكبر من الحشد تناثر وهرب في كل اتجاه. بدوا كأنهم يتناثرون ويلتصقون بالجدران مثل قطرات الماء. اندفعوا نحو أي مدخل، أي مدخل. قفزوا على الجدران وتسلقوا إلى نوافذ الطابق الأرضي. قفزوا على الجدران حتى حواف النوافذ، ثم قفزوا إلى الأسفل مرة أخرى وركضوا متسلقين، متلوين، مندفعين، راكضين في كل اتجاه؛ بعضهم مصابون تسيل الدماء على وجوههم، وقد تملك الرعب أو سعار الهروب من قلوبهم. ليس رعبًا بقدر ما هو سعار الهروب. وفي غمضة عين كان الشارع فارغًا.

وطوال الوقت، كان الصبي ذو الوجه الطويل والشعر الأشقر واقفًا هناك فوق السور الحجري، بينما يقف أربعة من رجال الشرطة الأقوياء في الشارع بالأسفل مصوبين مسدساتهم نحوه وهم يهددونه بإطلاق النار إذا أتى أية حركة. لذلك تسمر هناك، وهو لا يزال ينظر إلى الأسفل، واضعًا يده اليسرى خلفه، وقد صوبت إليه المسدسات الأربعة. لم يكن خائفًا بقدر ما كان يشعر بالخجل من نفسه بسبب موقفه المحرج.

وفي هذه الأثناء، تفرق الحشد في الأسفل، وذاب في غمضة عين. كان الكارابينيري مشغولين بالقبض على الرجال الذين سقطوا ودهستهم الأقدام، أو الذين استسلموا بحماقة؛ ستة رجال، ستة سجناء؛ أو ربما أقل. أمر الرقيب بالتحفظ عليهم بين جنوده. وأخيرًا، أُمر الشاب المحاصر في الأعلى الذي لم يزل تحت رحمة المسدسات، بالنزول. فاستدار بهدوء تام، وبإذعان شديد، وشق طريقه بحذر على طول الواجهة نحو أنبوب الصرف. وعندما وصل إليه بدأ بالنزول في إذلال. لقد كان هبوطًا حقيقيًا.

حال وصوله إلى الشارع، وجد نفسه محاطًا بالبزات الرمادية. تجمع

الجنـود في تشـكيلة نظامية وأصدر الرقيـب الأمر فتحركـوا مبتعدين، وكان الشاب الحزين أسيرًا بأيديهم.

ثـم سُـمعت بعـض صيحـات السـخرية والاحتجـاج المتفرقـة، وبعض صيحـات الغضـب والسـخرية ضـد الكارابينيـري. ومـرة أخرى شـوهدت عصائب من الرجال ومجموعات من الشباب على طول الشارع وهم يطلقون الصرخات من حين لآخر، ولكن من وراء أكتافهم، ثم يتظاهرون بأنهم ليسوا مـن صرخـوا. كانـوا خائفين مذلين من جديـد، ولـم يبذلوا أدنـى جهد لإنقاذ الشاب. ومع ذلك، فقد ظلوا يجوسون المكان، مستعدين للجولة القادمة.

وهكـذا، ابتعـد السـجين والجنود ذوو الـزي الرمادي والأخضـر، وتُرك الشـارع لمجاميـع وحلقـات صغيرة مـن الرجـال الناقميـن الأذلاء المثيرين للشفقة، وكلهم محبطون إلى أقصى الحدود. وأسدل الستار على المشهد.

نظـر آرون حولـه في حالة مـن الذهول. ثـم لاحظ للمـرة الأولى وجود شابين، أو سيدين شابين (كما قد يفضل القول) في الشرفة المجاورة لشرفته. كان الأول طويـل القامة ووسـيمًا ومتوردًا، إيطاليًا ربمـا. لكن الآخر بوجهه الشـاحب النحيل ونظارتـه الأحادية بدون إطار في عينـه، كان بالتأكيد رجلًا إنجليزيًا. إنه بالتأكيد أحد الضباط الشباب الذين حطمتهم الحرب. ارتسمت على وجهه في هذه اللحظة نظرة غريبة خبيثة أشـبه بنظرة طائر جذل، إذا كان للمـرء أن يتخيل ابتسـامة بارقـة لبومة بيضاء على الأحـداث التي مرت للتو، لـكان هذا هـو الانطباع الـذي تركه وجه الشـاب ذي النظـارة الأحادية على نفس آرون. أما الشـاب الآخر، المتورد الوسيم، فقد عقد حاجبيه في سخرية حزينة، وكان يسـترق نظرة فضول ودهاء عابرة على آرون، بينما ينقّل نظرات تكاد تشبع إثارته إلى أحد طرفي الشارع، ثم إلى الآخر.

– «لكن تخيل يا أنغوس، لقد انتهى كل شيء!» قال ذلك وهو يضع يده علـى ذراع الشـاب ذي النظـارة الأحادية، وقد اتسـعت عينـاه، دون أن يغفل عن إلقاء نظرة خاطفة ماكرة في اتجاه آرون.

– «هل رأيته يسقط!» أجاب أنغوس ببريق غريب آخر.

– «نعم. ولكن هل كان يتألم...؟»

- «لا أعرف. أظن ذلك. لقد سقط عائدًا من هناك على تلك الحجارة!»

- «ولكن يا له من مشهد رهيب! هل رأيت شيئًا كهذا من قبل؟»

- «لا إنه واحد من أطرف الأشياء التي رأيتها على الإطلاق. لم أر شيئًا كهذا قط، حتى في الحرب...

وهنا انسحب آرون إلى غرفته. كان عقله وروحه في دوامة. جلس على كرسيه ولبث مطولاً دون حراك. وعندما تحرك أخيرًا، أخذ الفلوت وعزف دون أن يعرف ماذا يعزف. لكن الغريب، الغريب أن روحه أو نصفها على الأقل قد تسللت إلى آلته. ولم تبق سوى ثفالة كبيرة، تستحيل إلى مرارة خالصة، أو تتخمر وتتحول إلى نبيذ الحكمة الذهبي القديم.

لم ينتبه إلى ناقوس العشاء، ولم يدفعه إلى النزول نحو المطعم إلا وصول خادمة الغرفة لترتيب المغسلة. أول ما رآه عند دخوله هو الشابان الإنجليزيان الجالسان إلى طاولة في الزاوية التي خلفه مباشرة. كان شعرهما ممشطًا باستقامة من جبهتيهما إلى الخلف، فبانت مقدمة رأسيهما ساطعة صافية، مبرزة كلا الوجهين الشابين كأنهما منقوشان على حجر كريم. كان أنغوس قد وضع نظارته الأحادية على الطاولة، وراح يتطلع في أرجاء القاعة بعينين واسعتين زرقاوين فاتحتين، محدقًا مثل واحد من الطيور، دون أن يبدو عليه أنه يرى شيئًا. من الواضح أنه كان وما زال مريضًا جدًا. بدا خداه وحتى فكه بدا منكمشًا وذابلًا تقريبًا. نسي عشاءه، أو لم يهتم به. ربما كان هذا هو الأصح. قال:

- «ما رأيك يا فرانسيس في وضع خطة لرؤية فلورنسا وسيينا وأورفييتو[1] في طريقنا إلى الجنوب، بدلًا من الذهاب مباشرة إلى روما؟» كان يتحدث بكلمات دقيقة وواضحة بشكل خاص، بطريقة المدارس العمومية، ولكن بلهجة قوية لجنوب ويلز. وجاء صوت فرانسيس الجميل:

- «لماذا يا أنغوس، أعتقد أننا قررنا المرور مباشرة عبر بيزا». وكان فرانسيس رشيقًا في كل شيء: في قامته الطويلة الأنيقة، في وضعيات رأسه الوسيم، وفي تموج صوته.

- «نعم، لكنني أرى أنه يمكننا الذهاب في أي من الاتجاهين، إما بيزا

1- Orvieto مدينة عريقة في إقليم أومبريا وسط إيطاليا.

أو فلورنسا. اعتقد أنه قد يكون من الجميل أن نتفرج على فلورنسا وسيينا وأورفييتو. أظنها جميلة جدًا» جاء صوت أنغوس الناعم والدقيق، وانتهى بلمسة من المشاعر الغريبة عند عبارة «جميلة جدًا»، كما لو كان استخدامها تجربة جديدة بالنسبة له.

- «أنا متأكد من أنها رائعة». قال فرانسيس بطريقته الواثقة والأنيقة «أنا متأكد تمامًا من أنها جميلة للغاية. حسنًا، إذن يا أنغوس. لنفترض أننا فعلنا ذلك إذن؟ متى نبدأ؟»

كان أنغوس هو اللحوح المتوتر. أما فرانسيس فكان منشغلًا تمامًا بأفكاره وحساباته وفضوله. فلقد كان رجلًا فضوليًا، إن لم نقل بالغ الفضول. وكان لديه الساعة شخص جديد يشغل تفكيره.

هذا الشخص الجديد هو آرون الذي جلس وأدار ظهره للشخصين الجديدين وهو يلتقط كل كلمة يقولانها بأذنيه الحادتين. كان ظهر آرون عريضًا بما فيه الكفاية، وكتفاه مربعتين، ورأسه صغيرًا بعض الشيء وجميلاً وحسن الشكل -وكان فرانسيس مفتونًا به. أراد أن يعرف إن كان الرجل إنجليزيًا. كان «يبدو» إنجليزيًا للغاية- مع أنه قد يكون، قد يكون دنماركيًا أو إسكندنافيًا أو هولنديًا. لذلك طفق الشاب الأنيق يراقب وكله آذان صاغية.

أصبح النادل الذي أحضر لآرون حساءه الآن حرًا وعلى أتم الاستعداد لتلقي المزيد من الطلبات.

- «ماذا تحب أن تشرب؟ النبيذ؟ الكيانتي[1]؟ أو النبيذ الأبيض أو البيرة؟» لقد تعمد إسقاط كلمة «سيدي» القديمة. فقد أصبحت بالية وبطل استعمالها الآن، أي منذ الحرب.

- «ماذا تقترح أن أشرب؟» قال آرون، الذي لم تكن معرفته بالنبيذ كبيرة جدًا.

- «نصف ليتر من كيانتي: هذا جيد جدًا»، قال النادل، بكبرياء الرجل الذي يعرف جيدًا كيفية تقديم أفضل الخيارات وتدريب الآخرين على الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه.

1- Chianti نبيذ إيطالي أحمر ينسب إلى المنطقة المسمى باسمها.

- «حسنًا» قال آرون.

يا للرنين المرحب لهذه الكلمة السحرية! *orye* كان هذا ما يريده النادل. «*orye*»! نعم! حسنًا! هذا هو اللب والنخاع ومجموع وجوهر اللغة الإنجليزية بالنسبة لأهل الجنوب! لم تكن «all right» بالطبع. إنها «orye». كلمة واحدة يتلقاها أغلب الندل الأجانب في لفظة واحدة. ربما كان الأمر فظًا للغاية لو أرغموا على معرفة أن «orye» الشهيرة مكونة في الواقع من كلمتين وأن إملاءها الصحيح هو «all right».

- «نصف ليتر شيانتي. «orye» قال النادل، وسنتركه يقولها بالطريقة التي يريد!

- «إنجليزي!» همس فرانسيس بطريقة ميلودرامية في أذن أنغوس «كنت أعتقد ذلك. إنه عازف الفلوت»

وضع أنغوس نظارته الأحادية، ونظر في كتفي آرون الغافل، دون أن يرى أي شيء على ما يبدو.

- «نعم» قال أنغوس وهو يحملق كالطائر «من الواضح أن اللغة الإنجليزية»

همس فرانسيس مؤكِدًا:

- «أوه، لكنني سمعته»

- «تمامًا» قال أنغوس «لكن لهجته مهذبة تمامًا»

- «أوه، لكن يا أنغوس يا عزيزي، إنه عازف الفلوت. ألا تتذكر؟ الجزء الإلهي الساحر من سكريابين[1]. على الأقل أعتقد أنه كان سكريابين. لكنه إلهي تمامًا!! أنا أعشق الفلوت أكثر من كل شيء» ووضع فرانسيس يده على ذراع أنغوس وأدار عينيه «ضع هذا في رصيد الرهان على زجاجة لاكريمي كريستي، إذا أردت»

- «نعم. وأنا كذلك» قال أنغوس وهو يسدد نظره مرة أخرى من خلال العدسة الأحادية، ولا يرى شيئًا. «أتساءل عم يفعل هنا»

ألكسندر سكريابين (1872-1915) مؤلف موسيقي روسي وعازف شهير يعده البعض أهم ملحن رمزي روسي وواحدًا من أكثر الملحنين ابتكارًا وإثارة للجدل في العصر الحديث.

- «ألا يجدر بنا أن نسـأله؟» قال فرانسـيس بصوت هامس شديد. «في نهاية المطاف، نحن الإنجليز الثلاثة الوحيدون في المكان»

- «يبـدو أننـا كذلك في الوقت الحاضر. لكـن الإنجليز موجودون في كل مـكان أينمـا ذهبـت، مثـل قشـور البرتقـال في الشـارع. لا تنـس ذلك يا فرانسيسكو»

- «لا يـا أنغـوس، لـن أفعل ذلـك. النقطـة المهمة هـي أن فلوته إلهي تمامًا، كما أنه هو نفسه يبدو جذابًا للغاية. ألا تعتقد ذلك؟»

- «أوه، مؤكـد» قـال أنغوس الذي لم تصل قـوة ملاحظته إلى أبعد من القماش الأسـود في ظهر سـترة آرون. أما وجود رجل داخلهـا فكان أمرًا لـم يتوقف بعد للتفكير فيه.

- «إنه موسيقار بمعنى الكلمة» قال فرانسيس.

- «من النوع الذي يرتزق من ذلك على الأرجح»

- «لكنه يعزف بشكل رائع. وهذا ما لا يمكنك التغاضي عنه يا أنغوس»

- «أنا أتفق معك تمامًا»

- «حسـنًا إذن؟ ألا تعتقـد أننـا قد نسـمعه مرة أخـرى؟ ألا تعتقـد أننا قد نجعله يعزف لنا؟ سأحب هذا أكثر من أي شيء»

- «نعم، وأنا كذلك. يمكنك أن تدعوه إلى بعض القهوة والشراب»

- «أود ذلك إلى أبعد حد. ولكن هل يحسن بي أن أفعل ذلك؟»

- «نعـم بالتأكيد. لن يمانع في قبول القهوة والشـراب. يمكننا أن نقدم له شيئًا لائقًا. أين النادل؟»

رفـع أنغـوس وجهه الحليق القبيـح ونظر حوله باحثًا عـن النادل. وإذ لم يكـن للأخير الكثير ليفعله، فقد شـعر بأنه مسـتعد لاجتـذاب هذين الطائرين الصغيرين الغريبين، ولبى طلب استدعائه.

- «أين قائمة النبيذ؟ ما هي المشروبات التي لديك؟» سأل أنغوس دون مقدمات.

تلا النادل قائمة تبدأ بمشروب ستريجا وتنتهي ببراندي الكرز.

- «جرانـد مارنييـه». قال أنغوس: «واتـرك الزجاجة علـى الطاولة» ثم

ألقـى نظرة ظافرة تشـبه نظرة طائر شـرير على فرانسـيس الـذي عض إصبعه في وجوم، وحدق بعينين مترددتين وسـيمتين داكنتي الزرقة في السيد آرون، الـذي كان يسـتعرض طبـق الفواكـه المتكونة مـن رمانتين قديمتيـن إلى حد مـا وعـدد من حبات التفاح الأصفر الشـاحب، مع رشـة مـن التين المجفف الذابل. كانت كلها تبدو في هذه اللحظة كأنها مرتبة في لوحة طبيعة صامتة.

- «ولكـن هـل تعتقد أنني قد...؟» قال فرانسـيس في مزاج متردد، فزم أنغوس شفتيه في ابتهاج.

- «ولم لا؟» قال: «لا أرى سبباً يمنعك من ذلك»

عندهـا تنحنـح فرانسـيس وتخلص من منديلـه ووقف علـى قدميه ببطء ولكن برشـاقة. ثم اسـتجمع نفسـه، واتخذ الهيئة التي رغب في اتخاذها في تلك اللحظة. هيئة لا مبالية لطيفة، نصف سـاذجة ونصف متحمسـة. ثم عبر إلى طاولة آرون، ووقف مسترخيًا مستندًا إلى أحد وركيه بلطف، وانحنى إلى الأمام بطريقة واثقة وقال:

- «اعذرني. لكن يجب أن أسألك إذا كنت أنت من سمعناه يعزف على الفلوت بهذه الروعة، قبل العشاء مباشرة»

كان الصـوت حميمًا ولطيفًا. نظر آرون، الذي تخلص من ضغوط العالم ورأى الحيـاة مـن جديد في الوهـج الوردي لنصف ليتر من مشـروب كيانتي القديـم الفاخـر -وقـد انتهت الحـرب للتو- إلـى عيني صديقنا فرانسـيس الزرقاوين الداكنتين الذكيتين المتكيفتين، وهو يبتسم قائلًا:

- «نعم، لقد رأيتك في الشرفة أيضًا»

اندفع فرنسيس قائلًا:

- «أوه، هل لاحظتنا؟ لكن ألم يكن ذلك حدثًا غير عادي؟»

- «جدًا» أجاب آرون «لم أستطع أن أستوعب الأمر. ماذا عنك؟»

- «أوه»، صـاح فرانسـيس «لـم أحاول ذلـك. الأمر كلـه جديد ومعقد للغاية بالنسبة لي. ولكن ربما تعرف إيطاليا؟»

- «لا، لا أعرفها»

- «ولا نحـن. إننا نشـعر بالذهـول إلى حد ما. لقد وصلنـا للتو. أوه!»

ووضـع فرانسـيس يـده علـى جبينـه الجميـل وأدار عينيـه «مـا زلـت أشـعر بالإرهاق التام»

وهنا سـمح لنفسـه بأن يغوص بطريقة ودية في الكرسـي الشاغر المقابل لكرسي آرون الذي قال:

- «نعم، أظن أن الأمر كان مثيرًا بعض الشيء. أتساءل عما سيحدث له»

- «- من؟ أتقصد الذي تسلق نحو العلم؟ لا! — ولكن ألم يكن الأمر رائعًا تمامًا! أوه، لا يصدق، لا يصدق أبدًا! ثم جاء فلوتك ليختم كل شـيء! أوه! شعرت أن هذا ما كان ينقص - لم أستفق من الصدمة بعد. لكن عزفك كان رائعًـا، رائعًـا حقًّا. هل تعلم، لا أسـتطيع أن أنسـى ذلك. أنت موسـيقار محترف بالطبع»

- «إذا كنـت تقصـد أنني أعـزف من أجل لقمة العيـش. لقد عزفت في فرق الأوركسترا في لندن»

- «بالطبـع! بالطبـع! كنت أعلم أنـك محترف بالتأكيـد. لكن ألا تقوم بتقديم حفلات خاصة أيضًا؟»

- «لا، لم أفعل ذلك قط»

- «أوه!» صاح فرانسـيس وهو يمسـك أنفاسـه «لا أسـتطيع أن أصدق ذلـك. لكنك تعزف بشـكل رائـع! أوه، لقد أحببت عزفك حقًّـا. لقد جرفني بعيدًا بعد ذلك المشهد في الشارع. بدا كأنه يلخص كل شيء، كما تعلم»

- «حقًّا؟» قال آرون، متجهمًا إلى حد ما.

- «لكـن ألن تأتـي وتتناول القهـوة معنا على طاولتنا؟» قال فرانسـيس «سيكون هذا موضع سعادتنا، إذا كنت ترغب في ذلك»

- «نعم، شكرًا لك» قال آرون وهو نصف ناهض.

قال فرانسيس وهو يضع يده بحنو أبوي على ذراع الرجل الآخر:

- «لكنك لم تتناول حلواك»

نظر آرون إلى اليد المحتجزة وقال:

- «الحلوى ليست كثيرة بما يستحق التوقف من أجلها. يمكنني أن آخذ معي ما أريد» والتقط حفنة من التين المجفف. وذهب الاثنان إلى طاولة أنغوس.

- «سوف نتناول القهوة معًا» قال فرانسيس راضيًا عن نفسه وهو يلعب دور المضيف بتأكيد لطيف. كان مسليًا وساحرًا إلى حد ما.

- «نعم» قال أنغوس «أنا سعيد جدًا»

فلنتغاضَ عن الاستعراض: لقد كان لطيفًا عن عمد. لكنه كان سعيدًا جدًا؛ لكونه قادرًا على أن يكون لطيفًا جدًا. أي شيء لنوال قليل من استمرار الحياة: وخاصة القليل من الحياة السعيدة. نظر بارتياح إلى وجه آرون الجميل المدفأ بالنبيذ وقال:

- «تناول كأسًا من الجراند مارنييه. أنا لا أعرف مدى سوئه. كل شيء سيئ الآن. إنهم يلقون باللوم على الحرب حتى في هذا. لقد كان مشروبًا لائقًا تمامًا. لا أعرف ما علاقة الحرب بسوء المشروبات»

اتخذ آرون مقعده إلى طاولتهما، وقال فرانسيس:

- «لكن دعنا نقدم أنفسنا. أنا فرانسيس -أو إذا شئنا الحقيقة- فرانز ديكر. وهذا هو أنغوست غيست، صديقي»

- «واسمي آرون سسن»

- «ماذا! ماذا قلت؟» قال فرانسيس وهو يميل إلى الأمام. وكان يتمتع أيضًا بأذن مرهفة.

- «آرون سسن»

- «آرون سسن! أوه، ولكن كم هذا ممتع! يا له من اسم لطيف!»

- «ليس أفضل منك، أليس كذلك؟»

- «اسمي! فرانز ديكر!» قال فرانسيس في مكر «أوه، أعتقد أن اسمك أكثر لطفًا».

- «أوه، حسنًا، إنها مسألة رأي. أنت مالك الأوراق الرابحة؟ وليس أنا»

- «مالك الأوراق الرابحة!» قال فرانسيس متخابثًا «لماذا، ماذا تقصد؟» وأدار عينيه بشكل ملحوظ. «ولكن هل يمكنني تقديم صديقي أنغوس غيست»

قال أنغوس:

- «لقد قدمتني بالفعل يا فرانسيسكو»

- «آسف جدًا» قال فرانسيس.

- «غيست» قال آرون.

فجأة بدأ فرانسيس بالضحك ثم سأل في ود:

- «هل يمكن أن لا يكون ضيفًا؟»[1]

قال آرون:

- «محتمل جدًا. لم أكن يومًا جيدًا في التخمين»

أمال فرانسيس حاجبيه. ولحسن الحظ وصل النادل ومعه القهوة.

قال فرانسيس:

- «أخبرني، هل ستشرب قهوتك سوداء أم مع الحليب؟» كان عازمًا على استعادة لهجته الرزينة. واحتسوا القهوة في وقار.

- «أنتما موسيقيان أيضًا؟» سأل آرون.

- «لا، نحن رسامان. سنعمل في روما»

- «لكسب الرزق؟»

- «ليس بعد»

إن مقدار التكتم والتواضع والتحفظ الذي وضعه فرانسيس في هاتين الكلمتين دفع آرون إلى الاعتقاد بأنه يتعامل مع شابين متميزين حقيقيين حقًّا.

- «لا» تابع فرانسيس «كنت قد وصلت للتو من أكسفورد عندما اندلعت الحرب. وكان أنغوس قد قضى حوالي عشرة أشهر في سليد[2] - لكنني كنت أرسم دائمًا، لذا سنعمل الآن بجد، في روما، لتعويض ما فقدناه من وقت. أوه، لقد خسر المرء الكثير من الوقت في الحرب. وما أثمنه من وقت! لا أعرف إن كان للإنسان أن يقوم بذلك مرة أخرى»

أمال فرانسيس حاجبيه الوسيمين ووضع رأسه على جانب واحد بنظرة حكيمة منزعجة.

- «لا» قال أنغوس «لن يتمكن أحد أبدًا من تعويض ذلك. ناهيك عن

1- في الجملة تلميح إلى اسم الشخصية Guest الذي يعني الضيف.

2- سليد كلية الفنون الجميلة في جامعة لندن.

أنـه لـن يتمكن أبدًا مـن البدء من حيث توقـف. لقد غدونـا عجائز محطمين بمعنى ما. لكننا، بمعنى آخر، مجرد أطفال من زمن ما قبل الحرب»

نطـق جملته الأخيرة بفظاظة غريبة وتعليمية مما دفع آرون إلى فتح عينيه على وسعهما. كان لدى أنغوس هذا الأسلوب الغريب: فقد بدا كأنه يحاضر في دائرة أفكاره الخاصة ولا يخاطب مستمعيه.

لذلك أصغى المستمع إلى التخوم الخارجية من أفكار الشاب المزدحمة. بدا فرانسـيس في حالة من الضيق، وترك انتباهه يهيم. بينما زم أنغوس شفتيه واتسـعت عينـاه بنـوع مـن المتعة، مثـل بومة شـريرة أطلقت للتو نذير شـؤم أشعرها بالسرور.

وخاطب فرانسيس آرون:

– «أخبرني. أين كنت طوال الحرب؟»

– «كنت أقوم بعملي» أجابه آرون مما قاده إلى شرح خلفيته.

– «حقًا! إذن موسـيقاك جديدة تمامًا! يا له من أمر مثير!» هتف فرانسيس فاضطر آرون إلى مزيد من التوضيح.

«وهكـذا فـإن الحـرب لـم تؤثـر عليـك كثيـرًا؟ ولكـن مـا هـو شعورك شخصياً؟»

– «لـم أشـعر بالكثير. لـم أكن أعرف ما أشـعر به. كان لـدى الآخرين الكثير من المشاعر، اعتقدت أنه من الأفضل أن أبقي فمي مغلقًا»

– «نعم تمامًا!» قال أنغوس. «كان لدى كل شـخص الكثير من المشـاعر نيابة عن الآخرين، لدرجة أنه لم يكن لدى أي شخص الوقت الكافي لإدراك ما شـعر به بنفسـه. أعلم أنني كنت هكذا. جاءتني المشاعر كلها من الخارج: مثـل الذبـاب الذي يسـتقر على اللحـم. قبل أن أعـرف مكاني، اسـتهلكتني مجموعـة مـن المشـاعر، ووجـدت نفسـي في الخنـادق. اللـه يعلـم لماذا. ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول الخروج من سـرب مشـاعري التي تطن داخلة وخارجـة من رأسـي دون أن تكـون لي أية علاقـة بها. لقد أدركـت ذلك في المستشفى. إنه تمامًا مثل محاولة الهروب من سرب من الذباب القذر. وكل واحدة تقتلها تجعلك تشعر بالغثيان، لكنها لا تقلل من السرب»

ومرة أخرى زم أنغوس فمه ولوى أنفه فبدا كأنه بومة بيضاء شريرة راضية. ثم لمّع نظارته الأحادية بمنديل حريري رائع وثبتها في عينه اليسرى دون أن يرى شيئًا.

لكن فرانسيس لم يكن مهتمًا بتجارب صديقه، فقد كانت لديه وظيفته في المكتب الحربي، بينما لم يكن أنغوس غير بطل حرب بأعصاب محطمة. دعه يقلل من تجاربه الشخصية بقدر ما يريد، فقد حافظ الشاب ذو العدسة الأحادية على مكانته كبطل حرب، ولكن لنفسه فقط. ولم يصر بأي حال من الأحوال على أن تنهش الحرب أي إنسان غيره.

كان فرانسيس واحدًا من هؤلاء الرجال الذين يمكنهم، مثل النساء، خلق سيل متعاطف متدفق ودفع المقابل إلى ترك العنان لنفسه دون أن يدرك ما يفعله. وهكذا جلس صديقنا آرون وهو يحرر نفسه من كل تاريخه وتجاربه، منجذبًا بكل انتباه إلى فرانسيس الوسيم اللطيف والدقيق. واستمع أنغوس أيضًا وقد بدا السرور على وجهه الشاحب الهزيل وهو يزم فكه المنكمش. واحتسى آرون كؤوسًا مختلفة من الشراب وروى قصته كلها كما لو كانت كوميديا. بدا الأمر كوميديًا أيضًا في تلك الساعة. ولقد كان كوميديًا بلا شك. لكنه مختلط مثل معظم الأشياء في هذه الحياة. مختلط.

كان الوقت قد تأخر كثيرًا قبل أن تنتهي جلسة تحضير الأرواح هذه، وكان النادل متلهفًا للتخلص منهم.

- «حسنًا، الآن» قال فرانسيس وهو ينهض عن الطاولة ويستند إلى خصره الأنيق، مستريحًا كعادته على ورك واحد «سنراك في الصباح، كما آمل. أنت تقول إنك ذاهب إلى فينيسيا. لماذا؟ هل لديك أية ارتباطات هناك؟»

- «لا كنت أروم البحث عن صديق: راودون ليلي»

- «راودون ليلي! لماذا، هل هو في البندقية؟ أوه، لقد سمعت الكثير عنه. أود كثيرًا أن ألتقي به. لكنني سمعت أنه كان في ألمانيا...

- «أنا لا أعرف أين هو»

- «أنغوس! ألم نسمع أن ليلي كان في ألمانيا؟»

- «نعـم، في ميونيخ، بعـد أن خضع للتحليل النفسـي، أعتقد أن الأمر كان كذلك»

بدا آرون مشدوهًا إلى حد ما.

- «ولكن هل لديك أي شيء يأخذك إلى البندقية؟ إن مناخها سيئ في الشتاء. لماذا لا تأتي معنا إلى فلورنسا؟» قال فرانسيس.

وتـردد آرون. إنه لا يعرف حقًّا ماذا يفعل. وقال فرانسـيس وهو يضع يده على ذراع آرون:

- «فكر في الأمر هذه الليلة. وسنلتقي في الصباح. متى يناسبك؟»

- «في أي وقت»

- «حسـنًا، فلنقل في الحادية عشـرة. سـنلتقي في الصالة هنا في السـاعة الحادية عشرة. هل هذا يناسبك؟ حسنًا إذن. لقد سعدنا جدًا بلقائك. إن لك فلوتًا رائعًا. وفكرْ في فلورنسا. تعالَ إذن ولا تخيب ظننا»

وصعد الشابان السلالم في رشاقة إلى الطابق العلوي.

الفصل الخامس عشر
رحلة السكة الحديدية

بعـد يومين انطلق الثلاثـة إلى فلورنسـا. كان آرون قد قـام بجولة خارج ميلانو مع البطلين الشـابين، وتناول العشـاء معهما لاحقًا في أغلى مطعم في المدينـة. ثم عـادوا جميعًا إلى مقر إقامتهم، وجلسـوا في غرفة نوم الشـابين يشـربون الشـاي، بينما كان آرون يعزف على الفلوت. كان فرانسيس مندمجًا مع الموسـيقى ومسحورًا بها، وسرَّ أنغوس بهذا التجديد، وبالرعاية المعتدلة التي كان قادرًا على منحها، فاستمتع آرون بذلك، وأمل بأن يجازيه على هذه الرعاية.

وهـا هـم ينطلقـون إلى فلورنسـا في الصبـاح الباكـر. كان لـدى أنغوس وفرانسـيس تذكرة من الدرجة الأولى: بينما اشـترى آرون تذكرة من الدرجة الثالثة. قال أنغوس:

- «تعال وتناول الغداء معنا في القطار. سـأطلب ثلاثة أماكن، ويمكننا تناول الغداء معًا»

فاعتذر آرون قائلًا:

- «أوه، أستطيع شراء بعض الطعام من المحطة»

- «لا، تعال وتناول الغداء معنا. سيكون هذا أجمل بكثير» قال أنغوس، ثم أردف «نحن أيضًا سنستمتع بذلك»

- «بالطبع! سـيكون هذا أجمل بكثير! بالطبع!» هتف فرانسـيس «نعم، لمَ لا، في الواقع! لماذا تتردد؟»

- «حسنًا إذن» قال آرون دون أن يخلو من بعض الشعور بالإكراه.

ثـم انفصلـوا. جلس الشـابان وسـط القطيفـة والمخمل الأحمـر، وكانا يبدوان، بشـعرهما الملمع المنسـاب إلـى الخلف، كأفضل مـا يتوقعه المرء من مسـافرين في الدرجة الأولى، وهو ما خلق الانطباع الصحيح تمامًا على الحمالين والمسـافرين الإيطاليين. توجه آرون إلى الدرجة الثالثة، في أقصى القطار، وهتف فرانسيس:

- «حسنًا، إلى اللقاء، حتى الغداء»

كان القطـار ممتلئًـا إلى حد ما فـي الدرجتين الثالثـة والثانية. إلا أن آرون حصـل على مقعـد وأحضر الحمـال حقائبه بعدمـا انتهى من أمتعة الشـابين فنفحـه آرون البقشـيش بغيـر ارتياح، فلقـد كان يكره البقشـيش، حيث بدا له مهينًـا في كلا الاتجاهيـن. وكانت ثقة الفارسـين الشـابين المتعالية بالنفس، وهما يسـتقران بين القطيفة الحمراء وتذلل الآخرين، ويقولان «حسـنًا، إذن، إلـى اللقـاء حتى الغـداء» مزعجـة إلى حد غريـب، على الرغم مـن أنهما لـم يقصدا ذلك. قال آرون لنفسه:

- «يظن الحمَّال أنني خادمهما، مجرد مسـتخدم لديهما» والتمعت في وجهـه نظرة غريبة بين الاسـتمتاع والازدراء. لقـد أزعجه هذا. كان الزيف الناجم عن الفرق في أسـعار التذاكر مهينًا حقًّـا. لقد عاش آرون فترة كافية ليعرف أنه فيما يتعلق بالرجولة والذكاء -بل وحتى التعليم- لم يكن أدنى مرتبة من «السيدين» الشابين. لقد كان يعلم جيدًا أنهما، فيما يتعلق بالطبيعة الجوهريـة، لم يتخيلاه شـخصًا أقل شـأناً، بل على العكـس من ذلك. لقد كان لديهمـا بالأحرى احترام مبالغ فيـه له ولطاقته الحيوية، وحتى لأصله. ومـع ذلـك، كانـا يتمتعان بامتيـاز الثراء الـذي لا يقدر بثمن، وكانـا ينويان الاحتفـاظ بـه. لقد كانا يعلمان أن الأمر لم يكن أكثر من مجرد تفوق نقدي مصطنع. لكنهما استمسكا به بقوة أكبر. إنهما ينتميان إلى الطبقة المتوسطة العليا. إنهما قادمان من إيتون[1] وأكسـفورد. وهما يتمسـكان بامتيازاتهما،

كلية إيتون، وغالبًا ما يشار إليها باسم إيتون بشكل غير رسمي، هي مدرسة داخلية بريطانية خاصة راقية تقع في إيتون، بالقرب من وندسور في إنكلترا. يدرس فيها أكثر من 1300 تلميذ تراوح أعمارهم بين 13 و18 عامًا، أسسها الملك هنري السادس في عام 1440.

فالأحمق فقط من يتنازل عن امتيازاته في هذه الأيام قبل أن يجبر على ذلك. وهكذا:

- «حسنًا إذن، إلى اللقاء حتى الغداء»

لقد كانا لطيفين للغاية. في باطنهما لم يكونا متعاليين ليتنازلا ولكن من الناحية الاجتماعية، كان عليهما أن يكونا كذلك. العالم مصنوع هكذا. لم يكن خطأهما، بل لم يكن خطأ على الإطلاق. لقد كان الأمر مجرد الطريقة التي تعلما بها، وأسلوب معيشتهما. وكما نعلم، الأسلوب هو الإنسان[1]

ينحدر أنغوس من أثرياء الحديد بالقرب من ميرثير[2] وكان لديه بالفعل دخل جيد للغاية سيؤول إليه بمجرد تسوية الأمور القانونية المتعلقة بوصيتي والده وجده. سيكون في وضع جيد، وهو يعرف ذلك ويقدر نفسه وفقًا له. أما فرانسيس فكان نجلًا لمحامٍ وسياسي مرموق في سيدني، وكان سيرث في الوقت المناسب لقب البارون الذي حصل عليه والده مؤخرًا. لكن فرانسيس لم يكن لديه الكثير من المال، وكان أكثر مرونة طبقيًا من أنغوس. وُلد أنغوس في منزل فيه حدائق غناء، ولأسلاف أقوياء الإرادة مولعين بالمال. لكن فرانسيس انحدر من عائلة فضفاضة، سريعة الانفعال، وأكثر ميلًا إلى المغامرة. وكان يتمتع بالميل إلى التحديث الاستعماري والقدرة على التكيف. لقد كان يعلم من جانبه، أن التفوق الطبقي مجرد خدعة في أيامنا هذه. ومع ذلك، فقد كانت خدعة ناجحة. وكان سيمارس الخدعة طالما أنها ستأتي أُكلها.

وبينما كان آرون جالسًا، شاحب الوجه بعض الشيء، ساكنًا، متفكرًا في هذه الأمور وقد ارتسمت على محياه نظرة متعكرة، إذا به يسمع صوتًا:

- «أوه، ها أنت ذا! اعتقدت أنه من الأفضل أن آتي وأرى، حتى نتمكن من إحضارك في وقت الغداء. هل لديك مقعد؟ هل تشعر بالارتياح؟ هل يمكنني أن أقدم لك شيئًا؟ آه، أنت لا تدخن! ولكن هذا لا يهم، الجميع سوف يدخن. هل أنت متأكد من أن لديك كل شيء؟ أوه، ولكن انتظر لحظة واحدة فقط»

1- بالفرنسية *le style, c'est l'homme*

2- منطقة صناعية جنوبي ويلز.

كان فرانسيس، طويلًا ووسيمًا، بكتفيه المستقيمتين ومعطفه ذي الأزرار الذي يظهر خصره، ووجهه الجميل العصري، العصري تمامًا. كان في صوته تموج محبب لا يتسم بالعجالة. لقد بدا الآن كما لو أن فكرة ما قد نزلت عليه، فوضع إصبعه على جبينه، وأسرع عائداً إلى عربته، وبعد دقيقة عاد بعدد جديد من مجلة لندن الأدبية[1]

- «ثمة شيء يجب قراءته. يجب أن أسرع بالعودة. أراك على الغداء»

واستدار وأسرع في حركة رشيقة ولكن غير متعجلة، عائدًا إلى عربته. وكان العتال يمسك الباب له. وهكذا بدا عليه مظهر من العجالة اللطيفة المحببة، لكنه لم يكن متسرعًا بأي حال من الأحوال. أوه، عزيزي، لا لقد أخذ وقته. لم يكن من حقه أن يندفع ويتدافع مثل أي مواطن إيطالي.

راقب الناس في عربة آرون ظهور الشاب الأنيق باهتمام شديد. إنه بالنسبة لهم كائن من عالم آخر، نبيل إنكليزي شاب يرفل في نعيم السلطة والثروة والحياة الساحرة. وهذا ما كان فرانسيس ينوي إيصاله بالضبط. وسيم جدًا، مثير للإعجاب جدًا جدًا، بكل بهائه الهادئ الأنيق. لقد صنع مثل هذه الشخصية الجميلة الآسرة، وهذا بالضبط ما أحبه الإيطاليون فيه. ظنه ركاب الدرجة الأولى إيطاليًا، فقد كان جذابًا للغاية.

القطار المتحرك، والعيون الإيطالية العديدة في العربة درست آرون. وكان هو أيضًا حسن المظهر. ولكن بأي حال من الأحوال ليس رائعًا مثل السيد الشاب، ولا في نصف إثارته للتعاطف. إنه ليس صالحًا على الإطلاق للعب أي دور. ربما كان خادمًا للسيد الشاب.

حدّق آرون من النافذة، ولعب الدور البريطاني الوحيد المتبقي له، وهو تجاهل جيرانه وعزل نفسه وسطهم والاهتمام بشؤونه الخاصة. على هذه الخدعة المنعزلة تعتمد عظمتنا وهيمنتنا التي نعيشها. نعم، قد ينظرون إليه. وقد يحسبونه خادمًا أو ما شاءوا. لكنه لم يكن في متناولهم. لقد عزل نفسه على نفسه، وبقي هناك.

1- London literary magazine عنوان لست مجلات أدبية صدرت بالتعاقب منذ عام 1732 إلى وقتنا الحاضر

كان يومًا جميلًا، يومًا جميلًا جميلًا في أوائل الخريف. فوق سهل لومبارديا[1] العظيم توهجت سماء زرقاء رائعة مثل سماء منتصف الصيف، وأشرقت الشمس بقوة. كم كان جميلًا هذا السهل الكبير، بخطوطه الزراعية الكبيرة التي لا تفصلها أسيجة أو حدود! كان يرى أحيانًا ثيرانًا تحرث الأرض. آه، جميلة جدًا، مواكب من ثمانية أو عشرة، أو حتى من اثني عشر ثورًا شاحبًا ضخمًا أملس تحرث الأرض المخملية السمراء، وسائقًا يلوح بسوطٍ كبير فوق رؤوسها، ورجلًا في الخلف يمسك بأعمدة المحراث. جميلة حركة الغطس الناعمة للثيران التي تتحرك للأمام. جميل هو رفعها الأفعواني الغريب لأخطامها، وتمايل القرون الحادة وحركة الزحف السلسة لزوج من الثيران يكاد يكون غير مرئي تمامًا، لكن لا مفر من النظر إليها. وبين الحين والآخر كانت قنوات المياه المستقيمة تومض بلونها الأزرق، أو ترتفع الخطوط العظيمة لقامات أشجار الحور الرمادية الفضية وتصنع طرقًا أو مربعات رمادية جميلة متجددة الزوايا وأشكالاً رباعية عبر السهل. وكانت أغصانها العليا متلألئة بأوراق ذهبية وخضراء، أما أوراق العنب فقد زهت بألوانها الذهبية والحمراء كما النقوش، وانتصبت المساكن الريفية المربعة الكبيرة البيضاء ذات السقوف الحمراء في ما حولها من أرض، عارية وسط الأراضي، بلا حجب أو رتوش. ثمة شيء كبير ومكشوف في كل ما يرى. اختفت كل كمائن الحياة الإنجليزية المريحة، اختفى ذلك الصغر الوثير للمناظر الطبيعية. هنا لا شيء سوى الضخامة. ليس هنا ما يحيط بالروح التي لا تعرف الانكماش. كل شيء مكشوف، مكشوف للسهل المكتسح، للسماء العالية القوية، وللنظرة البشرية. إنه نوع من الجرأة واللامبالاة. لقد تأثر آرون وانبهر. نظر باهتمام جديد إلى الإيطاليين الذين كانوا معه في العربة، لنفس هذه الجرأة واللامبالاة والإيماء الصريح، ووجدها فيهم أيضًا، وفتنته من جديد. لقد بدت أكبر بكثير، كما لو أن جدران الحياة قد تداعت. كلا، جدران الحياة الإنجليزية يجب أن تتداعى هي الأخرى.

حين جلس هناك، في عربة الدرجة الثالثة، أحس بالسعادة من جديد.

1- لومبارديا أو لومباردي مقاطعة إيطالية شمالية كبيرة ومركز سكاني واقتصادي مهم تحدها سويسرا من الشمال. أهم مدنها ميلانو وهي ثاني أكبر المدن الإيطالية.

لـم يكن وجود بقية الركاب عائقًـا كبيرًا كما هو الحال في إنجلترا حيث يبدو الجميع مقيدين وموثقين بإحكام دون أدنى قدر من الحرية، وحيث يبدو كل راكب مثل طرد متشـبث بخيطه بأكثر ما يسـتطيع من قوة خشية أن ينفك أحد أركان الغلاف ويكشـف مـا بداخله، وحيث كل راكب آخـر مجبر، بموجب الإرادة العامة، على تقييد نفسه أيضًا. الأمر الذي يستحيل في النهاية إلى نوعٍ من الجنون الواعي ذاتيًا.

لكـن هنا، في عربة الدرجـة الثالثة، لم يكن هناك خيط محكم يحيط بكل رجل. ولم يكونوا جميعهم مربوطين وموثقين بسلسلة واعية بذاتها مشدودة مثل ديوك التسمين المخصية. وكان لديهم القدر الكافي من القسوة الشديدة واللامبالاة ورباطة الجأش الطبيعية. صحيح أن أحدهم كان يرسـل بصقات كبيـرة باسـتمرار على الأرض، وأن واحـدًا آخر حذاؤه مفتـوح وياقة قميصه والعديـد مـن أزراره مفكوكـة. يبدو أنهـم لا يهتمون إذا ظهـرت أجزاء منهم مـن خلال الفجـوات الموجودة في الغـلاف. أجفـل آرون، لكنه فضل ذلك على التشـدد الإنجليزي. لقد كان سـعيدًا، سـعيدًا بالإيطاليـن وفكر كم هم كرماء وطبيعيون.

مـرت المدن والسـاعات تباعًا، وأخذ أخيـرًا بالتحرر من نفسـه وأحواله القديمـة. بـدا الأمـر كأنه هروب عظيم. لقد رأى سـحر الحيـاة مرة أخرى - سـحرها الحقيقي. هـل كان وهمًا أم حقيقـة؟ كان يعتقد أنهـا حقيقية، وفتح روحه كما لو لم يكن من خطر.

جـاء وقت الغـداء. اسـتدعى فرانسـيس آرون إلـى نهاية القطـار الهزاز. كان لدى الرجال الثلاثة طاولة خاصة بهم، وشـعروا جميعًا أنهم يسـتمتعون بوقتهم كثيرًا. ترك فرانسيس وأنغوس انطباعاً رائعًا مرة أخرى كما هو متوقع. لكن فـي عربة الطعام كان معظم الإيطاليين من موسـري الطبقة المتوسـطة. وهؤلاء لم ينظروا إلى بطلينا الشـابين باعتبارهما أعجوبتين فتيتين، بل بشيء من النقد والحسـد الطبقي. لكنهم أعجبوا بهمـا. أوه، لقد أعجبوا! وكيف لا يحصل هذا عندما يكون للسيدين الشابين مثل هذا المظهر؟ كان آرون يدرك طـوال الوقت أن رفاق المطعم كانـوا متأثرين عن حق بزهرة الحضارة وملح الأرض، أي الشـباب الإنجليز الأثرياء بالتحديد. وكان لديه هاجس طفيف،

قد يكون قائمًا على خبرته، بأن رفاق الرحلة لن يغفروا في النهاية أبدًا للرجل الـذي «أبهرهم». الإنسـان يحب أن يكـون مبهورًا. أنه يسـعى وراء الانبهار، بـل يكاد يجبر أولئـك الذين يمكنه إجبارهم على لعب دور وإحداث انطباع. وبعد ذلك لا يغفر أبدًا.

عندمـا وصـل القطـار إلى محطـة بولونيـا[1] لم يكونـوا قد غـادروا عربة المطعـم. ولـم يذهبـوا على الفور إلـى مقاعدهم. لقد دفع آنغـوس الفاتورة. كان هناك ثلاثة أرباع الساعة من الانتظار في بولونيا. قال فرانسيس:

- «يمكنـك إن أردت أن تأتـي وتجلـس معنـا. مـا من أحد سـوانا في العربـة، فلمـاذا لا نبقـى جميعًا معًـا أثناء الانتظـار. لقد احتفظـت بمقعدك، على ما أعتقد»

لا، لقـد فاتـه ذلـك. وعندما ذهـب للبحث عنـه، اكتشـف أن أحدهم قد احتلـه، كان رجـلًا قـوي البنية وقـد خلع للتـو ياقته ولف حـول رقبته منديلًا أبيض. كانت عربـات الدرجة الثالثة مكتظة، فهي الأيام الأولى بعد الحرب، حيث لا يزال الرجال يحتفظون بمفاهيم ما قبل الحرب وكانوا فقراء. سـوف تمر عشـرة أشهر دون أن يشـعر بها أحد، وسـتحدث الثورة الغامضة وتكتظ الدرجـة الثانيـة والدرجـة الأولـى بشـكل لا يوصـف فـي جميـع القطارات الكبيـرة: وسـتكون عربات الدرجة الثالثـة، يا للعجب، فارغة نسـبيًا. آه، أيام الإفلاس العجيبة، عندما لا يتنازل أحد ويسافر في الدرجة الثالثة!

ومـع ذلـك، كانـت هـذه هـي الأشـهر المتواضعـة والكئيبة بعد السـلام مباشـرة. فجلس على كرسـي آرون رجل كبير ذو رقبة سـمينة ومنديل أبيض وياقتـه فوق ركبته. نظر آرون إلى الرجل وإلى أمتعته التي كانت فوق رأسـه. رآه الرجل السمين وهو ينظر إليه، فحدّق فيه هو الآخر، ثم حدق في الأمتعة فوق رأسـه: وبإيماءته الشمالية الإيطالية غير المرئية قال بشكل أوضح بكثير من الكلمات:

- «اذهب إلى الجحيم. أنا هنا وسأبقى هنا»

1- بولونيا Bologna في الشمال الأوسط الإيطالي وهي واحدة من أعرق المدن الإيطالية وأكثرها تقدمًا اقتصاديًا وعلميًا وفيها جامعة بولونيا الشهيرة.

كان هنـاك شـيء متغطـرس وقح وغير محتمـل في المنظر، وفـي الثبات الصخري للرجل الضخم الذي جلس كأنه قد تجذر في مقعده بوقاحة. احمر آرون قليلًا. تمشـى فرانسـيس وأنجوس على طول القطار، في الخارج، لأن الممر كان مسـدودًا بالفعل بسبب الأمتعة والاندفاع المجنون في بولونيا. ثم انضما إلى آرون وهو واقف على المنصة.

- «ولكن أين مقعدك؟» صاح فرانسـيس وهـو يحدق في المقصورات المزدحمة المحشورة في الدرجة الثالثة.

- «هذا الرجل يجلس فيه»

- «أيّ رجل؟» صاح فرانسيس ساخطًا.

- «السمين هناك، ذو الياقة على ركبته»

- «لكنه كان مقعدك!»

ارتفعـت حنجرة فرانسـيس من السـخط وصعد إلى الممـر. وفي مدخل المقصـورة شـمخ بأنفـه مثل حصان غاضب يشـمخ برأسـه. اتـكأ على أحد وركيـه، وحـدق بثبات في الرجل ذي الياقة على ركبتـه، ثم في الأمتعة عالياً. نظـر إلـى الرجل السـمين إلى الأسـفل كما ينظر طائـر من حافـة مبنى. لكن الرجـل نظر إلى الـوراء بوقاحة صلبة كالصخر يركع أمامهـا رجل إنجليزي: وقاحة ساخرة ثابتة، وتعبير هازئ يُقرأ من حول أنفه ومن مؤخرته الثابتة التي لا تتزحزح.

- «لكن» قال فرانسـيس باللغـة الإنجليزية، ولـم يكن أي منهم يتحدث اللغة الإيطالية بعد. قال فرانسـيس وهو يسـتدير نحـو آرون: «لكن، هل كان هذا هو مقعدك؟» ورمى بإصبعه الطويل في اتجاه فخذي الرجل السمين.

- «نعم!» قال آرون.

- «ولقد أخذه!» صاح فرانسيس بسخط.

- «وهو يعلم أنه مقعدي»

- «لكن...!» ونظر فرانسـيس حوله باسـتبداد متعجرف، كأنه يستدعي حارسـه الشخصي. لكن الحراس الشـخصيين لم يعودوا متيسـرين، كما أن حراس القطارات لا يرجى منهم شـيء. جلس الرجل السمين، بمؤخرة ثابتة

وابتسامة ساخرة، باهتة جدًا لكنها مؤثرة للغاية ترتسم حول أنفه. لقد استمتع تمامًا بالتمثيل الإيمائي للشابين الأجنبيين. قال له الركاب الآخرون شيئًا، فأجاب باقتضاب. ثم ارتسمت على وجوههم جميعًا ابتسامة ساخرة خافتة تحيط بأنوفهم. وابتسمت امرأة في الزاوية بسخرية في وجه فرانسيس. لقد فشل سحره تمامًا هذه المرة: أما بالنسبة لسيطرته، فقد كان ذلك غير فعال حقًا. وتصاعد غضبه.

- «أوه، حسنًا، يجب القيام بشيء ما» قال بحزم. «لكن ألم تضع شيئًا في المقعد لحجزه؟»

- «فقط تلك النسخة من رجل الدولة الجديد[1]، لكنه أزاحها»

- كان الرجل لا يزال جالسًا والابتسامة الساخرة غير المرئية لا تبارح وجهه، هي وذلك الثبات المتسمر لمؤخرته الإيطالية.

- «Mais-cette place etait RESERVEE»[2] قال فرانسيس، منتقلاً إلى الهجوم المباشر.

استدار الرجل جانبًا وتجاهله تمامًا، ثم قال شيئًا للرجال المقابلين، وبدأوا جميعًا في إظهار أسنانهم مبتسمين. لم يكن من السهل إحباط فرانسيس. لمس الرجل على ذراعه. نظر الرجل حوله مهددًا، كما لو أنه قد تعرض للضرب.

- «هذا المكان محجوز لهذا السيد» قال فرانسيس بتعالٍ، وإن كان لا يزال بلهجة توضيحية، وأشار إلى آرون.

فنظر إليه الإيطالي، ليس في عينيه، بل بين عينيه، وهو يسخر منه وجهًا لوجه. ثم نظر بازدراء إلى آرون وقال بالإيطالية إن هناك مكانًا لمثل هؤلاء المتعجرفين في الدرجة الأولى، وليس لهم أي حق في أن يشغلوا مكان الرجال الشرفاء في الدرجة الثالثة.

- «فعلاً! فعلًا!» صاح الركاب الآخرون في العربة.

New Statesman مجلة أدبية وسياسية تقدمية ظهرت في لندن عام 1913 وكان من مؤسسيها جورج برنارد شو وعدد من زملائه في الجمعية الفابية.

2- لكن هذا المكان محجوز (بالفرنسية)

- «يمكنه أن يذهب إلى الدرجة الأولى» قالت المرأة الجالسة في الزاوية، بصوت عالٍ جدًا، كأنها تتحدث إلى أشخاص صم، وتشير إلى أمتعة آرون، ثم إلى عربات الدرجة الأولى.

- «هناك مكان هناك» قال أحد الرجال وهو يهز كتفيه.

كانت تلك وقاحة قاسية جعلت فرانسيس يحمر من الغضب بينما شحب وجه أنغوس شحوب الأموات وهو يحدق من خلف نظارته الأحادية، بعينين في زرقة موتى الكوليرا ثم قال:

- «لا تبالِ أبدًا. تعال إلى الدرجة الأولى. سأدفع الفرق. سنكون أفضل بكثير ونحن معًا. أنزل الأمتعة يا فرانسيس. لا يمكن السفر مع هذا النوع من البشر، حتى لو تخلى عن المقعد. هناك مساحة كبيرة في عربتنا، وسأدفع المبلغ الإضافي»

كان يعلم أن هناك حلاً واحدًا فقط، هو المال.

لكن فرانسيس عض إصبعه ندماً. لقد كاد يخرج عن طوره، وأحس بأنه عاجز تمامًا لأنه كان يعلم أن حارس القطار سوف يستهزئ به أيضًا. ليس من السهل التورط مع بولونيين أشراف في الدرجة الثالثة في محطة بولونيا، حتى لو احتلوا مقعد رجل آخر كان عاجزًا، معقود الجبين، ويبدو تمامًا مثل مفستوفيلس بجبهته العالية وأنفه المقوس قليلا[1]. وفي حالة من الغضب، سحب مفستوفيلس حقيبة آرون وناولها إلى أنغوس. وهكذا انتقلوا إلى عربة الدرجة الأولى، بينما كان الرجل السمين ورفاقه في الدرجة الثالثة يراقبون في صمت ساخر ظافر، متحجرين، راسخين، في نشوة انتصار لا يشوبها شيء.

جلس آرون مع الآخرين وسط القطيفة الحمراء بينما بدأ القطار تسلقه البطيء الطويل لجبال الأبينين[2]، تفوح منه رائحة كبريتية عبر أنفاق لا حصر

1- مفستوفيلس اسمٌ يُعطى غالباً للشخصية التي تُمثل الشيطان، كما أنه اسم الشيطان في أسطورة فاوست.

2- هي سلسلة جبال تمتد لمسافة تقدر بألف كم في إيطاليا من الشمال إلى الجنوب على طول الساحل الشرقي وتشكل العمود الفقري للبلاد.

لها. رائعة كانت تلك السفوح الشديدة الانحدار وغابات الكستناء العظيمة، ثم تلك المسافات الشاسعة التي تلمحها بين المرتفعات وتحت أقدامها، في البعيد، تبدو فيرينزولا[1] وخلفها التلال التيرنرية القصية[2]، المبنية من زهور الجنان، لا من التراب. كان الجو باردًا في محطة القمة، والهواء يكتنفه الجليد والصقيع. وتلفلف مسافرونا وانكمشوا في العربة من جديد.

ثم بدأ القطار انحداره الطويل عبر سلسلة كاملة من الأنفاق التي لم تعد خانقة لحسن الحظ. وهكذا نزولًا وهبوطًا، حتى ظهر السهل في الأفق مرة أخرى، إنه وادي أرنو[3]. ولكن بعد ذلك بدأت العشرة الحتمية التي تحدث دائمًا في السفر الإيطالي؛ صار القطار يتردد، يترنح، ثم يتوقف ويصفر بصوت عالٍ كما لو كان يحتج على شيء ما: بيب بيب بيب، صفير احتجاج على وقوفه مهجوراً بين الحقول. ثم يتقدم مرة أخرى ويسرع خلسة، ويتسارع، حتى إنه يستعيد اندفاعه المقدام المنتظم. ثم تشتغل المكابح فجأة ويهتز القطار بعنف ويزداد تعثرًا حتى يتوقف، ويرسل المزيد من الصفير والعويل، بينما يقف المحرك مجلجلاً بفارغ الصبر. ثم صرير آخر ونفثات بخار عالية واختناق آخر. وهكذا حتى هبطوا في محطة براتو وتوقفوا فيها[4] وأخبرهم أحد الركاب أن أمامهم هنا ساعة كاملة من الانتظار: لقد حدث شيء ما على الخط.

قال أنغوس مبتهجًا:

- «اقترح إذن أن نعد الشاي»

- «ولم لا! بالطبع. دعونا نحضّر الشاي، وسأبحث عن الماء»

وهكذا توجه آرون وفرانسيس إلى بار المطعم لملء الوعاء الصغير من الصنبور. أنزل أنغوس حقيبة النزهة الحمراء التي كان مغرمًا بها ووزع اللوازم

بلدة تقع على مسافة 40 كم شمال شرقي فلورنسا.

نسبة إلى الرسام الإنكليزي الرومانسي جوزيف تيرنر (1775-1851) الذي يعد واحدًا من أعظم رسامي المناظر الطبيعية.

نهر في مقاطعة توسكاني. واحد من أهم الأنهار وسط إيطاليا.

4- مدينة شمال وسط إيطاليا وثانية أكبر مدن إقليم توسكانيا وهي عاصمة مقاطعة براتو. تبعد 16 كم فقط عن مدينة فلورنسا، إلى الشمال منها.

المختلفة على أرضية العربة. وسرعان ما أشعل المصباح الكحولي وسخن الماء. اقترح فرانسيس أن يهرع هو وآرون إلى براتو ويريا ما يمكن شراؤه أثناء تحضير الشاي. وانصرفا، تاركين أنغوس مثل ساحر عجوز مشغول بترتيباته على أرضية العربة، ونظارته الأحادية تشع بالسعادة. ثمة رجل بدين، راكب يضع دثارًا سميكًا فاقعًا ومخططًا على ركبتيه، يراقبه باهتمام شديد. كل من مر بالباب وقف ليتأمل المشهد بسرور. حضر المسؤولون ودرسوا الوضع بكل تقدير. ثم عاد فرانسيس وآرون بكمية كبيرة من الكستناء المشوي الساخن والخوخ المجفف المتيبس، والتين المجفف الجيد، والبقسماط البائت ووجدوا الماء وقد شرع بالغليان وأنغوس يرمي فيه بيض الشاي[1]، والراكب يدس أنفه في فضول، لقد كان في غاية الإثارة.

لا شيء يُسعد أنغوس بقدر نصب مخيمه في وسط الحضارة. نشروا لفافات الجرائد القديمة التي حوت الكستناء والخوخ والتين والبقسماط. طار فرانسيس لإحضار الملح من الرجل الجالس في الحانة، وعاد ومعه ورقة صغيرة من الملح الصخري. صبوا الشاي البني في الكؤوس المطعمة بالفضة التي أخرجت من علبة الغداء الخالدة: ومضت النزهة على قدم وساق وقد جلس أنغوس، وهو في قمة سعادته، متربعًا على المقعد واضعًا قدميه تحته على طريقة بوذا، وعلى وجهه تلك النظرة الغريبة المتيقظة الجذلى بنصف ابتسامة، بوذية إلى حد ما هي الأخرى، حاملًا كوبًا من الشاي البني في يده. لقد كان ذاهلاً ساكنًا كما لو كان في حالة صوفية حقًا. ومع ذلك، لم يكن الأمر ليزيد عن سعادته بحفلة الشاي. نظر الراكب إلى الشاي وقال بلغة فرنسية ركيكة:

- «هل هو جيد؟»

فأجابه فرانسيس بفرنسية لا تقل تشظيًا:

- «جيد جدًا»

---

[1] بيض الشاي: أكلة صينية تقليدية تحضر عن طريق إحداث بعض الصدوع في قشور البيض المسلوق ثم إعادة سلقة مع الشاي أو بعض التوابل ليبدو قشره مثل سطح من الرخام.

وعـرض علـى الراكب السـمين بعضًا منه. لكنـه، رفع يده مسـتنكرًا كأنه يقـول إنـه لا يسـتطيع ابتلاع هذه المـادة السـاخنة مقابل أي أمـوال. وأخرج زجاجة من النبيذ. لكنه وافق على حفنة من الكستناء.

فتح سـائق القطار وجامع التذاكـر والجندي ذو المعطف الأخضر الثقيل الـذي كان يحميهمـا الباب وحدقـوا بانتباه. تحدث الراكب نفسـه مع هؤلاء القادمين الجدد، وبدأوا جميعًا يبتسـمون بلطف. ثم أشار الراكب، الذي كان بدينًا في الخمسـين من عمره ويضع بسـاطًا مخططًا لامعًا دائمًا فوق ركبتيه، إلـى وضعية أنغـوس الشـبيهة بوضعية بوذا، وابتسـم المحدقـون الثلاثة مرة أخـرى وظـن الراكـب أن عليه أن يحـاول أيضًا، فطـرح بسـاطه جانبًا، ورفع قدميه عن الأرض، ووضع أصابع قدميه في يديه، وحاول رفع سـاقيه ووضع قدميـه تحته. لكن ركبتيه كانتا سـمينتين وسـرواله في أسـوأ الأحوال ومنذرًا بالتمـزق، ولـم يعد قادرًا علـى التعامل مع الأمر الذي يشـبه أن يحاول المرء ابتـلاع نفسـه. لذلك توقـف فجـأة، خائفًا إلى حد مـا، بينما كانـت الرؤوس الرسـمية المتراصـة الثلاثة عنـد المدخل تضحـك عليه وتسـخر منه وتظهر أسـنانها وتضايقـه. لكنهم أداروا أعينهـم بإعجاب إلى حفلتنـا الغجرية. لقد أحبوا الجِدة والمرح. ونظروا في حيرة شـديدة إلـى أنغوس النحيف الأنيق، بملابسه اللندنية الجديدة، وهو يجلس هناك بلا حراك، وعينه تلتمع من وراء نظارتـه الأحاديـة مثل بوذا وقـد تملكه الشـر، متربعًا في وجـدٍ وذهول على المقعـد المخملي الأحمر. لقد تعجبوا من أن النصف السـفلي منه يمكن أن ينطوي، مثل مسـطرة. فحدقوا حتى رأوا ما يكفي. وعندما قالوا فجأة «شـهية طيبة»، سحبوا رؤوسهم وأكتافهم، وأغلقوا الباب وغادروا.

ثـم انطلـق القطار مـن جديد، ووصـل إلى فلورنسـا بعد السادسـة بقليل وتباحثوا عما يجب أن يفعله آرون في فلورنسا. كان الشباب قد حجزوا غرفة فـي فندق برتوليني، على نهر لونغارنو. لم يكـن فندق برتوليني باهظ الثمن، لكن آرون كان يعلم أن أصدقاءه لن يتحملوا الإقامة في الفنادق لفترة طويلة. ومـع ذلـك، فقد ذهـب مع الاثنيـن الآخريـن، على أمـل العثور علـى مكان أرخص في الغد.

كان الظـلام يتزايـد وهـم يمضون نحو الفنـدق، لكن لم يـزل هناك قليل

مـن الضوء بما يكفي لإظهار تموج النهر، وجسـر فيكيو[1] وهو يمتد بطوابقه الصغيرة فوق الماء، على ركائزه المنخفضة الثقال، وذلك السحر الذي يلف المنـازل المواجهة التي تغرق فـي العتمة على الجانب الآخر من النهر. كانوا جميعًا مسحورين بالطبع. وقال فرانسيس:

- «كنت أعرف أننا سوف نحبها»

قيل لآرون إنه يمكن أن يحصل على غرفة خلفية صغيرة بشـروط ميسـرة مقابـل خمس عشـرة ليـرة في اليوم، إذا بقي خمسـة عشـر يومًـا على الأقل. كان سـعر الصـرف آنذاك عند الخمس والأربعين ليـرة مقابل الجنيه. لذا فإن الخمس عشـرة ليرة كانت تعني سـتة شـلنات وسـتة بنسـات في اليوم، دون أيـة إضافـات. الإضافات تعني النبيذ والشـاي والزبدة والنـور. تقرر أن عليه البحث عن شيء أرخص في اليوم التالي.

أدرك من نبرة الشـابين أنهما يفضلان ذهابـه إلى مكان أرخص. لقد أرادا أن يكونا بمفردهما. قال فرانسيس:

- «حسـنًا، إذن، ستأتي لتناول الغداء هنا، أليس كذلك؟ سنراك إذن على الغداء»

كان الأمر كما لو أن كلا الشابين قد سحبا مجساتهما الآن. وكانا خائفين من أن يتحول هذا الشخص الجديد إلى كابوس جاثم. أرادا أن يغسلا أيديهما منه. وأعتم جبين آرون.

«ربما كان خيرًا أن تراني في الغرام
لكن لماذا ركلتني إلى أسفل الدرج؟»[2]

مـع الصبـاح الباكـر وجد نفسـه خارجًـا، قبل أن يسـتيقظ صديقـاه. كان الجـو مشمسًـا مرة أخرى. وسـرعان ما تغلب عليه سـحر فلورنسـا، ونسـي عبء المـوارد المحدودة وتكاليف الفنادق. خرج مباشـرة من باب الفندق، عبـر الطريـق، وانحنى علـى حاجز النهـر. كان نهـر أرنو يجري هنـاك، لكنه

1- جسر فيكيو وتعني الجسر القديم هو أقدم وأشهر جسر في فلورنسا يرجع عمره إلى مئات السنين ويقع على نهر أرنو الذي يمر وسط المدينة. وقد أعيد تجديده في عام 1345م.

2- إسحق بيكرستاف. كاتب مسرحي إيرلندي (1733-1808)

لـم يكن قـد فاض كثيرًا على أية حـال، بل كان جدولًا أخضـر ذا مياه ضحلة مليئـة بالحصى في مجـراه. وعلى الجانب الآخر، في الظل الرقيق للشـمس المبكـرة، انتصبـت لونجارنو المقابلـة[1]، وهي المنازل القديمة المسـطحة، المبنيـة من الحجر الـوردي أو الأبيـض أو الرمادي، بمصاريعهـا الخضراء، بعضهـا مغلق، وبعضها مفتوح. إنك لتحسـبها زهـرة، على خلفية من أفق غير منتظـم في مواجهـة ضوء الصبـاح. وإلى اليمين جسـر ترينيتـا الرقيق، وإلى اليسـار الجسـر القديـم بمتاجـره الصغيرة فـوق النهـر. ووراء ذلـك، باتجاه الشمس، تلمح الريف الأخضر الذي ورّدته السماء: توسكانيا.

ثمـة ضجيـج وقعقعة لحركـة المـرور: صبية يدفعـون عربـات اليد فوق الحجـارة المرصوفة بالحصى، وثوران مخصيان يسـيران على مهل كتفًا إلى كتف في ألفة ويجران حمولة من المنتجات الريفية، ثم خيول تغطيها أقمشـة قرمزيـة رائعة، مثل سـجادات زاهية، تسـحب ببطء عربـات المنطقة الطويلة والضيقة: ورجال يحثونها بالصياح بها وأناس يهتفون: كل ضجيج فلورنسـا ولغطها المرتفع مع الصباح.

- «أوه، أنغوس! تعال وانظر! أوه، جميل جدًا!»

ونظر إلى أعلى، فرأى شـخص فرانسـيس الأنيق، مرتديًـا بيجاما حريرية ناعمة ملونة، جاثمًا على شرفة علوية صغيرة، ينظر إلى غرفة النوم وقد أعطى ظهره للنهر ويده مرفوعة إلى شـفتيه، كما لو أنه يحبس صرخته البهيجة. كان المشهد كله كلاسيكيًا ورائعًا ومسليًا للغاية. كم سيحبه الإيطاليون!

تحدر آرون وعاد سالكاً نفس الطريق، ومشى بعيدًا تحت المنازل باتجاه جسر بونتي فيكيو. اجتاز الجسر، ومرّ بالأوفيزي وهو يراقب التلال الخضراء المقابلـة لـه[2]، ثم سـان مينياتو[3]. ثم لاحـظ مجموعة التماثيـل المفرطة في

1- ا وهي بناية الفندق الفخم في حي أولترارنو على طول نهر أرنو بالقرب من جسر بونتي فيكيو من القرون الوسطى وتحيط به مبانٍ من عصر النهضة.

2- وهو أحد أقدم المتاحف الفنية وأكثرها شهرة في العالم الغربي. ويقع في قصر ديغلي أوفيزي وهو أحد قصور فلورنسا.

3- سان مينياتو آل مونتي (سانت مينياس على الجبل) هي كاتدرائية في فلورنسا، تقع على قمة واحدة من أعلى النقاط في المدينة، وهي واحدة من أجمل الكنائس في إيطاليا.

الدراماتيكية في ساحة مينتانا، وهي تماثيل ذكورية وميلودرامية بتفاصيل جسدية قوية-[1] ثم مبنى قديم كبير في الزاوية به العديد من المصاريع الخضراء والأفاريز الواسعة وقد حمل على بابه لوحة إعلانية مكتوبًا عليها «بنسيون نارديني».

هنا وصل إلى نقطة على رأس سطر. حدق في لوحة الإعلانات، وحدق في الباب الزجاجي، واستدار ليحدق في الجندي الميت المثير للشفقة على ذراع رفيقه الذي يطلق النار من مسدسه في بسالة. مينتانا[2]... والتاريخ! تساءل آرون عن مينتانا وأين كانت، ثم استجمع قوته وفتح الباب الزجاجي وصعد السلالم الأولى.

انتظر بعض الوقت قبل أن تظهر خادمة فسألها:

- «هل يمكنني الحصول على غرفة؟»

فتحت الخادمة الحائرة ذات العينين الجامحتين الباب وأدخلته إلى غرفة الاستقبال المذهبة الفخمة المحاطة بقدر كبير من العظمة. جلس هناك وأراح كعبيه لنصف ساعة. ثم وصلت أخيرًا سيدة شابة متينة البنية -جميلة، ذات عينين إيطاليتين كبيرتين زرقاوين داكنتين- لكنها تعاني من فقر الدم والبدانة.

- «أوه!» قالت وهي تدخل، ولا تعرف أن تضيف شيئًا.

- «صباح الخير» قال آرون بحرج.

- «أوه، صباح الخير! إنجليزي! نعم! أوه، أنا آسفة جدًا لإبقائك، كما تعلم، لجعلك تنتظر وقتًا طويلًا. لقد كنت في الطابق العلوي، كما تعلم، مع سيدة. هلا جلست؟»

- «هل أستطيع الحصول على غرفة؟»

- «غرفة! نعم يمكنك ذلك»

1- يتحدث عن النصب التذكاري لساحة مينتانا وهو تمثال برونزي من أوائل القرن العشرين يقع في الساحة المذكورة في فلورنسا، ويعرض مقاتلين وطنيين من وحدات غاريبالدي التحررية، أحدهما جريح والآخر يقاتل، في مشهد درامي.

2- واحدة من معارك توحيد إيطاليا.

- «ما هي الشروط؟»

- «شـروط! أوه! حسـنًا، عشـرة فرنكات في اليوم، كما تعلم، بشـروط إقامة ميسرة -إذا بقيت- إلى متى ستبقى؟»

- «شهر على الأقل، كما أتوقع»

- «شهر! نعم بالتأكيد. نعم، عشرة فرنكات في اليوم».

- «لكل شيء؟»

- «كل شـيء. نعـم كل شـيء. القهـوة، الخبـز، العسـل أو المربى في الصبـاح. الغـداء فـي السـاعة الثانيـة عشـرة والنصـف؛ الشـاي فـي صالـة الاسـتقبال عنـد الرابعة والنصف، العشـاء في السـابعة والنصف: كل شـيء جميل جدًا. وغرفة دافئة مشمسة. هل ترغب في رؤيتها؟»

وهكـذا اصطحبت آرون عبر المنـزل القديم الكبير المتمعج حتى الطابق العلـوي، ثـم عبر ممر قديـم طويل، وأخيرًا إلـى غرفة نوم كبيرة بها سـريران وأرضيـة من البـلاط الأحمر. كانت كئيبة بعض الشـيء، كما يحـدث دائمًا، لكن الشـمس كانت قد بدأت بالتسـلل إليها. إن لها إطلالة جميلة على النهر باتجـاه جسـر فيكيـو، وعلى التـلال المقابلـة التـي تغطيها أشـجار الصنوبر والفيلات والخضرة.

هنا سوف يستقر. وسترسل السنيورة رجلًا لينقل حقائبه في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

عند الغداء وجد آرون الصديقين وأخبرهما بخطوته.

- «ما أسـعدك بذلك! عشـرة فرنكات في اليوم. لكن هذا لا شـيء. أنا سعيد جدًا لأنك وجدت شيئًا ما. ومتى ستنتقل إليه؟» سأل فرانسيس.

- «عند الثانية والنصف»

- «أوه، هـذا قريب جـدًا. نعم، هذا جيد. ولكننا سـنراك من وقت لآخر بالطبـع. ماذا كان العنوان؟ أوه، نعم، بالقرب من التمثال الرهيب. جيد جدًا. يمكننـا البحـث عنـك في أي وقت، وسـتجدنا هنـا. اترك رسـالة إذا لم نكن موجودين، فلدينا الكثير من الارتباطات»

الفصل السادس عشر

فلورنسا

عصر نفس اليوم الذي تلا وصول آرون إلى فلورنسا أعتمت السماء وهبت ريح باردة، وهطل المطر مدرارًا. جلس في غرفته الكبيرة الكئيبة المطلة على النهر، وراقب المياه الخضراء الشاحبة وهي تختلط باللون الأصفر، والجداول المتعددة الخيوط تندمج في نهر واحد، بينما كان المد السطحي ينحدر بسرعة من التلال. في الجانب الآخر، بدت التلال الخضراء الداكنة أكثر قتامة في ظل الرطوبة، وكانت أشجار الصنوبر المظلية ترتفع فوق الفيلات دون جدوى. لكن بعيدًا في الأسفل، في لونجارنو، كانت حركة المرور صاخبة كما كانت دائمًا.

نزل آرون في الساعة الخامسة لتناول الشاي، ووجد نفسه وحيدًا بجوار مجموعة من النساء، معظمهن سويديات أو دنماركيات أو هولنديات، يشربن مشروبًا عشبيًا بني اللون لا يشبه في طعمه أي شيء على وجه الأرض، ويأكلن قطعتين سميكتين من الخبز الداكن الملطخ بطبقة بنية تمنى عبثاً أن تكون مربى. شعر بالأسف لاضطراره إلى الجلوس في الغرفة المزخرفة والمذهبة والحمراء، بينما النساء الأجنبيات ينظرن إليه. آه، من المرير أن تكون رجلًا في مثل هذه الظروف.

فر بجلده بأسرع وقت عائداً إلى ملاذه القصي في الأعلى، وحيدًا وكئيبًا. لكنه أحب نوعًا ما تلك العزلة البعيدة في المبنى الفلورنسي القديم الكبير لم يأبه بالوحشة المظلمة غير المريحة. لم يكن كئيبًا حقًا: كان غير مبالٍ فحسب: غير مبال بالراحة، غير مبال بكل دفء الأجواء المنزلية. يحاول الأثاث المبالغ

في ضخامته أن يكون مثيرًا للإعجاب، لكن لم يكن جميلًا أو مشرقًا أو مبهجًا قـط، فانتصب هنـاك، قبيحًا ومتباعـدًا. إذن فليبق هناك. ولـم يكـن يمانع أيضًا فـي غياب النـار أو الكآبة البـاردة التي تخيم علـى غرفة نومه الكبيـرة. في بيته فـي إنجلتـرا، كان الموقـد اللامع والنـار ذات اللون الأحمر وسـجادة الموقد السـميكة وكرسـي الرجل ذو الذراعين لا مفر منها. لكنه الآن سـعيد بالابتعاد عن كل شيء. كان سعيدًا لأنه لم يكن لديه مدفأة مريحة وكرسي بذراعين. كان سعيدًا بالشعور بالبرد واستنشاق الهواء غير الدافئ. لقد فضل الطريقة الإيطالية التي لا تسـتخدم فيها النيران ولا التدفئة. إذا كان اليوم باردًا فهو على اسـتعداد لأن يبـرد هـو الآخر. وإذا كان مظلمًا، كان على اسـتعداد أن يعيش في الظلام. لقد خنقه سـطوع المنزل الحقيقي الدافئ حتى شـعر بأن رئتيه سوف تنفجران. أهوال الحياة المنزلية الحقيقية؟ لا، الطريقة الوحشية الإيطالية كانت أفضل.

ولذلـك وضـع معطفـه فـوق ركبتيـه، وراح يـدرس بعـض المدونـات الموسيقية التي اشتراها في ميلان: شيء من موسيقى بيرجوليسي وسكارلاتي التي أحبها، وبعض من موسـيقى كوريللي[1]. كان يفضل الموسيقى الضعيفة والحساسة والمجردة، التي ليس بها الكثير من المشاعر، ولكن بها قدر معين من الشـفافية والنقاء. حل الليل وهو جالس يقـرأ المدونات. كان يود تجربة مقطوعات معينة على فلوته. لكن الفلوت كان حساسًا جدًا، وكان يجفل من البيئة الغريبة الجديدة، ولم يزدهر.

وحلت سـاعة العشاء أخيرًا، في السـاعة الثامنة أو بعد ذلك. كان عليه أن يتعلم توقع تأخر الوجبات دائمًا بأربعين دقيقة. نزل إلى أسفل، عبر الممرات والسـلالم الطويلـة المظلمة المنعزلة حتـى غرفة الطعام في الطابق السـفلي مباشـرة. خصصـت لـه طاولة صغيـرة بالقرب مـن البـاب، قريبًا من النسـاء المسنات. الرجال الآخرون الوحيدون هم أجوستمو، النادل ذو المظهر غير المتناسق، ودوق إيطالي مع زوجته وطفله وممرضته، وكانت العائلة تجلس معًا على طاولة في منتصف الغرفة، ومنشغلة تمامًا بكلب أصفر صغير.

1- جيوفاني برغوليزي (1710-1736)، دومينيكو سكارلاتي (1685-1757)، أركانجلو كوريلي (1653-1713): موسيقيون إيطاليون معروفون.

ومع ذلك، كان الطعام كافيًا وعلى قدر من الجودة، وكان النادل والخادمة مرحيـن ونشـطين. بدا كل شـيء بهيجًا وغير متكلف دون أجـواء خاصة. لم يتصـرف أحـد بتعـالٍ، إذ لن يثير ذلك انتبـاه أحد. نبح كلب الـدوق الصغير، وصـرخ ابـن الدوق، وأسـقط النـادل نصف دزينـة من الملاعق، وانشـغلت السـيدات المسنات بالحياكة أثناء الانتظار، وسـار كل شيء بشكل سيئ إلى درجـة الامتاع. نعم، لقد فضل آرون ذلك علـى بيرتوليني، الذي كان يحاول أن يكـون كفـؤًا ومضبوطًا، رغم أنه لم يبذل أي جهـد مضنٍ. ومع ذلك، كان أداء بيرتوليني على خير ما يرام، وكان هناك تشـدد بشـأن المعايير المناسـبة. بينما هنا مع نارديني، لا شيء يهم كثيرًا.

كانـوا في تشـرين. عندما صعد إلى غرفته البعيدة مرة أخرى، شـعر آرون كمـا لو أنه في قلعة رفعوا جسـرها المتحرك. ومن خـلال النافذة المفتوحة، جـاء صـوت نهـر أرنـو المتضخم وهـو يندفـع ويحـدث حفيفًا فـوق مياهه الضحلـة المرصوفة بالحصى. كانت الأضواء تتـلألأ من الجهة المقابلة. بدا صوت حركة المرور عميقًا بالأسـفل. لم تكن الغرفة باردة حقًا، لأن شـمس الصيف تتخلل هذه المباني القديمة السـميكة، بحيث يستغرق الأمر شهرًا أو شهرين في الشتاء لتتخلص منها. وكان المطر مستمرًا بالهطول.

فـي الصباح لـم يزل الجـو تشـرينيًا. كان الفجر يطلع ببـطء، ومن خلال النافذة المفتوحة تسـلل صـوت جريان النهر. لكن حركـة المرور بدأت قبل الفجـر، بضجيج وقعقعـة العربات، وضجيج عربات الترام فوق الجسـر غير البعيـد. أوه، فلورنسـا الصاخبـة! فـي السـاعة السـابعة والنصـف، رن آرون الجـرس طالبًـا قهوتـه التي جاءته فـي السـاعة الثامنة إلا بضـع دقائق. كانت السيدة قد طلبت منه أن يتناول قهوته في السرير.

استـمر المطـر فـي الهطـول. لكنه توقـف بحلول التاسـعة صباحًـا فقرر الخـروج. يا له مـن عالـم رطب، رطب. عربات تمـر، بمظلات ضخمة مبللة لامعة سـوداء، برؤوس متعددة منتصبة فوق السـائق وذيل الحصان والمقعد الصندوقـي، مـع غطـاء يحمـي الراكبيـن. تتصاعـد القعقعـة خـلال المطر. والفلاحـون بعربـات طويلة وثيران بطيئة ومظـلات ضخمة ذات لون أخضر شاحب نصبت لقائدها كي يسير تحتها. رجال يتعثرون بالعباءات، الشالات،

المظلات، أي شيء، غير مبالين على الإطلاق. رجل يحمل الحصى من قاع النهـر، على الرغم مـن البلل، وأجراس لا تعد ولا تحصى تدق. نعم أجراس لا تعـد ولا تحصـى. وكنت تحس بارتعـاش ناعم كبير يتخلل الهواء بسـبب جرس الكاتدرائية.

كان عالمًـا جديـدًا على أية حـال. ومضى آرون وهو يتبع أنفـه مقترباً من البيوت العالية السـميكة الجدران. وفجأة لمـح العنق الطويل النحيف لقصر فيكيـو فـي الأعلى، سـابحًا فـي الهـواء[1]. وبعد دقيقـة كان يمر بيـن المباني الضخمـة، خارجًا إلى سـاحة ديـلا سـيجنوريا[2]. ووقف هناك سـاكنًا ونظر حوله في مفاجأة وفرح حقيقيين. كانت الساحة الفارغة المسطحة المرصوفة بالحجـارة مبللة بالكامل. ارتفعت المباني العظيمة المعتمة. وعلت الواجهة المظلمة الشـفافة لقصر فيكيو مثل جرف صخري، وبرز عاليًا البرج النحيف المعتـم الشـبيه بصقـر متـوج بعرف. وعند سـفح ذلـك الجرف وقـف داود العـاري العظيـم[3]، ناصع البياض ومجـرداً من ثيابه تحت هـذا المطر، على خلفيـة جرف المبنـى المظلم الدافـئ الداكـن، بالقرب من رجـال باندينيلي العراة الثقال[4].

أول ما وقعت عليه عينه وهو يستدير نحو الميدان كان الجزء الخلفي من أحـد تماثيل باندينيللي: رجل عظيم عارٍ مـن الرخام، ذو ظهر ضخم وخصر عار قوي تتدفق فوقه المياه. ثم نظر فورًا نحو داود، الأكثر شحوباً، وهو يقف متقلصًا منحنيًا إلى الأمام قليلًا. ببشرته اللامعة المبتلة البيضاء.

قـد يكون قبيحًا، أو طبيعيًا جدًا، أو كبيرًا جدًا، أو أي شـيء آخر يعجبك.

1- قصر فيكيو أو القصر القديم هو مبنى بلدية فلورنسا.

2- ساحة ديلا سيجنوريا هي الساحة الرئيسية في مدينة فلورنسا وهي محور الحياة المحلية هناك وهو المكان المفضل لالتقاء الأصدقاء حيث تضم الساحة عددًا من المقاهي.

3- تمثال داود العاري: واحد من عجائب فن النحت في عصر النهضة. صنعه مايكل أنجلو بين عامي 1501 و1504 يزيد طوله على خمسة أمتار.

4- باجو باندينيللي (1493-1560) رسام ونحات من عصر النهضة والرجال العراة يقصد بهم تمثال هرقل والشيطان كاكوس القائم في الساحة.

لكن داود في ساحة سيجنوريا، هناك تحت القصر الكبير المظلم، في الوضع الذي اختاره له مايكل أنجلو، يقف هناك إلى الأبد منحنيًا قليلًا، عاريًا نصف متقلص ونصف راغب في إظهار عريه. إنه أعجوبة فلورنسا. الفتى الأبيض الواثق بنفسه، المراهق جسدًا، الضخم، تماشيًا مع القصر الصارم الكئيب الهائل الذي ينتصب معتمًا عاريًا، كما هو أبيض وعارٍ. وفي الخلف، هناك رجال باندينيللي الكبار المتكتلون هم أيضًا. قد يكونون قبيحين، لكنهم موجودون في مكانهم، ولديهم واقعهم الكتلي. وها هم في هذا الصباح واقفون بثبات تحت المطر والمياه تتدفق على خصورهم وعلى طول الصفحات الداخلية من أفخاذهم العظيمة. كانوا حقيقيين بما فيه الكفاية. كانوا يمثلون الطبيعة الجسدية الجريئة للفلورنسيين الأكثر ضخامة.

تملى آرون في منظر الرجال الثلاثة العراة العظماء: داود الشديد البياض، المنحني قليلًا إلى الأمام، ثم في الواجهة العظيمة الرائعة لقصر فيكيو، وفي النافورة التي ترش الماء على الأجساد المبتلة؛ وتمثال الفرسان البعيد؛ والمساحة المرصوفة بالحجر في الساحة القاتمة. وشعر أنه هنا في أحد مراكز الحياة في العالم، هنا، في ساحة سيجنوريا. إنه الشعور بالوصول، الوصول إلى المركز المثالي للعالم البشري: هذا ما شعر به.

وهكذا، ممتلئًا بالرضا، استدار لينظر إلى بيرسيوس البرونزي الذي ارتفع فوقه مباشرةً. بدا بطل بنفنيوتو سليني[1] الأسمر أشبه بأنثى، بوركيه الممتلئين وخصره، أنثويًا وهامشيًا إلى حد ما، نحيلاً ورشيقًا وفظًا إلى حد ما. كان مهرجا باندينيللي بطريقة أو بأخرى أكثر مناسبة للمكان. وكل هذه التماثيل في الرواق المعمّد المفتوح! ولكن هذا خطأ. إنه يشبه إلى حد كبير ساحة ضريح كبير.

الرجال العظماء العراة تحت المطر، تحت السماء التشرينية الرمادية الداكنة، في الساحة المنيعة المعتمة التي لا تنتهك حرمتها! رأس الصقر الرائع للقصر القديم. المراهق القوي المدرك لأهميته، داود مايكل أنجلو،

1- بنفنيوتو سيليني (1500-1671) نحات ونقاش وكاتب إيطالي وتمثال البطل الأسطوري برسيوس أحد أعماله المهمة.

المتعري المتقلص، بأطرافه الرخوة البيضاء! إنها فلورنسا العاطفية والشجاعة التي تفصح عن نفسـها. لقد فتنته السـاحة، فلم يدخل المدينة قط، ولا رجع منها إلى مسـكنه، إلا ووجد وسيلة للمرور عبر الساحة. ولـم يمر بها قط دون رضـا. هنـا كان الرجـال في أكثـر أوضاعهم قـوة وعريًا، هنا فـي نهاية العالم القديم وبداية العالم الجديد الذي سيغدو بعدها دائم الشكوى والعويل.

شـعر آرون بذات جديدة، ونداء جديـد للحياة يتصاعد في أعماقه كما لو أن فلورنسـا قد أيقظت فيـه رجلًا جديدًا. لقد كانت مدينـة رجال. في صباح يـوم الجمعـة، فـي وقت مبكـر جدًا، سـمع حركة المـرور. في وقـت مبكر، شـاهد عربـات الفلاحيـن المنخفضـة ذات العجلتين وهي تنطلـق في طيش فوق الجسـر، قادمة إلـى المدينة. وبعد ذلك، عندما خرج، وجد سـاحة ديلا سـيجنوريا مكتظة بالناس. لكنهم كلهم، كلهم رجال. هم وجميع المزارعين وأصحـاب الأراضـي وعمـال الأرض، المزارعين التوسـكانيين الفضوليين ذوي الأنـوف الرفيعـة، بعيونهـم الكهرمانية نصف السـاخرة، بشـخصياتهم الفضولية، وملابسـهم البسـيطة المتهورة، وقبعاتهم ذات اللمسة الشخصية، وخدودهـم البيضاويـة الممتلئـة الغريبـة، وميلهـم إلـى السـمنة المفرطـة، وكروشـهم وأطرافهـم الثقيلـة، وشـعرهم الداكن القصير، وفوق كل شـيء، تعبيراتهـم الحـادة اللاذعـة السـاخرة، وتجعد الأنـف الصامـت، والتحدي الأبدي، وعدم الإيمان الراسـخ في الأعماق، والشـجاعة الغامضة. والشـك الـلاذع والشـجاعة المتهـورة الخفيـة التـي لا تمـوت أبـدًا. لكـن الرجـال! الرجـال! إنها مدينـة رجال قبل كل شـيء. الطبيعة الرجوليـة الفريدة التي لا تموت، والشـجاعة اللاذعة، التحدي الأبدي للنفس البشـرية التي لا تنطفئ. ربما تكون اليوم صعبة للغاية ومليئة بالتحديات، حيث لم يعد هناك ما يمكن تحديـه. لكن الرجال الذين وُجدوا بدون اعتذار وبدون تبرير. الرجال الذين لا يبررون أنفسهم ولا يعتذرون عن أنفسهم. الرجال فحسب: أندر شيء بقي في مسيحيتنا الجميلة.

عمومًا كان آرون مسـرورًا لوجوده في فلورنسا. كانت تلك الأيام الأولى بعد الحرب، عندما عاد إليها عدد قليل جدًا من الأجانب، وكان المكان يحمل طابع الوقار والمحلية الشديدة. فلم يمانع صديقنا في أن يكون بمفرده.

لكن فرنسيس زاره في اليوم الثالث. نقر الشاب على باب غرفة النوم ثم دخل وكله فضول.

- «أوه، ها أنت ذا!» هتف وهو يلقي بيده ويلوي خصره ثم يضع يده على صدره. «يا لهذا الطريق الطويل للوصول إليك! إنها لأميال! حسنًا كيف حالك؟ هل أنت بخير هنا؟ أليس كذلك؟ أنا سعيد للغاية، لقد كنا في عجلة من أمرنا لرؤية بعض الأشخاص. لم يكن لدينا دقيقة واحدة. حقًّا لا دقيقة! الناس! الناس! أليس من المدهش كثرة عددهم، وكثرة من تعرف، ومن عليك أن تعرف! هذا مذهل! معارف لا نهاية لهم! أوه، وهؤلاء الأشخاص الجذابون هنا! غريب جدًا! أكثر من غريب! أوه، استثنائي!» وأطلق ضحكة صغيرة بسبب الـ«استثنائي» ثم جلس برشاقة إلى طاولة آرون «أوه، موسيقى! ماذا؟ كوريلي! مثير جدًا! هؤلاء الأشخاص أذكياء للغاية، أليس كذلك! كوريلي وسكارلاتي الأصغر وكل هذا الجمع» وهنا أغلق المدونة مرة أخرى «ولكن انظر! هل تريد أن تتعرف على أحد هنا أم لا؟ لقد أخبرتهم عنك، وهم بالطبع متشوقون لمقابلتك وسماع عزفك. لكنني اعتقدت أنه من الأفضل عدم ذكر أي شيء عن... عن ضائقتك المالية وما إلى ذلك. أخبرتهم بأنك قدمت إلى هنا في مجرد زيارة. مع هذا النوع من الأشخاص، كما ترى، أنا متأكد من أنه من الأفضل عدم السماح لهم بأن يبدؤوا علاقتك بهم بالتفكير في أنك تحتاج إليهم، أو ستحتاج إليهم. لماذا تبذل نفسك على أية حال؟ قابلهم فقط وعاملهم كما يستحقون، وبعد ذلك يمكنك أن ترى إن كانوا يرغبون في منحك عقداً للعزف في عرض ما، حسنًا، يمكنك أن تقرر في وقتها إن كنت ستقبل أم لا. من الأفضل ألا يخطر على بال هذا النوع من الأشخاص على الفور أنهم قادرون على استئجار خدماتك. هذا خطأ. ليس لديهم ما يكفي من التمييز لفعل ذلك. من الأفضل أن تفعل ذلك بدلًا من أن تطلب منهم توظيفك. ألا توافقني على ذلك؟ ربما أكون مخطئًا»

جلس آرون واستمع متعجبًا من حكمة هذا الغندور الفتي ولطفه. وتساءل، قبل ذلك، عن خيبة الأمل الاجتماعية العميقة التي وصل إليها. كان كلب

الكولي[1] الوسيم هذا بمنزلة ذئب اجتماعي، يظهر نصف أنيابه في الوقت الحالي. ولكن مع طيبة قلب حقيقية تجاه ذئب آخر. لقد تأثر آرون بشدة.

- «نعم، أعتقد أن هذه هي الطريقة الأفضل»

- «هل تعتقد هذا! نعم، وأنا أيضًا. أوه، إنهم أشخاص غريبو الأطوار! لماذا، باعتقادك، يبدو الإنجليز في الخارج غريبي الأطوار للغاية، إنجليزيين متطرفين. أمر لا يصدق! وفي نفس الوقت مستحيل تمامًا؟ لكن لا! أؤكد لك أنه أمر مرضي. أما بالنسبة لسلوكهم الجنسي، فلا تذكره يا عزيزي. أؤكد لك أنه لا يحتمل. وكل ذلك أثيم صارخ، تحت غطاء هذا التعصب الإنجليزي. لكنني لن أخبرك بكل شيء من البداية. إنه أمر لا يصدق».

تساءل آرون وكله دهشة عن كيفية تمكن فرانسيس من اكتشاف وشهود الكثير مما لا يصدق، في غضون يومين فقط. لكن القليل من القيل والقال، وإضافة الخيال المذهل سوف يأخذانك أينما تريد.

قال فرانسيس:

- «حسنًا الآن. ماذا لديك اليوم؟»

لم يكن لدى آرون ما يفعل على وجه التحديد.

- «هل ستأتي إذن وتتناول العشاء معنا؟»

حدّد فرانسيس الزمان والمكان، وهو مطعم صغير في الطرف الآخر من المدينة. ثم انحنى ونظر من النافذة.

- «مكان رائع! يا له من مكان رائع!» قال مناجيًا نفسه «ولديك منظر رائع. أعتقد أنه أفضل مما لدينا. حسنًا، الساعة السابعة والنصف. سوف نلتقي بعدد قليل من الأشخاص الآخرين، معظمهم من المقيمين أو الباقين لبعض الوقت. نحن لم ندعهم. سنكون هناك فقط، مطعم صغير، كما تعلم. سوف نراك إذن! حسنًا إذن، إلى الملتقى[2]. سعيد جدًا لأنك أحببت فلورنسا! أنا ببساطة أحبها: القصف والمرح، ومشاهد الجمال! أوه!»

كان جميع الحاضرين في ذلك المساء رجالًا: فرانسيس وأنغوس،

1- نوع من الكلاب الكبيرة كان يستخدم أصلاً لرعي الأغنام.

2- بالإيطالية a rivederci

والكاتب جِمس أرجايل، وألجي كونستابل الصغير، ولويس مي الضئيل، ووالتر روزين الأصم. كان الجميع يصرخون ويهزون بعضهم بعضًا، وكانوا تواقين إلى الإغاظة ولكنهم مسلون إلى حد ما. اضطر فرانسيس وأنغوس إلى المغادرة مبكرًا إذ كان لديهم موعد آخر. سكر جِمس أرجايل وقال لآرون:

- «ولكن يا بني، لا تسمح لنفسك بأن تضلل بحديث أشخاص مثل ألجي. احذر منهم يا بني، إذا كان لديك روح لتنقذها. إذا كان لديك روح لتحفظها!» وعبّ بقايا ليتر شرابه.

ارتعش أنف ألجي قليلًا، ورمشت عيناه وقال:

- «وإذا كان لديك روح لتخسرها، فسأحذرك بشدة من أرجايل»

وأغلق إحدى عينيه وفتح الأخرى على آخرها حتى إن آرون كاد يشعر بالخوف.

- «صحيح تمامًا يا بني. ها! ها! لم يقل قط شيئًا أصدق من هذا! ها ها ها ها». ضحك أرجايل ضحكته الإبليسية المخمورة «سوف يعلمونك الحفظ والادخار. لم يكن هناك مثل هذا العدد الكبير من المدخرين القدامى الناضجين! ادخار أزرار سراويلهم القديمة! اذهب إليهم إذا كنت تريد أن تتعلم الحفظ. أوه، نعم، أنصح بذلك على محمل الجد. لن تخسر شيئًا، ولا حتى سمعتك. قد تخسر (روحاً) بالطبع. لكن هذا مجرد تفصيل صغير بين هذه الذخيرة من الأوراق النقدية وأزرار البنطلونات. ها ها! ما هي الروح بالنسبة لهم؟»

قال ألجي وجفناه يرفان مثل بومة مجنونة:

- «ربما يكون الأمر بالنسبة لك هو السؤال الأكثر صلة بالموضوع. أنتم من يتخصصون في مسألة الروح، ونحن الذين نحتاج إلى التنوير...»

- «نعم، هذا صحيح جدًا، أنتم كذلك! أنتم في حاجة إلى التنوير. مجموعة من العذارى الحكيمات الغارقات في ظلام الجهل. ها ها ها! هذا جيد، العذارى الحكيمات الغارقات في ظلام الجهل! ها ها...»

قرب أرجايل وجهه الأحمر من وجه آرون، ولوى قسماته، وضيق عينيه ساخرًا وهو يحدق من تحت حاجبيه الرماديين المستويين:

- «يجلسـن في الظلمة لتوفير زيت السـراج، وهذا ليس في مصلحتهن عندمـا يأتـي العريس! ها ها! هذه حلـوة جدًا يا ولـدي: العريس!» وضحك مع نفسـه «وماذا عـن العريس يا ألجي يا ولدي؟ إيه؟ مـاذا عنه؟ من الأفضل تنظيف فتيلتك أيها الرجل العجوز، إذا لم يفت الأوان بعد...

- «كنا نتحدث عن النفوس، وليس الفتائل، يا أرجايل»، قال ألجي.

- «الأمر سواء. أقسم بروحي أن كل ذلك يصل إلى النتيجة نفسها. أين الروح في الرجل الذي ليس لديه من يقاسـمه الفراش؟ إيه! أجبني عن ذلك! هـذا غير ممكن، كما تعلمون. ربمـا من الأفضل أن تطلب من دجاجة عذراء أن تضع لك بيضة»

قال ألجي:

- «ينبغي إذن أن يكون عندنا قدر كبير منه»

- «مـن مـاذا؟ من الـروح؟ ينبغي أن يكون هناك قـدر كبير من الروح؟ آه، تعنـي لأن هنـاك الكثيـر منه. آه، أتمنى لـو كان الأمر كذلـك. كنت أتمنى أن يكـون كذلك. لكن، صدقني، هناك عفة لعينة في العالم أكثر بكثير من أي شـيء آخر. حتى في هذه المدينة. سـمها العفة إن شـئت، لكنني لا أرى فيها إلا العقم. عليك أن تكون فأرًا كي تمدح الذيول الطوال. إن العجز الجنسـي هو سـبب مديـح العفة. صدقنـي أو لا، لكن هـذا هو جوهر الأمـر. الفضيلة نتـاج الضـرورة. هاهاها! - يعجبوننـي! يعجبونني! ها هـا! يحافظون على أرواحهم! لسـوف يحتفظون بنفايات أجسـادهم إذا اسـتطاعوا؟ يحزنهم أن يفترقوا عنها. ها! ها!ها»

حـل صمت قصير. كان أرجايل ثملاً تمامًا. لم يبق المزيد مما يقال. كان ألجي يرتجف غاضبًا وينظر في أرجاء الغرفة بشـكل مربك كما لو كان هادئًا ومتماسـكًا تمامًا. وكان روزن اليهودي الأصم يبتسـم مـن طرف أنفه ويقول وهو يحتضن أذنه بيده تائقاً إلى أن يجيبه أحدهم:

- «ماذا كانت تلك الجملة الأخيرة؟ لم أسمع تلك الأخيرة» لكن أحدًا لم يعره اهتماماً.

وأخيراً قال ألجي وهو ينظر حوله:

- «سأذهب». ثم قال لآرون «أنت تعزف على الفلوت، كما بلغني. هل يمكن أن نسمعك في وقت ما؟»

- «نعم» قال آرون دون التزام مؤكد.

- «حسنًا، انظر، تعال لنشرب الشاي غداً. سيكون لدي بعض الأصدقاء، وديل توري سوف يعزف على البيانو. تعال لنشرب الشاي غدًا، هل ستفعل؟»

- «شكرًا لك، سأفعل»

- «وربما ستحضر الفلوت معك»

- «لا تفعل أي شيء من هذا القبيل، يا بني. اجعلهم يسلّونك لمرة واحدة. إنهم دائمًا يعتصرون التسلية من شخص ما...» وأفرغ أرجايل في يأس بقايا نبيذ ألجي في كأسه، بينما وقف ألجي كما لو كان يستمع إلى شيء بعيد، ويرمش بعينيه بشكل رهيب، ثم قال أخيرًا:

- «ستأتي على أية حال. أليس كذلك؟ وأحضر الفلوت إذا كنت ترغب في ذلك»

أصر أرجايل قائلًا:

- «لا تأخذ هذا الفلوت يا بني. لا تفكر في شيء من هذا القبيل. إذا كانوا يريدون حفلة موسيقية، دعهم يشترون التذاكر ويذهبون إلى مسرح ديانا. أو إلى المركيزة ديل توري صباح يوم السبت فهي قادرة على التعامل معهم»

نظر ألجي إلى أرجايل ورمش بعينيه وقال:

- «حسنًا. آمل أن تعود إلى المنزل بخير يا أرجايل»

- «شكرًا لك على مجاملتك يا ألجي. ألن تعطيني ذراعك؟»

كانت تلك صفعة قاسية، نظراً لأن ألجي كان صغيرًا وضعيفاً ومهتزاً إلى حد ما، في حين أن أرجايل كان رجلًا ممتلئًا قوي البنية يبلغ من العمر خمسين عامًا أو أكثر.

- «أخشى أنني لا أستطيع الليلة. طاب مساؤك»

غادر ألجي، وكذلك فعل مي الصغير، الذي كان جالسًا وعلى وجهه

الصغير الذي يشبه الطائر مسحة من الاستنكار المبتهج، دون أن يقول أي شيء. وحتى اليهودي روزين نزع سماعته واستأذن بالانصراف وهو محرج. كان أنفه الطويل مبتسمًا راضيًا عن كل ما قاله أرجايل. وعندما ذهب هو أيضًا عقد أرجايل حاجبيه نحو آرون قائلًا:

- «أوه، يا صديقي العزيز، يا لهم من جماعة! مي الصغير، يبدو كصبي صغير بريء. لقد تجاوز السبعين في أقل تقدير. تجاوز السبعين. حسنًا، أنت لا تصدقني. اسأل أمه. اسأل أمه. إنها في الخامسة والتسعين. سيدة عجوز في الخامسة والتسعين» ثم ضحك على قوله المنافي للعقل «وبعد ذلك ألجي. ألجي ليس بالأحمق، كما تعلم. أوه، يمكنه أن يكون أكثر تسلية وذكاءً وظرفًا. لكنه ليس في مكانه هنا. ينبغي أن يكون في كنسينغتون[1] يتسكع في صالات استقبال السيدات ويوزع مُلَحه. إنهم أثرياء، كما تعلم، هذا الثنائي. اعتاد مي الصغير أن يتباهى بأنه كان يعيش على بضعة بنسات في الأسبوع. كان مرغمًا على ذلك كشاب فقير. ولكن بعد ذلك ما الذي يحتاجه فأر أبيض مثله؟ يمكنه أن يصنع وجبة دسمة من بقايا الجبن. الحظ، كما تعلم، لكنه بالطبع حصل على المال أيضًا. غني مثل كروسوس، ولا يزال يعيش على بضعة بنسات في الأسبوع، رغم أن ثروته ضعف ما كانت عليه من قبل. لا عجب في أنه يبدو قلقًا. إنهم لا يوافقونني، أوه، صحيح تمامًا، صحيح تمامًا من وجهة نظرهم. وأين ستكون أموالهم بخلاف ذلك؟ لن تبقى طويلًا إن وضعت يدي عليها...» ورسم وجهًا شيطانيًا متسائلاً «لكن كما تعلم، إنهم يثيرون أعصابي، هؤلاء الشبيهون بالخادمات العجائز الصغيرات، كما تعلم، الخادمات العجائز الصغيرات. أنا متأكد من أنني مندهش من صبرهم معي. ولكن عندما يصبر الناس عليك، فإنك ترغب أن تبصق عليهم بمرارة. أليس كذلك؟ ها ها ها ها! ألجي العجوز المسكين: هل أصبته بسهامي الليلة، أم أخطأته؟»

- «أعتقد أنك نلت منه» قال آرون.

- «لن يغفر لي أبدًا. ثق بذلك، لن يسامحني أبدًا. ها ها! أحب أن لا يُغفَر

1- حي في لندن يضم العديد من المسارح والمتاحف والصحف والمتنزهات.

لـي. معرفة أنهم لن يسـامحوا أحدًا أبدًا يضيف متعة إلـى التعامل مع الناس. هـا ها ها ها! الخادمات العجائز الصغيرات، اللاتي يحُكن بألسـنتهن. ألجي العجوز المسكين. لقد فاتته غرزة الآن. هاهاها! لا بد أنه في الثمانين»

ضحـك آرون. لـم يسـبق له أن التقـى برجل مثـل أرجايل مـن قبل، ولـم يسـتطع مقاومة سـحره. كان لدى الرجل شـيء مـن غرابة الأطوار الشـريرة الجذابة للغاية، عندما تسـتهدف شخصًا آخر غير المستمع إليه. لا بد أنه كان وسـيماً جدًا في أيامه، بوقاره الطبيعي، ووجهه المربع القوي والحليق. لكن وجهـه أصبح الآن ناعمًا وملتهبًا وشـديد الحمرة، وأصبحت عيناه صغيرتين وشريرتين تحت حاجبيه الرماديين الكثيفين. ومع ذلك كان له حضور. وكان شعره الرمادي، الذي كاد يتحول إلى اللون الأبيض، لا يزال وسيمًا.

– «ومـاذا سـتفعل فـي فلورنسـا؟» سـأل أرجايـل. فأوضح لـه آرون. فقال أرجايل:

– «حسـنًا. اسـتفد منهم بقدر ما تسـتطيع، ثم اذهب. اذهب قبل أن يتاح لهـم الوقـت الكافي لتلويثـك بقذارتهـم. إذا ظنوا أنك تريد أي شـيء منهم، فسـوف يعاملونك مثـل الكلب، مثل الكلب. أوه، إنهـم خائفون جدًا من أي شـخص يريد أي شـيء منهـم: خائفون حتى المـوت. لا أرجو منهـم خيرًا. أعيـش بمفـردي، لا أرى أحدًا. لا أسـتطيع تحمل ذلك، كمـا تعلـم: حفلات شـايهم الصغيرة السـخيفة. لا أسـتطيع ببسـاطة تحمـل ذلـك. لا، أنا أعيش وحـدي، وسـأموت وحـدي. على الأقل أتمنى ذلك بصدق. لسـوف أشـعر بالأسف لوجود أي منهم في جواري»

كان المطعـم خاليًـا، وكان النـادل الشـاحب المصـاب بالملاريـا -التي أصيب بها خلال الحرب بالطبع- قد اصطبغ محجراه بلون أرجواني. لكن أرجايل جلس بعناد، فنهض آرون على قدميه.

– «أوه، أنا قادم، أنا قادم» قال أرجايل ثم نهض مترنحاً. سـاعده النادل فـي ارتداء معطفـه، ووضع قبعـة صغيرة مجعـدة مبتذلة على رأسـه. فحمل عصاه وقال:

– «لا تنظر إلى مظهري يا صديقي العزيز. لقد تهرأت أرداني. انظر هنا!»

وأظهـر نهايـة أردان معطفه البالية بالفعل «لدي صنـدوق مليء بالملابس في لندن، أتمنى أن يحضره لي شخص ما. - جاهز إذن! تفضل وتقدمني!»

وهكـذا خرجا إلى الشـارع الـذي لا يزال ممطـراً. كان أرجايـل يقيم في وسـط المدينة. في سـاحة الكاتدرائية. توقف آرون لتوديعه عند باب الفندق فقال أرجايل:

- «تعـال لزيارتـي. مرّ بـي في السـاعة الثانية عشـرة -أو قبلهـا- ودعنا نتناول الغداء معًا. ماذا! هل هذا جيد؟ نعم، تعال قبل السـاعة الثانية عشـرة. متى؟ غدًا؟ غدًا صباحًا؟ هل ستأتي غدًا؟»

قال آرون إنه سيفعل ذلك يوم الإثنين.

- «الإثنيـن، هاه! تقول الإثنين! حسـن جدًا إذن. لا تنس الآن. لا تنس. لأن لدي ذاكرة لعينة. لن أنسـى. قبل السـاعة الثانية عشرة بقليل. وتعال على الفور. أنا تحت السـقف مباشرة. في الجنة[1] مثلما يقول الحمال دائمًا «نحن فـي الجنة»[2]. لكنه معتوه. آخر ما أهتم به هـو الجنة، فهي حارة في الصيف، وشديدة البرودة في الشتاء. لا تنسَ الآن: الإثنين، الساعة الثانية عشرة»

وقرص أرجايل ذراع آرون بسـرعة، ثم صعـد مترنحًا الدرج المؤدي إلى باب الفندق الذي يقيم فيه.

فـي اليوم التالي لقي حشـدًا من النـاس في منزل ألجي، كانت لديه شـقة رائعـة حقًّا. عُنـي بترتيبها وبتفاصيلهـا الدقيقة بأكثر مما تفعله امرأة بشـقتها. لذلك بدت اليوم (بأوعية الزهور والصور والكتب والأثاث القديم، وبألجي الـذي لبس ثيابًا في غاية الأناقة وهو يروح ويجيء ويلمع ويومض ويتصرف كمضيف سـاحر) شـيئًا مبهجًـا جدًا للحشـد الصغير مـن الزوار. لقـد كانوا مجموعـة غريبـة، هذا صحيح: فالكل اسـتثنائيون إلى حد مـا. قد يكون هذا على الرغم من غرابته، أفضل بكثير من متعة كون الجميع متشـابهين. تحدث آرون إلـى رجل إيطالـي عجوز أنيق ذي تجعيدات شـعر جانبية، خلع قفازيه الرماديين وراعى الشـكليات في حيوية بهيجة تعود إلـى العصر الفيكتوري،

يقصد اسم الفندق الذي يقيم فيه وهو Paradise ويعني الجنة.

2- بالإيطالية Siamo nel paradiso

وروى قصصاً عـن شـكوى قدمتهـا الليـدي سـوري ضـد اللـورد مـارش، وكانـت غيـر مفهومة على الإطـلاق، فقد تناثـرت الكلمـات الإنجليزية من فمـه مثل برقوق يتسـاقط من كيس ممـزق، وكلها غير مفهومـة تمامًا. ولكن الغنـدور العجوز كان راضيًا للغاية. كان يحـب أن يتحدث باللغة الإنجليزية ويبهر مستمعيه.

بجانـب آرون، جلسـت على الأريكـة الماركيزة ديل تـوري، وهي امرأة أمريكيـة من الولايات الجنوبية، عاشـت معظم حياتها فـي أوروبا. كانت في الأربعين من عمرها تقريبًا، جميلة وأنيقة، وهادئة وسط ضجيج حفل الشاي. كان من الواضح أنها كانت إحدى لبؤات ألجي. جلسـت الآن بجانب آرون، ولـم تأكل شـيئًا، بل تناولت كوبًا من الشـاي وبقيت سـاكنة. بدت حزينة، أو ربمـا ليسـت على ما يرام. كانـت عيناها ثقيلتيـن. لكنها تزينـت بعناية فائقة. كانت ملابسـها أنيقـة للغاية، وإن كانت بسـيطة: وبينما كانـت تجلس هناك، ممتلئـة الصدر، حزينة ومنعزلـة إلى حد ما، أوحت لآرون بصـورة كليوباترا معاصرة متأملة، من غير أنطونيو.

كان زوجهـا الماركيـز إيطاليًـا متشـددًا بعض الشـيء يرتـدي زي العقيد الرمادي لسـلاح الفرسـان وحـذاءً عسـكريًا جلديًـا. كانت عينـاه زرقاوين، وشـعره قصيرًا جدًا، وبدا رأسـه صلبًا وعسكريًا إلى حد ما: كان من الممكن أن يُنظر إليه على أنه ضابط نمسـاوي، أو حتى ألماني، لولا الحيوية الإيطالية المميزة ولمسـة التكشير في وجهه المتقلب. لقد كان مثل النُوم؛ ليس قبيحًا، لكنه غريب.[1]

جاء الآن ووقف مقابل السيد دي لانتي، وسأله عن شيء باللغة الإيطالية. كان مـن الواضـح أن الماركيـز الصغير، خلال سـؤاله للرجـل العجوز، كان يحـوم بالقرب من زوجته، علـى مرمى البصر منها. جاء لها ألجي بالسـجائر فبدأت على الفور بالتدخين، بتلك الحدة الشديدة الغريبة لامرأة عصبية.

لـم يقل آرون شـيئًا. لم يعرف ماذا يقول. لقد كان شـاعرًا بشـكل غريب

1- النوم gnome قزم خرافي يظهر كثيرًا في الحكايات الشعبية ويحرس كنوز باطن الأرض.

بالمرأة التي تجلس بجانبه، وذراعها بالقرب من ذراعه. كانت تدخن بشراهة وصمت، كما لو كانت شاردة الذهن، وثمة سحابة معلقة فوق حاجبيها الداكنين المستويين. كان شعرها داكنًا، لكنه بني معتدل وليس أسود، وكانت بشرتها فاتحة اللون. لا بد أن صدرها أبيض اللون. لماذا طرأت هذه الفكرة على بال آرون؟ هذا ما لم يستطع أن يجد له جوابًا طوال حياته.

أدار زوجها مانفريدي عينيه الزرقاوين وتجهم وهو يضحك على لانتي العجوز، لكن كان من الواضح أن انتباهه قد تحول إلى زوجته. وكان آرون، الذي سئم من الإمساك بكوب الشاي، قد وضعه على الطاولة واستأنف جلسته في صمت. لكن الماركيز الصغير أخرج فجأة علبة سجائره، وانحنى قليلًا وقدمها إلى آرون قائلًا:

- «ألا تدخن؟»

- «شكرًا لك» قال آرون:

- «التركي من جانب والفرجيني من الجانب الثاني، كما ترى»

- «شكراً لك. أفضل التركي»

أغلق الضابط الصغير الذي يرتدي زيه العسكري ذا اللونين الرمادي والأصفر صندوق سجائره مرة أخرى، وأخرج علبة الثقاب.

- «هل أنت جديد في فلورنسا؟» قال وهو يقدم الثقاب، فقال آرون:

- «أربعة أيام»

- «وسمعت أنك موسيقار»

- «أنا أعزف على الفلوت، لا أكثر»

- «آه، نعم، ولكنك تعزف عليه كفنان، وليس كهاوٍ»

- «ولكن كيف يمكنك أن تعرف؟» ضحك آرون.

- «لقد قيل لي ذلك، وأنا أصدقه»

- «هذا لطف منك، على أية حال، ولكنك موسيقي أيضًا»

- «نعم، كلانا موسيقي، أنا وزوجتي»

ونظر مانفريدي ناحية زوجته التي نفضت رماد سيجارتها.

- «أيّ نوع؟» قال آرون.

- «كيف، ماذا تعني بأي نوع؟ نحن هواة، على ما أعتقد»

- «لا، ما هي آلتك الموسيقية؟ البيانو؟»

- «نعم، البيانو. وزوجتي تغني. لكننا بعيدون جدًا عن الممارسة. لقد كنت في الحرب طوال أربع سنوات، وكان لدينا منزلنا في باريس. كانت زوجتي في باريس، ولم تكن ترغب في البقاء في إيطاليا وحدها. وهكذا -كما ترى- كل شيء يسير»

- «لكن هل ستبدآن من جديد؟»

- «نعم. لقد بدأنا بالفعل. لدينا موسيقى صباح يوم السبت. يوم السبت المقبل، رباعية وترية، ومعزوفات منفردة على الكمان لامرأة شابة من فلورنسا -صديقة- جيدة جدًا بالفعل، ابنة أستاذنا تورتولي، المؤلف الموسيقي، كما قد تعلم»

- «نعم»

- «هل ترغب في أن تأتي وتسمع؟»

- «سيكون جميلًا جدًا لو فعلت». قالت الزوجة فجأة، بكل بساطة، كما لو كانت متعبة فقط، ولم تتحدث من قبل.

- «أود ذلك كثيرًا»

- «تعال إذن»

وبينما كانوا يقومون بالترتيبات، تقدم ألجي وقال بأسلوبه اللطيف.

«والآن يا ماركيزة، هل يمكننا أن نطمع بأغنية؟»

- «لا، لم أعد أغني» جاء الرد البطيء الرنان.

- «أوه، ولكن لا يمكنك أن تعني أنك تقولين ذلك عن إصرار»

- «نعم، عن إصرار» وألقت سيجارتها جانبًا وفتحت حقيبتها الذهبية الصغيرة لتأخذ سيجارة أخرى.

- «ولكن ما الذي دفعك إلى اتخاذ مثل هذا القرار الكارثي؟»

أجابت وهي تضحك قليلًا:

- «لا أستطيع الإفصاح. الحرب على الأرجح»

- «أوه، لكـن لا تدعـي الحـرب تحرمنا مـن هذا، كمـا حرمتنا من كل شيء»

- «لا يمكن فعل شيء حيال ذلك. ليس لدي خيار في هذا الشأن. لقد طار العصفور» تحدثت بشيء من الكسل والتثاقل.

- «هل تقصدين عصفور صوتك؟ أوه، ولكن هذا مستحيل تمامًا. يمكن للمرء سماعه وهو يصدح من بين أوراق الشجر في كل مرة تتحدثين فيها»

- «أخشـى أنك لا تسـتطيع أن تجعله يفعل أكثر من مجرد الصياح من بين أوراق الشجر»

- «لكـن - لكـن -عفـواً- هل لأنك لا تنوين أن تكـون هناك أية أغنية أخرى؟ هل هذه نيتك؟»

- «هذا ما لا أستطيع قوله»، قالت الماركيزة وهي تدخن وتدخن.

- «نعم» قال مانفريدي «في الوقت الحاضر، السـبب هو أنها لن تفعل ذلك، وليس لأنها لا تستطيع ذلك. إنها إرادتها، كما تقول»

- «ويـلاه!» قال ألجي «لكن هذه في الواقع كارثة أخرى تضاف إلى قائمة كوارث الحرب. ولكن... ولكن، ألن يتمكن أي منا من إقناعك على الإطلاق؟»

ابتسم بنصف تملق، ونصف إثارة للشفقة، مع رفرفة مذهلة من عينيه.

- «لا أعرف. ما سيكون سيكون»

- «إذن ألا يمكننا أن نقول إنه سيكون عودة للغناء؟»

ضحكت فقط على هذه الهجمة، وأطفأت سيجارتها نصف المدخنة.

- «يـا لهـا من خيبة أمل!» قال ألجي «يا لقسـوة القدر، والحرب، وكل الشرور مجتمعة»

- «ربما...» والتفت المضيف الصغير الحرّيف إلى آرون «ربما يا سـيد سســن، قد يستدرج الفلوت عصفور الأغاني كما تنادي طيور السُمّان بعضها بعضًا للتحدي، كما تعلم. ألا تعتقد أن هذا محتمل جدًا؟»

أجاب آرون:

- «ليست لدي أية فكرة»

- «لكن أنتِ يا ماركيزة. ألا تمنحينا الأمل في أن يكون الأمر كذلك؟»

- «أنـا أيضًا ليسـت لدي أي فكرة» قالت الماركيـزة «لكنني أود كثيرًا أن أسمع فلوت السيد سسن. إنها آلة أحبها للغاية»

- «ها نحن الآن. ترى أنك قد تصنع المعجزة يا سيد سسن. ألن تعزف لنا؟»

- «أخشـى أننـي لم أحضر الفلوت معي، لم أرغـب في القدوم بحقيبة صغيرة»

- «تمامًا!» قالِ ألجي «من المؤسف أنه لا يدخل في جيبك»

- «إنه لا يسع المدونات وكل شيء»

- «ويـلاه! يـا له من مزيج من خيبة الأمل. لم أشـعر قـط بهذه القوة يا ماركيزة بأن الحياة القديمة والعالم القديم قد انهارا. حقًّا، ربما سيكون علي أن أتخلى قريبًا عن كل أنواع البهجة»

- «لا تفعل ذلك» قالت الماركيزة «الأمر لا يستحق هذا الجهد»

- «آه! أنا سعيد لأنك ترين ذلك. لدي إذن بعض الأمل»

وكان جوابها أن ابتسمت فقط، غير مبالية.

بدأ حفل الشاي بالانفضاض، ووجد آرون نفسه ينزل الدرج مع الماركيزة وزوجها. نزل الثلاثة في صمت، الزوج والزوجة في المقدمة. وما إن خرجوا من الباب حتى سأل الزوج.

- «كيف سـنعود للمنـزل يا عزيزتي؟ ترام أم عربـة؟» كان من الواضح أنه كان اقتصاديًا.

قالت وهي تنظر من فوق كتفها إلى آرون:

- «سنتمشى. أعتقد أننا جميعًا نسير في نفس الطريق»

أخبرهمـا آرون بمقـر سـكناه. كانا يسـكنان قريبًا منه، عبـر النهر. وهكذا شرع الثلاثة في السير مخترقين المدينة.

- «هل أنت متأكدة من أن الطريق لن يكون طويلًا بالنسـبة إليكِ؟» قال الضابط الصغير وهو يمسـك بذراع زوجتـه باهتمام. وكانت أطول منه. لكنه كان شخصًا مفعمًا بالحيوية.

- «كلا. أشعر برغبة في المشي»

- «طالما أنكِ لن تضطري إلى دفع ثمن ذلك فيما بعد»

استنتج آرون أنها ليست بخير. لكنها لم تكن تبدو مريضة، إلا إذا كان الأمر يتعلق بالأعصاب. كان لديها تلك النوعية القوية والغريبة من انشغال الذهن والعصاب.

كانت شوارع فلورنسا ممتلئة للغاية مساء هذا الأحد، والمرور فيها شبه مستحيل، وكانت مزدحمة بشكل خاص بعصائب من الجنود بالزي الرمادي والأخضر. شق الثلاثة طريقهم بصعوبة. كان الإيطالي في حالة دائمة من رد التحية. وأطال الجنود الأقوياء غير المنضبطين التحديق في المرأة أثناء مرورها.

قال مانفريدي:

- «أنا متأكد أنه من الأفضل أن نستقل عربة»

«لا لا بأس»

- «هل تشعرين كأنك في بيتكِ في فلورنسا؟» سألها آرون.

- «نعم، كما هو الحال في أي مكان آخر. أوه، نعم، في بيتي تمامًا»

- «وهل أحببت وجودك في كل الأمكنة الأخرى؟»

- «نعم - لوقت معين. لكن في باريس في أغلب الأحيان»

- «وليس في أمريكا قط؟»

- «كلا، مطلقًا. لقد جئت إلى أوروبا عندما كنت طفلة صغيرة: مدريد، القسطنطينية، باريس. لم أكن أعرف أمريكا على الإطلاق»

تذكر آرون أن فرانسيس أخبره أن والد الماركيزة كان سفيرًا في باريس.

- «هل تشعرين إذن أنك لا تملكين بلدًا خاصًا بك؟»

- «لدي إيطاليا. أنا إيطالية الآن، كما تعلم»

تساءل آرون عن سبب حديثها الخافت والمخدّر للغاية. بدا مانفريدي مرتبطًا بها حقًّا، وهي مرتبطة به. لقد كانا بسيطين جدًا بعضهما مع بعض. ثم بلغوا الجسر الذي يجب أن يفترقوا عنده.

- «ألن تأتي وتتناول كوكتيلاً؟» قالت.

- «الآن؟» قال آرون.

- «نعـم. هـذا هو الوقت المناسـب لتناول الكوكتيل. مـا هو الوقت يا مانفريدي؟»

- «السادسـة والنصف. قال الإيطالي «تعال واشـرب كأسًـا معنا. نحن دائمًا نتناول كأسًا في هذا الوقت»

وعبـر آرون الجسـر برفقتهما. كانـا يحتلان الطابـق الأول من قصر قديم فـي الجهـة المقابلة، على مسـافة قصيرة أعلى التل. فتح أحـد الخدم الباب. وقالت الماركيزة:

- «لو كان الجو دافئًا فحسـب. تدفئة الشقة تكاد تكون مستحيلة. سوف نجلس في الغرفة الصغيرة»

وجد آرون نفسـه في غرفـة دافئة جدًا بأضواء مظللـة ومزيج من الصلابة الإيطالية القديمة والراحة المعاصرة العميقة الناعمة. ذهبت الماركيزة لخلع شالها، وتحدث الماركيز مع آرون. كان الضابط الصغير ودودًا ولطيفًا، وكان من الواضح أنه يحب ضيفه.

- «هـل ترغب في رؤيـة الغرفة التي نعزف فيها الموسـيقى؟ إنها غرفة رائعـة لهـذا الغـرض، فقـد اعتدنا قبـل الحرب أن نعـزف الموسـيقى صباح كل يوم سـبت، من السـاعة العاشرة إلى الثانية عشـرة: ويمكن أن يأتي جميع الأصدقاء. كان لدينا في العادة خمسـة عشـر أو عشـرون شـخصًا. وها نحن الآن نبدأ من جديد. أنا نفسـي أسـتمتع بهذا كثيرًا. أخشـى أن زوجتي لم تعد متحمسـة كمـا كانت من قبل. أتمنى أن يوقظها شـيء ما، كمـا تعلم. يبدو أن الحـرب قـد أخذت حياتهـا بعيدًا. هنا فـي فلورنسـا الكثير من الهـواة. إنهم ممتـازون حقًـا. يمكـن أن يكـون لدينا موسـيقى حجـرة رائعة حقًـا. آمل أن يبهجهـا ذلك ويعيدهـا إلى طبيعتها مرة أخرى. لقد كنت بعيدًا لفترات طويلة في الجبهة. ولم يكن من الجيد لها أن تظل بمفردها. آمل أن يصبح كل شيء أفضل الآن»

وأشـعل الضابط الغريـب الصغير أضـواء الصالون الطويـل. كانت غرفة جميلـة على الطراز الإيطالي في الحقبة الإمبراطورية: لوحات سـجاد جميلة قديمة باهتة ضاربة إلى الحمرة، قطع من الأثاث المزين بالفسيفساء المذهبة،

وأشـياء أخـرى مختلطة -متكتّلة إلى حد ما، ولكنهـا مبهجة، وأكثر إرضاءً-. كانـت غرفـة كبيرة لكن ليـس فيها الكثيـر من الأماكـن الفارغة. إنهـا للعيش والإشغال، لا للتباهي ثم إغلاق الأبواب. كان المضيف سعيدًا بعرضها وقال:

- «شـقة باريس أكثر فخامة من هـذه بالطبع، لكنني أفضل هذه. أفضّل أن أكون هنا»

ظهر عليه نوع من الحزن عندما نظر حوله، ثم بدأ بإطفاء الأضواء. عادوا إلى غرفـة الجلوس الصغيرة. كانت الماركيزة تجلس على كرسـي منخفض وترتـدي بلوزة بيضـاء خفيفة جدًا تظهر ذراعيها ورقبتهـا. كانت امرأة ممتلئة الصدر، ناعمة البشرة، وإن لم تكن بدينة. قالت:

- «جهـز الكوكتيـلات إذن يـا مانفريـدي. هل تجـد هذه الغرفـة باردة جدًا؟» سألت آرون.

- «لا أبدًا»

- «الموقد يعمل طوال الوقت، ولكن دون تأثير كبير»

- «أنت ترتدين ملابس خفيفة للغاية»

- «آه، لا، يجب أن يوفر الموقد الحرارة الكافية. اجلس. هل ستدخن؟ هناك سجائر، وسيجار، إذا كنت تفضله»

- «لا، لقد جلبت سجائري معي. شكرًا»

وأخرجت سيجارتها من علبتها الذهبية.

- «إنها غرفة رائعة للموسيقى، الغرفة الكبيرة» قال آرون.

- «نعم تمامًا. هل ترغب في العزف لنا في وقت ما، هل تعتقد ذلك؟»

- «هل تريدين مني ذلك؟ أعني هل يثير اهتمامك؟»

- «ماذا: الفلوت؟»

- «لا، الموسيقى عمومًا»

- «الموسـيقى عمومـاً! حسـنًا! كنت أحب ذلـك. لكنني لسـت متأكدة الآن. مانفريدي يعيش من أجلها تقريبًا»

- «لأجلها فقط؟» سأل آرون.

- «لا لا! لا لا! وأشياء أخرى أيضًا»

- «لكنك لم تعودي تحبينها كثيرًا؟»

- «لا أعرف. ربما. لست متأكدة»

- «أنتِ لا تتطلعين إلى صباح يوم السبت؟» سألها.

- «ربما لا أتطلع إليه، لكنني أفعل ذلك من أجل مانفريدي، بالطبع، من أجله في المقام الأول، أعترف بهذا. وأظن أنه يعرفه»

- «جمهور من الناس في بيت واحد»

- «نعم، الناس. لكن الأمر لا يقتصر على ذلك. إنها الموسيقى نفسها، أعتقد أنني لم أعد أستطيع تحملها. لا أعرف»

- «عاطفية جدًا؟ تثير لديك الكثير من العواطف؟»

- «نعم ربما. لكن لا ما لا أطيقه هو الكوردات[1]، كما تعلم: التناغمات الهارمونية. مجموعة من الأصوات التي تعزف معًا. إنها تمرضني. إنها تصيبني بالغثيان»

- «ماذا، هل تحبين النغمات المتنافرة؟»

- «لا، إنها بنفس السوء تقريبًا. لا الأمر يتعلق فقط باجتماع أي عدد من النوتات الموسيقية المختلفة معًا، متنافرة كانت أم متناغمة. حتى سماعي لكورد واحد على البيانو يجعلني أشعر بأني مريضة. أشعر عندها بأنني سأتقيأ. أليس هذا غريبًا؟ بالطبع، أنا لا أخبر مانفريدي. سيكون ذلك قاسيًا جدًا بالنسبة له. من شأنه أن يشطر حياته إلى شطرين»

- «ولماذا إذن تقيمان الحفلات الموسيقية أيام السبت؟»

- «أوه، أنا فقط أفسح الطريق قدر الإمكان. أنا متأكدة من أنك تشعر أن هناك شيئًا خاطئًا معي، وأنني أتقبل الأمر كما أفعل» قالت بمزيج من القلق والسخرية.

- «لا - كنت أتساءل فقط. أعتقد أنني أشعر مثلك بنفس الشيء. أنا أعلم أن الأوركسترا تعميني بالكراهية أو لا أعرف ماذا. لكنني أكون راغباً في إلقاء القنابل»

1- النغمات المتآلفة.

- «أرأيت؟. هذا ما يحدث لي أيضًا. إنه يصيبني بالإحباط، ولا أشعر إلا بالغثيان العاجز. كما تعلم، مثلما يحدث عندما تصاب بدوار البحر»

كانت عيناها الزرقاوان الداكنتان الثقيلتان المسكونتان تركزان عليه كما لو كانت تأمل في شيء ما. راقب وجهها بثبات، وعلى وجهه وميض ذكاء غريب.

- «نعم» قال لها «أفهم ذلك. وأنا في أعماقي أشعر بهذا. لكنني أمنع نفسي من إدراكه، هل تعلمين؟ لكن أين المفر؟ إن عيشي ورزقي منها»

- «من الموسيقى! حقًّا؟ ما أسوأ هذا! ولكن ربما يكون الفلوت مختلفًا. لدي شعور بأنه كذلك. أستطيع أن أفكر في نغمة فلوت واحدة، نعم، أستطيع أن أفكر فيها بهدوء تام. لكنني لا أستطيع حتى أن أفكر في البيانو، أو الكمان مع اهتزازه، أو الأوركسترا، أو الرباعية الوترية -أو حتى الفرقة العسكرية- لا أستطيع أن أفكر فيها دون أن أرتجف. أستطيع فقط أن أتحمل الطبل والمزمار. أليس هذا جنونًا مني، لكنني عانيت الكثير من الآلات الأخرى، مما نسميه الموسيقى الأصولية. ولكن أحضر فلوتك في يوم من الأيام. أحضره، هل ستفعل؟ واسمح لي أن أستمع إليه بمفردي. وحيدة تمامًا. أعتقد أن هذا سيفيدني جدًا. هذا مؤكد. يمكنني أن أتخيل ذلك» أغمضت عينيها وتوقف صوتها الصادح الغريب. كانت تتحدث تقريبًا كشخص غارق في النشوة أو ماشٍ في نومه.

- «إنه الآن في جيب معطفي، إذا كنت ترغبين»

- «حقًا؟ نعم!» لم تكن مستعجلة قط. كانت دائمًا بطيئة وفي صوتها رنة مميزة، فتبدو أصداؤه عالقة في الهواءُ «نعم. أحضره، أحضره - أحضره. واعزف في الغرفة الأخرى لوحدك، لوحدك تمامًا، دون مرافقة أحد. افعل هذا وجربني»

- «وسوف تخبرينني بما تشعرين به؟»

- «نعم»

قام آرون إلى معطفه. وعندما عاد مع فلوته وهو يربط أجزاءه، كان مانفريدي قد جاء ومعه الصينية والكوكتيلات الثلاثة، فأخذت الماركيزة كأسها وقالت:

- «اسـمع يـا مانفريـدي. السـيد سسـن سـيعزف بمفـرده فـي الصالة. وسأجلس هنا وأستمع»

قال مانفريدي:

- «جيد جدًا. اشرب كوكتيلك أولًا هل ستعزف بدون نوتة مكتوبة؟»

- «نعم»

- «سوف أشعل الأضواء من أجلك»

- «لا اتركها مظلمة. سوف يأتي ما يكفي من الضوء من هنا»

- «متأكد؟» قال مانفريدي.

- «نعم»

كان الضابط الصغير دخيلاً في تلك اللحظة. كلاهما شعر بذلك. لكنهما لم يتذمرا. لقد عرفا أنهما هما الاستثنائيان، وليس هو. عبّ آرون شرابه ونظر نحو الباب.

- «اجلس يا مانفريدي» قالت الماركيزة «اجلس ساكنًا»

- «ألن تسمح لي بتجربة بعض المرافقة؟» قال الضابط.

- «لا سأعزف شيئًا صغيرًا من الذاكرة»

- «اجلس يا عزيزي. اجلس» قالت الماركيزة لزوجها.

جلس مطيعًا. وجعله وميض اللون الأصفر السـاطع على اللون الرمادي لزيه العسكري يبدو مثل قزم النُوم أو طائر الشرشور[1].

انسـحب آرون إلى الغرفة الأخرى، وانتظر قليلًا حتى يستعيد التعويذة التي ربطته بالمرأة، ومنحتهما هذه العزلة الغريبة التي تبدو خارجة عن حدود الحياة.

أمسـك بها مرة أخرى. وهنـاك، في ظلام الغرفة الكبيـرة، وضع الفلوت على شـفتيه، وبدأ بالعـزف. لم يكن لحناً بأي معنى للكلمة، لقد كان انسـيابًا حرًا واضحًا وحادًا وجذلاً للنغمات، ومع ذلك فهو لحن، تيار متدفق مضيء مـن الحيوية الصافية، صخب مشـرق سـريع ضاجٌ بالحياة، يسـيل ويتوقف. كان مثـل غنـاء الطيـر، في كونه خاليًا مـن أية عاطفة أو شـعور أو نية أو معنى

1- chaffinch طائر صغير زاهي الألوان يشبه العصفور.

إنسـاني. كان تموجًا ورفيفًا لصوت نفخت فيه الحيـاة. لكنه كان مختلفًا عن غناء الطيور، إذ كانت النغمات تتابع واضحة مستقلة واحدة تلو الأخرى، في خببٍ عذب. إن صوت العندليب ليشبهه في جموحه. إن رؤية الأسى البشري في غناء العندليب هو محض هراء. يا لهذا التفجر والتمايل الجامح الوحشي غير البشري للأصوات. جميل هو، لكنه ليس من الاستاطيقا بشيء.[1]

ما عزفه آرون لم يكن من اختراعه. إنه مقطع صغير من موسيقى العصور الوسطى مكتوب للفلوت والفيولا[2]. لقد جعل البيانو يبدو كأنه حادلة بخارية خرقاء مدمرة للأعصاب، والكمان، كما نعرفه، معذب أعصاب بغيض ذو أسلاك...

بعد قليل، عندما دخل الغرفة الصغرى مرة أخرى، نظرت الماركيزة ملياً في وجهه.

- «جيد!» قالت «جيد!»

وبدا أن بصيصًا من السعادة قد أضاءها. لقد بدت كأنها شخص تم احتجازه في قلعة مسحورة رهيبة لسنوات وسنوات. آه، قلعة مسحورة فظيعة، جدرانها منقوعة بالعواطف وأغلال ثقيلة من المشاعر وأجواء مروعة من الإرغام. شعرت بأنها رأت من خلال الباب المفتوح شقاً من ضوء الشمس، وهواءً خارجيًا رقيقًا ونقيًا وشفيفًا، في الخارج، خلف هذه الزنزانة الرطبة والوحشية للمشاعر والضرورة الأخلاقية. آه! - ارتجفت بتشنج مما حدث. نظرت إلى زوجها الصغير. سلاسل الضرورة تحيط به من كل جانب: سجان صغير. ومع ذلك كانت معجبة به. لو أنه فقط يرمي مفاتيح القلعة. لقد كان نومًا صغيرًا، فلماذا أمسك بمفاتيح القلعة بقوة؟

نظر آرون إليها. كان يعلم أنهما يفهمان بعضهما بعضًا، هو وهي، دون أي ضرورة أخلاقية أو أية ضرورة أخرى. إنهما في الخارج، لقد خرجا من قلعة ما يسمى بالحياة البشرية. خرجا من قلعة الحياة البشرية الرهيبة والنتنة. قليلًا من الحرية الحقيقية والشفافة. مجرد لمحة.

1- فلسفة، أو علم الجمال.

2- آلة قريبة من الكمان لكنها أكبر قليلًا وذات صوت أعمق وأوطأ.

- «ساحر!» قال الماركيز «ساحر حقًا! ولكن ما الذي عزفته؟»

وأجابه آرون عن سؤاله، فهتف قائلًا:

- «لكنه مبهج حقًا. أقول، ألن تعزف لنا في أحد أيام السبت هذه وتسمح لي بمرافقتك على البيانو؟ سيكون أمرًا ساحرًا، ساحرًا إن وافقت على ذلك»

- «حسنًا» قال آرون، ثم قالت مضيفته:

- «ألا تشرب كوكتيلاً آخر»

ففعل ذلك. ثم قام ليغادر، فقالت الماركيزة:

- «هلّا مكثت لتناول العشاء؟ لدينا ضيفان قادمان، اثنان من أقارب زوجي الإيطاليين. لكن...»

لكن آرون اعتذر.

- «إذن، ألن تأتي... دعني أرى... يوم الأربعاء؟ هل تأتي يوم الأربعاء. نحن لوحدنا. وأحضر معك الفلوت. تعال في الساعة السادسة والنصف، كما هو الحال اليوم، أليس كذلك؟ نعم؟»

وعد آرون بذلك، ثم وجد نفسه في الشارع. كانت الساعة السابعة والنصف. وبدلاً من العودة مباشرة إلى منزله، عبر جسر بونتي فيكيو وسار مباشرة وسط الحشد. كانت الليلة على ما يرام الآن. كان يضع معطفه فوق ذراعه، وفي نوع من النشوة أو الجنون اللذين أدارا رأسه بفعل تجربة المساء التي عاشها بقرب المرأة، سار بسرعة إلى الأمام، دون أن يلتفت إلى أي شيء، لكنه اندفع بشكل أعمى عبر كل الحشد، ينجرف بمشاعره الخاصة، كما لو كان وحيدًا، وكل هؤلاء الناس مجرد أشجار.

عند مغادرة ساحة فيتوريو إيمانويل، اندفعت عصابة من الجنود فجأة حوله ودفعوه في اتجاه واحد، بينما دفعته عصابة أخرى تتسكع حول زاوية الشارع، وألقته مرة أخرى عاجزًا في وسط العصابة الأولى. لعدة لحظات كان يكافح بين الحشد الصغير الفظ الوحشي الذي يرتدي الزي الرسمي الخشن ذا اللون الرمادي والأخضر الذي تفوح منه رائحة الجنود القوية. ثم وجد نفسه حرًا مرة أخرى، ينتفض ويسير نحو الكاتدرائية وهو غاضب

وفي غاية الانزعاج. لبس الآن معطفه وزرره حتى الحلق، منغلقًا على نفسه، بسبب الوقاحة الوحشية لهذه العصبة من الغوغاء في ليلة الأحد. كان، قبل ذلك، يسير وسطهم في اندفاع من الشعور العاري، واثقًا بلطفهم ورقتهم. لكنه استجمع نفسه الآن.

وبينما هو عائد إلى منزله، توقف فجأة بينما كان يمر بالقرب من بارجيلو. توقف ووضع يده في جيب صدره. لقد اختفت محفظته، لقد تعرض للسرقة. وكما لو أن صاعقة قد ضربته في تلك اللحظة، كما لو أن تيارًا من كهرباء سائل قد تدفق عبر أطرافه، من ركبتيه إلى قدميه وتركه واقفًا هناك فاقدًا للوعي تقريبًا. للحظة، وقف هناك فاقدًا للوعي وفائق الوعي معًا. لقد تعرض للسرقة. لقد مدوا أيديهم إلى صدره وسرقوه. ولو أنهم طعنوه، لكان من الصعب أن يكون لذلك تأثير أكبر عليه. كان يعرف ذلك. لقد كان يعرف ذلك. وعندما صدمه الجنود بشدة سلبوه. وكان يعرف ذلك. كان يعرف ذلك كما لو كان هذا نصيبه وقدره.

واصل السير وهو يشعر بالضعف والدوار، كما لو أنه قد تعرض بالفعل لضربة من سائل كهربائي شرير. وبمجرد أن بدأ بالمشي، بدأ بالتفكير. ربما كانت محفظته موجودة في معطفه الآخر. ربما لم تكن معه على الإطلاق. ربما كان يشعر بكل هذا دون سبب. وربما كان الأمر كله مجرد خاطرة حمقاء.

أسرع إلى الأمام. أراد التأكد. أراد الراحة. كان الأمر كما لو أن قوة شريرة قد استولت عليه فجأة وصرعته. أراد أن يقول إن الأمر ليس كذلك، بل إنه محض خيال انتابه. لم يكن يريد الاعتراف بقوة الشر، خاصة في تلك اللحظة. فمن المؤكد أن روحاً شريرة شديدة القبح قد ضربته وسط عصابة الجنود الإيطاليين. كان يعلم ذلك، لقد اخترقته. لقد نالت منه.

لكنه أراد أن يقول إن الأمر ليس كذلك. فأسرع حال وصوله النزل إلى غرفته العالية البعيدة المنعزلة عبر الممرات المظلمة. وبمجرد وصوله إليها أغلق الباب وأشعل الضوء، وانتاب قلبه شعور أشبه بالخوف. وفتش جيوبه الأخرى. بحث في كل مكان. لكن دون جدوى.

نعم دون جدوى. لقد تأكد أنه قد سُرق. كان يعرف ذلك طوال الوقت.

لقد تآمر الجنود عمدًا، تدافعوا نحوه عمدًا وأخذوا محفظته. لابد أنهم شاهدوه من قبل. لا بد أنهم ابتسموا وسخروا منه.

وجلس على الكرسي كي يستفيق من الصدمة. كانت المحفظة تحتوي أربعمائة فرنك، وثلاث أوراق نقدية من فئة جنيه واحد، والعديد من الرسائل وأشياء خاصة. حسنًا، لقد ضاعت هذه الأشياء. لكن ما صدمه لم يكن الخسارة بقدر ما كان الاعتداء على شخصه. لقد شعر بالضربات الساخرة التي وجهوها إليه أثناء دفعهم له بالمناكب.

وها هو الآن جالس، يشعر بالضعف في كل عضو منه ويقول في نفسه:

- «نعم، ولو لم أكن قد اندفعت على هذا النحو الممتلئ بالمشاعر. لو لم أكشف عن نفسي. لو لم أشغل نفسي بالماركيزة، ثم أندفع متقد المشاعر في الشوارع دون تحفظ، لما حدث ذلك قط. لقد بذلت نفسي: وكان هناك من هو على استعداد لانتزاع ما بذلته. لقد تخليت عن نفسي. إنه خطأي. كان يجب أن أكون حذرًا. يجب أن أكون دائمًا على أهبة الاستعداد: دائمًا، دائمًا. مع الله ومع الشيطان، يجب أن أكون على أهبة الاستعداد. إن كان الأمر إلهيًا أو شيطانيًا، يجب أن أتمسك بما لدي وأظل متيقظًا. إن لم أفعل، فأنا أستحق ما أناله»

لكنه ظل جالسًا على كرسيه في غرفة نومه، مذهولًا. وكان جزء من روحه يقول له مؤكدًا:

- أنت تستحق هذا. تستحقه تمامًا. هذا جزاء كل من يندفع مهتاج الشعور في الشارع، ويثق ضمنيًا بالإنسان وروح الحياة، كما لو كان الإنسان وروح الحياة ملعبًا للناس المتهيجين. هذا جزاؤك المستحق. لقد دفعت حوالي اثني عشر جنيهًا إسترلينيًا مقابل هذا الدرس. أيها الأحمق، كان عليك أن تعرف قبل هذا، ولكنت عندها غير ملزم بدفع شيء. إن اثني عشر جنيهًا إسترلينيًا ليس بالمبلغ القليل، أيها الأحمق. ولكن بما أنك دفعت، فاحذر، ولا تنس الدرس الذي تعلمته. شيء كهذا لن يحدث مطلقًا مرة أخرى. لا تكشف نفسك مرة أخرى. لا تثق ثقة مطلقة. إنها كفر بالحياة. هل رأيت مخلوقًا بريًا يثق ثقة مطلقة؟ إنه يفكر في نفسه. إنه يأخذ حذره في نومه

ويقظته. ويجب أن تكون كذلك، وإلا فسـوف تهلك. وأنت نائم أو يقظ، مع رجل أو امرأة، مع الله أو الشـيطان، احم نفسـك. خذ حذرك كيلا يصيبك ما هو أسوأ. لا يُسرق الرجل إلا إذا حرض سارقًا على سرقته. لا يُقتل إنسان إلا إذا اجتـذب قاتلاً. لا تتعرض للسـرقة إذن: هذا أمـر يقع في نطاق قدرك. ولا تُقتَـل. إذا قُتلت فإنك تسـتحق ذلك. احذر لنفسـك، الآن، دائمًا وإلى الأبد. نعم، ضد الله بنفس العزم ضد الشيطان. فهو لا يقل خطورة عليك...

وهو يفكر بهذا، في روحه لا في عقله، في روحه النشطة الحية، استجمع رباطـة جأشـه مرة أخـرى، وقبل الحقيقة، فقام واسـتعد لتناول العشـاء. كان وجهه الآن سـاكنًا ومليئًا بالتصميم. وكان قلبه أيضًا ساكنًا، لا يعرف الخوف لأن حارسه كان متأهبًا، متأهبًا، متأهبًا إلى الأبد.

ولم ينس آرون قط. ومن يومها صار من الضروري بالنسبة له أن يشعر بأن الحارس يقف على أهبة الاستعداد في قلبه. كان يشعر بعدم ارتياح غريب في اللحظة التي يخرج فيها عن حذره. نائمًا أو مستيقظًا، في خضم أعمق عاطفة أو حب مفاجئ، في نوبات الإثارة الكبرى أو الارتباك، كان في مكان ما، في ركن ما من أركان نفسه، مستيقظًا على حقيقة أن حارس الروح يجب ألا ينام، لا، أبدًا، ولو للحظة واحدة.

الفصل السابع عشر
عاليًا فوق ساحة الكاتدرائية

جلس آرون وليلي في رواق أرجايل الصغير، في مكان مرتفع تحت إفريز الفندق الصغير، وهو عبارة عن شرفة علوية طويلة تحت السطح مباشرة، في مكان لا يتوقع أحد وجوده. كان في مستوى واحد مع السقف الرمادي المخروطي لجناح التعميد في الكاتدرائية. هنا جلس آرون وليلي في فترة ما بعد الظهر، في شمس أواخر الخريف الجميلة. وفي الأسفل، كانت الساحة التي انسحبت عنها الشمس باردة بالفعل. ارتفعت بناية التعميد الوردية والبيضاء والخضراء على شكل فنار كما لو كانت قائمة عند شاطئ البحر، باردة فاترة باهتة في هذه الساعة التي تغيب فيها الشمس عنها. ثمة أشكال سوداء، عدد لا يحصى من الأشكال السوداء، مثيرة للفضول لأنها كانت جميعها منتصبة، قائمة على نحو شاقولي -لم يستطع آرون أن يقول لماذا توقعها أن تكون أفقية- أشكال سوداء صغيرة تنتصب على أطرافها السفلية، مثل الأسماك التي تسبح على ذيولها، تتمايل إلى ما لا نهاية عبر الساحة. كانت عربات صغيرة على أطراف طبيعية أربعة تهتز عبرها كالصفيح، وعربات ترام صفراء صغيرة تنزلق مثل الكلاب عند المنعطف. كانت الشرفة عالية لدرجة أن الصوت يصلها بالكاد. كان الفضاء العلوي فوق المنازل أقرب إليهما من التيارات السفلية للمدينة الصاخبة. ضوء الشمس، ضوء الشمس الكامل الجميل، تلكأ بدفئه ولم يغادر الشرفة بعد. لقد استحوذ على جوانب واجهة الكاتدرائية مثل أطراف زهرة، وأضاءت

الجوانـب على سـاق بـرج جيوتو[1]، مثل سـاق الزنبـق، أو المدقـة الطويلة الجميلـة ذات اللون الوردي الفاتح والأبيـض والأخضر لزنبقة الكاتدرائية. فلورنسـا، المدينـة الزهريـة. فلورنسـا... فيورنـزا، المدينة المزهـرة، مدينة الزنابـق الحمـراء[2]. فيورنتينـي، ذات الـروح الزهرية[3]. زهـور ذات جذور ضاربـة في الطين والوحـل، كما ينبغي لها: وأزهار شـجاعة في الهواء، مثل الكاتدرائية والبرج وتمثال داود.

قال ليلي:

- «أنـا أحب هذا. أحب هذا المكان. أحـب الكاتدرائية والبرج. أحب لونهمـا الـوردي وشـحوبهما. تجد النفـوس القوطية فـي ذلـك انحرافًا عن الـذوق، وتقول إنه خادع ومبهرج ورخيص. لكنني أحبه، فهو رقيق ووردي، والخطـوط الداكنة هـي كما ينبغي أن تكون، مثل علامـات النمر على الزنبق الـوردي. إنها زنبقة وليسـت وردة. زنبقة بيضاء وورديـة ذات علامات نمرية داكنـة. وهـي ثقيلة أيضًا فـي مادتها: مادة أرضية ترتفع في الهواء. ولا أنسـى أبـدًا التربـة الداكنة الضارية السـوداء - أعتقد أن الناس هنـا كانوا في لحظة مـا هـم ذواتهـم الحقيقية مثلمـا يكون نبـات فـي أوان إزهاره. ثـم يأفل كما أفَلت فلورنسـا. لا زهور الآن. لكنها أزهرت ذات مرة. ولا أفهم لماذا يجب أن يكـون العرق مثل شـجرة الصبار، تزهر مرة واحدة وتمـوت. لماذا ينبغي ذلك؟ لماذا لا تزهر مرة أخرى؟ لم لا؟»

قال آرون:

- «إذا كان لهـذا أن يحـدث، فسـيحدث. قرارنـا بشـأن هـذا الأمر لن يغير شيئًا»

- «القرار جزء من المهمة»

1- برج جرس جيوتو أحد المعالم الأربعة الرئيسية في ساحة ديل دومو في فلورنسا. يبلغ ارتفاعه 84.7 متراً.

2- تذهب بعض الآراء إلى أن اسم فلورنسا مشتق في الإيطالية من الزهور أو الإزهار أو الازدهار.

3- فيورنزا وفيورنتيني: من أسماء فلورنسا.

هنـا قاطعهما أرجايل الذي أطل برأسـه من إحـدى النوافذ، وعلى وجهه المحمر بقع من الرغوة وقال:

- «هل تظنان نفسيكما حكيمين وأنتما تجلسان في هذه الشمس؟»

- «في نوفمبر؟» ضحك ليلي، فقال أرجايل:

- «يقولـون إن الشـمس تُخشـى دائمًـا عندما يكون هناك حـرف «r» في الشـهر. أما أنا فأقول إن عليك أن تخشـاها دائمًا مع هذا الحرف أو بدونه. أنا خائف من ذلك. لقد كنت في الجنوب، وأعرف ما هي. أقول لك إنني أخاف منها. ولكن إذا كنت تعتقد أنك تستطيع تحمل ذلك، حسنًا...»

قال ليلي:

- «لن يستمر الأمر طويلًا على أية حال»

- «إنه طويل جدًا بالنسبة لي يا ولدي. أنا طائر ظلال، بكل معنى الكلمة، بـكل معنى الكلمـة. والآن هل أنت مرتاح؟ ماذا؟ هل لديك وسـادة أخرى؟ بسـاط لركبتيك؟ هل أنت متأكد الآن؟ حسـنًا، انتظر لحظة واحدة فقط حتى يأتي النادل بقارورة الصودا، وسـوف تشـرب الويسـكي بالصـودا. إنه نفيس -أوه، نعم، نفيس جدًا جدًا هذه الأيام- مثل شرب الذهب. زجاجة بخمسة وثلاثيـن ليرة يـا بني!» ومـطّ أرجايـل وجهه وأحـدث صوتًا بشـفتيه. «لكن أحدهم أهداني هذه الزجاجة، ومن حسـن الحظ أنك أتيت بينما لا تزال فيها بضع قطرات. سعيد جدًا بك! سعيد جدًا بوجودك»

وهنـا قام بإدخـال طاولة صغيرة من خلال النافـذة، ووضع عليها زجاجة وكأسـين، إحداهما كأس أسـنان[1]. ثم انسـحب مرة أخرى ليكمل الحلاقة. أمسك النادل بقارورة الصودا والكأس الثالثة. دفع أرجايل رأسه عبر النافذة، التـي كانـت أعلـى قليلًا من الشـرفة. وسـرعان مـا حلـق ذقنه بعنايـة، وكان يمشط شعره.

- «تفضلوا يا أولادي، تفضلوا بشرب هذا الويسكي!»

- «سننتظرك». قال ليلي.

1- كأس تستخدم لحفظ فرشاة الأسنان ومعجونها.

- «لا، لا، لا تفكر في ذلك. ومع ذلك، إذا شئت، سأكون معكما بعد دقيقة واحدة فقط، دقيقة واحدة فقط. سأضع الماء للشاي الآن. أوه، اللعنة على كحول المواقد الذي يبيعونه هذه الأيام! وستة فرنكات للتر الواحد! ستة فرنكات للتر! لا أعرف ماذا سأفعل، فالهواء الذي أتنفسه يكلف أموالاً هذه الأيام - لحظة واحدة فقط وسأكون معكما! لحظة واحدة فقط»

وخرج بعد قليل من غرفة النوم الصغيرة في العلية، عبر أصغر خزانة في غرفة الجلوس أسفل الإفريز حيث كانت كتبه، وحيث علق مفروشاته الهندية الحمراء القديمة -أو المطرزات الحريرية- وظهر هناك، على الرواق الذي يشرف على العالم.

- «الآن إذن، نحن في الجنة[1]: إيه؟ الجنة كافية بالنسبة لك، أليس كذلك؟»

- «الشيطان يطل على لنكولن[2]» قال ليلي وهو يضحك وينظر إلى وجه أرجايل.

قال أرجايل:

- «الشيطان الذي سيطل على فلورنسا سيشعر بالحزن. المكان ينمو سريعًا ويزداد احترامًا. أوه، التقوى تجعل الشيطان يضحك. لكن الاحترام، يا بني، ينم عن نقص خطير في الشجاعة. وعندما تتضاءل الشجاعة... حسنًا، فهذا يكفي لجعل أقوى الشياطين يبدو مريضًا. ماذا؟ لا شك في ذلك، لا شك على الإطلاق. آهها!» كان قد انتهى للتو من تسوية ربطة عنقه وتزرير صدريته. «كيف أبدو، إيه؟ أنيق؟ أنيق. لقد أصلحت هذه البدلة للتو عند خياط صغير ماهر هناك عبر الشارع. لكنه طلب مني مائة وعشرين فرنكًا» مطّ أرجايل وجهه وبدا حزينًا وأصدر صوتًا خافتًا صغيرًا بشفتيه «ومع ذلك،

1- بالإيطالية في الأصل siamo nel paradiso

2- تقول الأسطورة إن الشيطان أرسل، في نوبة من المزاح، اثنين من عفاريته ليعبثا ويزعجا المصلين في كاتدرائية لنكولن في إنكلترا، وهنا تدخل أحد الملائكة وحول أحدهما إلى تمثال من حجر ما زال يطل ساخرًا على الكاتدرائية الشاهقة من فوق أحد أعمدتها.

ليس سيئًا، أليس كذلك؟ كان عليه أن يقصر الجزء الخلفي من السترة قليلًا، ويضع وصلة إضافية في البنطلون من الخلف. يبدو أن عجيزتي قد كبرت. حسنًا، حسنًا، قد يكون الأمر أسوأ. هل كل شيء على ما يرام؟»

عاين ليلي البدلة وقال:

- «لطيف جدًا. لطيف جدًا حقًّا. يا له من قماش جيد! هذا يحدث كل الفرق»

- «أوه، يا صديقي العزيز، كل الفرق! عمر هذه البدلة أحد عشر عامًا، أحد عشر عامًا. لكنه القماش الإنجليزي الجميل، قبل الحرب، قبل الحرب!»

- «ما زال غالياً ورائعًا» قال ليلي.

- «غالياً ورائعًا. إيه! ها ها ها ها! حسنًا، لقد كلفني قلبه مائة وعشرين فرنكًا، ووجدت ذلك غالياً بما يكفي. حسنًا، الآن، تعال...» وهنا اتخذ صوت أرجايل طابعًا مرحًا جديدًا «ويسكي وصودا يا ليلي؟ قل متى أسكب لك! أوه، هراء، هراء! ستشرب ضعف ذلك. أنت لست زنبقة وادٍ هنا، تذكر[1]. ليس معي. هذا احتمال غير وارد. نحن في الجنة. تذكّر هذا»

- «ولكن لماذا يجب أن نشرب ما عندك من ويسكي؟ الشاي سيفيدنا أيضًا»

- «هذا غير وارد! غير وارد! عندما أستمتع بصحبتك يا بني، نشرب كأسًا من أي شيء، إلا إذا جُرّدتُ من ملابسي تمامًا. قل متى يا آرون».

قال آرون:

- «متى تريد»

وأخيرًا جلس أرجايل مثقلًا على كرسي صغير. كانت الشمس قد غادرت الرواق، لكنها ظلت متوهجة على برج جيوتو وعلى قمة واجهة الكاتدرائية، وعلى القبة العظيمة البعيدة ذات القرميد الأحمر.

قال أرجايل:

- «انظرا إلى شجيرة ورد الجوري الأحمر الصغيرة. يا لها من صديق

1- يتلاعب أرجايل باسم ليلي الذي يعني الزنبق.

صغير رائع! لن أسمح لأحد أن يمسها بشر مقابل كل ما في العالم. أوه، يا لها من فتاة صغيرة لعوب. لقد جعلت باسكوالي يضع إكليلًا منها على شعره. لقد كانت رائعة للغاية. أوه، لقد حظيت بمعرض ساحر للزهور. عباد الشمس مخلوقات رائعة»

نهضوا وأسندوا رؤوسهم إلى الشرفة ناظرين باتجاه الساحة في الأسفل.

- «أوه» قال أرجايل «إنها لمتعة كبيرة، متعة كبيرة. نعم، كان لدي معرض ساحر من الزهور، ساحر: نباتات الزينيا، زهور البتونيا، الحوذان، عباد الشمس، المنثور الأبيض - أوه، ساحرة. انظرا إلى تلك القطعة من زهر العسل. وانظرا للتوت حيث كانت زهوره! رائحته لذيذة، أؤكد لكما»

تحت جدار الشرفة الصغيرة، وضع أرجايل أواني مربعة من القرميد الأحمر في كل مكان. كانت بعض زهور الثالوث والأستر ما زالت مزهرة، بينما في الزاوية جورية حمراء صغيرة تتدلى منها الزهور مثل قطرات الدم المستديرة. كان أرجايل مرتبًا ودقيقًا في غرفته الصغيرة وشرفته كما لو كان قبطانًا بحريًا على متن يخت من الدرجة الأولى. وعلق ليلي على هذا، فانبرى أرجايل قائلًا:

- «هل ترى علامات الخادمة العجوز ظاهرة عليّ؟ أوه، أنا لا أشك في ذلك. أنا لا أشك في ذلك. كلنا ننتهي بهذه الطريقة. العمر يجعل منا جميعًا خادمات عجائز. وهل تاني بخير، كما تقول؟ أحضرها لرؤيتي. لماذا لم تأتِ اليوم؟»

- «أنت تعلم: إنك لا تحب رؤية الناس إلا إذا كنت تتوقعهم»

- «أوه، ولكن يا صديقي العزيز! أنت وتاني؛ ستكونان موضع ترحيب إذا أتيتما في أكثر لحظاتي ازدحامًا. بالطبع سوف تفعل ذلك. سأكون سعيدًا برؤيتكما إذا فاجأتماني في أية لحظة. أنا لوحدي الآن حتى أغسطس. ثم سنذهب معًا إلى مكان ما. لكن أنت وتاني؛ أه! العالم في كفة وليلي في أخرى: هكذا أعبر عن الأمر يا ولدي»

- «حسنًا يا أرجايل. شكرًا على المجاملة[1]»

بالألمانية في الأصل Hoflichkeiten

- «مـاذا؟ ما مـن مجاملة على الإطلاق. أنا أقولهـا بصدق[1]. متى أرى تاني؟ متى تأتي لتناول العشاء معي؟»

- «بعد أن تأتي أنت لتناول العشاء معنا، لنقل بعد غد»

- «أنت على حق. هذا يسعدني. دعني أرى ما إذا كان هذا الماء يغلي. نهـض ودس نصـف جسـمه داخل غرفة النـوم «ليس بعـد. اللعنـة على هذا الكحول المثيلي المغشوش الذي يبيعونه!»

وفجأة قال ليلي:

- «انظرا. ذاك ديل توري!»

- «إنه يشـبه ذبابة صغيرة في ذلك الزي الملعـون ذي اللونين الرمادي والأصفر. أنا لا أسـتطيع تحمل ذلك، أقول لك. لا أسـتطيع أن أتحمل رؤية المزيد من هذا الزي الرسـمي. إنه مثل آفة تصيب المشـهد البشري. مثل آفة. مثـل ذبـاب أخضر يجثم على شـجر ورد، ذبابة مَن. لقد ابتليـت أوروبا بهذه الذبابة الخانقة المتمثلة بهؤلاء العسكريين الجهنميين الخسيسين»

قال ليلي:

- «سيتخلص ديل توري منه بأسرع ما يستطيع»

- «آمل هذا»

- «عن نفسـي أنا أحبه - أحبه كثيرًا. انظرا، لقد رآنا! إنه يريد أن يأتي يا أرجايل»

- «ماذا؟ بهذا الزي! أفضل أن أراه في تنورة جدته أولًا»

- «لا تكن متعصبًا، فهذا ذوق سيئ. دعه يأتي لدقيقة واحدة»

- «ليـس مـن أجلي. لكنني سـأقبل لأجل خاطرك» أجـاب أرجايل ثم وقـف عند حاجز الشـرفة ولوح بذراعـه وقال: «نعم، تعال، تعال يا خنفسـاء الروث الصغيرة[2]، يا من يسميها الأمريكيون بقّة. تعال عليك اللعنة»

كان ديل توري أبعد بالطبع من أن يسمع هذه الدعوة. ولوح له ليلي أيضًا، وشاهده وهو يدلف إلى المدخل السفلي البعيد. قال أرجايل:

1- بالألمانية Gar keine Hoflichkeiten. Wahrhaftiger Kerl bin ich

2- بالألمانية في الأصل mistkafer

- «سأغسل له إحدى هذه الكؤوس»

سُمعت خطوة الماركيز على الدرج الحجري، ثم طرقته.

- «ادخل! ادخل!» صاح أرجايل من غرفة النوم، حيث كان يشطف الكأس. دخل الماركيز وهو يبتسم بتحيته الفضولية نصف المهذبة، وصاح أرجايل:

- «اعبر، اعبر، اذهب إلى الشرفة، وانتبه لرأسك. يا إلهي، انتبه لرأسك في ذلك المدخل»

كان الماركيز قد اصطدم فعلاً بعارضة المدخل بينما كان يتسلق الدرجات المفاجئة إلى الرواق. وهناك سلم على ليلي وآرون بمصافحات حارة.

- «سعيد جدًا لرؤيتك. سعيد جدًا حقًا!» صاح مبتسمًا بلطف وسرور متحمسين، وغطى يد ليلي بكلتا يديه بالقفازين «متى أتيت إلى فلورنسا؟»

أجاب ليلي باقتضاب، ودفع أرجايل الكرسي الأخير -وهو مجرد عن مقعد سفري للأمتعة- عبر النافذة، وقال:

- «كل ما يمكنني فعله من أجلك هو الكرسي»

قال الماركيز:

- «آه، هذا جيد. حسنًا، المكان لطيف جدًا هنا، والصحبة لطيفة للغاية. إنه من أفضل الأمكنة على الإطلاق، الأفضل على الإطلاق في فلورنسا»

قال أرجايل متجهمًا وهو يدخل حاملًا الكأس:

- «إنه الأعلى على أية حال. تناول ويسكي وصودا يا ديل توري. إنه قعر الزجاجة، كما ترى»

- «قعر الزجاجة! سأبدأ إذن بالذيل. نعم!» وفتح عينيه الزرقاوين على وسعهما حتى بان بياضهما، وابتسم ابتسامة عريضة تشبه ابتسامة النُوم.

- «لقد بدأت بذلك منذ فترة طويلة، يا زميلي العزيز. لا تلعب دور الفتاة الساذجة معي، فأنت تعلم أن ذلك لن ينجح. اسألني منذ متى يا رجل، اسألني منذ متى!»

قال ديل توري:

- «نعم، منذ متى. متى بدأت ذلك إذن؟»

- «في سن مبكرة لا يمكن ذكرها. فراخ مثلك تتعلم السقسقة في سن مبكرة»

- «فراخ مثلي تتعلم المساومة في سن مبكرة» كرر ديل توري مسرورًا بالتلاعب اللفظي[1] ما معنى يسقسق من فضلك»

- «ويص! ويص!» سقسق أرجايل وهو ينظر إلى الإيطالي الصغير الذي كان جالسًا على أحد حزامي مقعد الأمتعة. «هذا ما تقوله الفراخ عندما تحشر أنوفها الصغيرة في مغامرات جديدة - تلك الشقية»

- «هل يمكن للفراخ أن تكون شقية؟ أوه! اعتقدت أنها يمكن أن تكون مهذبة فقط!»

- «دجاج بلا ريش مثلك يا بني»

- «أوه، بالنسبة إلى عديمي الريش، فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بم يفعلون...» وهنا ابتعد الماركيزعن أرجايل وطرح السؤال الحتمي على ليلي:

- «حسنًا، وإلى متى ستبقى في فلورنسا؟»

لم يكن ليلي يعرف: لكنه لن يغادر على الفور.

- «جيد! ستأتي إذن لزيارتنا في أقرب وقت»

نهض أرجايل مرة أخرى، وذهب لإعداد الشاي ودفع قطعة من الكيك -أو بالأحرى البانيتوني، وهو نوع من أرغفة الكشمش الممتازة- عبر النافذة مع سكين لتقطيعها وقال:

- «تفضلوا بتناول البانيتوني. كلوه كله. سيأتي الشاي في الحال. سيكون عليكم أن تشربوه في كؤوسكم، ليس لدي سوى كوب واحد قديم»

قطع الماركيز الكعكة وقدم لهما قطعًا منها. فأخذها الرجلان وأكلا.

- «إذن فقد عثرتَ بالفعل على السيد سسن!» قال ديل توري لليلي الذي أجاب:

- «صادفته وجهاً لوجه في طريق ناسيونالي».

1- يعتمد التلاعب هنا على التطابق اللفظي بين كلمتي cheep التي تعني يسقسق و cheap التي تعني هنا يساوم أو يرخص الثمن.

- «أوه، المـرء في فلورنسـا يصادف الجميع علـى الدوام. نحن جميعًا يعرف أحدنا الآخر، وكذلك الفلوت. هذه متعة عظيمة»

- «وهذا ما أعتقده. هل تحب زوجتك ذلك أيضًا؟»

- «كثيـرًا جدًا فـي الواقع! إنها مغرمة به تمامًا. وأنـا أيضًا يجب أن أتعلم العزف عليه»

- «وتعرض نفسك لخطر إفساد شكل فمك - مثل ألسيبياديس[1]»

- «هـل هنـاك خطر كهـذا؟ نعم! لن أعـزف عليـه إذن. إن فمي جميل للغاية. لكن السيد سسن لم يفسد فمه»

- «ليس بعد. امنحه بعض الوقت» قال ليلي.

- «وهل هو خائف أيضًا، مثل السيبياديس؟»

- «هل أنت كذلك يا آرون؟» قال ليلي.

- «ماذا؟»

- «هل تخشى إفساد جمالك بسبب إلصاق فمك بالفلوت؟»

- «أبدو مثل شخص أحمق عندما أعزف، أليس كذلك؟» سأل آرون.

- قليـلاً جـدًا». قـال ليلي «الطريقة التي تهز بها رأسـك، كمـا تعلم، مثل الحصان»

- «آه، حسنًا» قال آرون «ليس لدي ما أخسره»

- «وهل تفاجأت يا ليلي بالعثور على صديقك هنا؟» سأل ديل توري.

- «كان من المفترض أن أكون متفاجئاً. لكنني لم أتفاجأ حقًّا»

- «إذن كنت تتوقع رؤيته؟»

- «لا لقد جاء الأمر بشكل طبيعي. لكن لماذا أتيت يا آرون؟ ما الذي أتى بك بالضبط؟»

- «الصدفة» أجاب آرون.

- «آه لا! لا!» قـال الإيطالي «لا يوجد شـيء اسـمه الصدفة. الإنسـان ينجذب إلى قدره حيثما يذهب»

1- Alcibiades سياسي وجنرال إغريقي، هنا يشير إلى تمثال له مشوه الفم.

قال أرجايل، الذي جاء الآن ومعه إبريق الشاي:

- «أنت على حق. الإنسـان يُجَر أو يسـاق. لقد خبرت ذلك. آه يا صديقي العزيز، ما الحياة غير بحث عن صديق؟ البحث عن صديق - هذا يلخص الأمر»

- «أو عن حبيب» قال الماركيز مبتسمًا.

- «إنه الشيء نفسه. الشيء نفسه. لقد شاب رأسي، لكن هذا هو مجموع تجربتـي بأكملهـا: البحث عـن صديق» كان ثمة شـيء حقيقـي وعاطفي في نفس الوقت في لهجة أرجايل.

- «ولم تعثر عليه قط؟» سأله ليلي وهو يضحك.

- «أوه، ماذا تريد مني؟ أعثر عليه في كثير من الأحيان، وأخسره بالطبع - إنـه تاريخ حياتي. أعطني كأسـك. شـاي بائس، لكن لم يرسـل لي أحد شاياً من إنجلترا...».

- «وسوف تستمر حتى تموت يا أرجايل؟» قال ليلي «تظل تبحث عن صديق، وصديق جديد دائمًا؟»

- «إذا فقـدت الصديـق الذي حصلت عليه. آه، يـا صديقي العزيز، في هذه الحالة سأسـتمر في البحث. آمل ذلك، أؤكد لك. لن أكون على ما يرام إن بقيت بلا أصدقاء، أو توقفت عن البحث عنهـم»

- «لكن يا أرجايل، هناك وقت للتوقف».

- «التوقف عن ماذا، عن ماذا؟»

- «عن أن يكون لك أصدقاء، أو صديق بالأحرى. أو عن أن تسعى إلى أن يكون لك صديق».

- «أوه، لا! لا علـى الإطـلاق يا صديقي. مُطْلَقًـا! الموت وحده يمكنه أن ينهـي ذلك يـا صديقي. الموت فقط. ويجب أن أقـول، ولا حتى الموت. حتـى المـوت لا ينهي بحث الرجل عن صديق. هذا هو اعتقادي. يمكنك أن تشنقني بسبب ذلك، لكنني لن أتغير أبدًا»

قال ليلي:

- «لا هناك وقت للحب، ووقت لترك الحب» فأجابه أرجايل بإحساس عنيد:

– «كل ما يمكنني قوله هو أن وقت تركي لم يحن بعد»

– «آه، نعم، لقد حدث ذلك. إنها مجرد عادة وفكرة تلتزم بها»

– «في الواقع، ليس هناك شيء من هذا القبيل. في الواقع، ليس هناك شيء من هذا القبيل. إنها رغبة وضرورة عميقة: والأكثر من ذلك، إيمان»

قال ليلي:

– «تقصد إصراراً عنيداً»

– «حسنًا، سمه كذلك إذا كان ذلك يرضيك. الأمر ليس كذلك بالنسبة لي بأي حال من الأحوال» وحل صمت قصير.

كانت الشمس قد غادرت قبة الكاتدرائية والبرج، وأمست السماء مليئة بالأضواء، بينما الساحة تسبح في الظل.

– «ولكن هل يمكن للإنسان أن يعيش دون أن يكون لديه شيء يعيش من أجله» قال الماركيز «شيء يتمناه، أو يشتاق إليه، ويحاول أن يناله؟»

– «مستحيل! مستحيل تمامًا!» قال أرجايل. «الإنسان باحث، وبخلاف ذلك ليست له أهمية ولا مغزى»

– «إنه يضايقني ببحثه» قال ليلي «عليه أن يتعلم كيف يتمالك نفسه، وأن يكون هو نفسه، وأن يظل ساكنًا»

– «نعم، ربما يكون الأمر كذلك» قال آرون: «لو أنه فقط...

– «ولكن يا ولدي العزيز، صدقني، لا يكون الرجل هو نفسه أبدًا إلا في أقصى حالات الحب، أو ربما الكراهية أيضًا، التي تؤدي إلى نفس الشيء. ليس هو نفسه أبدًا. بصرف النظر عن هذا، فهو سائق ترام أو مجرفة أموال أو آلة أفكار. فقط في حالة الحب يكون هو حقًّا رجلًا وهو نفسه حقًّا» قال أرجايل «أقول ذلك، لأنني أعرفه»

– «أه نعم. وهذا جانب واحد من الحقيقة. وهو صحيح تمامًا. لكن من الصحيح أيضًا أن نقول إن الرجل لا يكون أقل قيمة من نفسه كما يحدث في حالة الحب القصوى. لا يقلل من قدره أبدًا كما يكون في ذلك الحين»

– «ربما! ربما! ولكن ماذا يمكن أن يحدث أفضل من ذلك؟ ما الذي

يمكـن أن يكون أفضل من أن تفقد نفسـك تمامًا مع شـخص تحبه، وبالتالي تجـد نفسـك. آه يـا صديقي العزيـز، تلك هـي عقيدتي، تلـك عقيدتي، ولن تستطيع أن تزحزحني عنها أبدًا أبدًا»

قال ليلي:

- «نعم يا أرجايل. أعلم أنك داعية حب عنيد»

- «أنـا كذلـك! أنـا كذلـك! ولديّ معاييـر معينة يـا بني، ومُثـل معينة لا أخالفها أبدًا. لا أتعداها أبدًا، ولا أتخلى عنها أبدًا»

- «حسنًا، إذن أنت حَبّيب غير قابل للشفاء»

- «أدعو الله أن أكون كذلك»

- «نعم» قال الماركيز «ربما نحن جميعًا كذلك. بماذا توصينا غير ذلك؟ هل تريد منا كسب المال؟ أم أن نهَب لبّ روحنا لعملنا؟ كيف يكون الأمر؟»

- «أنا لا أهتم كثيرًا بالمال أو بعملي أو...» تردد ليلي متلعثماً.

- «أو ماذا؟»

- «أو أي شيء. أنا لا أهتم حقًّا بأي شيء. ما عدا...

- «أنت لا تهتم بأي شيء؟ ولكن ما قيمة هذا للحياة؟» هتف الماركيز بسخرية جوفاء.

- «ما الذي تهتم به؟» سأله ليلي.

- «أنـا؟ أنـا أهتم بعدة أشـياء. أنا أهتم بزوجتي. أنا أهتـم بالحب. وأنا أهتـم بأن أكـون محبوبًا. وأنا أهتم ببعـض الملذات. وأنا أهتم بالموسـيقى. وأنا أهتم بإيطاليا»

- «أنت ثري من ناحية الاهتمامات» قال ليلي، فأجابه ديل توري:

- «وأنت تبدو لي فقيرًا جدًا»

قال أرجايل معترضًا:

- «سأتفق معك إذا كان فعلًا لا يهتم بأي شيء» ثم ربت على كتف ليلي وهـو يضحك «ها! هـا! ها! لكنه يقول ذلك لمضايقتنـا فقط» صاح وهو يهز

كتـف ليلي «إنه يهتـم أكثر منا بطريقته الخاصة في الحـب. هيا، لا تحاول أن تخدعنا» قال أرجايل «نحن شـيوخ خبرنا الحياة، خبرنا الحياة» لكنه في تلك اللحظة بدا مرتعشًا من الوهن قليلًا.

قال الإيطالي:

- «لا يمكن للإنسان أن يعيش دون غاية»

- «حسناً، وما تلك الغاية؟» سأله ليلي.

- «حسـناً، قد تكون هناك أشـياء كثيرة. وهي في الغالب واحد من اثنين: الحـب والمال. لكنها قد تتمثل في أشـياء أخرى كثيـرة: الطموح، والوطنية، والعلـم، والفن، وكثير غيرها. لكنها دائمًا موجهة إلى الخارج. إلى شـيء أو ربما أشياء كثيرة خارج الذات»

قال أرجايل:

- «كان لـدي هـدف واحد فقط طـوال حياتي. وكان هـو الحب. ومن أجل ذلك سلختُ حياتي»

- «وحياة عدد من الأشخاص الآخرين أيضًا» علّق ليلي.

- «أعتـرفُ بهـذا. أوه، أعترف. يتطلب الأمر اثنين لممارسـة الحب، إلا إذا كنت بائساً...

قال آرون متوجهاً إلى ليلي:

- «ألا تعتقد أنك مهما حاولت الابتعاد عن الأمر، إذا لم تكن تسعى وراء المال، ولا تسـتطيع أن تتلاءم في وظيفة، فعليك أن، عليك أن تحاول العثور على شيء آخر، شخص آخر، شخص ما. لا يمكنك حقًّا أن تكون وحيدًا»

- «تعني أنك لا يمكن حقًّا أن تكون وحيدًا بغض النظر عن عدد الأخطاء التي ارتكبتها؟» سأل ليلي.

- «يمكنـك أن تكـون بمفردك لمدة دقيقـة. يمكنك أن تكون وحيدًا فقـط في تلـك اللحظة التي تتحرر فيها، وتشـعر بالامتنـان القلبي لكونك وحيـدًا، لأن الخيـار الآخـر كان غيـر قابـل للتحمـل. لكـن لا يمكنـك الاستمرار في البقاء بمفردك. بغض النظر عن عدد المواقف التي تحررت

منهـا وشـعرت، ولله الحمـد بأنك وحيد (ليس على وجـه الأرض أفضل مـن أن تستنشـق الهـواء النقـي وتكـون وحيـدًا)... بغض النظـر عن عدد المـرات التـي يراودك فيها هذا الشـعور فإنـه يتهرأ في كل مـرة، وتبدأ في التطلـع مـرة أخرى، وتبدأ في التجوال. وحتـى إذا كنت لا تريد أن تعترف بذلك لنفسـك، فأنت لا تزال تسـعى - تسعى. أليس كذلك؟ ألست أنت نفسك تسعى؟»

- «أوه، هذه مسـألة أخرى» قال أرجايل «ليلي زوج سعيد وهو مركون علـى الرف. أعتقـد أن الأمر هكذا مع امرأة لطيفة مثـل تاني، يجب أن أعتقد ذلك - على الأرجح! ولكن حالته ذات طبيعة استثنائية. أما بالنسبة لي، فقد جعلتُ زواجي جحيمًا، وأقسـم أنه كاد يرسلني إلى الجحيم. لكنني لم أكفر بالحب، عندما كفرت بالزواج والمرأة، ولا بأي شكل من الأشكال»

- «ألا تبحث عن المزيد يا ليلي؟» سأل الماركيز «ألا تسعى وراء شيء؟»

- «نحن الرجال الذين لم نهجر زوجاتنا، هل من المفترض أن نسـعى وراء شـيء آخـر؟» قـال ليلي «ألسـنا راضين تمامًـا وننعم بالنسـاء الرائعات اللاتي يكرمننا كزوجات؟»

- «آه، نعم، نعم!» قال الماركيز. «لكننا الآن لا نتحدث إلى العالم، بل نحاول أن نتحدث عما في أعماق قلوبنا»

- «وماذا لدينا هناك؟» سأله ليلي.

- «حسـنًا - هل أقول؟ لدينا شـعور بعدم الراحـة. لدينا حاجة أخرى. لدينا شيء يؤلمنا ويأكلنا، نعم يأكلنا من الداخل. هل أقول الحقيقة؟»

- «نعم. ولكن ما هو هذا الشيء؟»

- «لا أعرف. لا أعرف. ولكنه شيء يتعلق بالحب، على ما أعتقد» قال الإيطالي «إن الحب نفسه هو الذي ينخرنا مثل السرطان»

- «ولكن لماذا ينبغي ذلك؟ هل هذه هي طبيعة الحب؟» قال ليلي.

- «لا أعـرف. حقًّا لا أعرف. لكن ربما يكون ذلك من طبيعة الحب -لا أعرف. لكنني أقول لك إنني أحب زوجتي، فهي عزيزة جدًا علي. أنا معجب

بها، أنا أثق بها، أنا أصدقها. إنها بالنسبة لي أكثر بكثير من أي امرأة، حتى أكثر من والدتي. ولذلك، أنا سعيد جدًا. أنا سعيد جدًا، وهي سعيدة جدًا في حبنا وزواجنا. لكن انتظر. لم يتغير شيء- الحب لم يتغير: هو نفسه. ومع ذلك فإننا لسنا سعيدين. لا، نحن لسنا سعيدين. أعلم أنها ليست سعيدة، وأنا أعلم أنني لست كذلك»

- «لماذا يجب أن تكون سعيدًا؟» قال ليلي.

- «نعم، إنها ليست حتى السعادة» قال الماركيز وهو يشوه وجهه في محاولة اعتراف مؤلمة «إنها ليست حتى السعادة. لا، أنا لا أطلب أن أكون سعيدًا. لماذا ينبغي لي ذلك؟ إنه أمر طفولي. ولكن هناك بالنسبة لكلينا، وأنا أعلم ذلك، شيء يعضنا، ويأكلنا من الداخل، ويدفعنا، يقودنا، إلى مكان ما، لا نعرف أين. لكنه يدفعنا، ويأكل الحياة -ومع ذلك نحب بعضنا بعضًا، ويجب ألا ننفصل- هل تعرف ما أعنيه؟ هل تفهم حقًّا ما أقول؟ أنا أقول الحقيقة»

- «نعم أفهم. أنا نفسي أعيش المعضلة ذاتها. لكن ما أريد أن أسمعه هو لماذا تعتقد أن الأمر كذلك. لماذا هو هكذا؟»

- «هل أقول ما أعتقده؟ نعم؟ ويمكنك أن تخبرني إذا كان ذلك حماقة بالنسبة لك، هل أخبرك؟ حسنًا. لأن المرأة، هي التي تريد الرجل أولًا، وعليه أن يذهب إليها لأنه مطلوب. هل تفهم؟ كما تعلم - لنفترض أنني ذهبت إلى امرأة. لنفترض أنها زوجتي، وذهبت إليها، نعم، ودمي كله على أهبة الاستعداد، لأنني أنا من أريد. ثم تطالبني بالتأجيل. ثم تقول ليس الآن، ليس الآن، أنا متعبة، لست بخير. لا أحب عمل هذا. إنها تؤجلني -حتى أشعر بالغضب أو الأسف أو أي شيء آخر- ولكن حتى يبرد دمي مرة أخرى، كما تفهم، وأنا لا أريدها بعد الآن. ثم تحيطني بذراعيها، وتداعبني وتمارس الحب معي، حتى توقظني مرة أخرى. وهكذا، فهي توقظني، ولذا آتي إليها. وأنا أحبها، هذا جيد جدًا، جيد جدًا. لكنها كانت هي التي بدأت، وكانت مبادرتها هي، كما تعلم. لا أعتقد أن زوجتي مارست الحب معي طوال حياتي بمبادرة مني، كما تعلم. سوف تستسلم لي لأنني ألح عليها، أو

لأنها تريد أن تكون زوجة مطيعة مُحبة. لذلك سوف تستسلم لي. ولكن آه، ما هذا، هل تعلم؟ ما معنى أن تسمح المرأة لي، ولا تملك إجابة؟ إنه شيء أسوأ من اللاشيء، أسوأ من اللاشيء. وهذا يجعلني ساخطًا وغير مصدق. وإذا أخبرتها ستقول إن هذا ليس صحيحًا، ليس صحيحًا على الإطلاق. ثم تقول إن كل ما تريده هو أن أرغب فيها، وأن أحبها وأرغب فيها. ولكن حتى هذا يضع إرادتها في المقام الأول. وإذا أتيتها هكذا، إذا أتيتها عن رغبتي، فإنها تؤجلني. إنها تؤجلني، أو (تسمح) لي فقط بإتيانها. وما زال الأمر هكذا، كما كان في البداية، بعد عشرة أعوام. لكنني أعرف هذا الآن، ولم أكن أعرفه لسنوات عديدة»

كان الرجل الصغير منفعلاً بشدة. كان وجهه متوتراً، وعيناه الزرقاوان مفتوحتين حتى بان بياضهما كله. نظر إلى وجه ليلي الذي قال ببطء:

- «ولكن هل يهم في أي منكما تبدأ الرغبة؟ أليست النتيجة واحدة؟»

- «بل يهم. بل يهم» صاح الماركيز.

- «أوه، يا صديقي العزيز، ما أعظم أهميته» قاطعه أرجايل بحكمة.

- «أؤيد هذا!» قال آرون.

تأملهم الماركيز واحدًا واحدًا وهتف:

- «بل يهم! إنها مسألة حياة أو موت. كان من المعتاد أن تبدأ تلك الرغبة في الرجل، فتستجيب المرأة. لقد كان الأمر كذلك لفترة طويلة في إيطاليا. ولهذا السبب تم إبعاد النساء عن الرجال. ولهذا السبب حاول ديننا الكاثوليكي إبقاء الفتيات الصغيرات في الأديرة بريئات قبل الزواج. حتى لا يعرفن بأذهانهن، ولا يختبرن هذا الشيء الفظيع، هذه الرغبة التي تسبق فيها المرأة الرجل. هذه الرغبة التي تبدأ في رأس المرأة، عندما تعرف، والتي تجر الرجل لاستخدامها لمنفعتها. هذه حواء. آه، أنا أكره حواء. أنا أكرهها عندما تعرف، وعندما تريد. أنا أكرهها عندما تصنع مني ما يخدم رغبتها. ربما تحبني، قد تكون ناعمة ولطيفة معي، قد تهب حياتها من أجلي. لكن لماذا؟ فقط لأنني ملك لها. أنا ذلك الشيء الذي ينفذ لها خدماتها الأكثر حميمية. إنها لا تستطيع رؤية أي شخص آخر في داخلي. وقد لا أكون شخصًا آخر بالنسبة لها»

- «فلماذا لا تدع الأمر كذلك وتكون راضيًا؟» قال ليلي.

- «لأنني لا أستطيع. لا أستطيع. أود ذلك لكنني لا أستطيع. إن البورجيزيا[1] -المواطنين- البورجوازيين هم الذين يستطيعون ذلك. نعم بالتأكيد. البرجوازيون، أصحاب المتاجر، هؤلاء يخدمون زوجاتهم بهذه الطريقة، وزوجاتهم يحببنهم. إنهم الأزواج-الديّوثون، كما تعلمون. زوجاتهم شجاعات وسعيدات للغاية، ويحببن أزواجهن ويخنّهم دائمًا. هكذا هو الحال مع البرجوازيين. تحب زوجها كثيرًا، وتسعى دائمًا إلى خيانته. أو أنها مدام بوفاري تسعى لفضيحة. لكن الزوج البرجوازي يستمر في أن يكون هو نفسه. هو الحصان وهي السائق. وعندما تقول له (حاااا) كما تعلمون، يأتي جاهزًا، مثل ديوث مستأجر. هو فقط يشعر بالارتياح، مثل طفل صغير مطيع عند صدرها. ثم يأتي الأطفال الصغار اللطفاء. وهكذا هم يبقون الحياة مستمرة -لكن بالنسبة لي-» وبصق فجأة وبجنون على الأرض.

قال أرجايل:

- «أنت محق تمامًا يا بني. أنت محق تمامًا. لقد أخذت النساء زمام المبادرة منا، وعلينا أن نخبَّ نحوهن عندما يقلن (حاااا). أنا - أوه، أنا مررت بكل شيء. لكنني كسرت العريش[2] وحطمت عربة الزوجية، أستطيع أن أقول لك، ولم أهتم إن كنت حطمتها هي أيضًا أم لا لم أهتم ولو للحظة واحدة، أؤكد لك. وها أنذا. بينما هي ماتت ودُفنت منذ دزّينة من السنوات. حسنًا - حسنًا! إنها الحياة، كما تعلمون، الحياة. والنساء، أوه، إنهن يستحلن إلى الجحيم الأكثر لظى بمجرد أن يبدأن بالأخذ بزمامك. لا يوجد شيء لن يفعلنه بك بمجرد أن يحصلن عليك. لا شيء لن يفعلنه لك. خاصة إذا كنّ يحببنك. عندها لا يسعك إلا أن تقتل نفسك أو تحطم العربة التي تجرها وراءك وهي جالسة فيها. وإلا فإنها سوف تجبرك على الخضوع، وتجعل منك كلبًا، وتجعلك ديوثًا أمام أنظارك وسوف تخضع وتستمر في مناداتها

1- Borghesia: البورجوازية، بالإيطالية في الأصل.

2- عريش العربة أو الشفت: هو العمود الأفقي للعربة الذي يشد إليه الحصان.

بحبيبتـي. فإن لـم تفعل قتلتك. فرصتك الوحيدة هـي تحطيم عريش العربة، بـل عربة الزوجية بأكملها، وإلا أجهزت عليك، لأن المرأة تتمتع بقوة خارقة وجهنمية، فهي دبّة وذئبة معًا، وهي امرأة عندما تأخذ زمام المبادرة. أوه، إنها تجربة مروعة، إذا لم تكن برجوازيًا، أو من النوع الذي يكسب المال»

- «من النوع المذعن، هكذا هو الأمر»

- «ولكن ألا يمكن أن يكون هناك توازن في الإرادات؟» قال ليلي.

- «يـا ولـدي العزيـز، التـوازن يكمـن فـي أنه عندمـا يرتفـع أحدهما، ينخفـض الآخـر. واحـد يعمـل، والآخـر يأخـذ. إنهـا الطريقة الوحيـدة في الحب. والنسـاء في هـذه الأيام هن الطرف النشـط. أوه، نعم، لا يوجد أدنى شـك في ذلك. هن يأخذن زمـام المبادرة، والرجل يتزلـف. هذا هو الحال. الرجل يتزلف فحسب - يا له من تصرف رجولي لطيف!» صاح أرجايل.

- «ولكن لماذا لا يستطيع الإنسان أن يقبل هذا باعتباره النظام الطبيعي للأشياء؟» قال ليلي. «العلم يجعل منه النظام الطبيعي»

فقال أرجايل:

- «...ـــي فـي العلم! لا يمكـن لرجل لديه قطرة واحدة من الشـجاعة الحقيقية أن يتحمل ذلك لفترة طويلة»

- «نعم! نعم! نعم!» صاح الإيطالي. «معظم الرجال يريدون ذلك. يريد معظـم الرجـال فقط أن ترغـب المرأة فيهم، ثـم يتملقون لها عندمـا تثيرهم. يريـد معظـم الرجال هذا فقط: أن تختـار المرأة رجلًا واحـدًا ليكون رجلها، فيعبدهـا ويعتليهـا عندما تثيره. وإلا سـيكون عليه أن يبقى سـاكنًا. أما المرأة فهـي متأكـدة تمامًا من دورهـا. يجب أن تكون محبوبة ومعشـوقة، وقبل كل شـيء، أن تطـاع، خاصة في رغبتها الجنسـية. هناك لا يجـب أن تُخذَل، وإلا تصبح شيطانًا. أما إذا أطيعت، فإنها تصبح امرأة متوترة يساء فهمها، وتبحث حولها عن الرجل التالي الذي يمكنها إخضاعه. هكذا هي»

قال ليلي:

- «حسنًا. ثم ماذا؟»

- «كلا» قاطعه آرون «ولكن هل تعتقد أن ما يقوله صحيح؟ هل وجدت الحال هكذا؟ أنت متزوج. هل كانت تجربتك مختلفة أم هي نفسها؟»

- «ماذا عنك؟» سأل ليلي.

- «حدث معي الشيء نفسه» قال آرون «الشيء نفسه تمامًا»

وقال أرجايل متجهمًا:

- «وكان وضعي مشابهًا للغاية»

- «وأنت يا ليلي؟» سأل الماركيز بقلق فأجاب ليلي:

- «لا يختلف كثيرًا»

- «آه!» صاح ديل توري وهو ينتصب كما لو أنه وجد شيئًا ما.

- «وما هو طريقك للخروج؟» سأله آرون. فقال ليلي:

- «لست بالخارج، لذا لن أصرخ. لكن ديل توري يعبر عن الأمر بأفضل شكل. ما هو المخرج في رأيك يا ديل توري؟»

- «المخرج هو أن يتغير الأمر: أن يكون الرجل هو السائل والمرأة هي المجيبة. يجب لهذا الوضع أن يتغير»

- «لكنه لا يتغير. بررر!» أصدر أرجايل صوتًا كصوت البوق من فمه.

- «هل سيتغير؟» سأل ليلي الماركيز.

- «لا أعتقد أن هذا سيحدث»

- «لن يحدث أبدًا؟»

- «ربما أبدًا»

- «ثم ماذا؟»

- «ثم؟ ثم يبحث الإنسان عن حل بديل مؤقت[1]. ثم يبحث عن شيء يمنحه الإجابة، ولا يجذبه فقط بإرادة جنسية رهيبة. لذا فهو يبحث عن فتيات صغيرات لا يعرفن شيئًا، وبالتالي لا يستطعن إجباره. يظن أنه سيمتلكهن وهن صغيرات، وسيكن طيّعات ويستجبن لرغباته. لكنه مخطئ

1- بالفرنسية pis – aller

فـي هذا أيضًا. ففي هذا الزمن ترى الطفلة التي لها سـنة من العمر مثل المرأة ذات الأربعين، هكذا خلِقت إرادتها، وهكذا سترغم الرجل»

- «وبالتالي فإن الفتيات الصغيرات لا يصلحن حتى كحل مؤقت»

- «لا فائدة، لأنهن جميعًا نسـاء عصريات. كلهن نسـاء عصريات. ليس فيهن مَن ليست كذلك»

- «شيء فظيع، هذه المرأة العصرية» علق أرجايل.

- «وثم؟»

- «ثـم يبحـث الإنسـان عن أشـكال أخرى مـن الحب، ويسـعى دائمًا إلى الاسـتجابة المحبة، كما تعلم، من شـخص ألطف وأكثر رقة منه، والذي سـينتظر حتى يرغب الرجل، ثم يسـتجيب بحب كامل. لكن الأمر كله مجرد حل مؤقت، كما تعرف»

صاح أرجايل:

- «كلا، على الإطلاق يا بني»

- «ومـن ثم يحب الرجل زوجته بشـكل طبيعي أيضًـا، حتى لو لم يكن يحتمل حبه لها»

قال ليلي:

- «أو يتركها، كما فعل آرون»

قال الماركيز:

- «ويبحث عن امرأة أخرى أيضًا»

- «هل يبحث عن امرأة أخرى؟» قال ليلي «حقاً يا آرون؟»

أجاب آرون:

- «لا أريد ذلك. لكن – أنا لا أستطيع أن أقف لوحدي في وسط العالم ووسط الناس، وأنا أعلم أنني وحيد تمامًا، وليس لدي مكان أذهب إليه، ولا شـيء أتمسـك به. أسـتطيع ذلك لمدة يوم أو يومين، ولكن بعد ذلك، يصبح الأمر لا يطاق وستشعر بالخوف. تشعر أنك قد تصبح مضحكًا، كما تفعل لو وقفت على جدار هذه الشرفة وتحتك كل هذا الفضاء»

- «ألا يمكن للمرء أن يكون وحيدًا، وحيدًا تمامًا؟» قال ليلي.

- «كلا، إنه أمر سخيف. مثل حال القديس سمعان العمودي[1] لكنه أمر سخيف!» هتف الإيطالي فقال ليلي:

- «أنا لا أقصد أن يكون مثل سمعان العمودي. إنما أعني: ألا يستطيع المرء أن يعيش مع زوجته، وأن يكون مولعًا بها، ومع أصدقائه الذين يستمتع بصحبتهم، ومع العالم وكل شيء، بكل سرور، وهو (يعلم) أنه وحيد؟ وحيد في أعماقه، في جوهره، وحيد إلى الأبد، وباختياره؟ لا لمجرد عواطفه أو إحساسه، بل لأنه اختار وحدته، لأنه وحيد بطبيعته. إن التواجد مع شخص آخر أمر ثانوي»

قال أرجايل:

- «المرء وحيد في كل شيء ما عدا الحب. في كل شيء إلا الحب يا زميلي العزيز. أنا متفق معك في كل شيء عدا هذا»

قال ليلي:

- «لا، فالحب أشد وحدة من كل ما عداه»

قال أرجايل:

- «هذا كلام غير مفهوم على الإطلاق، ولا مغزى له»

- «رجل واحد ليس سوى طرف واحد. كيف يمكن أن يكون وحيدًا إلى هذه الدرجة؟» قال الماركيز.

- «إنه وحيد بقدر ما هو روح فردية مفردة، بحكم طبيعته. بقدر ما أنا أنا، وأنا وحدي أنا، وأنا لست سواي، بقدر ما أنا وحدي لا محالة وإلى الأبد. وإنها لأقصى درجات سعادتي أن أعرف ذلك وأقبله، وأعيش معه. هذا هو جوهر إدراكي لذاتي»

1- سمعان العمودي: قديس وناسك سوري ولد في قرية سيسان بين سورية وقيليقية في الربع الأخير من القرن الرابع. عاش في منطقة حلب في سوريا وهو أول من ابتكر طريقة التنسك على عمود حجري، وهي طريقة انتشرت بعده في جميع مدن ومناطق الشمال السوري ومنها إلى أوروبا.

قـال أرجايـل: «لقـد أصبحـت ميتافيزيقيًا يا ولـدي، وهذا أمر سـيئ مثل رخاوة الدماغ»

قال ليلي:

- «حسنًا»

وقال الماركيز:

- «قـد يكون الأمر كذلك بالعقل. ولكن في القلب؟ هل يمكن للقلب أن ينبـض بمفـرده؟ تـك تـك تك! هـل يسـتطيع القلـب أن ينبـض بمفرده، وحيدًا في كل الغلاف الجوي، وفي كل مساحة الكون؟ تك تك تك! وحيدًا تمامًـا في كل هذا الفضاء؟» وظهرت ابتسـامة بطيئة علـى وجه الإيطالي «إنه مسـتحيل. قـد ينبض مـن الغضب علـى قلوب رجـال آخرين، وكلـه اندفاع يضغط ضد الآخرين. قد ينبض بقوة، مثل الحديد، قائلًا إنه مستقل. لكن هذا ليس سـوى نبض على وقع قلوب البشـر، وليس وحده. ولكن إما مع أو ضد قلوب البشـر، أو قلب شـخص مـا، أمٍّ أو زوجة أو صديـق أو أطفال - هكذا يجب أن ينبض قلب كل إنسان. هكذا هو»

قال ليلي:

- «إنه ينبض وحده وهو غارق في صمته»

هز الإيطالي رأسه، وقال أرجايل:

- «علـى أي حال، من الأفضـل أن نذهب إلى الداخـل. البعض منكم سيصاب بالبرد»

قال ليلي:

- «وأنت يا آرون. هل تجد هذا صحيحًا؟»

- «صحيـح تقريبًـا» أجـاب آرون وهـو ينظـر إلـى عينـي الرجـل الآخر الهادئتين ونصف المستمتعتين والخائفتين معًا «أو كان صحيحًا»

- «الإخفاق في إصابة الهدف هو إخفاق، بعدت الشقة أم قربت» ضحك ليلـي وهو ينهض ويلتقط كرسـيه ليأخذه إلى الداخـل. وكان صدى ضحكته يشـبه إلـى حد كبير تـودداً بسـيطًا ومتعمدًا، حتـى إن قلـب آرون توقف حقًا

للحظـة. كان يعلم أن ليلي وحيد بقدر مـا يتعلق به، بآرون. كان ليلي وحيدًا، كلماتـه خرجت من عزلته، دون أن يبالي بخروجها أم لا. وقد ترك لأصدقائه حريـة مطلقة في الاختيار. شـعر آرون بوجود ليلـي، حاضرًا في الحياة، لكن دون أن يطلـب صلةً ولا أن يمنعها. لقـد كان حاضرًا، وكان المركز الحقيقي للمجموعـة. ومع ذلك لم يطلب منهم شـيئًا، ولـم يفرض شـيئًا. لقد ترك كل واحد لنفسـه، وبقي هو نفسـه فقط: لا أكثر ولا أقل. وكان حاسـمًا في ذلك، الأمـر الذي كان مثيرًا للجنون ورائعًا في نفس الوقت. شـعر آرون بالغضب، كمـا لـو كان قد تعرض لشـيء من الإهانة بسـبب قيـام الرجـل بإرجاع هدية الصداقـة أو الارتبـاط بهدوء إلـى يدي المُهدي. لـم يكن ليلـي ليرضى بتلقي أيـة هدية صداقة متكافئة. ولـن يرفض ذلك بعنف. لقـد أغفلها. لكن آرون، في الوقت نفسـه، عرف بأنه يسـتطيع الاعتماد على الرجل في الحصول على المساعدة، بل في الحياة نفسها تقريبًا - طالما أن ذلك لا ينطوي على كسر العزلـة الجوهرية لـروح ليلي. لكن هذه الحالة كانت مكروهة أيضًا. غير أنها تنطوي على سحر كبير.

الفصل الثامن عشر

الماركيزة

وهكذا تناول آرون العشاء مع مانفريدي والماركيزة. لقد اندهش تمامًا عندما دخلت مضيفته: بدت كأنها شخص آخر. بدت كأنها شيطانة، بشعرها المنسدل على حاجبيها، وأناقتها العصرية الرهيبة. كانت ترتدي ثوبًا رائعًا من المخمل الأزرق الرقيق ذي اللون الجميل، مع نوع من الخيوط الشفافة المخيطة بالذهب على الجانبين. كان عصريًا وقصيرًا للغاية، وأظهر ساقيها وكتفيها وصدرها وذراعيها البيضاوين الجميلين. ثمة طوق من الياقوت الأزرق الداكن يزين رقبتها، وكان شعرها منسدلاً حتى الحاجبين تقريبًا، وكثيفًا مثل رسم لأوبري بيردزلي[1]. لقد تزينت بعناية فائقة، لكن مع تلك اللمسة من المبالغة، كانت شفتاها حمراوين قليلًا، وهو ما كان مقصوداً تمامًا، الأمر الذي أخاف آرون. وخطر له أنها رائعة ولكن شريرة. لقد أثرت عليه بلمسة من الرعب. جلست قبالته، وبدا أن ساقيها الجميلتين، في جوارب رقيقة ذهبية اللون، تلتمعان عاريتين معدنيتين، منبثقتين من الجلد الرائع، الرائع مثل مخمل أزرق شاحب. كانت تنتعل حذاءً منسوجًا باللونين الأزرق والذهبي ويمكن للمرء تقريبًا رؤية أصابع قدميها: عارية معدنية. انزلق الشاش ذو الخيوط الذهبية من جانبيها. لم يستطع آرون أن يمنع نفسه من مشاهدة تقوس قدمها العاري. كانت تبدو كما لو أنها رُشّت بغبار الذهب الداكن من فوق عريها الرائع.

لا بد أنها رأت وجهه ولاحظت انبهاره.

1- أوبري ڤنسنت بيردزلي Aubrey Vincent Beardsley هو رسام مجلات إنجلترا.

- «هل أحضرت الفلوت؟» قالت بذلك الصوت المتمهل الكئيب الخالي من النبر. إن صوتها وحده ظل كما هو: مباشراً وعارياً وهادئًا.

- «نعم»

- «ربما سأغني لاحقًا، إذا كنت سترافقني. هل ستفعل؟»

- «كنت أعتقد أنك تكرهين المرافقة»

- «أوه، لا، مجرد تساوق النغمات. لا أقصد المرافقة أقصد الانسجام. لا أعرف كيف سيكون الأمر ولكن هل ستحاول؟»

- «نعم، سأحاول»

- «مانفريدي يحضر الكوكتيلات فقط. هل تفضل البرتقال في كأسك؟»

- «سأشرب مثلما تشربين»

- «أنا لا أضع فيه البرتقال. ألن تدخن؟»

الصوت الغريب العاري الذي يبدو بعيد المنال! ثم تلك الأطراف القوية الجميلة التي تشق طريقها من ذلك الرداء، الداكنة العري كما لو كانت مغطاة بغبار الذهب. وساقاها الجميلتان المليئتان بالأنوثة، الداكنتان اللامعتان قليلًا. كانت رغبته الملحة الوحيدة هي لمسهما وتقبيلهما. لم يعرف قط امرأة تمارس مثل هذه السلطة عليه. لقد كانت قوة غامضة جرداء، وهو أمر لم يستطع مقاومته.

جاء مانفريدي ومعه الصينية الصغيرة وهو ما يزال في زيه العسكري.

- «مرحبًا!» هتف الإيطالي الصغير «سعيد لرؤيتك - حسنًا، هل كل شيء على ما يرام؟ سعيد لسماع هذا. ما رأيك بالكوكتيل يا نان؟»

- «نعم» قالت «إنه جيد»

- «فيه قطرة واحدة من الخوخ أكثر من اللازم، أليس كذلك؟»

- «لا، إنه حسن»

- «آه» وجلس الضابط الصغير ومد ساقيه المشدودتين بطريقة توحي بالمرح، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة، عدّها آرون، هي الأخرى، شيطانية وشبه وسيمة. وفجأة ظهر الجمال الشيطاني الغريب الضاحك للرجل الصغير.

- «حسنًا، وماذا كنت تفعل؟» سأل مانفريدي «ماذا فعلت البارحة؟»
- «أمس؟» قال آرون «لقد ذهبت إلى الأوفيزي[1]»
- «إلى الأوفيزي؟ حسنًا! وما رأيك فيه؟»
- «رائع جدًا»
- «أظنه كذلك. أظنه كذلك. وما هي اللوحات التي تفرجت عليها؟»
- «كنت مع ديكر. لقد تفرجنا على معظمها على ما أعتقد»
- «وما هو أفضل ما تتذكره؟»
- «أتذكر لوحة فينوس فوق الصَدَفة لبوتيتشيلي[2]»
- «نعم! نعم!» قال مانفريدي «أنا معجب بها. لكنني أفضل اللوحات الأخرى. ووجدتها امرأة جميلة، أليس كذلك؟»
- «لا، ليست جميلة على وجه الخصوص. لكنني أعجبت بجسدها. وأحببت الهواء النقي. أحببت الهواء المنعش، هواء البحر الصيفي الذي يتخلل اللوحة، ويتخللها هي أيضًا»
- «و ماذا عن وجهها؟» سأل الماركيز بابتسامة متمهلة ساخرة.
- «نعم، إنها ذات وجه طفولي بعض الشيء»
قالت الماركيزة:
- «إنها تحاول أن تبدو أكثر براءة مما تسمح به فطرتها»
فقال زوجها:
- «أنا لا أتفق معك يا نان. أعتقد أن هذا الحزن والبراءة هما ما يجعلانها فينوس الحقيقية، فينوس الحديثة الحقيقية. لقد اختارت ألا تعرف الكثير. وهذا سرّ جاذبيتها. ألا توافق يا آرون؟ معذرةً، لكن الجميع ينادونك آرون. يبدو الأمر أكثر طبيعية. معظم الناس ينادونني مانفريدي أيضًا، لأنه قد يكون أسهل من ديل توري. لذلك إذا وجدت أنه أسهل، استخدمه. هل تمانع أن أدعوك آرون؟»

1- متحف أوفيزي، تأسس عام 1581 وهو أحد أقدم المتاحف الفنية وأكثرها شهرة في العالم الغربي.
2- يعني لوحة مولد فينوس التي رسمها ساندرو بوتشيلي (1445-1510)

- «مُطْلَقًا. أنا أكره أن أنادى باسم السيد فلان»

- «نعم، وأنا كذلك. أحب اسمًا واحدًا فقط»

في هذا المساء بدا الضابط الصغير فاتنًا ومبهجًا في نظر آرون الذي بدأ يحبه كثيرًا. لكن المرأة هي التي فرضت الإحساس بوجودها الطاغي في الغرفة.

- «هل تتفق معي يا سيد سسن؟» قالت الماركيزة «هل تتفق على أن البراءة الزائفة والحزن الكاذب لفينوس بوتيتشيلي هما أعظم مفاتنها؟»

- «لا أعتقد أنها فاتنة على الإطلاق كشخص» قال آرون «إنها، كامرأة محددة، لا تترك فيّ انطباعًا على الإطلاق. ولكن كلوحة - كهواء نقي، كهواء نقي على الخصوص، لا تبدو امرأة، كما تعلمين، بقدر ما تبدو مثل تلك المشاعر الصباحية التي تعيشها خارج المنزل على شاطئ البحر»

- «تمامًا! نوع من منظر بحري لامرأة. ببراءة زائفة تمامًا. هل أنت شديد الانحياز للبراءة مثل مانفريدي؟»

- «البراءة؟» قال آرون «إنها من الأشياء التي لا تثير مشاعري كثيرًا»

ضحك الضابط متخابثًا وقال:

- «آه، أنا أعرفك. أنت من النوع الذي يريد أن يكون أنطونيو بالنسبة لكليوباترا. ها ها!»

أجفل آرون كمن صُدم، ثم ابتسم هو الآخر مجاملاً، لكنه أحس رغم ذلك بأنه قد صُدم! هل أراد أن يكون أنطونيو لكليوباترا؟ كان يراقب الماركيزة دون أن يشعر. وكانت تنظر بعيدًا، لكنها عرفت أنه كان يراقبها. وأخيرًا وجهت عينيها نحوه، بابتسامة بطيئة داكنة، مليئة بالألم لكنها أكثر امتلاءً بالمعرفة وأرسلت إليه من بعيد نظرة بدت غريبة مظلمة صامتة وملأى بالمعرفة. وشعر بأن كل السلاسل التي كانت تقيده قد بدأت بالذوبان. ظلت عيناه ثابتتين وكئيبتين، لكنه رد لها الابتسامة بشفتيه. وكان مرعوبًا. كان يعلم أنه كان عابسًا متجهمًا تجاهها. كان مرعوبًا، لكنه في الجزء الخلفي من ذهنه كان مدركًا لوجود ليلي الذي يستطيع الاعتماد عليه. لقد أراد أن يغرق فيها. لقد ذاب لحمه ودمه ببساطة من رغبته فيها. أراد أن يأتيها مهما كلف الأمر.

لكنه كان يعلم في الوقت نفسه أنه لابد أن يحتفظ بقدرته على استرداد نفسه منها مهما كلف الأمر. يجب أن ينال كعكته ويأكلها!

وأصبحت كليوباترا بالنسبة له «لا يمكن للعمر أن يذبلها، ولا للتقاليد أن تبليها»[1] بالنسبة لخياله الغريزي اللاإرادي. لقد غدت كليوباترا.

دخلوا للعشاء فجلس عن يمينها. كانت طاولة صغيرة، بها عدد قليل جدًا من زهور الأقحوان: كل شيء كان ناعمًا وخفيفًا. حتى الطعام نفسه - لم يكن فيه شيء دسم. كل شيء رائع. شربوا النبيذ الألماني الأبيض. كان منتبهًا إلى جمال ذراعيها وصدرها وشعرها الكثيف المفرود من المنتصف، والياقوت على حنجرتها، والخواتم الثقيلة على أصابعها، والطلاء على شفتيها. شيء عميق، عميق في دواخله، كان يحوم حولها، ملتصقًا بها. ومع ذلك كان في ذهول، كمن لا يبصر شيئًا. من كانت، ماذا كانت؟ لقد فقد كل قدرته على الإدراك، فاكتفى بأن جلس هناك ووجهه نحو وجهها أو إليها طوال الوقت. وتحدثت معه. لكنها لم تنظر إليه قط.

ولم تقل الكثير؛ لقد كان الزوج هو الذي يتحدث، ملاطفًا ضيفه الذي أعجب بذلك. كانت المرأة صامتة في أغلب الأحيان، وبدت بعيدة. وأحس آرون أن حياته تغيض نحوها. لقد شعر بالروعة والجمال الصارخ لذراعيها وصدرها. وجعله التفكير في ساقيها الملساوين المغطاتين بغبار الذهب تحت الطاولة يشعر بأنه شبه معتوه.

النبيذ الثاني كان الموسيل الذهبي اللون، الرائق المترف الجميل. شربته بسرور، مثل إنسان ذي خبرة. أما الحلوى فقد كانت طبقًا من الكاكي - تلك الفاكهة اليابانية ذات اللون البرتقالي واللب الطري. لم يسبق لآرون أن تذوقها من قبل. كانت طرية، لزجة تقريبًا، ذات لون رائع وطعم تراوح بين القارص القاسي وتلك الحلاوة الأولى المتحللة التي أثقلها بها الخريف. لقد أحبها الماركيز واستخرج لبها بملعقته، لكنها لم تأكل منه شيئًا.

1- جملة من مسرحية أنطونيو وكليوباترا لشكسبير تصف فيها إحدى الشخصيات فتنة كليوباترا الطاغية بأنه لا يعود لجمالها بل لتقلب مزاجها الساحر الذي لا يمكن التنبؤ به.

لـم يعـرف آرون ما قيل وما تحدثـوا عنه. لو أن أحدًا انتـزع منه عقله ولـم يترك له سوى جسده وإيعازات حبله الشوكي لكان هذا حاله.

لكن الحديث تحول أثناء تناول القهوة إلى واجبات مانفريدي. كان عليه أن ينتظـر لبعـض الوقت قبل أن يتحرر من خدمته العسـكرية. فعليه في الغد، علـى سـبيل المثال، أن يخرج ويسـافر قبـل حلول النهار. قال إنـه يكره ذلك ويريـد أن يصبح شـخصًا حراً مـن جديد، لكن بدا لآرون أنه سـيكون ضجرًا للغاية عندما يصبح حرًا. ثم انجرفوا للحديث عن القصر الذي كانت شقتهم فيه. قال مانفريدي:

- «لدينا شـرفة رائعة - يمكنك رؤيتها من النزل الذي تسـكن فيه. هل لاحظت ذلك؟»

- «لا»

- «بالقرب من تلك الأجمة من أشجار النخيل. ألا تعرف ذلك؟»

- «لا» أجاب آرون، فقالت الماركيزة:

- «دعنا نخرج ونُريه إياها»

أحضـر لهـا مانفريدي عباءة، واجتـازوا أبواباً مختلفة، ثـم صعدوا بعض الدرجات. كانت الشرفة واسعة ومفتوحة. تطل مباشرة عبر النهر على الجهة المقابلـة لفندق لونغارنو. هناك كان بـرج قصر فيكيو ذو العنق الرفيع، والقبة العظيمة للكاتدرائية التي ترتفع على مسـافة بعيدة، في كتلة من الظل في ليلة بـاردة الهـواء تتلألأ فيهـا النجوم. كانت عربـات الترام الصغيـرة تخطر فوق الجسـر الجديد المنبسـط على اليمين. ومن حديقة بالأسفل مباشرةً ارتفعت أجمة من أشجار النخيل.

قالت الماركيزة، وهي تدنو من آرون، بل وتلامسه بالفعل:

- «كما ترى، يمكنك الاسـتدلال على الشـرفة، بجوار أشـجار النخيل هذه مباشرةً وأنت في نارديني هناك، أليس كذلك؟ قلت في الطابق العلوي؟»

- «نعم، الطابق العلوي، إحدى النوافذ الوسطى على ما أعتقد»

- «نافذة وحيدة مشـرعة علـى الدوام عكس الأخريـات. لقد لاحظت ذلك، لكنني لم أظنها نافذتك»

- «نعم، نافذتي مفتوحة دائمًا»

كانـت تتكئ عليه قليلًا وهو واقف. إنه ليعلم بنفس اليقين بموته يومًا ما، بأنه سيصبح عشيقاً لهذه المرأة. لا بل إنه الآن عشيقها بالفعل.

قال مانفريدي:

- «احذرا من البرد»

استدارت على الفور نحو الداخل. شمّ آرون نفحة خفيفة من عطر أشجار البرتقال الصغيرة في الأحواض التي حول الجدار.

- «هل ستحضر الفلوت؟» قالت عندما دخلوا.

- «وهل ستغنين؟» أجابها. فقالت:

- «اعزف أنت أولًا»

فعـل مـا أرادت وذهـب إلى غرفة الموسـيقى الكبيرة ليعـزف كما حدث في الليلة السـابقة. وتدفق من الفلوت تيار من الموسـيقى دافق طليق ومهيب أوقع فيها تأثيراً فورياً بدا كأنه يخفف من التوتر الغريب الشـبيه بآثار الأدوية، ذاك الذي ينتابها في الأوقات العادية. بدت كأنها تتسـمر وتستسلم. بدا فمها الأحمر كما لو أنه يوشك أن يئن بارتياح. جلست تستمع وذقنها على صدرها. ولـم تتحرك، بل جلسـت بهدوء، وهي تتنفس بسـرعة، مثل شـخص موجوع يحاول التخفيف من آلامه. وكانت لفطرتها الأنثوية يدٌ في تهدئة روعها.

جاءت موسيقى الفلوت سريعة، رائعة مثل مناجاة طير، أو مثل رسالة لاذعة طويلـة، نصـف آمرة. بالنسـبة لهـا كان ذلك مثل صـوت ذكر نقـي، مثل صوت شحرور ينادي، صوت ذكر نقي، لا ينادي فحسب، بل يخبرها بشيء ما. يخبرها بشـيء، ويهدهد روحها حتى تنام. كان الأمر أشـبه بموسـيقى النـار التي أنامت برونهيلـد[1]. لكـن الفلـوت لم يومض ثـم يخمد، بل بـدا أنه يُنـزل على روحها سـلامًا واسـترخاءً طبيعيين. ربما كان الأمر أكثر شبهًا بالاسـتيقاظ على صحوة صباحية حلوة، بعد ليلة من النوم المتوتر والمؤلم. ربما كان أقرب إلى ذلك.

1- برونهيلد أو برونهيلدا هي بطلة قومية من الميثولوجيا الجرمانية ذكرت في عدة ملاحم شعرية ألمانية وإسكندنافية، وذكر أنها تسببت بموت البطل الجرماني سيغفريد الذي ألهم فاجنر واحدًا من أعظم أعماله الأوبرالية.

وعندما دخل آرون، نظرت إليه بابتسامة لطيفة ومنعشة بدت كأنها تجعل طلاء التجميل على وجهها يبدو مثل ضرب من تعب غريب ربما تتعافى منه الآن. وكما في المرة الأخيرة، كان من الصعب عليها أن تطابق بين هذا الرجل وصوت فلوته. كان الأمر صعبًا إلى حد ما. لولا أنه كان يحمل بين حاجبيه شيئًا من الشك، وفي سلوكه انعزالاً، جعلاها تخشى أن يرحل ولا يعود. لقد رأت فيه أنه قد يذهب ولا يعود.

لم تقل له شيئًا، ابتسمت فقط. وللحظة بدت نظرة المعرفة في عينيها محتواة في نظرة أخرى: نظرة إيمان وسعادة. وتوقف قلب آرون. كلا، ربما كان يخشى منها وهي في تلك اللحظة من مزاجها الإيماني أكثر من خشيته منها وهي في أناقتها الفاسدة السابقة. أجفلت روحه وتقلصت. ماذا تنوي أن تطلب منه؟

قال مانفريدي:

- «أنا حريص جدًا على حضورك للعزف صباح أحد أيام السبت. مع المرافَقة، كما تعلم. أود كثيرًا أن أسمعك بمرافقة البيانو»

قال آرون:

- «هذا جيد جدًا»

- «هل ستأتي حقًّا؟ وهل ستتدرب معي حتى أتمكن من مرافقتك؟» قال مانفريدي بفارغ الصبر.

- «نعم سأفعل» قال آرون.

- «جيد! جيد! اسمع. تعال صباح الجمعة ودعنا نلقي نظرة على النوتة»

- «إذا كان السيد سسن سيعزف أمام الجمهور، فلا ينبغي له أن يفعل ذلك على سبيل الإحسان» قالت الماركيزة «يجب أن يحصل على الأجر المناسب»

قال آرون:

- «لا، لا أريد ذلك»

- «ولكن يجب عليك أن تكسب المال، أليس كذلك؟»

- «لا بد لي من ذلك، لكن يمكنني أن أفعل ذلك في مكان آخر»

- «لا إذا كنت تعزف للجمهور، فيجب أن تنال أجرك. الأمر مختلف عن عزفك لي»

- «بالطبع» قال مانفريدي «على كل إنسان أن يأخذ أجره. أنا آخذ أجري من الحكومة الإيطالية»

بعد قليل سأل آرون الماركيزة إن كانت ستغني.

- «هل أفعل؟» قالت.

- «نعم، افعلي»

- «إذن سأغني لوحدي أولًا، لأدعك تقول رأيك في الأمر - سأكون مثل تريلبي[1] لن أقول مثل إيفيت جيلبير، لأنني لا أجرؤ[2]. لذلك سأكون مثل تريلبي، وأغني أغنية فرنسية صغيرة. على الرغم من أنها ليست مالبروك[3]، وبدون سفنجالي يبقيني في تناغم»

اقتربت من الباب ووقفت ويداها بجانبها. كان هناك شيء حزين، مثير للشفقة الآن، في أناقتها.

- «وراء بيت أبي
طِر، يا قلبي، طر!
وراء بيت أبي
شجرة تفاح حلوة.
حلوة جدًا، وأنا
نعم، أنا حلوة جدًا.
هناك شجرة تفاح حلوة.
وثلاث أميرات جميلات

1- في رواية مشهورة لجورج ديموريه تلتقي فتاة موديل اسمها تريلبي بموسيقار يدعى سفنجالي يعلمها الغناء عن طريق التنويم المغناطيس حتى تصير نجمة كبيرة لكنها تفقد صوتها عندما يموت معلمها. وقد أصبحت القصة الخيالية جزءًا من الميثولوجيا الشعبية في أوروبا.

2- إيفيت غيلبير (1865-1944) مغنية وعارضة فنية وممثلة فرنسية شهيرة.

3- إشارة إلى إحدى الأغنيات التي غنتها تريلبي في الرواية التي حملت اسم (مالبروك يذهب إلى الحرب)

طِر، يا قلبي، طر!
ثلاث أميرات جميلات
يجلسن تحتها.
جميلات جميلات
نعم، جميلات
يجلسن تحتها»

كان لهـا صوت جميل، قوي، حلو. ولكنه كان يترنح ويتعثر ويبدو أحيانًا كأنـه ينزل إلى مسـتوى الحديـث العادي. وبعـد ثلاثة أبيات توقفت بشـكل كامل، غارقة في كدر مرير، ثم قالت:

- «كلا. لا فائدة. لا أستطيع الغناء» وهوت على كرسيها.

- «لحن صغير جميل» قال آرون «هل تحتفظين بالنوتة؟»

نهضت دون أن تجيب، وجلبت له كتابًا صغيرًا.

- «ماذا تعني الكلمات؟» سألها فترجمتها له. ثم حمل فلوته وسأل:

- «هل من مانع إذا عزفتها، أليس كذلك؟»

وهكـذا عـزف اللحـن. لقد كان الأمر بسـيطًا جـدًا. وبدا أنـه يلتقط نغمة صوتها وجرسه. ثم قال:

- «تعالي وغنيها بينما أعزف»

فقالت وهي تهز رأسها بمرارة:

- «لا أستطيع الغناء»

قال بخيبة أمل:

- «لكن دعينا نحاول»

- «أعلم أنني لا أستطيع». قالت ذلك، لكنها نهضت.

ظل جالسًـا إلى الطاولة الصغيرة، والكتاب مفتوح تحت مصباح القراءة. وقفت على مسافة قصيرة، غير سعيدة، وقالت:

- «لقد كنت دائمًا هكذا. لم أتمكن قط من الغناء إلا إذا أحسست بشيء يحفر في أعماقي، وعندها لن يعود الأمر أمر غناء»

ولكن آرون لم يكن يعرها انتباهًا. كان يراقبها. وفلوته عند فمه، ثم أطلق اللحـن، لكنهـا لم تبدأ. كانت تعصـر منديلها، فعزف اللحـن وحده. وعندما انتهى نظر إليها مرة أخرى، وارتسـمت في عينيه ابتسـامة نصف سـاخرة. ثم أطلـق اللحن من جديد كمـن يتحداها. لكنها، هذه المرة، بـدأت بالغناء بناءً علـى طلبه. تمايـل الفلوت على الفور بقوة ناعمة وجميلـة ممتزجًا بالأغنية، وارتعشت لدقيقة أو دقيقتين. ثم تحررت روحها وصوتها، وغنت، غنت كما أرادت أن تغنـي، كمـا أرادت دائمًا أن تغنـي، دون ذاك العائق الفظيع اللابث في أعماق روحها، ذاك العائق الذي يمنعها من الغناء.

غنت بحرية، والفلوت ينساب معها. أوه، ما كان أسعدها بذلك! كم كان جميلًا أن تغني الأغنية الصغيرة بعذوبة روحها. كم كان جميلًا أن تحلق أخيرًا مع الموسـيقى، دون عوائق أو عقبات! وبتلك السـهولة والهـدوء الجميلين لروحها في انتقالاتها من خلال الموسيقى! لم تكن واعية بوجود الفلوت. لم تكن واعية بوجود أي شـيء سـوى أغنيتها الجميلة الخالصة المندفعة. بدت روحهـا كأنها تتنفس كما تتنفس الفراشـة، إذ تسـتقر على ورقة شـجر وتريح جناحيهـا. لأول مـرة! لأول مرة أخذت روحها نفسًـا عميقًا. طـوال حياتها، كانـت أنفاسـها تنقطع في منتصـف الطريق. وها هـي الآن تتنفس بعمق، إلى أعمق مدى في كيانها.

أوه، لقد كان شيئًا رائعًا، كانت في حالة ذهول. ثم انتهت الأغنية، ووقفت بوجـه ذاهل سـعيد، كما لو أنها قد اسـتيقظت للتو. وبـدا الطلاء على وجهها مثل قشـرة ليلية بالية، مثل نوم قلق. بدت جديدة ومضيئة. ونظرت إلى آرون بابتسامة فخورة.

- «برافو، نان!» قال زوجها «هذا ما كنت تريدين»

- «لقـد كان كما قلـت، أليس كذلك؟» قالت وهـي تدير نحوه وجهها المتسائل المتوهج.

بدا وجهه غريبًا وذابلًا وشبيهًا بالقزم في هذه اللحظة.

ذهبت وجلسـت على كرسـيها، صامتـة تمامًا، كما لو كانـت في غيبوبة. وجلـس الرجـلان أيضًا سـاكنين تمامًا. وفـي الصمت دار بين الثلاثة مشـهد

درامي قصير لم يعرفوا عنه شيئًا بالتأكيد. لكن مانفريدي أدرك أن آرون قد فعل ما لم يستطع هو نفسه أن يفعله من أجل هذه المرأة. لكن المرأة كانت امرأته، وليست امرأة آرون. وهكذا تم إبعاده عن المشهد، بينما كان آرون، الجالس هناك، يتوهج بنوع من الانتصار. لقد صنع معجزة صغيرة، وشعر بأنه صانع عجائب صغير يستحق التبجيل. وكما في الحلم، جلست المرأة وهي تشعر بالبهجة التي كانت تحلق مثل بجعة تطير بأجنحة روحها في الهواء الشاهق. لقد كانت مثل البجعة التي لم تتمكن من قبل من فرد جناحيها تمامًا، وبالتالي لم تتمكن قط من الصعود إلى الفضاء الفسيح، حيث تستطيع هناك فقط أن تغني. إن البجع واللقالق لا تصدح بموسيقاها إلا في هواء الأعالي، وعندها فقط يمكنها أن تهب الصوت لأرواحها الغريبة، وكذلك هي.

أشاح آرون ومانفريدي بوجهيهما بعضهما عن بعض ونادرًا ما تحادثا. وكأن يدين غير مرئيتين دفعتا وجهيهما بعيدًا، بعيدًا، بعضهما عن بعض. وأشرق وجه آرون بمسحة من النصر، وقليل من تكشيرة العناد، بينما بدا وجه الإيطالي شائخًا يشبه وجه القرد، ترتسم عليه مرارة عميقة تكاد تكون حجرية. نقّلت المرأة عينيها في حيرة من رجل إلى آخر دون أن يغادرها بريق الزهرة المتفتحة ونظرة الانشداه. فقال آرون في قلبه: يا لها من امرأة حسناء. يا لها من امرأة لذيذة وشهية. آه، يا لها من امرأة يستمتع بها! أولم تصبح من نصيبه؟ ألم يكن قد نالها؟

تصاعدت في داخله رجولته، أو بالأحرى ذكورته، في نوع من الأستاذية. لقد شعر بقوته الخاصة، شعر فجأة بصفته الذكورية، صفة القوة والاستيلاء. فجأة، وبعد أن اكتسب قوته الذكورية الخارقة، ها هو مقبل على الحصول على مكافأته. وكانت المرأة مكافأته. هكذا كانت. وقلّب الأمر في ذهنه. لقد اشتهاها – ها، أليس كذلك! لكن الزوج جلس هناك، مثل قرد صيني مصنوع من الحجر الأملس، أخضر مائل إلى الرمادي. لذلك، لا بد إذن من وقت آخر. فقام واستأذن بالانصراف.

– «لكنك ستسمح لنا بفعل ذلك مرة أخرى، أليس كذلك؟» قالت، فأجابها:

– «سآتي متى تخبرينني»

- «ثم سأخبرك قريبًا»

فغادر وذهب إلى نزله، ومن هناك إلى غرفته النائية. وبينما كان يضع فلوته على الطاولة نظر إليه وابتسم. لقد تذكر أن ليلي أطلق عليه اسم عصا آرون فقال:

- «إذن أنت تزدهر، أليس كذلك؟ وتنبت أشواكًا أيضًا»

لزمن طويل كان مكبوحًا ومحبوسًا داخل نفسه، لزمن طويل كان الأمر صعبًا وقاسيًا، صعبًا وقاسيًا للغاية. لم يكن يريد شيئًا، لقد تراجعت رغبته وتقهقرت. لزمن طويل كانت رغبته في المرأة محتبسة، قاسية ومقاومة. كانت دماء رغبته العميقة محبوسة. لم يكن يريد أحدًا أو شيئًا. وكان من الصعب العيش بهذه الطريقة، دون رغبة، دون نأمة من الحب العاطفي، مرتدًا ناكصًا على عقبيه! لقد كانت تلك تجربة يصعب تحملها.

وها قد عادت رغبته، لكنها قوية، شرسة كالحديد. كقوة نسر يقبض بمخالبه على البرق. شيء يفتخر به، شيء يبعث الزهو بالنفس، هذه العاطفة الذكورية القوية، المتكبرة، الملكية، صاعقة زيوس! ها هي عصا سلطة آرون السوداء تزدهر من جديد بزنابق فلورنسا الحمراء والأشواك الشرسة. لقد كان يتنقل محاطًا بروعة برقه الذكوري المداف[1] برعد قوة العاطفة الذكورية. لقد استعادها، تلك الربوبية الذكرية، تلك الألوهية الذكرية.

ثم نام. نام ورأى أحلامًا عنيفة عن صراع بهيم غريب، يشبه أعمال الشغب في شوارع ميلانو غير أنه أكثر فظاعة. لكنه، حين استيقظ في الصباح، لم يبال بما رأى في أحلامه. وبمجرد أن عم الضياء، نهض وفتح نافذته على مصراعيها. كان صباحًا رماديًا متمهلاً. لكنه لم ير الصباح ولا النهر ولا المرأة التي تمشي على مهد النهر المرصوف بالحصى مع إوزتها ولا التل الأخضر الممتد حتى سان مينياتو. وشاهد أجمة النخل، والشرفة التي بجانبها. كان بإمكانه تمييز الشرفة بوضوح، بين أوراق الشجر الخضراء، فوقف عند نافذته ساعة كاملة، ولم يتحرك. وقف بلا حراك، متسمرًا، يراقب تلك الشرفة المطلة على نهر أرنو. ولكن مثل تمثال.

1- المُداف: من داف الشيء بالشيء أي مزجه. يقال مثلاً فلان داف السمَّ بالعسل.

وبعد ساعة أو نحو ذلك نظر إلى ساعته. كانت الساعة التاسعة. فقرع الجرس ليطلب قهوته وهو واقف يراقب الشرفة الواقعة على التل. ثم شعر أن دوره قد أزف. لقد نهض طائر العنقاء في النار من جديد، خارجًا من الرماد.

لذلك عبر الجسر في الساعة العاشرة. كتب على ظهر بطاقته طلبًا بأن تسمح له بالحصول على كتاب الأغاني الصغير، حتى يتدرب عليه. ذهب الخادم وعاد مع دعوة آرون للانتظار. فدخل آرون وأخذ الخادم قبعته.

كان الخادم يتحدث الفرنسية والإسبانية فقط، ولا يتحدث الإنجليزية. كان إسبانيًا بشعر رمادي وكتفين منحنيتين وعينين داكنتين صامتتين. لقد تحدث بأقل قدر ممكن. لقد ورثته الماركيزة من والدها.

جلس آرون في غرفة الجلوس الصغيرة وانتظر. وبعد وقت طويل، جاءت الماركيزة مرتديةً بلوزة بيضاء خفيفة وتنورة زرقاء. لم تأخذ زينتها إلا بالكاد. وهي تمد يدها لآرون ارتسم على وجهها سرور غريب لكنه ممزوج بنظرة كئيبة. شيء ما كان يعتمل بين حاجبيها. وكان صوتها غريبًا، بنبرة سرية غريبة لم يستطع فهمها. نظر إليها. وكان وجهه مشرقًا، وكانت ركبتاه عند جلوسه كركبتي إله.

- «هل أردت كتاب الأغاني؟» قالت، فأجاب:

- «أردت أن أتعلم ألحان أغانيك»

- «نعم. انظر، ها هو ذا!» وأحضرت له الكتاب الأصفر الصغير. لقد كان مجرد كتيب تعليمي، يحتوي على اللحن والكلمات فقط، دون آلات مرافقة. وقفت تقدم له الكتاب، وقوفًا كأنه يعني شيئًا آخر. في انتظار يبدو كأنه من أجل غاية أخرى.

فتح الأوراق بشكل عشوائي. ثم قال وهو ينهض ويقف إلى جانبها ومعه الكتاب المفتوح:

- «لكن يجب أن أعرف أي الأغاني تغنين»

قالت: نعم، وهي تنظر إلى ذراعه. كان يقلب الصفحات واحدة تلو الأخرى. قالت: «Trois jeunes tambour مجموعة عازفي طبول شباب».
«نعم، ذلك... نعم، En passant par la Lorraine... Aupres de ma

Blonde...عابـرة اللورين مع شـقائي. «أوه، أنا أحب تلـك الأغنية كثيرًا...
وقف وراجع اللحن في ذهنه.

- «هل تريدين مني أن أعزفها؟» سألها فأجابت:

- «كثيراً»

لـذا، أخذ الفلـوت، ووضع الكتاب علـى مزهرية، وعـزف اللحن، بينما كانـت هـي تدندنـه بشـكل متقطـع. لكن بينمـا كان يلعب، شـعر أنـه لم يلق التعويـذة عليهـا. لـم يكن هناك اتصـال. وكانت بطريقة غامضـة تتحمله. لقد كانـت تصمد أمامه وأمـام قوته الذكوريـة الخارقة ورغبتـه الصاعقة. كانت، بطريقة لا توصف، ترمي الماء البارد على طائر الفينيق الذي نهض حديثًا من رماد عشه المشتعل في النيران.

أدرك أنهـا لا تريـده أن يعزف. لم تكن تريده أن ينظر إلى الأغاني. فوضع الكتـاب جانبًـا، واسـتدار، وهو فـي حيرة من أمـره، وليس متأكـدًا تمامًا مما يحـدث، لكنه يشـعر بأنها تقاومه. ولمـح وجهها: كان غامضًـا. ومرة أخرى كان وجـه كليوباتـرا، لكن فيه شـيء جديد ودافئ. لـم يسـتطع فهـم ذلك. ما الـذي كان في وجهها حتى يتحير؟ حتى يغضب تقريبًا؟ لكنها لـم تسـتطع أن تسلبه زخمه الذكوري. لـم تستطع أن تجرده من قوته المركزة.

- «ألن تخلع معطفك؟» قالت وهي تنظر إليه بعيون داكنة كبيرة وغريبة. إنهـا امرأة غريبة لا يسـتطيع فهمها. ومع ذلك، عندمـا جلس مرة أخرى، بعد أن خلـع معطفه، شـعر بها وهي تنظـر إلى أطرافه، إلى جسـده المادي. وهذا كان ضـد رغباتـه، فهـو لم يرد ذلـك. ومع ذلـك، كانت رغبته فيهـا ثابتة، في ذراعيها البيضاوين الجميلين، وجسـدها الأبيض الناعم بأكمله. وكانت تلك رغبة لا يناقضها ولا يسـمح بمناقضتها. وهي إرادته أيضًا. جسـدها الأبيض الناعم كله - ليمتلكه في مجمله، في كماله. وسألته:

- «ماذا لديك هذا الصباح؟»

- «لا شيء. وأنت؟» رفع رأسه ونظر إليها فقالت:

- «لا شيء على الإطلاق»

وجلسا في صمت وهو مطأطئ الرأس، ثم نظر إليها مرة أخرى وسألها:

- «هل يمكن أن نكون عاشقين؟»

فجلست وقد أدارت وجهها دون أن تجيب. ضرب قلبه بشدة، لكنه لم يسترخ.

- «هل يمكن أن نكون عاشقين؟» جاء صوته مرة أخرى، مع لمسة خافتة من السخرية.

أعتم وجهها بالتدريج. فتعجب كثيرًا لرؤيته على هذا الحال. لكنها أجابت دون أن تنظر إليه:

- «نعم، إن كنت تريد»

- «نعم أتمنى» وكان يجلس طوال الوقت وعيناه مثبتتان على وجهها، بينما هي تتجنب النظر إليه.

- «الآن؟ وأين»

ومرة أخرى ظلت صامتة لبعض الوقت، كما لو كانت تصارع نفسها. ثم نظرت إليه - نظرة طويلة وغريبة ومظلمة وغير مفهومة، ولم يعجبه هذا.

- «أنت لا تريدين عواطف؟ أنت لا تريدين مني أن أقول شيئًا، أليس كذلك؟»

وظهرت ابتسامة ساخرة باهتة على وجهها وقالت برباطة جأش وهدوء غريبين:

- «أعرف قيمة كل هذا. لا، لا أريد شيئًا من ذلك»

- «إذن؟»

لكنها الآن جلست تحدق به بعينين واسعتين وثقيلتين وغير مفهومتين. أزعجه هذا، وسألها بابتسامة وهو ينظر إليها بثبات مرة أخرى.

- «ماذا تريدين أن تري فيّ؟»

وأدارت وجهها جانبًا من جديد، وعادت المسحة الداكنة على خدها. وانتظرها طويلًا ثم قال أخيرًا:

- «هل تريدنني أن أغادر؟»

- «هل تريد ذلك؟» قالت وهي ما زالت تشيح بوجهها. فأجابها:

- «لا»

ثم صمتت مرة أخرى. وسألها:

- «إلى أين آتيك؟»

صمتت للحظات ثم أجابت:

- «سأذهب إلى غرفتي»

- «لا أعرف مكانها»

- «سأريك إياها»

- «سآتيك إذن خلال عشر دقائق» ثم كرر «خلال عشر دقائق»

وهكـذا نهضت، وقادته إلى خارج الصالون الصغير. سـار معها إلى باب غرفتها، ثم أحنى رأسـه وهي تنظر إليه ممسكة بمقبض الباب. واستدار وعاد إلى غرفة الاسـتقبال وهو ينظر إلى سـاعته. وهناك وقف ساكنًا تمامًا وقدماه متباعدتان، وانتظر. وقف ويداه خلفه وقدماه متباعدتان، بلا حراك تمامًا، ثابتاً متسـمراً. وهكذا مرت الدقائق. نظر إلى سـاعته: لقد انتهت الدقائق العشـر. وسـمع صوت خطوات وأبواب. فقرر أن يمنحهـا خمس دقائق أخرى. أراد أن يكون متأكداً تمامًا من أنها أخذت وقتها.

في نهاية الدقائق الخمس ذهب مباشـرة إلى غرفتها، ودخل وأغلق الباب خلفه. كانت مستلقية على السرير، وظهرها إليه.

لقـد وجدهـا غريبة، وليس كما تخيلها. ليسـت قوية كمـا تخيلها. الغريب أنها بدت بين ذراعيه صغيرة وطفولية تقريبًا، بينما كانت تبدو في الحياة اليومية امرأة كاملة الأنوثة. غريبة كانت طريقتها المجردة الصريحة في التشبث به! مثل أخت، مثل أخت صغيرة أو مثل طفل! لقد ملأه ذلك بدهشة غريبة، بل بالحيرة تقريبًـا. فـي عمـاء العاطفة المظلم بـدت تقريبًا مثل طفل متشـبث بين ذراعيه. لكنها كانت تهزأ منه بطريقة عميقة وجوهرية كما لو كان طفلًا. لقد كانت ضده بطريقـة غريبة وغير مفهومـة، مثل طفلة عنيدة عنادًا أعمى في طبيعتها العميقة. وشعر بأنها ليست امرأته. لقد مر بهذا الشعور: «هذه ليست امرأتي»

عندما اسـتيقظ بعد نوم طويل وعاد إلى نفسـه تمامًا، مع نقرة اليقظة التي كانت النهاية، كانت الظلال الأولى تنسـدل علـى ذلك الأصيل، فنهض ومد يده إلى ساعته ونظر فيها ثم قال:

- «إنها الرابعة والربع»

اتسعت عيناها بدهشة وهي تنظر إليه. لكنها لم تقل شيئًا. كان في عينيها وهي تراقبه إذ يرتدي ملابسه على عجل نفس الفضول الغريب الفسيح الذي لا يشبع. كانت عيناها متسعتين، ولم تقل كلمة واحدة.

لكنها، عندما ارتدى ملابسه وانحنى عليها ليودعها، لفت حوله ذراعيها اللتين بدتا الآن مثل أذرعٍ واهية طفولية، لكنها مع ذلك فتاكة مميتة في سطوتها. ذراعاها الناعمتان حول رقبته، وشعرها المتشابك على وجهه. ومع ذلك، كان يشعر حتى وهو يقبلها، بأنها فتاكة. أراد أن يذهب. أراد أن يخرج من أحضانها وتشبثها وتشابك شعرها وفضولها وقوتها الغريبة البغيضة.

- «سوف تأتي مرة أخرى. سنكون هكذا مرة أخرى؟» همست في أذنه.

وكان من الصعب عليه أن يدرك أن هذه هي تلك المرأة الأخرى، التي جلست بصمت شديد على الأريكة، في ظلام شديد وتحفظ، أثناء تناول الشاي في بيت ألجي.

- «نعم! سوف أفعل! مع السلامة الآن!»

وقبلها وخرج مباشرة من الغرفة. وبسرعة أخذ معطفه وقبعته، وأسرع بمغادرة المنزل. كانت رائحة العطر الطفيف لأغطية السرير لا تزال في أنفه، ولم يكن يعرف ما هي. ولكنه الآن مسح وجهه وفمه ليمسحها.

لم يأكل شيئًا منذ تناول القهوة في ذلك الصباح، كان جائعاً ويشعر بالدوار. واعترى وجهه وعقله الذبول. من الغريب أنه شعر بنفسه ذاويًا كمن ضربته صعقة كهربائية. وكان يعلم، كان يعلم جيدًا أنه لم يكن يملك سوى عُشر قدراته الطبيعية. وفي روحه الذكورية كان يشعر بأنه يكرهها: يكرهها بشدة وبعنف. لكنه قال في نفسه: «لا، لن أكرهها. لن أكرهها»

وواصل طريقه عبر جسر بونتي فيكيو، حيث كانت نوافذ الصاغة على الجسر متوهجة بالضوء بالفعل، ومضى إلى داخل المدينة. أراد أن يأكل شيئًا ما، لذلك قرر الذهاب إلى محل يعرفه، حيث يمكن للمرء الوقوف وتناول شطائر صغيرة جيدة من الكمأة أو السلامي، وشرب نبيذ المارسالا تناول القليل من لفائف الكمأة واحدة تلو الأخرى، وشرب بضعة أكواب من

المارسالا. ثم لم يعرف ماذا يفعل. لم يرغب في أكل المزيد، فقد تناول ما يكفيه. كان جوعه عصبيًا أكثر من كونه حسّيًا. فنزل إلى الشارع. كان الظلام يزداد حلكةً وكانت المدينة تضيء. شعر باحتراق غريب، كما لو أن لهبًا أو تيارًا كهربائيًا قد سريا في جسده وأتلفا أنسجته الحيوية. شعر دماغه بالذبول، ولم يتبق لعقله سوى عين واحدة مفتوحة لم تحرقها النار. لقد احترق الكثير من عيون عقله وأصابها العمى.

لكن نوعًا من القلق لم يزل يتخلل أعصابه. ماذا عليه أن يفعل؟ وتذكر أن لديه رسالة في جيبه من السير ويليام فرانكس. لم يتوقف السير ويليام عن مضايقته بشأن القدر والعناية الإلهية التي كان من المفترض أن يثق بها آرون. «سأكون سعيدًا جدًا أن أسمع منك، وأن أعرف كيف عاملتك العناية الإلهية الخيّرة -أو القدر كما أسميته- منذ رأيناك...»

استدار آرون وسار إلى مكتب البريد. وهناك أخذ ورقة وجلس على إحدى الطاولات في غرفة الكتابة وكتب إجابته. كان الأمر غريبًا للغاية، أن يكتب بهذه الطريقة بينما معظم عيون عقله معطوبة، وبدا أنه يستطيع بالكاد رؤية القلم والإمساك به وتمريره على سطح الورقة. لكن عليه أن يكتب. كانت معظم قدراته قد أخمدت أو فُجرت في هذه اللحظة، لكنه كتب ما قد يكون أعظم حقائقه أو أعمقها: «لا أريد أن يعتني بي القدر أو العناية الإلهية. أنا لا أؤمن بالوئام وحب الناس بعضهم لبعض. أنا أؤمن بالصراع وليس بأي شيء آخر. أنا أؤمن بالصراع الذي يتخلل كل شيء. إذا كان الأمر يتعلق بالنساء، فأنا أؤمن بصراع الحب، حتى لو أعماني. وإذا كان الأمر يتعلق بالدنيا، فأنا أؤمن بمصارعتها ودفعها إلى كراهيتي، حتى لو حطمَت ساقيّ. أريد أن يكرهني العالم، لأنني لا أستطيع تحمل فكرة أن يحبني. لأن الحب هو الأكثر فتكًا بالنسبة لي من بين كل الأشياء، وخاصة في هذا العالم الذي أراه بغيضًا...»

حسنًا، كانت هذه رسالة يجب أن يتلقاها رجل عجوز مسكين، لكنه انتزعها من نفسه وهو يعاني من جفاف عقله الذابل. عندما يكتب رجل رسالة لنفسه، فمن المؤسف أن يرسلها إلى شخص آخر. وربما ينطبق الأمر نفسه على الكتاب.

لكنه وقد سطّر الرسالة بالفعل، ختمها وأغلقها ووضعها في الصندوق فجعلها هذا أمرًا لا رجعة فيه. ثم استدار نحو المنزل. ظلت حقيقة واحدة تردد في حطام وعيه دون انقطاع: أن ليلي موجود في المدينة، وأنه يستطيع أن يذهب إليه متى احتاج إلى ذلك: وأيضاً أن لوتي، زوجته موجودة في هذا العالم، وأنه، قبالة لوتي، قد احترق قلبه بمرارة عميقة، عميقة، لا يمكن الوصول إليها تقريبًا. مثل حرق عميق في أعماق روحه، كانت لوتي. ومثل المصير الذي استاء منه، والذي وجد فيه العون، كان ليلي.

وعاد إلى نزله واستلقى على سريره. لقد تبقى له ما يكفي من التمالك ليسمع الناقوس وينزل لتناول العشاء. شاحباً، بادي الذهول، جلس لتناول عشائه. ثم نجح، والحمد لله، في الإيواء إلى الفراش بمفرده، في سريره البارد، وحده والحمد لله. أن تكون وحيدًا في الليل! إنه لأمر يستحق عرفاناً يجل عن الوصف!

الفصل التاسع عشر
كليوباترا، لكن ليس أنتوني

استيقظ آرون في الصباح وهو يشعر ببعض التحسن، دون أن يستعيد ذاته تمامًا. الليل وحده هو من أنقذه. كانت الحاجة إلى البقاء بمفرده هي أعظم احتياجاته. لقد شعر باستياء شديد إزاء الماركيزة. لقد شعر أنها أعطته عقرباً بطريقة ما[1]. كانت غريزته تدفعه إلى كرهها. لكنه تجنب كرهها. تذكّر ليلي ومقولة أن على المرء أن يمتلك نفسه، وأن يكون وحيدًا في امتلاك نفسه. وبطريقة ما، تحت تأثير ليلي، رفض أن يتبع إيعاز شغفه. رفض أن يكره الماركيزة. لقد أحبها. لقد احترمها. وبعد كل شيء، كانت هي أيضًا تكافح من أجل مصيرها. إنه ليشعر بتعاطف حقيقي معها. كلا، لم يكن ليكرهها.

لكنه لم يستطع رؤيتها. لم يستطع تحمل فكرة أنها قد تتصل به وتراه. لذلك استقل الترام إلى سيتيجنانو[2]، وسار طوال اليوم إلى الريف حاملاً الخبز والنقانق في جيبه. جلس لساعات طويلة بين أشجار السرو في توسكانيا. لم يسبق له أن رأى أشجاراً تشبه الأشباح، تشبه أرواحاً ناعمة غريبة حبلى. استلقى وشاهد أشجار السرو الطويلة وهي تتنفس وتتواصل وتتحرك بشكل خافت كأنها تمشي وسط الريح الخفيفة. بدا أن روحه قد تركته وسافرت بعيدًا، ربما إلى الوراء، إلى حيث كانت الحياة مختلفة تمامًا، وحيث يمضي الوقت بشكل مختلف عما يمضي به الآن. لقد أدرك كأنه في

1- إشارة إلى قول المسيح: فَمَنْ مِنْكُمْ، وَهُوَ أَبٌ، يَسْأَلُهُ ابْنُهُ خُبْزًا، أَفَيُعْطِيهِ حَجَرًا؟ أَوْ سَمَكَةً، أَفَيُعْطِيهِ حَيَّةً بَدَلَ السَّمَكَةِ؟ أَوْ إِذَا سَأَلَهُ بَيْضَةً، أَفَيُعْطِيهِ عَقْرَبًا؟ (إنجيل لوقا:11)

2- منطقة على أحد التلال شمال شرق فلورنسا.

حالة استبصار أن حياتنا ما هي إلا جزء من قشرة الحياة. وأن ثمة حياة كانت وحياة ستكون، حياة بشرية لم نبدأ بتصورها. لقد رحل عن البشر الكثير مما كان حياة، تاركًا إيانا مجرد أجزاء مبعثرة. وفي الظلام، في الصمت الواعي وانعكاسات أشجار السرو، أجناس مفقودة، ولغة مفقودة، وطرق إنسانية مفقودة في الشعور والمعرفة. لقد عرف الناس ما لم يعد بإمكاننا أن نعرف، وشعروا بما لم يعد بإمكاننا أن نشعر. حقائق الحياة العظيمة غارت في الظلام. لكن أشجار السرو تحيي ذكراها. في ساعة الأصيل شعر آرون بأن أشجار السرو ترتفع مكفهرة من حوله، مثل طيور مهاجرة قادمة من عالم قديم ضائع، خفي، حيث الناس محاطون بأرواح حارسة عجيبة، بهالات من الشياطين مثل هذه التي ما تزال محيطة بأشجار السرو في توسكانيا.

طوال اليوم لم يقرر ماذا سيفعل. كان دافعه الأول هو عدم رؤيتها مرة أخرى. كانت هذه نيته طوال اليوم. ولكن بينما هو في الترام، عائدًا إلى نزله، هدأ وفكر: كلا، هذا لن يكون عادلًا بعد أن عاملته بكل سخاء.

لقد كانت كريمة معه، أما الشيء الآخر، أي شعوره بعد ذلك بالإنهاك والذبول، فقد كان ناتجًا عن تجربته الشخصية وقدره المحتوم، ولم يكن خطأها. ولهذا عليه أن يراها مرة أخرى. لا يجوز له أن يتصرف مثل فلاح غليظ. لكنه سيخبرها، سيخبرها أنه رجل متزوج، وأنه على الرغم من تركه زوجته، وعلى الرغم من أنه لا يتمسك بعقيدة الإخلاص، فإن سنوات الزواج وسمته بسمة الرجل المتزوج، وأن أية امرأة أخرى غير زوجته هي امرأة غريبة عنه، هي انتهاك لحرمة الزواج. قال لنفسه: «سأقول لها إنني لا أزال أحب لوتي في أعماق قلبي، ولا أستطيع أن أمتنع عن ذلك. أنا أعتقد أن هذا هو الصواب. ربما ليس حبًّا. لكنه زواج. أنا متزوج من لوتي. وهذا يعني أنني لا أستطيع أن أتزوج من امرأة أخرى. إنها ليست طبيعتي. وربما لا أستطيع تحمل العيش مع لوتي الآن، لأنني متزوج ولست واقعًا في الحب. عندما يتزوج الرجل فهو لا يقع في الحب. الزوج ليس عاشقًا. ليلي قال لي ذلك: وأنا أعلم الآن أن هذا حق. أخبرني ليلي أن الزوج لا يمكن أن يكون عاشقًا، والعاشق لا يمكن أن يكون زوجًا، وأن النساء لا يرضين هذه الأيام أن يكون لهن غير العشاق، لا الأزواج. حسنًا، أنا زوج، بعد كل شيء. ولن

أكون عاشـقًا مـرة أخرى، ليس أثناء حياتي. لا، لن أكون عاشـقًا لأحد. ليس فـي داخلي شـيء كهـذا. أنا زوج، وهكـذا انتهى الأمر معي كعاشـق. لم يعد بإمكانـي أن أكـون عاشـقًا بعد الآن، تمامًـا كما لم يعد بإمكانـي أن أكون في العشـرين من عمري من جديد. أنا الآن رجل ولسـت مراهقًا. ومن المؤسف أنني زوج لامرأة تريد زوجًا عاشقًا: عاشقًا على الدوام. لكن كل النساء يردن عشـاقًا. وأنا لا أسـتطيع أن أكون كذلك بعد الآن. لا أريـد ذلك. لقد انتهيت منه. انتهيت منه مرة وإلى الأبد: إلا إذا صرت شيخًا طاعنًا في السنّ.

في اليوم التالي استجمع شجاعته. ولم يكن ليتحلى بالشجاعة لو لم يعلم أنه ليس وحيدًا. كان الرجل الآخر في المدينة، ومن هذه الحقيقة استمد قوته: حقيقة وجود ليلي هناك. لذلك ذهب عند وقت تناول الشاي عبر النهر، وقرع بابهـا. نعم، كانت في المنزل، وكان لديها زوار آخرون. كانت ترتدي فسـتانًا جميـلًا ناعمًـا لفترة ما بعد الظهـر، وكان لونه أزرق أيضًا مثـل زهور الهندباء البرية، أزرق شاحبًا ودافئًا. وكانت تحمل وردة ذرة في حزامها، يعلم الله من أين حصلت عليها.

اسـتقبلت آرون بشـيء من الخجل الطفولـي. كان بإمكانـه أن يقول إنها سعيدة بقدومه، وإنها تساءلت عن عدم مجيئه مبكرًا. قدمته لزوارها: سيدتان شـابتان وسـيدة عجوز وكونت إيطالي مسـن. كانـت المحادثة فـي معظمها باللغـة الفرنسـية أو الإيطاليـة، لـذا كان آرون خـارج نطاق المحادثـة. غادر الزوار في وقت مبكر إلى حد ما، وبهذا خلا المكان لآرون فسألها:

– «أين مانفريدي؟»

– «سوف يأتي قريبًا. في حوالي الساعة السابعة مساءً»

ثم ساد الصمت مرة أخرى.

قال لها:

– «أنتِ ترتدين ملابس جميلة اليوم»

– «حقاً؟» ابتسمت.

لـم يكـن قادرًا قط على فهم ما شـعرت به، وما كانت تشـعر به. لكن كان لديها مسحة تشي بامتلاكها إياه، وهو ما لم يعجبه.

- «سوف تبقى لتناول العشاء الليلة، أليس كذلك؟» قالت.

- «لا، ليس الليلة». ثم أضاف بحرج: «هل تعلمين. أعتقد أنه من الأفضل أن نكون صديقين وليس عاشقين. أنا كما تعلمين لا أشعر بأنني حر. أعتقد أنني أشعر بزوجتي في مكان ما بداخلي. ولا أستطيع فعل شيء إزاء ذلك»

أحنت رأسها وصمتت للحظات. ثم رفعت وجهها ونظرت إليه بغرابة وقالت:

- «نعم. أنا متأكدة من أنك تحب زوجتك»

لقد أذهله الرد إلى حد ما، وأزعجه قول الحقيقة، فقال:

- «حسناً. أنا لا أعرف شيئًا عن الحب. لكن عندما يتزوج المرء لعشر سنوات -وأنا أحبها بالفعل- يظهر نوع من الارتباط أو شيء من هذا القبيل. أعتقد أن نوعًا ما من الاتصال ينمو بيننا، كما تعلمين. وليس من الطبيعي تمامًا كسره. هل تعرفين ما أعنيه؟»

توقفت للحظة. ثم قالت بهدوء شديد، بل بلطف تقريبًا:

- «نعم أعرف. أعرف جيدًا ما تقصده»

تفاجأ حقًّا بإذعانها الناعم. ما الذي رمت إليه؟ وقال:

- «لكن يمكننا أن نكون صديقين، أليس كذلك؟»

- «نعم أتمنى ذلك. أوه، نعم! يا إلهي، نعم! سأشعر بالأسف إذا لم نتمكن من أن نكون صديقين»

بعد هذا الكلام شعر بأن كل شيء على ما يرام، كل شيء على أفضل حال. وعندما عاد مانفريدي إلى المنزل، كان أول صوت سمعه هو صوت الفلوت وغناء زوجته.

قالت له زوجته:

- «أنا سعيدة جدًا بقدومك. هل نذهب إلى غرفة المعيشة ونستمع إلى موسيقى حقيقية؟ هل ستعزف؟»

أجاب الزوج:

- «أحب ذلك»

انظر إليهم الآن وهم في غرفة الرسم الكبيرة، حيث يتدرب آرون والماركيز معًا، والماركيزة تغني أغنية شعبية إيطالية بينما يرافقها زوجها على البيانو. لكن غناءها كان متوتراً وقسرياً إلى حد ما. ومع ذلك، فقد كانوا عائلة صغيرة حقًّا، وبدا الأمر لطيفًا للغاية. تركت الماركيزة الرجلين معًا بأسرع ما يمكن وانتبذت مكاناً جلست فيه لوحدها. مر آرون ومانفريدي بالموسيقى الإيطالية والألمانية القديمة، وجربا شيئًا تلو الآخر، وبدا كأنهما أخوان تمامًا، وهيّآ مقطوعة موسيقية ليعزفاها معًا صباح يوم السبت، بعد ثمانية أيام.

في اليوم التالي، السبت، ذهب آرون إلى إحدى جلسات موسيقى ديل توري الصباحية. كان هناك رباعي وتري وعازف كمان منفرد والماركيز على البيانو. جلس الجمهور، الذي كان يتألف من اثني عشر أو أربعة عشر صديقًا، في أقصى نهاية الغرفة، أو في القاعة الأصغر حجمًا، بينما كان الموسيقيون يعزفون في الطرف الآخر من الغرفة. كانت عائلة ليلي هناك، تاني وزوجها. لكن باستثناء هؤلاء، لم يكن آرون يعرف أحدًا، وكان يشعر بعدم الارتياح. قدمت الماركيزة لضيوفها شطائر صغيرة وكؤوسًا من النبيذ أو المارسالا أو الفيرماوث، حسب اختيارهم. لقد قامت بدور المضيفة على أكمل وجه. كانت مهذبة وبسيطة للغاية، لكنها لا تزال المضيفة التقليدية. غير أن هذا لم يعجب آرون، وكان يرى أن ليلي أيضًا غير سعيد بالمرة، حتى إنه هرب حالما تمكن من ذلك وجر وراءه تاني الساخطة التي كانت تتطلع بشدة إلى السندويشات الصغيرة الممتازة. لكن لا، لقد انسحب ليلي بطريقة فظة، ثم تبعه آرون بأسرع ما يمكن.

– «هل ستأتي للعشاء مساء الغد؟» قالت له مضيفته وهو يغادر. ووافق. لقد استاء حقًّا من رؤيتها كمضيفة تقليدية، تعتني بكل الأشخاص الآخرين بشكل ساحر، وتعامله على أنه مجرد ضيف من بين ضيوف كثر آخرين. لذلك عندما دعته بهدوء في اللحظة الأخيرة لتناول العشاء في اليوم التالي، شعر بالإطراء وقبل على الفور.

كان اليوم التالي هو يوم الأحد –اليوم السابع بعد اجتماعه بالماركيزة– الذي حدث يوم الإثنين. وكان يشعر بالفعل بأنه أقل دراماتيكية في قراره

بالابتعـاد عنها، وأن يكونا مجرد صديقين. لقـد كانت ذكرى المرة الأخيرة تنشـط فيه بالفعل، ليس كتحذير بل كتحريض رهيب. ومرة أخرى سيطرت عليه الرغبة الصريحة بتلك القوة الوحشية الغريبة التي أذهلته وأسعدته معًا.

وبحلول صباح يوم الأحد، كان ارتداده قد استنفد نفسـه، وكان جاهزًا مرة أخرى، متلهفًا مرة أخرى، ولكن أكثر حذرًا هذه المرة. جلس في غرفته وحيـدًا في الصبـاح، يعزف على الفلـوت، يعزف من ذاكرتـه الألحان التي تحبهـا ويتخيل كيف سـيتناغم هو وهي في المسـاء. سـوف يزدهـر فلوته، عصـا هارون، مـرة أخرى بأزهـار قرمزية رائعـة، زنابق فلورنسـا الحمراء. لقد كان الشـغف الذي يكنه لها غريبًا: مجرد رغبة خالصة، ولا شـيء آخر. وهـو ما لـم يعرفه في حياتـه من قبل. في السـابق، كانت هنـاك دائمًا بعض الصفات الفردية ونوع من الرقة الشـخصية. ولكن لا شـيء من هذا هنا. لا يبـدو أنهـا تريد ذلـك. يبدو أنهـا تكره ذلك بالفعـل. لا، كل ما شـعر به هو الرغبـة الصارخة العارية، دون أي ادعـاء. صحيح أن تجربته الأخيرة كانت بمنزلة تحذير له. لقد تكسـرت رغبته ونفسه أيضًا بشكل كارثي تحت ذلك الاختبار. ولكنها لـم تتحطم تمامًا. لقد كان متأهبًا مرة أخرى. وبكل وقاحة الرغبـة القويـة المطلقـة كان يتطلع إلى المسـاء. لأنـه كان يتوقـع تقريبًا أن مانفريـدي لن يكون هناك. لقد قال الضابط شـيئًا عن ضـرورة الذهاب إلى بادوا بعد ظهر يوم السبت.[1]

ذهـب هـارون وهو يثب فرحًـا إلى موعده في السـاعة السـابعة. يمكنك أن تحكـم على مقـدار حزنه عندما وجد مؤلفة إنجليزية مسـنة ومعروفة جدًا ومثقفـة جـدًا ولها علاقـات جيدة جـدًا جالسـة بالفعل في الصالـون. كانت سـاحرة، بشـعرها الأبيض وفسـتانها من الصـوف الأبيض الناعـم والدانتيل الأبيض، مع سلسـلة طويلة من الخرز الذهبي المخرم مثل الفقاعات. كانت سـاحرة بأسـلوبها القديـم أيضًا، كما لـو أن العالـم لا يزال آمنًا ومسـتقرًا مثل حديقـة تتفتـح فيهـا الثقافـة المبهجة والأفـكار المختـارة بمأمن مـن الرياح والطقـس. للأسـف، لم يكـن آرون أكثر وعيـاً بالانهيار الفظ فـي العالـم مما

1- بادوا Padua مدينة في الشمال الإيطالي إلى الغرب من فينيسيا (البندقية)

كان عليه عندما استمع إلى هذه السيدة المفعمة بالحيوية والنشاط، التي تبدو كشابة قادمة من الأيام الآمنة في السبعينيات. بدت كل الثقافة القديمة وأفكار الصفـوة كأنها فقاعـات منفوخة. يا للعجـوز العزيزة كورينا وايـد! لقد بدت كأنهـا لا تزال تنفخ الفقاعـات، وهي تجلس هناك بكل فتنة في ثوبها الأبيض الناعم، وتتحدث بحيوية مشرقة عن تأثير المرأة في البرلمان وتأثير المرأة في العصر البريكلي[1]. اسـتمع آرون مذهولاً، وهو يراقب الفقاعات تطفو حول رأسه، وكاد يسمعها تنفجر.

ولإكمـال الحفلـة وصـل كاتـب مسـن كان فخـورًا بمكانتـه الاجتماعية التافهـة أكثر من فخره بأدبه. إنه في الحقيقة أحد هؤلاء الإنجليز المتعجرفين من الطراز القديم الذين يعيشـون في الخارج. كان يرتدي ملابس أنيقة تمامًا في المسـاء، وكان شـعره الرمـادي ووجهه المتكلف من أكثر الأشـياء تبرجًا التي يمكن العثور عليها في شمال إيطاليا.

- «أوه، سعيدة جدًا برؤيتك يا سيد فرينش. لم أكن أعلم أنك في فلورنسا مرة أخرى. أنت تقوم بهذه الرحلة من فينيسيا كثيرًا. أتساءل إن كنت لا تتعب من ذلك» صاحت كورينا وايد.

- «كلا. طالمـا أن واجبي تجاه إنجلترا يدعوني إلى فلورنسـا، فسـوف آتي إلى فلورنسا. ولكنني لا أستطيع أن أعيش في أية مدينة سوى فينيسيا»

- «لا، أعتقد أنك لا تسـتطيع ذلك. حسنًا، هناك شيء مميز في فينيسيا: عدم وجود شـوارع ولا عربات، والتنقل فـي الجندول. أعتقد أن الأمر برمته أكثر هدوءاً وراحة للنفس»

- «وأقـل إرهاقًـا للأعصـاب، نعـم. وهناك أيضًـا ميزة في الحيـاة كلها. بالطبع أرى القليل من الإنجليز في فينيسيا، فقط العائلات الفينيسية القديمة، كقاعدة عامة»

- «أه نعـم. لا بـد أن يكون ذلـك مثيرًا للاهتمام للغايـة. إنهم لا يزالون حريصين على تميزهم، أعني نبلاء فينيسيا؟» قالت الآنسة وايد.

1- نسبة إلى بريكليس (490 ق.م – 429 ق.م)، أعظم وأشهر رجال السياسة في أثينا القديمة.

- «أوه، حريصـون جـدًا علـى ذلـك. أوه، إلـى درجة كبيرة» قال السـيد فرينش «هذا جزء من سـحرها. فينيسـيا هـي حقًّا حصرية تمامًـا. إنها تقصي العالم حقًّا، وتتحـدى الزمن والحركة الحديثة. نعم، رغم البواخر في القناة، والسياح»

- «هـي كذلـك. هي كذلـك. فينيسـيا مكان منعـزل غريـب. ولا تزال العائـلات القديمـة فخـورة جدًا في هذه الأيـام الديمقراطية. لقـد قيل لي إن لهم آراء عظيمة عن أنفسهم»

قال السيد فرينش:

- «حسنًا. ربما تعرفين هذه السجعة:

'Veneziano gran' Signore

Padovano buon' dotore.

Vicenzese mangia il gato

Veronese tutto matto[1]

- «ما أمتع هذا!» قالت الآنسة وايد. «الفينيسيون سادة نبلاء! نعم، أعلم أنهـم جميعًا مقتنعون بذلك. حقًّا، كم هذا مسـلٍ في هذه الأيام المتقدمة. أن تولد في فينيسـيا يعنـي أن تولد رجلًا عظيمًا! ولكن هـذا يفوق الحق الإلهي للملك»

قال السيد فرينش بلهجة منمقة نوعًا ما:

- «أن تولد سيداً من فينيسيا، يعني أن تولد رجلًا عظيمًا»

- «هل تعتقد ذلك بجدية؟» قالت الآنسة وايد. «حسنًا الآن، علام تبني رأيك؟»

ذكر السيد فرينش الأسس التي بنى عليها رأيه، فقالت:

- «نعـم - هذا مثير للاهتمـام. مثير جدًا. مثل البيزنطييـن تقريبًا، الذين

1- الفينيسيون سادة نبلاء
البيدوفيين أطباء حاذقون
الفنتشيتيون آكلو قطط
والفيرونيّون كلهم مجانين

لبثوا إلى عصور متأخرة. لقد سحرتني آنا كومنينا دائمًا[1]. كم كانت تحتقر زهرة الشمال، وحتى تانكريد![2] وهكذا عائلات فينيسيا الباقية للآن! وأنت، في قصرك على القناة الكبرى: أنت بربري شمالي متحضر بامتزاجك بالطبقة الفينيسية الحاكمة القديمة. يا له من موقف رومانسي للغاية!»

كان من الممتع حقًّا رؤية السيدة العجوز، وهي تناوشه وتسدد له الضربات في مرح، مثل حامل رمح رشيق عجوز: ورؤية العازب العجوز المتأنق عصبيًا ومنزعجًا ومتكلفًا، مثل خادمة عجوز. لكن هل نحتاج إلى القول إن السيد آرون شعر بأنه خارج ما يدور. جلس واستمع وعلى وجهه ابتسامة تهكم صغيرة وفي عينيه الزرقاوين (اللتين بدتا أكثر زرقة) بريق ساخر. لقد جعل المسنين غير مرتاحين لصمته: صمته الديمقراطي، كما قد تسميه الآنسة وايد.

على كل حال، كانت الآنسة وايد تعيش ناحية جالوزو، لذا نهضت مبكرًا لتلحق بالترام. وقام السيد فرينش بشجاعة وبشكل لائق لمرافقتها، لرؤيتها آمنة على متن الترام. الأمر الذي ترك آرون والماركيزة لوحدهما.

- «متى يعود مانفريدي؟» سألها.

- «غدًا»

وحل صمت قصير ثم سألها مجددًا:

- «ماذا يفعل هذان عندك؟»

- «من؟»

- «هذان الشخصان اللذان كانا هنا هذا المساء»

- «الآنسة وايد والسيد فرينش؟ أوه، أنا أحب الآنسة وايد كثيرًا. إنها تنعشني للغاية»

قال آرون:

1- آنا كومنينا (1083-1153) أميرة ومؤرخة بيزنطية. ابنة الأمبراطور البيزنطي أليكسيوس الأول كومنينوس. كتبت كتابها التاريخي أليكسيادا الذي يعتبر أشهر وأهم المصادر عن أحداث فترة حكم الإمبراطور أليكسيوس الأول والحملة الصليبية الأولى.

2- تانكرد Tancred (1075-1112) كان زعيمًا نورمانيًا وأحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وشارك في معركة حصار القدس عام 1099 وأصبح بعدها أميرًا على الجليل وحاكمًا لأنطاكية.

- «كبار السن هؤلاء يلعقون السكر الذي يغلف حبة الحلوى، ثم يستمرون كما لو أن ما يقونه هو حلوى أيضًا، وعلينا أن نبتلع الحبة الجرداء. من السهل أن تكون منعشًا»

- «لا، لا تقل أي شيء ضدها. أنا أحبها كثيرًا»

- «وماذا عنه؟»

- «السيد. فرينش؟ حسنًا، ربما كان يشبه إلى حدٍ ما الأميرة التي أحست بحبة البازلاء من تحت ثلاث طبقات من الريش[1]. لكنه يمكن أن يكون ذكيًا جدًا ومحادثًا ممتازًا أيضًا. أوه نعم، أنا أحبه أيضًا»

قال آرون:

- «إنها مسألة أذواق»

لم يكن لديهما الكثير ليتحدثا فيه. كان الوقت يمر بين توقف وآخر. ثم نظر إلى ساعته وقال:

- «يجب أن أذهب»

- «ألن تبقى؟» قالت بصوت خافت.

- «أبقى طوال الليل؟»

- «هل تفعل؟»

- «نعم» قال بهدوء. لم يكن يشعر بإلحاح رغبته عليه.

ولم تقل المزيد. واكتفت بأن عرضت عليه الويسكي والصودا، فقبلهما.

- «اذهبي إذن وسوف آتي إليك. هل آتي خلال خمس عشرة دقيقة؟»

نظرت إليه مطولاً بعيون داكنة غريبة. ولم يستطع أن يفهم.

1- في إحدى حكايات أندرسن يؤوي أحد الأمراء فتاة تائهة في حالة يرثى لها لكنها تدعي بأنها أميرة حقيقية فيعدون لها سريرًا صُفت فوقه عدة مراتب مريحة ووضعت تحت آخرها حبة بازلاء جافة. وفي الصباح تشتكي الزائرة للأمير والأم الملكة من الأرق وعدم قدرتها على النوم وتقلبها على السرير بسبب حبة البازلاء، فيقتنعان بصدق ادعائها بسبب رقتها وحساسيتها ويتزوج منها الأمير. وفي العديد من حكايات الشعوب قصص مشابهة منها ما رواه الطبري والفردوسي عن النضيرة أميرة الحضر المدللة وخيانتها لوالدها لأجل عشيقها الملك الفارسي المحاصِر سابور الذي يقتلها شر قتلة عندما يعلم بمقدار حب والدها لها.

- «نعم» قالتها وذهبت.

ومـرة أخـرى، في هذه الليلـة كما في السـابقة، بدت صغيـرة على نحو غريب ومتشـبثة بذراعيه. وفي هذه الليلة شـعر بعاطفته تُستل منه كما لو أن عصبًـا حيًـا طويلًا قد انتزع من أحشـائه، خيطًا حيًا طويلًا مـن نار كهربائية، عصبًـا حيًـا طويـلًا يقتلع منه، من جـذور روحـه، دفقًا رفيعًا طويـلًا من نار صافية زرقاء يخرج من قلب روحه. كان الأمر مؤلمًا، ولكنه منحه إحساسًا بالرضا العميق.

نام تلك الليلة بغفلة أعمق من ذي قبل. ولكن آه، مع اقتراب الصباح، كم تمنى لو أنه بمفرده.

يجب أن يبقيا معًا حتى يشرق النهار. وبدا أنها تحب التشبث به والالتفاف علـى صـدره بشـكل غريب. لم يسـتطع قـط أن يتصالح مع تلـك التي كانت مضيفة تسـلي ضيوفها. كيـف يمكنها الآن، في نوع من النشـوة الصغيرة، أن تلف نفسـها وترقد على صدره وتشـابك وجهه بشـعرها بالكامل. كان يعتقد حقًـا أن هـذا هو مـا تريده منـه حقًا: أن تلف نفسـها على صـدره العاري، أن تجعل نفسـها صغيرة، صغيرة، أن تشـعر بذراعيه حولها، بينما هو نفسـه كان بعيـدًا، صامتًـا، لا يمكـن الوصول إليـه بطريقة مـا. بدا أن هذا جعلها تشـعر بالرضا عن نفسـها تقريبًا. ولكن لماذا، لمـاذا؟ هل كان ذلك لأنه من عرقها، وقد زحفت هي إلى موطنها عن طريقه؟

إنـه لا يعلـم. إنه يعلم فقط أن الأمر لا علاقة له به: وأنه لم يكن يريد ذلك إلا من باب اللطف والكياسـة. هذا الأمر نسـف ببساطة اللب من حياته. لقد أفسده ببساطة.

وتمسكت به بشكل أقرب. الغريب أنها كانت تخاف منه! تخاف منه كأنه صنم[1] معبود! صنم تخاف منه، وصنم تغرم به! أم أن خوفها كان مجرد لعبة

(1) في الأصل مثل الفيتش fetish وهو أي شيء (مثل نحت حجري صغير لحيوان) يعتقد أن لديه قوة سحرية لحماية أو مساعدة صاحبه أو شكلًا من أشكال الرغبة الجنسية التي يرتبط فيها الإشباع بقوة بشيء أو نشاط معين أو جزء من الجسم غير الأعضاء الجنسية.

قـط وفأر مبهجـة: كلما كان الخوف حقيقيًا، كانـت البهجة أعظم - نوعًا من انتهاك المقدسات؟ خوفًا وقوة تدنيس خطيرة لما كانت تخافه.

بطريقة ما، لم تكن خائفة منه على الإطلاق. وبطريقة أخرى، اسـتخدمته كمجرد أداة سـحرية، واسـتخدمته في أكثر ما لدى كاهنة من براعة. أما معه، مع الرجل المنفرد فقد تعاملت معه بلامبالاة أذهلته.

ربما نسـي أن هذه هـي الطريقة التي عاملها بها. رغبته الشـديدة بها، ماذا كانت سوى هذه المحاولة نفسها لبعث نار سحرية منها من أجل نشوته؟ لقد كانـا يلعبـان لعبة النار ذاتهـا. ومع ذلك، كان بداخله دائمًـا، واقفًا على حدة، شـيء قاسٍ ومتهور ومتحـدٍّ. لقد اندمجت تمامًا فـي تعاويذها الخاصة. لقد اندمجت تمامًا، مثل كاهنة منهمكة تمامًا في طقوسها الرهيبة. وكان هو جزءًا مـن الطقـوس فقط. الإلـه والضحية معًا. الـرب والضحية! الـرب والضحية علـى الـدوام. وعندما أدركت روحه المنعزلة، وسـط فوضى التعويذة، كيف تم اسـتخدامه، ليس كنفسـه ولكن كشـيء مختلف تمامًا -الرب والضحية- عندها أذهلته المفاجأة الكبيرة، ووقفت روحه النائية شـامخة وعرفت نفسها وحدهـا. لم يكن يريـد ذلك، كلا على الإطلاق. كان يعلـم أنه كان منفصلاً. والتفـت إلـى الـوراء لينظـر إلى سـر علاقتهمـا الغراميـة برمتـه. روحه فقط كانت منفصلة.

لقد أدرك القوة والجمال والشبه الإلهي الذي يشكله صدره حينها بالنسبة إليهـا - السـحر. أما هـو فكان يقـف بعيدًا مثـل مريم أخت موسـى. كانت ستشـرب قطرة واحدة من دم قلبه، فيصبح جيفة. كما قتلت كليوباترا عشاقها في الصباح. من المؤكد أنهم كانوا يعلمون أن الموت كان ذروتهم الوحيدة. لقد اقتربوا من الذروة. فليقبلوا إذن.

لكـن روحه ظلـت منفصلة، ولا يمكن أن يكون لهـا أي علاقة بالأمر. لو كان قـد أغريَ حقًّا لكان قد مضـى، وربما كانت قد ظفرت بدم مهجته. نعم، وألقت الجيفة بعيدًا. ولكان قد رضي بذلك.

ولكـن قـدره كان أن لا يستسـلم للإغـراء. تنحّت روحه بعيـدًا واتخذت قرارهـا. وفـي أعمـاق روحه كان يكرههـا، إن لـم تكـن هي فدوافعهـا كلها،

نمـط حياتها كله. لم يكن الـرب ولا الضحية: ولـم يكن أكبر ولا أقل من ذاته هـو. لقـد اختارت روحه ذلك وهـي في عزلتها إذ هي مسـتلقية على صدره. اختارت ذلك بحتمية الروح. لذلك، لـم يكن هناك إغراء.

وعندما أصبح الضوء كافيًا، قبلها وتركها. بهدوء غادر الشقة الصامتة. لقد واجـه بعض الصعوبة في معالجـة الأقفال والقضبان المختلفة ومزالج الباب الضخـم في الطابق السـفلي، وبدأ يشـعر، في حالة مـن الانزعاج والغضب، بأنه سـجين وحبيـس. لكن الباب الثقيـل انفتح فجأة فخرج. وجد نفسـه في الشـارع وأُغلق الباب خلفه بقوة وهو يرتجف. وها هو في شـوارع فلورنسـا في الصباح.

الفصل العشرون

العصا المكسورة

كان يومًا ماطرًا. مكث آرون لوحده داخل النزل، ونسخ النوتات ثم نام. لقد انتابه نفس الشعور بالذهول والذبول كما حدث من قبل، ولكن بشكل أقل حدة وكارثية هذه المرة. قد عرف الآن، دون جدال أو تفكير، أنه لن يذهب مرة أخرى إلى الماركيزة: ليس كعاشق بأية حال. لسوف يبتعد عن كل ذلك. لم يكرهها. لكنه لن يراها مرة أخرى. لقد انفتحت هوة عظيمة، وتركته وحيدًا على الجانب البعيد.

ولم يخرج إلا بعد العشاء. وعندما نزل إلى الطابق السفلي وجد الباب الليلي الثقيل مغلقاً. تساءل عن السبب، ثم تذكر خوف السيدة من أعمال الشغب والاضطرابات. وعندما انهمك مجددًا في فتح المزاليج بطريقته الخرقاء شعر أن أبواب فلورنسا تحاول منع تحرره. لكنه خرج رغم ذلك.

كانت ليلة قاحلة حالكة السواد، حوالي الساعة التاسعة. أذهله الطابع المهجور الغريب لجو المدينة. لكنه لاحظ أمامه، عند أسفل التمثال، ثلاثة رجال، أحدهم يحمل شعلة: شعلة طويلة بلهب مكشوف. كان الرجال ينحنون فوق شيء مظلم، وكان الرجل الذي يحمل الشعلة ينحني للأمام أيضًا. إنها مجموعة صغيرة غامضة وغريبة، مثل فلورنسا في العصور الوسطى. وبقي آرون على عتبة بابه يراقب. لم يتمكن من رؤية ما يفعلونه، لكن الاثنين كانا الآن جاثمين على جسم طويل غير واضح المعالم على الأرض، وكان الشخص الذي يحمل الشعلة ينحني أيضًا لينظر ما الذي ينظرون إليه؟ لبثوا عند قاعدة التمثال، مجموعة صغيرة مبهمة تحت التمثال

الكبيـر ولهيـب الشـعلة يومض بشـكل غريـب بينما حامـل الشـعلة يتحرك وينحني نحو الرجلين الرابضين، اللذين بديا راكعين.

اضطـرب آرون. ثمة شـيء مبهم وخفـي وغامض في المشـهد الصغير. مـن الواضح أن الرجـال لم يرغبوا في لفت الانتباه، فقـد كانوا هادئين للغاية ومتحوطيـن علـى ما يبدو. غريـزة غامضة غريبـة منعت آرون مـن الاقتراب للنظر، فاختار أن ينحرف إلى فندق لنغارنو، وسـار على طول الجزء العلوي مـن السـاحة، متجنبًـا المـرور وسـط المجموعة الصغيرة. سـار في الشـارع المهجور المظلم بجوار النهر، ثم اتجه نحو الداخل، نحو المدينة. كان ذاهبًا إلى سـاحة فيتوريا إيمانويل للجلوس في المقهى الذي يمسـي قلب فلورنسا في سـاعات الليل. هناك يمكنه أن يجلس لساعة ويشرب النبيذ ويتفرج على الفلورنسيين.

وبينما هو يسير في أحد الشوارع المظلمة والضيقة إلى حد ما، سمع وقع أقـدام تسـرع خلفه. ونظر إلـى الوراء فرأى حامل الشـعلة مهـرولاً باتجاهه، رافعًا شـعلته المتقدة أمامه في منتصف الشـارع المظلم الضيق. التصق آرون بالجـدار. اقترب حامـل الشـعلة، ورأى آرون الآن الرجليـن الآخرين يدبّان وراءه ببطء وحذر، حاملين نقالة ملفوفة عليها جثة مغطاة بالكامل. مر حامل الشـعلة، ومضى الرجـلان اللذان يحمـلان النقالة أيضًا في عجالة وخلسـة، وكشـفت عنهـم النار المتلألئة. لـم ينتبها إلى آرون، لم ينتبها لأي شـيء، بل سـارا بهدوء نحو وسـط المدينة، وتردد صدى خطواتهما الغريبة والسـريعة على مسافة بعيدة. ثم واصل آرون طريقه.

وصـل إلى المقهى الكبير السـابح في الضوء. إنه مسـاء الأحد، والمكان غـاص بـرواده. كان العديـد من الفلورنسـيين يجلسـون في حلقـات، أو في مجموعـات مـن اثنين أو ثلاثـة حول الطـاولات الرخامية الصغيـرة. وكانوا فـي معظمهم يرتدون ملابس داكنة أو معاطف سـوداء ويشـربون في الغالب فنجاناً من القهوة فقط، بينما يحتسي آخرون كؤوسًا من النبيذ أو الخمر، لكن الغالب هو مجـرد صينية قهوة صغيرة بها ركوة صغيرة وفنجان وصحن. ثمة طبقة باهتـة من دخان التبغ، والرجال جميعًا يتحدثـون، يتحدثون، يتحدثون بتلـك الحـدة الغريبـة التي يتحـدث بهـا الفلورنسـيون. شـعر آرون بالرجع

المكثف المضغوط للعديد من الأصوات شبه السرية، لأن تلك الأزواج والمجموعات الصغيرة من الرواد خفضوا أصواتهم عمداً كي لا يسمع الآخرون ما يقولون.

كان آرون يبحث عن مقعد شاغر -لم يجد طاولة له- عندما أمسكه أحدهم فجأة من ذراعه. إنه أرجايل.

- «تعال الآن! تعال وانضم إلينا. من هنا! تعال»

ترك آرون نفسه ليُقاد نحو الزاوية. جلس هناك ليلي ورجل غريب اسمه ليفيسون. كانت الصالة دافئة. لم يعتد آرون قط على تحمل الحر الشديد فقام بعد دقيقة وخلع معطفه وعلقه على مشجب بالقرب من النافذة. وبينما هو يفعل ذلك، شعر بثقل فلوته الذي لا يزال في جيبه. وتساءل إذا كان من الآمن تركه هناك وقال وهو يجلس:

- «لا أعتقد أن أحدًا سيسطو على جيوب المعطف»

قال أرجايل:

- «يا عزيزي، سوف يسرقون الحشوة الذهبية من أسنانك إذا تثاءبت. لماذا، هل تركت أشياء ثمينة في معطفك؟»

- «الفلوت»

- «أوه، لن يسرقوا ذلك»

قال ليلي:

- «إلى جانب ذلك، سوف نرى أي شخص يلمسه»

وهكذا جلسوا إلى نبيذهم.

قال أرجايل:

- «حسنًا، ماذا كنت تفعل، ها؟ لم ألمحك منذ أسبوع. هل كنت تتردد على الكلاب؟ ها؟»

- «أو الكلبات» قال آرون.[1]

- «أوه، ولكن انظر هنا، هذا سيئ! هذا سيئ! أستطيع أن أرى أن

1- لاحظ أن كلمة bitch تعني الكلبة والعاهرة معًا.

علـيّ أخذك بيدي والشـروع في عملـي الإصلاحي. أوه، أنـا مصلح عظيم، زوينجلـي وسـافونارولا فـي رجل واحد[1]. لـم أتمكن من إحصـاء عدد من قدتهـم إلـى الطريق الصحيح. يسـتغرق الأمـر بعض البحث، كمـا تعلمون. ضيـق هو البـاب – ضيق إلى حد اللعنـة أحيانًا. ضيق إلى حـد اللعنة[2] كان أرجايل مخموراً بعض الشـيء. تحدث بقليل من التداخل، وضحك مبتهجًا بنكاته. ابتسـم ليفيسـون ميالاً إلى القبـول، لكن ليلي لم يكن مسـتمتعًا فظل ذاهلاً معقود الجبين، حتى إنه لاحظ بالكاد وصول آرون.

– «هل رأيت المعركة بالأمس؟» سأل ليفيسون.

أجاب آرون:

– لا ماذا حصل؟»

– «إنهـم الاشـتراكيون. كانـوا يتظاهـرون احتجاجًـا علـى سـجن أحد المضربيـن فـي السـكة الحديديـة. كنـت هنـاك. لقـد سـاروا على مـا يرام، بكثيـر من الاسـتهزاء والزعيق: حشـد من الشـباب المغفلين، كمـا تعلمون. أغلـق أصحاب المتاجـر متاجرهم، ولم يُظهـر أحد العلـم الإيطالي بالطبع. حسـنًا، عندما وصلوا إلى شـارع بينيديتو كروتشـه[3] كان هناك عدد قليل من خيّالـة الكارابينيـري الذين أوقفـوا الموكـب، وقال الرقيب إن الحشـد يمكنه الاسـتمرار والمضي قدمًا حيثما يريد، على أن لا يسيروا في شارع فيروكيو[4] لأنه قيـد الإصلاح والطريق مقلوب بالكامل وبه أكـوام من الحجارة الكبيرة

هولدريخ زوينگْلي (1484-1631) زعيم إصلاحي سويسري. جيرولامو سافونارولا: رجل دين وسياسي إيطالي، ينتمي إلى نظام الرهبان الدومينيكان. كان زعيم فلورنسا منذ عام 1494 حتى إعدامه حرقًا في عام 1498

2- «اُدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ، لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلى الْهَلاَكِ، وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ! مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَه» إنجيل متى 7: 13-14.

3- بينيديتو كروتشه (1866-1952) فيلسوف مثالي ومؤرخ وسياسي إيطالي، تناول موضوعات عديدة في كتاباته، من بينها الفلسفة والتاريخ وعلم التأريخ والجماليات.

4- نسبة إلى أندريا دِل فِرّوكيو (1435-1488) وهو نحات ورسام وصائغ شهير تدرب على يديه ليوناردو دافنشي وغيره.

التي قد تشكل إغراءً وتؤدي إلى المتاعب. لذا على المتظاهرين ألا يسلكوا هذا الطريق -بإمكانهم أن يسلكوا أي طريق آخر يريدونه. حسنًا، في اللحظة التي انتهى فيها من حديثه، دوّت طلقة مسدس، فصرخ وسقط إلى الأمام فوق أنف حصانه. لقد أطلق عليه أحد الفوضويين النار. ثم خرجت الأمور عن السيطرة وردت الشرطة بإطلاق النار، وأخذ الناس يندفعون ويقاتلون ويكرون مثل الشياطين. لقد نأيت بنفسي عنهم، لكن يا إلهي- ما رأيك في ذلك؟»

قال آرون:

- «كان هذا تصرفًا لئيمًا منهم»

- «لئيم! لقد أحسنت وصفهم. كان بإمكانهم أن يذهبوا إلى حيث يريدون على أن يمتنعوا عن المرور بذلك الطريق الوحيد، بسبب أكوام الحجارة. لكنهم تركوه يكمل كلامه، ثم ضربوه بالرصاص»

- «هل مات؟» سأل آرون.

- «نعم، قُتل على الفور، كما تقول صحيفة الأمة[1]»

حلت برهة من الصمت، وواصل الشاربون في المقهى الحديث بحماس شديد ونظرات قلقة.

قال أرجايل:

- «حسناً، إذا أطلقتَ كلاب الحرب، فلا تتوقع منها أن تستكين في غضون خمس دقائق»

قال ليفيسون:

- «لكن هذا ليست فيه ذرة إنصاف»

- «آه، يا صاحبي العزيز، أما زلت فتى غِرّاً وساذجاً كي تصدق وهمًا اسمه الإنصاف؟» قال أرجايل.

- «نعم»

- «عش طويلًا وازدد حكمة» قال أرجايل متهكمًا.

1- Nazione واحدة من أقدم الصحف المحلية في إيطاليا، تأسست عام 1859.

- «هل أنت اشتراكي؟» سأله ليفيسون.

- «عمتي تابيثا تملك كلبة داشـهوند[1] اسـمها بيلا» قال أرجايل بصوته المموسـق اللامبالي «نعم، اسـمها بيلا. وإذا كان بوسـعك أن تخبرني باسـمٍ ألعن من هذا لكلب، فسوف أصغي باهتمام. أؤكد لك»

قال آرون:

- «لكن ليس لديك عمة تدعى تابيثا»

- «حقـاً؟ أوه، أليس لدي؟ بلى، لـدي عمتان تدعيان تابيثا - إن لـم يكن أكثر»

- «إنهمـا لا تشـكلان أهميـة كبيرة بالنسـبة لـك، أليس كذلـك؟» قال ليفيسون.

- «مطلقًـا، لولا أن عمتي الكبرى تابيثا قد عمّدت كلبتها الألمانية باسـم بيـلا. لقد انقطعت عن العائلـة بعد ذلك. أوه، لقد قلبت صفحة جديدة، دون اسم عائلة. لم أتمكن من تحمل بيلا بينهم»

قال ليلي وهو يضحك:

- «لابد أنك قد صفيت مشروبك من معظم البعوض يا أرجايل»[2]

- «بـكل اجتهاد! بكل مواظبة! لا أسـتطيع تحمل هـذه الهوام الصغيرة المؤذيـة. أوه، أنـا لا أبالـي قط بابتـلاع جمـل أو اثنين، أو حتـى قطيع كامل من الجمال العربية. كم يبدو ذلك شرقيًا وساحرًا! لكن البعوض! لا أستطيع ابتلاع واحدة مقابل أي شيء في العالم»

- «لكنك اشـتراكي بعض الشـيء، أليس كذلك؟» أصر ليفيسـون وقد تحول الآن إلى ليلي.

- «لا لقد كنت كذلك» قال ليلي. وقال أرجايل ساخرًا:

- «وأنـا أيضًـا لم أعد كذلـك يا صديقي العزيز. الأمـل الوحيد لخلاص العالم يكمن في إعادة العبودية»

1- الدَّشْهوند وتعني كلب الغُرَير سلالةٌ من سلالات الكلاب القصيرة الأرجل والطويلة الجسم.

2- أيها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل (إنجيل متي 23-24)

- «أي نوع من العبودية؟» سأل ليفيسون.

- «عبودية! عبودية! عندما أقول العبودية لا أقصد أيًا من إصلاحاتك الحديثة المرائية اللعينة. إنني أعني العبودية السليمة الصلبة التي ارتكز عليها العالم اليوناني والروماني. عوالم أرقى بكثير من عوالمنا يا عزيزي! أوه أفضل بكثير! ولا يمكن أن يتم ذلك بدون العبودية. ببساطة لا يمكن القيام بذلك - أوه، سوف يدركون ذلك جميعًا عندما يرون المزيد من أفعال عاملات الغسيل الديمقراطية هذه»

كان ليفيسون يضحك وينخر بنوع من السخرية، ثم قال:

- «على أية حال، ليس هناك خطر مباشر من - أو أمل في (إذا كنت تفضل ذلك) إعادة ممارسة العبودية الكلاسيكية»

- «لا، للأسف» قال أرجايل «نحن جميعًا حمقى»

- «علاوة على ذلك، من هؤلاء الذين ستجعل منهم عبيدًا؟»

- «الجميع، يا فتاي العزيز: بدءًا من المثاليين والمنظرين اليهود، ومن بعدهم أصحابكم السادة ذوو التربية العالية، وبعد ذلك ربما استغلاليوكم وآل روتشيلد[1] وجميع السياسيين، وينتهي الأمر بالبروليتاريا»

- «إذن من سيكون السادة؟ أعني الطبقات المحترفة والأطباء والمحامين وما إلى ذلك؟»

- «ماذا؟ سادة. سيكونون عبيد المجاري، باعتبارهم أكثر من يصدرون الروائح»

سادت لحظة من الصمت. ثم قال ليفيسون بلهجة لاذعة إلى حد ما:

- «الخطأ الوحيد الذي أراه في نظامك هو أنه سيكون هناك سيد واحد فقط، وكل الآخرين عبيدًا»

- «هل تسمي هذا خطأ؟ ماذا تفعل بأكثر من سيد؟ هل تطلب الكثير منهم؟ حسنًا، ربما كانت هذه خدعة ماكرة - إنهم شياطين ماكرون، شياطين

1 - عائلة رتشيلد (وتلفظ روثتشايلد في الإنكليزية) هي عائلة يهودية ثرية أصلها من فرانكفورت.

ماكـرون، هؤلاء العبيـد المنظّرون» ودفع أرجايل وجهه بنظرة شـيطانية نحو وجـه آرون «شـياطين ماكرون!» كرر ذلك، مع غمغمـة ثمالة طفيفة «لـم يكن إبكتاتوس الملوث[1] هو الأخير منهم، ولا الأول. أوه، أبدًا، أبدًا»

هنـا لم يسـتطع ليلي أن يتجنـب نوبة طفيفة من الضحك، فقال ليفيسـون وهو يدير وجهه الشاحب إلى ليلي:

– «لكـن فلنعـد إلـى الحديث الجـاد. أعتقد أنك سـتتفق معي على أن الاشتراكية هي الخطوة الحتمية التالية...»

انتظر ليلي لبعض الوقت دون كبير اهتمام بالسؤال ثم قال:

– «أفترضُ أنها الخطوة التالية التي لا مفر منها منطقيًا»

صاح أرجايل بقسوة:

– «استخدمِ المنطق ورقًا للمرحاض»

– «نعـم، لا مفـر منـه منطقيًا، ولا مفر منه إنسـانيًا في نفـس الوقت» قال ليفيسون «لا بد أن يأتي شكل من أشكال الاشتراكية، بغض النظر عن تأجيله أو تجربة أشكال مختلفة»

قال ليلي:

– «حسنًا، دعها تأتي. الأمر لا يعنيني. ليس من شأني أن أساعدها ولا أن أحافظ عليها، أو حتى أن أحاول تغييرها»

قال ليفيسون:

– «هنا أنا لا أتبعك. لنفترض أنك كنت في روسيا الآن...

– «أنا لست هناك. أنا أكتفي بالتفرج»

– «لكنـك فـي إيطاليا، وهي ليسـت بعيدة. لنفترض أن ثورة اشـتراكية تحـدث فـي كل مـكان من حولـك. ألن يفرض ذلـك عليك المشـكلة؟ إنها مشكلة كل إنسان» أصر ليفيسون.

– «ليست مشكلة بالنسبة لي» قال ليلي.

1- أبكتاتوس فيلسوف رواقي روماني، قال إن منبع السعادة هو النفس لا الأشياء الخارجية. ودعا إلى الإخاء. وهو ينتمي إلى المدرسة الفلسفية التي أسسها زينون الرواقي صاحب نظرية المدينة الكونية. كان عبدًا لأفروديت عتيقة نيرون.

- «كيف يمكنك التهرب منها؟» قال ليفيسون.

- «لأنه لا توجد مشكلة بالنسبة لي. أن تتبلشف أو لا تتبلشف، لا يمثل هـذا في رأيي أية مشـكلة. ليسـت أكثر من أن تكـون أو لا تكون. أن تكون أو لا تكون هي ببساطة ليست مشكلة»

- «كلا بالطبـع، أنـا أوافق تمامًـا على أنه بما أنك موجـود بالفعل، وبما أن الموت أمر لا مفر منه في نهاية المطاف، فإنَّ أنْ تكون أو لا تكون ليسـت مشـكلة حقيقيـة. لكن هذا التشـبيه لا ينطبق على الاشـتراكية. وهذه ليسـت مشـكلة وجـود، بل مشـكلة نمط معيـن من الوجـود جعلته قرون مـن الفكر والعمـل من جانب أوروبا الآن أمرًا لا مفر منه منطقيًا بالنسـبة إليها. وبالتالي هناك مشـكلة. هناك أكثر من مشـكلة، هناك معضلة. إما أن نصل إلى النتيجة المنطقية أو – »

قاطعه ليلي:

- «إلى مكان آخر»

- «نعـم نعم. بدقة! ولكن إلى أين؟ هذا هو نصف المشـكلة: لنفترض أنـك لا توافـق علـى التقدم المنطقـي في النشـاط الاجتماعي البشـري، لأن المجتمـع البشـري على مـر العصـور لا يمثل في نهايـة المطـاف إلا التطور المنطقي لفكرة معينة، بشكل متقطع ولكن لا مفر منه»

- «حسـناً إذن، أقـول لك: لقد ماتت الفكرة، والمثل الأعلى بالنسـبة لي يشبه جثة متفسخة»

- «أية فكرة، وأي مثل أعلى على وجه التحديد؟»

- «مثَلُ الحبِ، مثَل أن العطاء أفضل من الأخذ، مثل الحرية، مثل الأخوة البشـرية، مثل قدسية الحياة الإنسانية، مثل ما نسـميه الطيبة والمحبة، الخير، الإحسان، الروح الجماعية، المثل الأعلى للتضحية من أجل قضية ما، المثل الأعلى للوحدة والإجماع -كلها معًا، كل خلية النحل من المثل العليا- كلها أصيبـت بمـرض النحل الحديـث، وتعفنت، وأنتنـت. وعندما يكـون المثل ميتًـا ومتعفنًـا يصبح التسلسـل المنطقي هـو النتانة فقـط. هذه، بالنسـبة لي، هي الحقيقة فيما يتعلق بمثل الإنسـانية الطيبة المسـالمة والمحبة وتسلسـلها

المنطقي نحو الاشتراكية والمساواة وتكافؤ الفرص أو أي شيء آخر تحبه. إنه سيكون قد أنتَن بحلول هذا الوقت - وأنا آسف لأي كريستوس يعيده إلى الحياة من جديد، كي ينتن وهو حي لثلاثين عامًا أخرى: ذلك الأليعازر الكريه لمثاليتنا»[1]

- «قد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لك»

- «لكن ليس صحيحًا بالنسبة لأي شخص آخر» قال ليلي «إنه أسوأ شيء بالنسبة لهم. دعهم يموتون بداء النحل»

- «هذا ليس كل شيء» أصر ليفيسون «ولكن ما هو البديل لديك؟ هل هي مجرد عدمية؟»

أجابه ليلي:

- «إن بديلي ليس بديلاً لأحد سواي، لذا سأبقي فمي مغلقًا بشأن هذا الأمر»

- «هذا ليس عدلاً»

- «أقول لك إن فكرة العدالة كريهة الرائحة لدى البقية. لستُ ملزمًا بأن أقول ما أعتقده»

- «بلى، إذا دخلت في نقاش، فأنت ملزم...

- «باه، إذن هبني لم أدخل في نقاش. الشيء الوحيد هو أنني أتفق بشكل عمومي مع أرجايل. يجب أن يكون لدينا نوع من العبودية مرة أخرى. الناس ليسوا بشراً: إنهم حشرات وآلات، ومصيرهم هو العبودية. إنهم كثيرون جدًا في نظري، لذا فإن ما أعتقده غير فعال. ولكن في نهاية المطاف سيتم التوصل إلى اتفاق -بعد ما يكفي من الإبادة- وبعد ذلك سوف يختارون لأنفسهم عبودية سليمة وصحية وحيوية»

- «أود أن أعرف ماذا تقصد بالعبودية. لأنه من المستحيل بالنسبة لي أن تكون العبودية صحية وحيوية. يبدو أن لديك فكرة أخرى في ذهنك، وأنت تستخدم كلمة العبودية فقط من باب السخط»

1- هو، استنادًا إلى إنجيل يوحنا، رجل أعاده المسيح (الذي يسميه هنا باسمه اللاتيني القديم أي كريستوس) إلى الحياة بعد أربعة أيام من موته.

– «لكننـي أعنيها رغم ذلك. أعني إيداع مسـألة حيـاة الكائنات الأدنى بيد كائن متفوق»

قال ليفيسون ساخرًا:

– «سوف يتطلب الأمر قليلًا من معرفة من هو الأدنى ومن هو الأعلى»

– «أبدًا. مكتوب بين حاجبي الإنسان ما هو»

– «أخشى أن كل منا سيقرأ هذا المكتوب على طريقته»

– «طالما أننا كاذبون»

– «وإذا وضعنا هذا السؤال جانبًا: أفترض أنك تقصد أن هذا التنازل عن مسـألة حياة الكائنات الأدنى لشـخص أعلى يجب أن يتم طوعًا – وهو نوع من الهدية الذاتية الطوعية من جانب الكائنات الأدنى»

– «نعم –بهذا القدر أو ذك. قبول طوعي. لأنها ليسـت هدية جميلة على أيـة حال. ولكن بمجرد تقديمها يجب التمسـك بها بقـوة حقيقية. أوه نعم– ممنوع اللعب والعبث بها. بقوة دائمة وفعالة للغاية»

– «هل تقصد القوة العسكرية؟»

– «نعم بالطبع»

وهنا ابتسم ليفيسون ابتسامة طويلة وبطيئة ذات مسحة خفية من السخرية. بـدا له كل ذلـك ادعاءً منافيًا للعقـل صادرًا عن ذهن مصـاب بجنون العظمة – شـخص قد تشعر البشرية بالرضا لإيداعه السجن أو مستشفى للمجانين بعد فترة من الوقت. وشـعر ليفيسـون بالقوة، بالقـوة الاجتماعية الهائلة التي يتسـلح بها (على الرغم من عدم أهميته الشخصية) ضد مثل هذه الادعاءات الإجرامية المعتوهة التي سـمعها. السجن أو مستشـفى المجانين. والتمعت في وجه الرجل تانك الماكنتان الرافضتان الساخطتان وقال:

– «سوف يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تحظى عقائدك بالقبول»

– «القبـول! سـأكون آسـفًا لـو حصل هـذا. لا أريـد لكثير مـن الخنازير أن تتحسسـني وتتشـممني معلنة قبولها –باه، يا ليفيسـون– يمكن للمرء أن يخدعك بسهولة. هل تعتبر ما قلتُ إنجيلاً لي؟»

– «ظننتك جادًا فيما تقول»

وهنا اقتحمت وجه ليلي تلك الابتسامة المرحة الغريبة. وأعلن قائلًا:

- «لكنني سأقول العكس تمامًا بنفس القدر من الحماس»

- «هل تريد القول إنك لا تقصد ما كنت تقوله؟» قال ليفيسون وقد بدا الآن غاضبًا حقًّا. فأجاب ليلي:

- «حسنًا، سأخبرك بالحقيقة الفعلية. أعتقد أن كل إنسان هو فرد مقدس جليل لا يمكن انتهاكه أبدًا؛ أعتقد أن هناك شيئًا واحدًا فقط أكرهه حتى الجنون، وهو التنمر. إن رؤية أي كائن حي يتعرض للتنمر، بأي شكل من الأشكال، يدفعني للقتل. هذا صحيح. هل تصدق ذلك؟»

- «نعم»، قال ليفيسون على مضض «قد يكون هذا صحيحًا أيضًا. إن لديك، دون أدنى شك طبيعة معقدة مثل معظمنا، وهي...

كرااش!

قاطعتهم دقيقة رهيبة من الصدمة العنيفة، تخبطت الروح فيها في الظلام.

كانت صدمة أشعرت آرون بأنه يتقلب وسط كتلة من الأحاسيس الرهيبة: الضربة المخيفة للانفجار، ضجيج الزجاج، صراخ الناس الأجش، اندفاع الرجال، الهوة المفاجئة، دوامة الرعب التي تبتلع كل الحياة الاجتماعية.

ووقف في ألم مبرح، شبه أعمى وسط الفوضى. وعندما بدأ يستعيد وعيه وجد نفسه واقفًا بجوار عمود على بعد مسافة من المكان الذي كان يجلس فيه. رأى مكانًا كانت كل الطاولات والكراسي فيه مقلوبة رأسًا على عقب وأرجلها في الهواء، وسط شظايا الزجاج والحطام. رأى المقهى خاليًا تقريبًا، وقد غادره الجميع. ورأى المالك، أو المدير، يتقدم مذعورًا إلى مكان الحطام: رأى ليلي واقفًا على مسافة غير بعيدة، شاحبًا مثل الملاءة، كمن فقد وعيه ولم يزل دون أية فكرة عما حدث. ربما اعتقد أن شيئًا ما قد انهار. لم يستطع أن يفهم.

أخذ ليلي ينظر في ما حوله. ولفت انتباه آرون الذي بدأ بالاقتراب منه وسأله:

- «ما هذا؟»

- «قنبلة»

وتقـدم المدير ونـادل عجـوز وثلاثة أو أربعة شـبان إلى مـكان الحطام. ورأى آرون رجـلًا يرقـد هنـاك، وكان الدم يسـيل علـى أرضيـة المقهى. بدأ الرجـال بالعودة إلى المكان على عجل. التقط البعض قبعاتهم وغادروا على الفور، لكن الكثيرين بدأوا بالتجمهر. وأخذ حشد أسود متحمس من الرجال يتجـه نحو المكان الذي انفجرت فيه القنبلـة حيث يرقد الرجل. كان المكان مظلمًـا إلـى حدٍ مـا، تحطمت بعض المصابيـح لكن بقي هناك مـا يكفي من الضوء. اندفع الرجال بتلك الحماسـة المتلهفـة للناس عندما يقع حادث ما، وتقـدم الكارابينيري الرماديون، ورجال كارابينيري آخرون ذوو قبعات مزينة بريش الديوك وزي خاص بيوم الأحد إلى الأمام بطريقة نظامية.

قال ليلي:

- «دعنا نذهب»

وذهب إلى الزاوية البعيدة، حيث علقت قبعته. لكن آرون بحث عبثاً عن قبعته. سقطت القنبلة بالقرب من المشجب الذي علقها فيه مع معطفه.

- «قبعتي ومعطفي؟» قال لليلي.

وقـف ليلي، الذي لـم يكن بالغ الطـول، على أطراف أصابعـه. ثم صعد على كرسـي ونظر حوله. ثم تخطى الحشد تبعه آرون. وعلى الجانب الآخر من الحشـد، كان هناك رجال غاضبون متحمسـون يتصارعون على معاطف اختلطت بسـطوح الطاولات الرخامية المهشـمة. أبصر آرون قبعته السـوداء تحـت الأريكـة القريبة من الحائط وانتظـر دوره، ثم تقدم للأمـام نحو مكان المعاطـف وهـو فـي حالة من الارتبـاك. كان أحدهـم قد انتزع معطفـه ملقيًا معطـف آرون علـى الأرض لتدوسـه الأقدام. نجح بعد جهد فـي انتزاعه من تحت أقدام الناس وتحسسـه على الفور باحثًا عن فلوته. لكن جيوب معطفه الممـزق والمداس كانت خالية، فتدافـع وكافح حتى رأى جزءًا منه والتقطه. لكنـه كان محطمـاً تمامًـا وقـد تمزقت منـه سـدادتان فضيتان وقطعـة طويلة ورفيعة من الخشـب بشـكل غريـب. نظر إليه فتوقف قلبـه. لا حاجة للبحث عن الباقي.

شـعر بأنه مهزوم تمامًا، كما لو أنه لم يعد يبالي بما سيحدث له بعد الآن. مـا عاد يفرق لديه إن أصيـب بقنبلة، أو ألقى هو نفسـه القنبلة التالية وأصاب شـخصًا ما. لم يعد يهتم بأي شـيء في الحياة أو الموت. وكأن زمام حياته قد أفلت من يديه، ليترك كل شيء يجري حيثما كان، طالما أنه يجري.

ثم انتبه إلى عيون ليلي المسلطة عليه، فانضم تلقائياً إلى الرجل الصغير.

قال ليلي:

- «دعنا نذهب»

وشـقا طريقهما عبر الباب. كانت الشـرطة قد بدأت بالتقدم عبر الساحة. سـار آرون وليلي في الاتجـاه المعاكس ورأيا مجموعات مـن الناس تراقب مـا يجري. وفجأة انحرف ليلي، فقد التمعت فـي منتصف الطريق بقعة كبيرة سـوداء مـن الـدم يسـيل منها خيـط رفيع بشـع؛ لقد هـرب رجـل جريح من الانفجار ثم سقط ها هنا.

لـم يعـرف آرون إلـى أيـن يذهـب. ولكن ليلـي اسـتدار نحو نهـر أرنو، وسرعان ما وصلا إلى جسر سانتا ترينيتا.

- «من ألقى القنبلة؟» سأل آرون.

- «أفترض أنه أحد الفوضويين»

- «الأمر سواء»

انحنـى الرجـلان، كما لـو كانا غيـر قادرين علـى مواصلة المشـي، على الحاجز العريض للجسـر ونظرا إلى الماء في ظلام الليل السـاكن المهجور. كان آرون لا يزال يحمل كسرة الفلوت في يده، ومعطفه فوق ذراعه.

- «هل هذا فلوتك؟» سأل ليلي.

- «كسرة منه. لقد تحطم»

- «دعني أنظر»

فنظر إليه ثم أعاده. وقال:

- «لم يعد صالحًا لشيء»

- «أوه، لا» قال آرون.

- «ألقه في النهر يا آرون»

التفت آرون ونظر إليه فكرر ليلي:

- «ارمه في النهر. إنها النهاية»

أسـقط آرون الفلوت في النهر برباطة جأش. وقف الرجلان متكئين على حاجز الجسر، كأنهما غير قادرين على الحركة، وقال ليلي:

- «علينا أن نعود إلى المنزل. قد تسمع تاني بالأمر وتشعر بالقلق»

كان آرون مصعوقًـا مـن حادثة الليـل: فقدان فلوته. كانـت هذه ضربة لم يتوقعها. كانت خسـارة رمزية كبيرة بالنسبة له. لقد تناغمت مع رنين شيء ما في روحه: القنبلة، الفلوت المحطم، النهاية. وقال لليلي:

- «هذا مصير عصا هارون إذن»

- «لسـوف تنمـو مرة أخـرى» قال ليلـي دون كبير اهتمـام «إنها قصبة، نبات مائي، لا يمكنك قتلها»

- «وأنا؟»

- «عليك في هذه الأثناء أن تعيش من دون عصا»

ولـم يعلق آرون على هذه الملاحظة اللطيفة.

الفصل الحادي والعشرون

كلمات

ذهب إلى نزله لينام، ورأى حلمًا غريبًا. حلم أنه في بلد لا يعرفه. لقد حل الليل ولم يكن لديه مكان ينام فيه. فمر بفتحة شيء يشبه الكهف أو المنزل، تجلس فيه امرأة عجوز. وهكذا دخل إليه. لم يكن يفهم اللغة، إلا أن نفسه الثانية كانت تفهم. كان الكهف مسكنًا، والرجال يعودون إليه من العمل. افترضت نفسه الثانية أنهم عمال مناجم القصدير.

تجول بقلق ذهابًا وإيابًا، ولم ينتبه إليه أحد على وجه التحديد. وأدرك أن هناك بلدًا شاسعًا يمتد بعيدًا مثل بلد من العالم السفلي. كان يتنقل من شقة واسعة إلى أخرى، عبر ممرات ضيقة مثل طرق في منجم. في إحدى الغرف المربعة الكبيرة، كان الرجال مقبلين على تناول الطعام. بدا له أن ما يأكلونه إنسان عارٍ. لكن نفسه الثانية عرفت أن ما يبدو لعينيه كرجل هو في الحقيقة جلد رجل محشو باللحم الجاهز، مثل جلد نقانق بولونيا[1]. ولم يمنعه ذلك من رؤية الرجل العاري الذي كان سيؤكل وهو يمشي ببطء وتصلب عبر الممشى نزولاً إلى الدهليز. لقد رآه من الخلف. كان رجلًا كبيرًا وسيمًا في شرخ شبابه، عاريًا تمامًا وربما معتوهًا. لكنه لم يكن بالطبع سوى جلد محشو باللحم كان عمال مناجم القصدير الرماديون سيأكلونه.

تحول آرون، آرون الحلم، إلى طريق آخر، وضل طريقه عبر الغرف المربعة الواسعة، وشقق الكهوف. دخل إلى إحدى الغرف حيث كان هناك العديد من

1- نوع من السجق أو النقانق المنسوبة إلى مدينة بولونيا الإيطالية.

الأطفـال، كلهم يرتـدون عباءات بيضاء. وكانـوا جميعًا غاطين فـي النوم على الأسـرَّة الكثيـرة المتناثرة دون انتظام فـي أنحاء الغرفـة. وكان كل طفل يذهب إلى فراشه وعلى رأسه إكليل من الزهور، زهور بيضاء ووردية، كما بدا. وهكذا يرقدون جميعًا هناك، بتيجان زهورهم، في غرفهم الفسيحة. ثم غادر آرون.

ولم يستطع أن يتذكر الجزء التالي. بدا أنه هو الوحيد الذي مر بالعديد من شقق سكنية رمادية كل من فيها نساء، كلهن رماديات في لباسهن ومظهرهن، زوجـات لعمال مناجم القصدير تحـت الأرض. كان الرجال بعيدين، وتذكر آرون في الحلم في هلعٍ نوع الطعام الذي سيأكلونه.

الشـيء التالـي الذي يمكـن أن يتذكره هو أنـه كان على متن قـارب. لقد انشـطر الآن بالتأكيـد إلى شـخصين. كانت ذاتـه الواعية وغيـر المرئية، التي سـميناها ذاتـه الثانية، تحوم كما لو كانت أمام مقدمـة القارب، ترى وتعرف، لكنها غير مرئية. أما نفسه الأخرى، آرون المحسوس، فقد جلس كراكب في القارب الذي يجدف عليه أشـخاص مجهولون من هذا العالم السفلي وقفوا وهـم يدفعـون القـارب إلى الأمـام. وكان في القـارب ركاب آخـرون أيضًا، ونساء أيضًا، لكنهم جميعهم أشخاص مجهولون، غير ملحوظين.

كان القـارب يطوف فوق بحيرة كبيرة في بلد العالم السـفلي، بحيرة ذات ميـاه زرقاء داكنـة، ولكنها صافية تمامًا وجميلة اللـون. جلس آرون الثاني أو غير المرئي في المقدمة وشاهد الأسماك وهي تسبح معلقة في المياه الصافية الجميلـة ذات اللـون الأزرق الداكـن. كان بعضهـا سـمكًا شـاحبًا، وبعضها الآخـر ذا منظـر مخيف، مثـل ذوات أربـع وأربعين سـابحات، وبعضها كان سمكًا داكنًا، ذا شكل محدد، يسر منظره العين.

جلـس آرون الملمـوس أو المرئي على جانب القـارب، في نهاية المقعد الأوسـط، وقـد مال مرفقه الأيمـن العاري إلى الجانب. ها قـد دخل القارب الآن إلـى الميـاه الضحلة. رأى آرون غير المحسـوس الجالـس في المقدمة الطين الأبيض في القاع يحوم في سـحب عند كل دفعة للمجاديف، سـحب طينيـة من شـأنها أن تحيـط الأسـماك الغريبة بضبـاب مفاجـئ. وعلى يمين المسار أوتاد زرعت في الماء، على مسافات متباعدة، لتحديد المسار.

يجب أن يمر القارب بالقرب من هذه الأوتاد، بحيث يلامسها تقريبًا. وكان مرفق آرون العاري يميل على جانبه. عندما اقتربوا من الوتد الأول، أطلق جميع البحارة صرخة تحذير غريبة بلغة أجنبية. لم يبدُ على آرون اللحم والدم أنه قد سمع شيئًا. أما آرون غير المرئي، فقد سمع الصرخة لكنه لم يفهم معناها فارتطم المرفق العاري بقوة بالوتد أثناء مرور القارب.

جدف المجدفون. وما زال آرون من لحم ودم جالسًا واضعًا ذراعه على جنبه. واقتربوا من وتد آخر «هل ينتبه، هل ينتبه؟» فكرت النفس الثانية القلقة. أطلق المجدفون صرخة تحذيرية غريبة لكنه لم يلتفت، وضرب مرفقه مرة أخرى بالوتد أثناء مرور القارب. ومع ذلك، جلس آرون ذو اللحم والدم ولم يبدِ أي حراك. كانت هناك أوتاد على طول هذا الجزء الضحل من البحيرة. وراء ذلك كانت المياه العميقة تمتد مرة أخرى. أصبح آرون غير المرئي قلقًا متفكرًا «ألن يسمع أبدًا؟ ألن ينتبه أبدًا؟ ألن يفهم أبدًا؟». وأخذ يترقب الوتد التالي وهو يتألم. ولكن آرون اللحم والدم لم يبرح مكانه، وعلى الرغم من صياح المجدفين بقوة جعلت آرون غير المرئي يفهم ما يقولون تقريبًا، إلا أن آرون الجالس على الجانب لم يسمع شيئًا، وارتطم مرفقه بالوتد الثالث.

كان هذا كثيرًا. لكن بعد لحظات قليلة، وبينما كان القارب يمخر الماء، غير آرون الواضح جلسته وجذب ذراعه، رغم أنه لم يكن حتى الآن على علم بأية حاجة للقيام بذلك. تنفس آرون غير المرئي الجالس في المقدمة بارتياح، وتأرجح القارب بثبات في المياه العميقة التي لا يمكن سبر غورها مرة أخرى.

كانوا يقتربون من إحدى المدن. مدينة – بحيرة، مثل مكسيكو. لا بد أنهم وصلوا إلى مدينة، لأن آرون عندما استيقظ وحاول تجميع شظايا حلمه، تذكر أنه رأى لتوه صنمًا. إنها عشتروت. لقد تعرف عليها لأنها كانت تجلس على جانب الطريق، وفي حجرها المفتوح عدد من البيوض: بيض دجاج صغير، وبيضة أو اثنتان أكبر، مثل بيضة البجعة، ولفافة واحدة صغيرة من الخبز. كانت تلك الأشياء ملقاة في حضن عشتروت على جانب الطريق... وبعد ذلك لم يعد يستطيع أن يتذكر المزيد.

استيقظ، وحاول لدقيقة أن يتذكر تفاصيل حلمه، وما يعنيه كل ذلك. لكنه سرعان ما تخلى عن هذا الجهد، فنظر إلى ساعته: ما زالت عند الثالثة والنصف. كان يملك واحدة من تلك الساعات الأمريكية ذات الأشكال والأصابع المضيئة الفوسفورية. ولقد شعر الليلة بالخوف من وجهها المضيء المخيف.

ظل مستيقظًا لفترة طويلة في الظلام - لمدة ساعتين، يفكر ولا يفكر في تلك الحالة العقيمة القاحلة التي لا نوم فيها، ولا يقظة كاملة بعد، والتي تتسبب في توتر مؤلم. وأخيرًا عاد للنوم مرة أخرى، ولم يستيقظ إلا في الساعة الثامنة صباحًا. ولم يرن لتناول قهوته حتى التاسعة.

كان يومًا مشرقًا في الخارج، لكنه لم ينتبه إليه كثيرًا. كان راقدًا متفكرًا دون جدوى. مع كسر الفلوت فإن ما كان يتكسر ببطء قد تحطم أخيرًا. لم يكن أمامه من شيء: لا خطة ولا آفاق. كان يعلم جيدًا أن الناس سيساعدونه: فرانسيس ديكر أو أنجوس جيست أو الماركيز أو ليلي. سيحضرون له فلوتاً جديدًا ويدبرون له عقودًا. ولكن ما الفائدة؟ لقد تحطم فلوته، تحطم دون رجعة. لقد حسمتها القنبلة كما حسمت كل شيء. إنها النهاية، بغض النظر عن الطريقة التي يحاول بها إصلاح الأمور. الشيء الوحيد الذي شعر به هو خيط القدر الذي يربطه بليلي. أما الباقي فقد غدا كله عاريًا مكشوفًا مثل هالة القمر الميتة. لذلك قرر أن يضع، إن استطاع، خطة ما تربط حياته مع حياة صديقه العابر الزائل.

كان ليلي شخصًا فريدًا، ذكيًا وجذابًا على الرغم من أنه كان بلا شك أكثر الأشخاص بغضًا ممن يمكنك معرفتهم. كان هذا مختومًا على وجهه الغريب. فكر آرون في وجه ليلي الداكن القبيح، الذي كان يكمن فيه شيء أشبه بمخلوق مختبئ تحت أوراق الشجر. ثم فكر في العينين المتباعدتين، بصدقهما الغريب وصراحتهما وثقتهما. الثقة الغريبة نصف المحجبة، وكأن لا شيء، لا شيء يمكن أن يتغلب عليه. لقد أغضبت الناس هذه النظرة من الثقة الصامتة اللامبالية بالنفس. لقد أحسوا أخيرًا بأن لا شيء يمكن أن يمسه من الأعماق، لا شيء يمكن أن يبلغه حقًا. ولقد أحسوا بهذا في استياء وكراهية تقريبًا. أرادوا أن يكونوا قادرين على الوصول إليه. لأنه كان منفتحًا

جـدًا، وصريحًـا جدًا. كان يهب نفسـه بسـهولة. لـم يكن لديه مـال يلجأ إليه ويعتمد عليه. لكنه، كان يهب نفسه بسهولة، ويبدي هذا الاهتمام، بل التوقير، لأي صديقٍ صدفة. فكروا جميعًا: هنا شـخص حكيم يجدني الأعجوبة التي أنـا عليهـا حقًّا. لكـن انظر وتأمل. ها هـو، بعد أن يجربهـم، ويجد حدودهم الحتميـة، يرحـل ويتوقف عـن الاهتمام بوجودهـم الرائع. وهـو أمر يعدونه احتيـالاً مخادعًا لعينًا. عندها، بعـد رحيله، يدركون لامبالاته الجوهرية بهم، وغطرسته الصامتة، غطرسته الصامتة التي عرفت كل حكمتهم، وتركتهم لها.

ولقـد خبر آرون كل ذلك: بـدأ بالاعتقاد بأن ليلي إنسـان غريب الأطوار قليلًا، وأعجوبة صغيرة. وذهب للاعتقاد بأنه رجل رائع، ومثير للشفقة بعض الشيء؛ ثم مضى قليلًا فإذا به يراه كريمًا، لكن متعجرفًا، ثم قاسيًا ومتعصبًا لا يسـمح لأي إنسـان بأن ينفرد بامتلاك روحه الخاصة به، ثم متغطرسًا للغاية، يلقـي بزميلـه جانبًا مثل قفاز قديـم مثقوب من أطراف الأصابـع، وأنه، وهذا هو الأكثر وحشـية، يسـتطيع رؤية أعمـاق المقابل. طوال الوقـت، كان ليلي «يعرف» برغم كونه دخيلاً غريب الأطوار. كان «يعرف». وكانت روحه تقف في مجابهة العالم كله.

إنـه، إذ لم يجـد مفرًا، مرغـم على الاختيـار. مجبر علـى الاختيار، ليس بيـن الحياة والموت، بل بين العالـم وبين ليلـي الجازم اللامتيقن. مجبر على الاختيـار، مـع أنه لم يعـد يملك، في هـذا العالم، مـا يمكنه اختيـاره، إلا إذا استسـلم وسـعى للنجاح. كان آرون يعلم جيدًا أنه إذا تملـق قليلًا فإن الناس سـيجعلونه، عن طيب خاطر، شـخصًا ثريـاً، ويمنحونه المـال والنجاح، بل يمكن أن يصبح الشخص المفضل لديهم.

لكن لا! إذا كان عليه أن يستسلم لشيء ما: إذا كان عليه حقًّا أن يستسلم، ويبـدو أنه قـد فعل ذلـك: فإنه سـيفضل الاستسـلام لليلي الصغيـر بدلًا من الاستسلام لسكان العالم المتوحشين. إذا كان عليه أن يستسلم، فلا ينبغي أن يستسلم لأية امرأة، ولا لأي مثال اجتماعي، ولا لأية مؤسسة اجتماعية. لا! - إذا كان عليه أن يتنازل عن اسـتقلاله العنيد ويعطي نفسه، فإنه يفضل أن يهب نفسـه للرجل الفرد الصغير بدلًا من أي شـخص آخر. لأنه في الحقيقة، كان في الرجل شيء غير مفهوم، كان له السيطرة عليه، إذا اختار السماح بذلك.

بينما كان يفكر في هذا الأمر، هربًا من الطريق المسدود الذي كان يركض فيه طويلًا من خلال الخضوع لأحد مطارديه: الخضوع للسيطرة الغريبة لطبيعة رجل واحد بدلًا من الاستسلام للرمال المتحركة للمرأة أو المستنقعات النتنة للمجتمع: الاستسلام (المحتوم بهذه الطريقة أو تلك) لوجهة جديدة، لفرد صغير غريب لا يحسب حسابه: بينما كان آرون مستلقيًا مسترخيًا واجدًا متعة غريبة في إعطاء روحه لبطله العقلي، إذا بالبطل نفسه ينقر الباب ويدخل ويقول:

– «تساءلت إذا كنت ترغب في السير معي إلى الريف: إنه يوم جميل. ظننت أنك قد خرجت بالفعل، لكنك ها هنا في السرير مثل امرأة نفساء – أنت بخير، أليس كذلك؟»

– «نعم» قال آرون «أنا بخير»

– «بائس محبط بسبب فلوتك؟ – آه، حسنًا، هناك المزيد من الفلوتات. فانهض إذن» وذهب ليلي إلى النافذة، ووقف ينظر إلى النهر ثم قال:

– «سنسافر يوم الخميس»

– «إلى أين؟» قال آرون.

– «إلى نابولي. لدينا منزل صغير هناك لفصل الشتاء – في الريف، ليس بعيدًا عن سورينتو[1] يجب أن أقوم ببعض الأعمال، الآن والشتاء على الأبواب. فلننسَ كل شيء عن كل شيء ونعِش مع الحياة. ما فائدة الركض وراء الحياة، وهي موجودة فينا، إذا لم يكن هناك من يمنعنا أو يعيقنا؟»

انتاب آرون شعور غريب.

– «ولكن كم ستمكث هناك؟» سأله.

– «أوه، لهذا الشتاء فقط. أنا متشرد حقًّا: أو ربما مهاجر. يجب أن أهاجر. هل تعتقد أن الوقواق في أفريقيا والوقواق في إسيكس هما نفس الطائر؟[2] على أية حال، أعرف أنني يجب أن أتأرجح بين الشمال والجنوب، لذلك أتأرجح. إنها مجرد طبيعتي. ليس لكل الناس الاحتياجات نفسها»

1- سرنت أو سورينتو: بلدة مُطلَّة على خليج نابولي في جنوب إيطاليا.

2- Essex: مقاطعة إنجليزية تقع في شرق إنجلترا قرب العاصمة لندن.

- «ربما لا»، قال آرون، الذي نهض وجلس على جانب السرير.

- «أود بشدة أن أجرب الحياة في قارة أخرى، بين عرق آخر. أشعر أن أوروبـا أصبحت مثل القفص بالنسـبة لـي. وربما تكون أوروبـا على ما يرام في حد ذاتها. لكني أجد نفسـي أتقرّح. سـنة أخرى وأخرج. سأغادر أوروبا. بدأت أشعر بأنني حبيس»

- «أعتقد أن هناك آخرين يشعرون أنهم محبوسون، مثلك تمامًا»

- «أعتقد ذلك»

- «وربما ليس لديهم فرصة للخروج»

سكت ليلي للحظة ثم قال:

- «حسـنًا، أنـا لـم أخلق الحيـاة والمجتمع. لا أسـتطيع إلا أن أسـير في طريقي الخاص»

وصمت آرون أيضًا. كانت خيبة الأمل العميقة تترسب في روحه.

- «هل ستبقى وحدك طوال الشتاء؟»

- «أنا وتاني فقط. لكن لدينا زائرون باستمرار»

- «ثم في العام المقبل، ماذا ستفعل؟»

- «مـن يعـرف؟ قد أبحر بعيـدًا. أود ذلك. أود أن أجرب أسـلوب حياة جديـدًا تمامًا. هذا أمر قـد انتهى بداخلي، ومع ذلك ربما يكون من العبث أن أزداد بعدًا. لقد سئمت من الباحثين. أنا أكره الباحثين»

قال آرون بسخرية:

- «ماذا، أولئك الذين يبحثون عن دين جديد؟»

- «الدين -والحب- وكل ذلك. إنه مرض الآن»

- «أوه، أنا لا أعرف، ربما تكون قلة الحب والدين هي المرض»

- «آه - بـاه! إن طحـن أحجـار الرحـى القديمـة للحـب واللـه هـو ما يؤلمنـا، عندما لا يعود هناك مزيد مـن الحنطة بين حجري الرحى. لقد طحنا الحـب ناعمًا للغاية وقد حان الوقت لنسـيانه. انسَ كلمـات «الدين» و«الله» و«الحـب» ذاتها، ثم جرّب أسـلوبًا جديدًا. لكن الكلمات ذاتها تسـمّرنا ولا تتركنا نتحرك»

- «وأين علينا أن نكون إذا استطعنا؟» قال آرون.

- «قد نبدأ في أن نكون أنفسنا، على أي حال»

- «وماذا يعني ذلك؟» قال آرون «أن تكون نفسك - ماذا يعني ذلك؟»

- «بالنسبة لي، كل شيء»

- «وبالنسبة لمعظم الناس، لا شيء. يجب أن يكون لديهم هدف»

- «لا يوجد هدف. أنا أكره الأهداف أكثر من أي وقاحات أخرى. إنها لسجون. باه، سجون وسجانون، أهداف وهدافون»[1]

- «أينما ذهبت، ستجد أناسًا يقيدون أنوفهم بهدف ما»

ضحك ليلي وقال:

- «عربتهم مربوطة إلى نجمة تدور وتدور مثل حمار في شَرَك. اللعنة على ذلك»

ارتدى آرون ملابسه، وخرج الرجلان وركبا الترام متوجهين إلى الريف. لم يستطع آرون أن يحول دون ذلك، فقد غدا ليلي عدوانيًا. وصلا إلى نزل صغير بالقرب من أحد الجسور، حيث يتدفق جدول عريض ضحل ومتلألئ. كان يومًا مشمسًا ودافئًا، وكان لدى آرون وليلي طاولة بالخارج تحت الأشجار الرفيعة عند قمة الضفة فوق النهر. كانت الأوراق الصفراء تتساقط، وكانت سماء توسكانيا زرقاء فيروزية. وفي الجدول بالأسفل، ثلاثة أولاد عراة غامروا بالسباحة فيه، وهم يستلقون على لوح خشبي تحت الشمس وثمة عربة ربط إليها ثوران شاحبان ناعمان يجرانها ببطء أسفل التل، وينظران إلى كل خطوة كما لو أنهما سيتوقفان عن الحركة. لكنهما ما زالا يتقدمان إلى الأمام. حتى وصلا إلى الفندق، وهناك وقفا ليستريحا. كانت امرأتان عجوزتان تقطفان آخر حبات البلوط تحت ثلاث أشجار بلوط شعثاء وفتاة حافية القدمين تقود معزتيها وخروفها إلى جانب الماء صعودًا نحو النسوة. ارتدت الفتاة فستانًا أزرق اللون، أو ربما نيليًا لكن لونه حال إلى

1- تعتمد المفارقة هنا على المقارنة بين كلمتي goal (ومعناها هدف) وgaol (وتعنى سجنًا)

الأرجواني الخزامي الجميل وهو اللون الشائع الذي يذكر ليلي دائمًا بشقائق النعمان الأرجوانية في الجنوب.

جلس الصديقان في الشمس ليحتسيا النبيذ الأحمر. كان منتصف النهار. دقت الأجراس في برج الكنيسة الرفيع والمربع على التل المقابل. وجلست النسوة العجائز والفتاة تحت الأشجار ليتناولن الخبز والتين. كان الأولاد يرتدون، مرتجفين، قمصانهم المنشورة على حصى الجدول. مرت بجانبهم فتاة كبيرة، وقد ربطت غداء شخص ما بمنديل أحمر وحملته على رأسها. كانت واحدة من أثمن الساعات: ساعة الاستراحة، والظهيرة، والشمس، والقبول الهادئ للدنيا. في مثل هذا الوقت، يبدو أن كل شيء يقع في علاقة حقيقية، بعد ضغوط العمل والضرورة الملحة.

نظر آرون إلى ليلي، ورأى على وجهه نفس النظرة الغريبة والبعيدة التي تراها على وجه حيوان ما عندما يرقد مستيقظًا ومنتبهًا، لكنه متحد تمامًا مع محيطه. لقد كان شيئًا مختلفًا تمامًا عن السعادة: الاستمتاع اليقظ بالراحة، والشعور المكثف والمُرضي بالمركزية. كالكلب عندما يستلقي في الشمس بعين واحدة مفتوحة غامزة، أو أرنب ساكن بعينين متسعتين وأنف يرتعش بخفوت. ليست السلبية لكن الاستمتاع اليقظ بكونك مركزيًا، في المركز من الحياة في عالمك الصغير الذي يحيط بك.

جلسا هكذا ساكنين، أو استلقيا تحت الأشجار لساعة ونصف. ثم دفع ليلي الفاتورة وواصلا النزهة...

- «ماذا أفعل هذا الشتاء، في رأيك؟» سأل آرون.
- «ماذا تريد أن تفعل؟»
- «هذا ما أريد أن أعرفه»
- «هل تريد شيئًا محددًا؟ أعني هل هناك شيء يدفعك من الداخل؟»
- «لا أستطيع أن أثبت فحسب»
- «ألا تستطيع أن تستقر على شيء ما؟ على وظيفة، على سبيل المثال؟»
- «لم أجد الوظيفة التي يمكنني الاستقرار فيها بعد»
- «ولم لا؟»

- «إنها مجرد طبيعتي»
- «هل أنت ممن يبحثون عن الحقيقة؟ هل لديك رغبة أو حاجة إلهية؟»
- «كيف أعرف؟» ضحك آرون «ربما لدي رغبة ملعونة في أعماقي. أنا متأكد من أنه ليس شيئًا إلهيًا»
- «حسن جدًا إذن. والآن، هل تصدقني إذا قلت لك إن في الحياة دافعين ديناميكيين عظيمين فقط؟»
- «كيف لي أن أعرف؟» ضحك آرون «هل تريد أن تصدّق؟»
- «لا، أنا لا أهتم بهذه القشور. من الأفضل أن تصدقني من أجل مصلحتك فقط»
- «حسنًا، ماذا عن ذلك؟»
- «حسنًا، هناك فقط دافعان ديناميكيان عظيمان في الحياة: الحب والسلطة»
- «الحب والسلطة؟» قال آرون «أنا لا أرى أن السلطة مهمة جدًا»
- «أنت لا ترى لأنك لا تنظر. ولكن هذا ليس بيت القصيد. أي نوع من الدوافع هو الذي يحفزك؟ هل هو دافع الحب؟»
- «لا أعرف»
- «نعم أنت تعرف. أنت تعلم أن لديك رغبة ملحة، أليس كذلك؟»
- «نعم...» اعترف آرون بذلك على مضض.
- «حسنًا إذن، ما هي؟ هل تريد أن تحب أم أن تطاع؟»
- «القليل من كليهما»
- «حسنًا، القليل من كليهما. وما الذي تبحث عنه في الحب؟ المرأة التي يمكنك أن تحبها، والتي ستحبك بشكل كامل وبكل معنى الكلمة، وستكون سعيدًا بعدها إلى الأبد؟»

ضحك آرون قائلًا:

- «ربما كان هذا هو ما سعيت من أجله»
- «وها أنت الآن تعلم أن كل هذا مجرد هراء!»

نظـر آرون إلى ليلـي، غير راغب في الاعتراف بذلك وبدأ ليلي بالضحك وقال:

- «أنت تعرف ذلك جيدًا بما فيه الكفاية. إنها واحد من أوهامك المفقودة يا بني. حسنًا، ماذا بعد؟ هل تبحث عن إله؟ هل تريد إلهًا يمكنك السعي إليه والوصول إليه من خلال الحب، وتعيش سـعيدًا إلى الأبد، لملايين لا حصر لها من الأبدية والخلود وكل ذلك؟ هل هذه مراوغتك الصغيرة؟»

ومـرة أخرى نظر آرون إلى ليلي بتلك النظرة الملتبسـة المزدوجة الغريبة التي تتسم بالسخرية وعدم الرغبة في التراجع.

- «حسنًا إذن. لديك رغبة في الحب تدفعك إلى الله؛ صحيح؟ اذهب إذن وانضم إلى البوذيين في بورما، أو إلى أحدث تقليعات المسـيحية في أوروبا. اذهب وألصق رأسك في شجيرة النيرفانا أو الكمال الروحي. هرول بعيدًا»

- «لن أفعل»

- «يجب عليك أن تفعل. إذا كانت لديك رغبة في الحب، قم بإشباعها»

- «ليست لدي رغبة في الحب»

- «بلى لديك. تريد أن تعيش فورة الحب. تريد أن تنجرف في الحب. تريـد أن تندفع سـريعًا في حب صغيـر لطيف وتحب نفسـك. لا تنكر ذلك. أعرف أنك ستفعل. تريد أن يحملك الشغف على أجنحة من نار حتى تتجاوز نفسك، وكما ينقض النسر على الشمس. أنا أعرفك أيها الولد العاشق»

- «ليـس بعـد الآن، ليس بعد الآن. لقد خُدعـت مرات عديدة» ضحك آرون.

- «باه، إنه درس لا يتعلمه الرجال أبدًا. مهما أصابهم الغثيان من الحب فإنهم يندفعون دائمًا للحصول على المزيد، مثلما يعود الكلب إلى قيئه»

- «حسنًا، ماذا علي أن أفعل إذا لم أحب؟» صاح آرون.

- «أنت تريد أن تسـتمر، من حب إلى حب، من نشـوة إلى نشـوة، من انتصـار إلـى انتصار، حتى تتمكن مـن أن تنطلق إلى المجد، إلـى ما هو أبعد من نفسـك، وأن تتحـرر من كل الروابط وتعيش بعدها سـعيدًا إلى الأبد. إما هذا أو النيرفانا، الجانب الآخر من الميدالية»

- «ربما يكون ما في داخلي من الكراهية أكثر من الحب»

- «هـذا هـو نكوص لنفس الرغبـة. الفوضوي، المجـرم، القاتل، ليس إلا عاشـقًا متطرفًـا يتصرف بوحي نكوصـه. ولكنه يظل هـو الحب في حالة نكوصه. إنه دافع الحب وهو يطير عائدًا ويستحيل رعبًا»

- «حسنًا إذن» قال آرون «أنا مجرم وقاتل»

- «لا لسـت كذلك. ولكـن لديك رغبة في الحـب. وربما على النكوص الآن. لكـن اسـتمع لـي. ليس مـن الجيـد التفكير فـي أن الرغبة فـي الحب هي الشـيء الوحيد. أبدًا! يمكنك أن تندفـع إذا أردت، وتتحمس وتنجرف في حب امرأة، أو الإنسانية، أو الله. انطلق بعيدًا في اتجاه الحب حتى تفقد نفسك. ولكن هذا هو حدك. لا يمكنك أن تفقد نفسك. يمكنك المحاولة. ولكنك قد تحاول بنفس القوة أن تبتلع نفسـك. لن تزيد على عض أصابعك في هذه المحاولة. لا يمكنك أن تفقد نفسك، لا في المرأة ولا في الإنسانية ولا في الله. ستجد نفسك دائمًـا بين يديك في النهايـة: مكلومًا ومنهكًا ومهانًا ومجهد الأعصاب. الشـيء السـيئ جـدًا الذي يمكن أن تسـتيقظ عليه هـو الذات العارية بعـد اندفاع الحب المفرط. انظر حتى إلى الرئيس ويلسـون[1]: لقد كان مندفعًا في حب الإنسـانية، ووجد في النهاية أنه لم يكن لديه بين يديه سوى نفس شديدة الأسى.

كفّ إذن عن هذا. ارحل يا ولدي. اترك اندفاع الحب الصاخب. لا يمكنك أن تفقد نفسك. لذا توقف عن المحاولة. فالمسؤولية تقع على عاتقك طوال الوقـت، ولا يمكـن لأي إله عرفه الإنسـان أن يخلعها. أنت نفسـك، لذا كن نفسـك. فالزمها وأقم عندها. بحب أو بغيره، بنشـوة أو بغير نشـوة، برغبة أو من دون رغبة. ما من هدف خارج نفسـك، حيث يمكنك أن تكتمل مثل نسر يطير نحو الشمس، أو فراشة نحو شمعة. ما من هدف خارجك، وليس هناك إله خارجك. لا إله يمكنك الوصول إليه والراحة فيه. إنها حالة من:

هرول، هرول إلى السوق

1- توماس وودرو ويلسون (1856-1924) هو سياسي وأكاديمي أميركي شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة. اشتهر بمبادئه الأربعة عشر التي عدت مثالية والتي تدعو إلى السلام العالمي ونبذ التسلح وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

لتشتري كعكة ببنس واحد،
وهرول، هرول عائدًا من جديد
بأسرع ما يمكنك الركض.

لكـن ما من إله خارجك، يمكنك أن ترتفع إليه أو تغوص إليه أو تزدرده. لا يمكنك حتى أن تمضغ نفسك حتى تصبح قمر نيرفانا إلهيًا. لأن عليك في كل وقت أن تأكل عشاءك وتهضمه. ما من هدف خارجك. لا هدف.

ثمة شيء واحد فقط، نفسك. لذا من الأفضل أن تتمسك بها. لا يمكنك أن تكون أكبر من نفسك، لذلك لا تحتاج إلى أن تجرجر الإله إلى داخلك. لديك وظيفـة واحـدة لا أكثر. في داخلك تكمـن ذاتك، مثل بيضة تتفـرخ، بيضة عيد الفصح الثمينة لروحك. ها أنت ذا، تتطور شيئًا فشيئًا، من خلية بيضة مفردة في رحم أمك إلى التعقيد الغريب والمميز للانسجام والوحدة الذي لا يتوقف أبدًا حتى تموت - إذا حدث ذلك. لديك ذات عميقة ومتكاملة وفريدة، وبما أنها الشـيء الوحيد الـذي تملكه أو سـتحصل عليه، فلا تحـاول أن تفقدها. عليك أن تطورهـا، مـن البيضة إلى الدجاجة، ومن الدجاجة إلـى طائر العنقاء المنفرد الوحيـد الـذي لا يمكن أن يوجد منه في الكون أكثر من طائر واحد في كل مرة. لا يمكـن أن يكون هناك سـوى واحد منك في نفـس الوقت في الكون، وواحد منـي. فلا تنس هذا. وحدتك الفردية هي مصيـرك. ومصيرك يأتي من الداخل، مـن شـكلك الذاتـي. ولا يمكنك أن تعرف ذلك مسـبقًا، لا قدرك ولا شـكلك الذاتي. يمكنك فقط تطويرهما. يمكنك فقط التمسـك بنفسك، وأن لا تخونها أبـدًا. وبهـذا الالتصاق، فإنـك تطور العنقـاء الوحيدة في ذاتك، وتكشـف عن مصيرك، كما تتكشف الهندباء عن نفسها لتصبح هندباء، وليس عود كرفس.

تذكـر هذا يـا بني: ليس عليك أبدًا أن تنكر الـروح القدس التي بداخلك، أي روحك. أبدًا. أو سـوف تلقى عقابك. ولا يجب عليك أبدًا أن تعتقد أنك سـوف تتهرب من مسؤولية نفسك عن طريق الحب أو التضحية أو النرفانا - أو حتى الفوضى ورمي القنابل. لن تفعل أبدًا...

سكت آرون للحظة بسبب هذا الطوفان من الكلمات. ثم قال وهو يبتسم:

1- محاكاة لأغنية أطفال تقليدية.

- «لذلك من الأفضل أن أبقى متمسكًا بروحي حتى تفقس، أليس كذلك؟»

- «نعم بالتأكيد. إذا كانت رغبة روحك تحثك على الحب، فأحب. لكن اعلم دائمًا أن ما تفعله هو إشباع لاندفاعة روحك. ليس من الجيد محاولة التصرف بوصفة طبية: ولا لأدنى حد. ولا فائدة من الدخول في نوبات مسعورة. إذا كان عليك أن تدخل في عالم الحب والعاطفة، فادخل فيه. لكنهما ليسا الهدف. إنهما مجرد وسيلة: وسيلة حياة، إذا شئت. الهدف الوحيد هو تحقيق رغبة روحك الفعالة وما تشور عليك به. كن عاطفيًا طالما كانت طبيعتك أن تكون عاطفيًا، وكن شهوانيًا حتى الأعماق بقدر ما تستطيع. النفوس الصغيرة لها شهوانية صغيرة، والنفوس العميقة لها شهوانية عميقة. لكن تذكر، في كل وقت، المسؤولية تقع على عاتقك، كل ذلك يقع على عاتق روحك الوحيدة، المسؤولية عن أفعالك.

قال آرون:

- «لم أقل قط إن هذا لم يحدث»

- «ولم تقل إنه حدث. أنت لم تقبل قط. لقد ظننت أن هناك شيئًا خارجيًا يبرئك: الله، أو عقيدة ما، أو وصفة طبية. لكن تذكر أن روحك التي بداخلك هي ألوهيتك الوحيدة. إنها تنمي أفعالك في داخلك كما تنمي الشجرة خلاياها الجديدة وتشق الخلايا طريقها إلى البراعم والأغصان والزهور. وهذه هي عواطفك وأفعالك وأفكارك وتعبيراتك، ووعيك المتنامي. أنت لا تعرف مسبقًا، ولا يمكنك أن تعرف. لا تملك إلا التمسك بروحك في السراء والضراء»

أنت شجرة حياتك: جذورها وجذعها والفروع. في مكان ما داخل كينونة الشجرة الكاملة تكمن الذات نفسها، جوهرها: روحها المقدسة الفطرية. وهذه الروح القدسية تُنتج براعم جديدة، وتتجاوز الحدود القديمة، وتنفض جسدًا كاملًا من الأوراق الميتة. إن الحدود القديمة تكره تجاوزها، والأوراق القديمة تكره السقوط، لكن يجب عليها أن تذعن لهذا، إذا قالت روح الشجرة ذلك...

خلال هذه الخطبة عادا ليجلسا تحت جدار أبيض. استمع آرون إلى الصوت أكثر من الكلمات. لقد كانت القيمة الصوتية هي التي دخلت روحه، والنغمة، وموسيقى الكلام الغريبة التي نفذت إلى أعماقه. لم يعر كبير اهتمام للمعنى، ومع ذلك فقد فهم، عرف. لقد فهم، بشكل أعمق بكثير مما لو كان قد استمع بعقله. وأجاب على اعتراض من أعماق روحه فقال:

- «لكنك تتحدث كما لو كنا مثل الأشجار، وحيدين في هذا العالم. نحن لسنا كذلك. إننا، لكي نحب، نحتاج إلى شخص آخر غير أنفسنا. وكذلك إذا كرهنا، وحتى إذا تحدثنا»

- «تمامًا. وهذه هي النقطة. فضلاً عن أننا مرغمون على أن نحب ونكره، بل وحتى نتحدث. لكن ليس علينا أن نصلح أياً من هذه الأوضاع، ونقول أن هذا هو الوضع الوحيد. ومن الحماقة أن نقول إن الحب والحب وحده يجب أن يتسيد. من الواضح أن الأمر ليس كذلك. ومع ذلك فإننا نجتهد حتى نجعله كذلك»

- «أشعر بهذا. إنها برمتها مجرد كذبة»

- «بل أسوأ. إنها نصف كذبة. لكن اسمع: لقد قلت لك إن هناك حافزين اثنين، حافزين عظيمين للحياة، أليس كذلك؟ قد يكون هناك المزيد. لكنني أكاد أجزم الآن بأن هناك اثنين: الحب والسلطة. ولقد كنا نحاول أن نتخلص، على الأقل كأفراد، من دافع الحب حصريًا، ونكره دافع السلطة ونقمعه. لكنني أجد الآن أن علينا أن نقبل نفس الشيء الذي كرهناه. لقد استنفدنا حاليًا رغبة الحب لدينا، لكننا نحاول، مع ذلك، أن نرغمها على مواصلة العمل. لذلك لا مناص سوى أن نحصل على الفوضى والقتل. لا فائدة. علينا أن نتقبل دافع السلطة، أن نتقبله بمسؤولية عميقة، هل تفهمني؟ إنه دافع عظيم للحياة. إن تلك القوة الغامضة العظيمة هي التي أبقت مصر على قيد الحياة لعدة قرون. إنها مصدر خفي واسع للحياة والقوة فينا الآن، وهي تنتظر إما أن تتحول إلى عمل حقيقي، أو تنفجر في كارثة كبرى. القوة –الرغبة في القوة. إرادة القوة– ولكن ليس بالمعنى الذي ذهب إليه نيتشه، وليس القوة الفكرية. ليست القوة العقلية.

ليست قوة الإرادة الواعية، ولا حتى الحكمة، لكن القوة الخفية والحية والمثمرة. هل تعرف ما أعنيه؟»

- «لا أعرف». أجابه آرون.

- «خذ على سبيل المثال ما تسميه الحب. في الطريقة الحقيقية للحب، الهدف الإيجابي هو جعل الشخص الآخر -أو الأشخاص الآخرين- سعداء. إنها تكريس النفس للآخر أو للآخرين. ولكن غيّر الوضع. دع الرغبة تكون الرغبة في السلطة. عندها لن تكون الرغبة الكبرى هي السعادة، سعادة الحبيب أو سعادة النفس. ليست السعادة إلا حالة واحدة فقط من حالات عديدة، ومن المروع أن نفكر في تثبيت أنفسنا في حالة واحدة. إن الرغبة في السلطة لا تسعى إلى السعادة أكثر من سعيها إلى أية حالة أخرى. إنها تلحّ من الداخل، بشكل غامض، من إجل إزاحة الأوراق القديمة واستهلال الجديدة. إنها قوية وأنانية، ولا تبحث عن مركزها في الخارج، في إله ما أو محبوب ما، ولكنها تعمل بشكل لا يقهر من داخل نفسها.

ولا بد أن يكون هناك بالطبع طرف يحث وطرف يُحمَل على الفعل، مثلما أن في الحب محِبًا ومحبوبًا. فالرجل هو المحب، والمرأة هي المحبوبة. والآن، في ظل الرغبة في السلطة، يحدث العكس. يجب على المرأة أن تخضع، ولكن بعمق، بعمق. لا لأي سلطة ثابتة حمقاء، ولا لأي إرادة استبدادية حمقاء، ولكن إلى شيء أعمق؛ إلى الروح في حركتها الغامضة للقوة والكبرياء. يجب علينا عكس القطبين. يجب على المرأة الآن أن تخضع - ولكن بعمق، بعمق وثراء! لا تبعية. لا شيء من هذا. لا عبودية. بل إذعان حر عميق لا يسبر غوره.

- «لن تظفر بهذا أبدًا»

- «سوف تظفر به إذا تخليت عن فكرة الحب ودافع الحب، وإذا تنحيت جانبًا ولم تتنمر قط، ولم ترغمك الإرادة الواعية. وهنا أخطأ نيتشه. لقد كانت إرادته، في الواقع، إرادة واعية وخيّرة، إرادة الحب. لكن رغبة السلطة العميقة ليست واعية بأهدافها: ومن المؤكد أنها ليست خيرة عن وعي أو مدفوعة بالحب. ومهما حدث، في مكان ما، في وقت ما، فإن رغبة

السلطة العميقة في الرجل يجب أن تنطلق مرة أخرى، ولسوف تستسلم المرأة، بقوة الحياة، لا قوة الخضوع»

- «لن تفعل هذا أبدًا» أصر آرون «سيحدث أي شيء سوى هذا»

- «سوف تفعل، بمجرد أن ينفصل الرجل عن صيغة الحب ويتنحى عنها. بمجرد أن يتنحى ويبدأ الدافع الكبير الآخر بالتدفق فيه، فلن تتمكن المرأة من المقاومة، وسترغب روحها من ذاتها بالاستسلام»

- «المرأة تستسلم؟» ردد آرون الصدى.

- «المرأة - والرجل أيضًا. تستسلم لقوة الروح العميقة في الرجل الفرد، وتطيع ضمنيًا. لن أتراجع عما قلته من قبل. أنا أؤمن بأن كل رجل يجب أن يحقق روحه، وأن كل امرأة يجب أن تكون نفسها، نفسها فقط، وليست أداة لرجل ما، أو نظرية مجسدة. لكن نمط وجودنا يحكم بأننا لا نستطيع أن نعيش ونمتلك وجودنا إلا عندما نكون ضمنيًا في أحد الأنماط الديناميكية العظيمة. يجب علينا إما أن نحب أو نحكم. ومتى تغير نمط الحب، كما يجب أن يتغير، لأننا صرنا منهكين وأشرارًا بسبب استمراره، عندها سينهض فينا النمط الآخر. وستكون هناك طاعة عميقة، عميقة، بدلًا من عويل الحب هذا، طاعة لرغبة السلطة التي لا يحاط بها. يجب على الرجال أن يخضعوا للروح العظمى في الرجل لتقوم بإرشادهم، وأن تخضع النساء لقوة الروح الإيجابية في الرجل، من أجل كيانهن»

- «لن نظفر بهذا أبدًا»

- «سوف نفعل عندما يريده جميع الرجال. كل الرجال يقولون إنهم يريدون قائدًا. دعهم إذن يخضعون في نفوسهم إلى روح عظيمة منهم. في الوقت الحاضر، عندما يقولون إنهم يريدون قائدًا فإنهم يقصدون أنهم يريدون أداة، مثل لويد جورج[1]. مجرد أداة لاستخدامهم. لكن الأمر أكثر من ذلك. إنه العكس تمامًا؛ إنه الخضوع العميق الذي لا يسبر غوره للروح البطولية في الرجل الأعظم. أنت يا آرون، أنت أيضًا بحاجة إلى الخضوع.

---

(1) ديفيد لويد جورج (1863-1945) أحد زعماء حزب الأحرار البريطاني ورئيس الوزراء أثناء النصف الثاني من الحرب العالمية الأولى.

أنت أيضًا لديك حاجة حيوية للاستسلام لروح أكثر بطولية، ولأن تهب لها نفسك. أنت تعرف أن لديك مثل هذه الحاجة. وأنت تعلم أنها ليست الحب. إنها الاستسلام للحياة. وأنت تعرف ذلك. لكنك تناطح الصخر، وربما تفضل الموت على الاستسلام. وهكذا، يجب أن تموت. وهذا شأنك»

ساد صمت طويل، ثم نظر آرون إلى وجه ليلي. كان مظلمًا وشاردًا. كان مثل أيقونة بيزنطية.

- «ولمن أخضع؟» قال آرون. فأجابه الآخر:

- «سوف تنبئُك روحُك»

(النهاية)

الفهرس

د. هـ. لورانس

عصا هارون

جوهرة أخرى خفية من الأدب العظيم تحكي قصة العديد من الشخصيات التي تخضع لتجربة الضياع عاطفياً وفكرياً ووجودياً ولا سيما بطل الرواية آرون العامل النقابي الذي يعيش تجربة زواج تعيس، فيهجر زوجته وعمله ويغادر مجتمع التعدين الشمالي ليشرع في رحلة للعثور على نفسه بعيداً عن عالمه المنهار، نابذاً عالمه الفاقد للمعنى، متخلياً عن النظرة المتفائلة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. يشير لورنس إلى العناصر الصحية لمثل هذا الارتباك على الرغم من تراجيديا الاغتراب والخسارة بعد الكارثة حيث تجعله الأفكار الجديدة يرفض أسلوب الحياة والقيم التي كانت سائدة قبل الحرب، وبالتالي يجعل روايته وسيلة للنقاهة والشفاء، هذا العمل الأدبي الكلاسيكي الخالد هو صورة لحياة الناس في ذلك القرن ووثيقة مهمة عن المناظر الطبيعية، والأثاث، والشخصيات، والأفكار، والأيديولوجيات التي تركز على السعي وراء الفردية والتعبير والفن والعاطفة، والساخرة من الفكر البوهيمي الظاهري ورداءة الطبقة الوسطى، والباحثة عن بدائل عن المجتمع والمؤسسات. بل ومتوجة بأفكار أخرى مثل هاجس عبادة «الزعيم القوي» والتحول نحو رفض الليبرالية للبدائل الجماعية في ثلاثينيات القرن العشرين.



أعمال خالدة

9 789933 676933